المؤلفات الكاملة

الشيخ محمد تقي مصباح اليزدي



زاد اللقاء

شرح دعاء استقبال شهر رمضان

جمع وتدوين: **أسد الله طوسي**

ترجمة: **إبراهيم حسن**

دار المعارف الحكمية

زاد اللقاء

(شرح دعاء استقبال شهر رمضان)



زاد اللقاء

(شرح دعاء استقبال شهر رمضان)

آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي

جمع وتدوين

الشيخ أسد الله طوسي

ترجمة

الشيخ إبراهيم حسن

الطبعة الأولى

ISBN 978-614-440-233-7

[٢٠٢١م - ١٤٤٢هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - mail: almaarf@shurouk.org

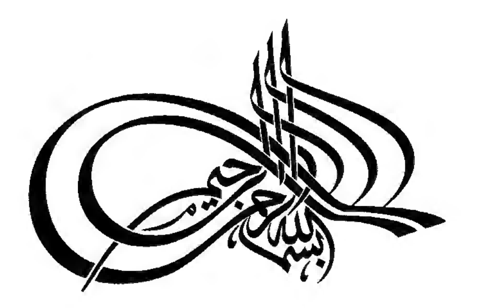
تصميم:

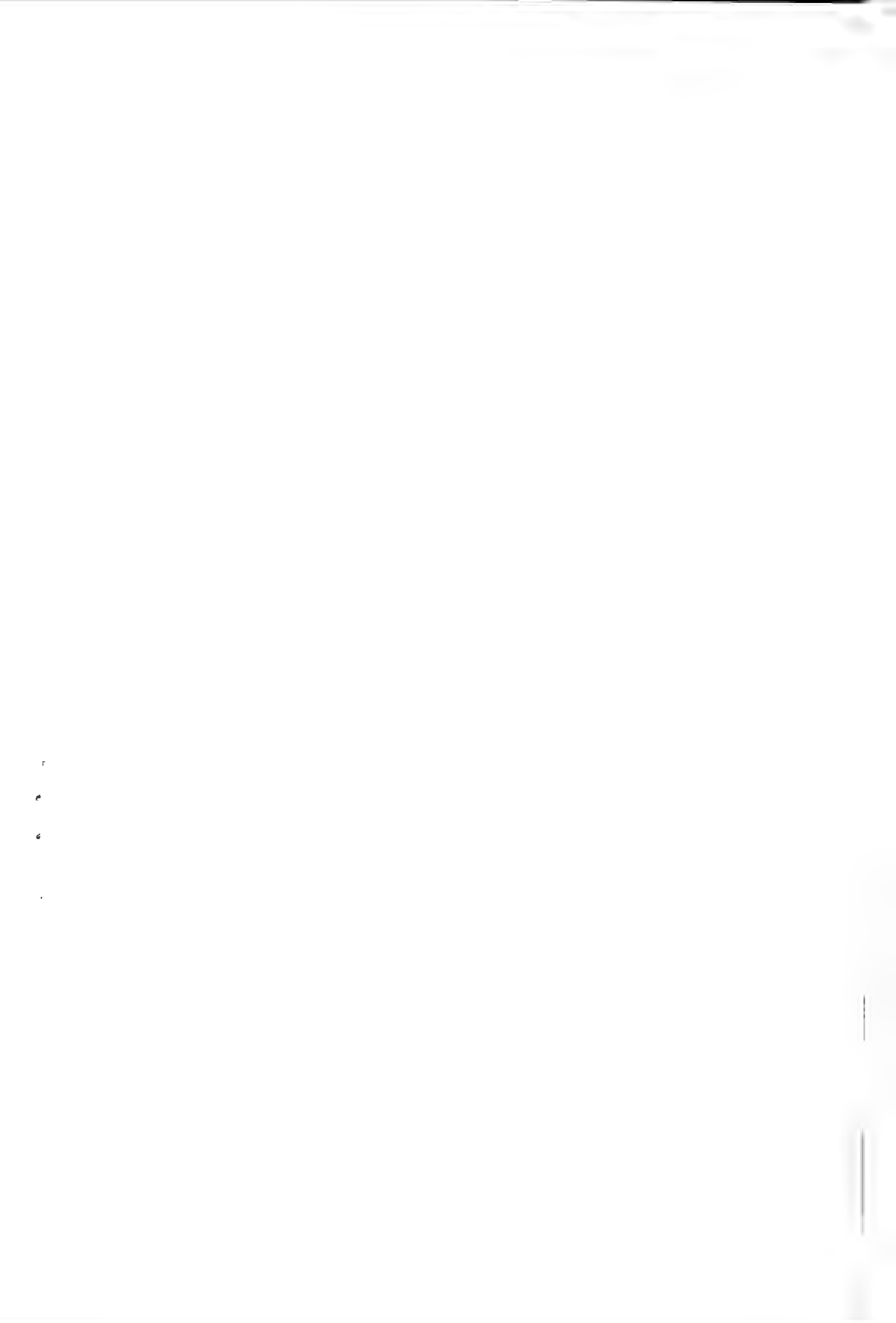
زينب ن. ترمس

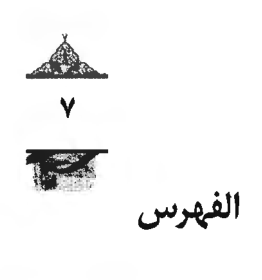
إخراج فنّي:

عبّاس عبد النَّبي درويش









الفهرس

مقدّمة المترجم ١٣

مقدّمة معاونيّة البحوث في مؤسّسة الإمام الخميني (قده) ١٧

نصّ الدعاء الرابع والأربعين من الصحيفة السجّاديّة ٢١

المقدّمة ٢٧

أنواع الدعاء ٣٠

الجلسة الأولى: التوفيق لحمد الله والكون من أهله ٣٣

الفرق بين الحمد والشكر ٣٦

حقيقة الحمد والشكر ٣٨

عناية الله بالشاكرين ٤١

قدرة العقل على معرفة الله ٤٣

الجعل والهداية التكوينية والتشريعية ٤٦

الجلسة الثانية: هدف الهداية الإلهيّة ٥١

ما هو الهدف من الهداية الإلهية؟ ٥٣
حقيقة العبادة الإلهية ٥٦
خطأ الإنسان التاريخي ٥٩

الجلسة الثالثة: الهداية العامّة والهدايّة الخاصّة ٦٧
الفرق بين الدين والملّة ٧٢
الحسن الفعلي والحسن الفاعلي ٧٩

الجلسة الرابعة: شهر رمضان درب السعادة ٨٥
رمضان شهر الله ٨٨
رمضان شهر الإسلام ٩١
رمضان شهر الطهارة والخلوص ٩٣

الجلسة الخامسة: شهر رمضان شهر نزول القرآن ١٠١
أمّ الكتاب واللوح المحفوظ ١٠٧
حقيقة النزول على قلب رسول الله ١١٣

الجلسة السادسة: أهمّيّة مقام القرآن ١١٧
ليس للقرآن مدّة لانتهاء الصلاحية ١٢٢

الجلسة السابعة: الإجابة عن شبهة ١٣١

الجلسة الثامنة: أهمّيّة ليلة القدر ١٤٣
ضرورة الحضور الدائم للإمام والحجّة الإلهية في العالم ١٥٢



الجلسة التاسعة: فلسفة تشريع الصيام ومراتبه ١٦٣
مراتب الصوم ١٧٨

الجلسة العاشرة: نيّة العمل ومراتبها ١٨٣
الرياء والسمعة ١٨٦
فلسفة التكاليف الإلهية ١٩٠

الجلسة الحادية عشرة: خصائص الصلاة المقبولة ١٩٧
محوريّة الصلاة في الإسلام ٢٠٠
آثار الخشوع القلبي في السلوك ٢٠٦
إدراك مقام المصلّين ٢٠٩

الجلسة الثانية عشرة: اهتمام الإسلام بالإنفاق والمسائل الماليّة ٢١٣
الدعوة إلى جميع مراتب الكمال ٢٢٠

الجلسة الثالثة عشرة: القرآن كتاب هداية وليس رسالة عمليّة ٢٣١
لزوم امتلاك التخصّص في الرجوع إلى الروايات ٢٣٦
ضرورة الاهتمام الفائق بالوالدين والأقارب ٢٣٩

الجلسة الرابعة عشرة: الاهتمام بالجيران ٢٤٧
مشاركة الفقراء في أموال الأغنياء ٢٥٢
الطريقة الفُضلى لرفع الاحتياجات من المجتمع ٢٥٨

الجلسة الخامسة عشرة: أخلاق المعاشرة الاجتماعيّة في الإسلام ٢٧١





المعاملة العادلة والمسالمة مع الأعداء والظالمين ٢٨٧
التعامل العدائي مع أعداء الله ٢٩٢

الجلسة السادسة عشرة: ضرورة الاهتمام بجميع الفرص ٢٩٥
تأثير الأعمال وتأثّرها ٢٩٨
مقامٌ خاصٌ للنبيّ الأكرم ﷺ وأهل البيت عليهم السلام ٣٠٧
ماذا نطلب من الله تعالى؟ ٣١٢

الجلسة السابعة عشرة: حقيقة العبوديّة لله ٣١٥
العلاقة المتبادلة بين العبد والله ٣٢١
فلسفة تأوّهات المعصومين عليهم السلام وبكائهم ٣٢٩

الجلسة الثامنة عشرة: الشعور بالفقر المحض أمام الله ٣٣٣
التوحيد والإلحاد في التوحيد ٣٣٨

الجلسة التاسعة عشرة: موانع القرب من الله ٣٥١
مصاديق الإلحاد في التوحيد ٣٥٥
أهمّية المراقبة الدائمة ٣٦٥

الجلسة العشرون: لوازم استجابة الدعاء ٣٧١
عوامل الانحراف عن التوحيد ٣٧٧
العوامل المؤثّرة في شخصيّة الأفراد المقلّدين ٣٨٩
استعمال طريقة المغالطة ٣٩٣



الجلسة الحادية والعشرون: طريق النجاة من خدع الشيطان ٣٩٩

الوسوسة أكثر أفعال الشيطان تأثيرًا ٤١٠

الجلسة الثانية والعشرون: بركة ليالي شهر رمضان المبارك ٤٢١

عتق وفكّ الرقبة ٤٢٤

ورود المؤمنين إلى جهنّم ٤٢٦

هل يقعُ الأولياء الإلهيّون أيضًا في العصيان؟ ٤٣٢

أفضل طريقةٍ للمناجاة ٤٣٨

الجلسة الثالثة والعشرون: المُحسِّنات الأدبيّة في الدعاء ٤٤٥

تأثير الإيمان في الدعاء ٤٤٩

الجلسة الرابعة والعشرون: الالتفات إلى احتياجنا إلى الله في جميع الأحوال ٤٥٩

التسليم في مقابل الحق طريق النجاة الوحيد ٤٧٣

الجلسة الخامسة والعشرون: الطاعة والعبادة ٤٨١

الأهمّيّة الفائقة لعبادات الليل ٤٨٨

إظهار الذلّة بين يدي الله ٤٩٣

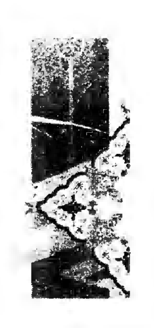
الجلسة السادسة والعشرون: موقع الصالحين الحالي والمستقبلي في القرآن... ٤٩٩

الجلسة السابعة والعشرون: أهمّيّة الصلاة على النبيّ وأهل البيت (ع) وحقيقتها.. ٥١٣

المصادر والمراجع ٥٢٩



مقدّمة المترجم



نِعَم الله تعالى وتوفيقاته أكثر من تُحصى فضلًا عن أن تُشكَر، ومن عظيم تلك النعم والتوفيقات أن جعل الله بين ظهرانينا علماء أجلّاء نهلوا من المعين الصافي لمدرسة أهل البيت عليهم السلام وكدّوا واجتهدوا ليرووا ظمأ المتعطّشين بزلال معارفهم وجميل بيانهم، وينيروا للسالكين طريق الهداية بمصابيح علمهم، فيتزوّد المريدون من ذلك ما يحتاجونه للقاء بارئهم...

وقد كان من بين هؤلاء العظماء شخصيّة أفجعنا نبأ رحيلها قبل أشهر؛ وهو سماحة آية الله العلامة الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي رحمه الله، الذي ارتحل عنا تاركًا المقدار الوافر من عطائه الزاخر؛ من مؤلّفاتٍ تنوّعت وتعدّدت، وإنجازات أثمرت وكثرت، وأجيالٍ من الباحثين والأساتذة والمدرّسين ما زالوا يحملون لواء الحقّ يذودون به عن الدين الأصيل ويردّون كيد المضلّلين والحاقدين...

نعم؛ لقد ترك لنا سماحة الشيخ المصباح رحمه الله ذلك التراث الكبير الذي يجعلنا نرى فيه ـ بحقّ ـ تجلّي الحديث العلويّ الشريف: «هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْـوالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ:

أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، أَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ»[١]، فرحم الله شيخنا الجليل بأوسع رحماته، وأعلى مقامه ورفع درجاته، وحشره مع أئمّته وساداته عليهم السلام.

ثمّ كان من عظيم النعم الإلهيّة عليّ أن وُفّقت لترجمة هذا الكتاب الحاضر بين يدي القارئ العزيز، فشعرت بأنّ الله تعالى قد أمدّني بعظيم اللطف وكرم العطف، ولمست في مضامينه كبير الفائدة، كيف لا؟ وهو شرحٌ من العلّامة الفاضل رحمه الله لكلام مولانا الإمام زين العابدين عليه السلام، وحول ماذا؟ حول أفضل أيّام السنة ولياليها، يبيّن فيه دُرَر عبارات الإمام السجّاد عليه السلام ولآليها، فلم أجد بدًّا من أن أنصح جميع الإخوة والأخوات بأن لا يفوّتوا على أنفسهم ما في هذا الكتاب من إفاضات، وليتأمّلوا في عباراته ليقتبسوا في طريقهم إلى العلياء من مصباح الهداية، وليعملوا بمضامينه ليتزوّدوا للّقاء بما فيه الكفاية، إن شاء الله.

كما أتوجّه بالشكر الجزيل إلى إدارة دار المعارف الحكمية على ثقتهم بي من خلال هذا التكليف والتشريف، وجزاهم الله خير الجزاء على جهودهم الكبيرة في هذا المجال، ومن بينها ما حملوه على عاتقهم من نشر تراث شيخنا الراحل رحمه الله، ولنِعم ما قرّروا ولنِعم من اختاروا، فتراث شيخنا الراحل رحمه الله حريٌّ بأن يُنشَر لتصل رسالته إلى جميع المؤمنين.

وفي الختام ألتمس من القرّاء الكرام الدعاء بالتوفيق والسداد، وأن يجودوا عليّ بملاحظاتهم وإشاراتهم الكريمة (بما يتعلّق بالترجمة)،

---

(١) **نهج البلاغة**، باب الحكم، الحكمة ١٤٤ (ومن كلام له عليه السلام لكميل بن زياد النخعي).





فعلى الرغم من أنّي حاولت بذل الجهد لكي أجمع بين الدقّة في الترجمة وسلاسة التعبير، ولكن تبقى أعمال العباد مشوبةً بالخلل والقصور، فنرجو المسامحة منكم على كلّ حال...

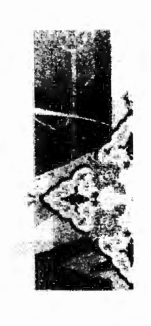
إبراهيم حسن حسن

قمّ المقدّسة، يوم الجمعة ١٩ـ شعبان ـ ١٤٤٢هـ





مقدّمة معاونيّة البحوث في مؤسّسة الإمام الخميني (قده)



الحقيقة حاجةٌ بشريّة، وهي سرّ الوجود الأكثر أصالةً وخلودًا وجمالًا، ولطالما بذل المؤمنون والعلماء الصادقون في سبيلها الأرواح والمهج، كما لم يألُ الجاهلون وأهل الباطل جهدًا دون حياكة المكائد والمؤامرات لأجل إلغائها وتشويهها.

وعلى الرغم من أنّ الحقيقة تواجه واقعًا مريرًا ومظلوميّةً متواصلة، ولكنّ الحقّ، في معركته الدائمة مع الباطل؛ سيبقى - في نهاية المطاف - شامخًا ورفيعًا، فيما يبقى الباطل زهوقًا ومنكوسًا. وعلاوةً على ذلك، فما أجمل الإكليل الذي نراه على رأس هذه الحقيقة؛ ذاك الإكليل الذي حاكته جهودٌ مخلصة ومتواصلة بذلها أهل الحقيقة الذين طلّقوا الدنيا وما فيها، وشمّروا عن سواعدهم في ميداني النظر والعمل، ليكون الدور الأبرز والأكبر في ذلك لأديان الله وأنبيائه، وبخاصّة الإسلام والنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الكرام من بعده عليهم السلام.

ثمّ جاء دور علماء الشيعة الأجلّاء، فرأوا أنّ رسالتهم الأهمّ والأولى تكمن في الاستفادة من العقل والنقل، والغوص في بحر معارف القرآن

والاغتراف من معدن الحقيقة الأصيل في سيرة الأئمّة الأطهار عليهم السلام، ومن ثمّ تقديم ذلك إلى البشريّة مع التصدّي بأرواحهم لهجمات الطغاة الظالمين من أعداء الحقيقة، حيث لم يألوا في هذه الطريق جهدًا للبحث والتحقيق.

وإذ نعيش اليوم في عصر أزمة المعنويّة، نجد أنّ أعداء الحقيقة والبشريّة يعملون في كلّ حين على السيطرة على العالم، من خلال إنتاج ونشر الكمّ الهائل من المؤلّفات والمرئيّات، وبالاستفادة من مختلف الأدوات المتطوّرة في الشكل والمضمون في مختلف المجالات؛ وهنا تكون رسالة مريدي الحقيقة والمفكّرين الحوزويّين والجامعيّين، وبخاصّة علماء الدين؛ قد أصبحت أعظم وأشقّ وأصعب.

على مستوى عالم التشيّع، نجد أنّ للباحثين الحوزويّين سجلًّا حافلًا ومضيئًا في العلوم الفلسفيّة والكلاميّة، التفسيريّة والحديثيّة، الفقهيّة والأصوليّة وغيرها؛ وقد أضاؤوا بتأمّلاتهم وأفكارهم وأبحاثهم الإسلاميّة ظلمة الأزمان. وكذلك في مجال العلوم الطبيعيّة والتجريبيّة والتقنيّات الحديثة بذل باحثونا جهودًا ملفتة، وخطوا خطواتٍ واعدة، ليقتربوا من الموقع الذي يليق بهم على صعيد العالم، وما زالوا يتقدّمون بنشاطاتهم المتزايدة يومًا بعد يوم حتى يصلوا إلى تلك المكانة المناسبة على المستوى العلمي العالمي.

هذا، ولكنّ جهود علمائنا المحلّيّين في مجال أبحاث العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة لم ترقَ بعدُ إلى المستوى الذي يليق بالنظام الإسلامي، إذ اكتفوا أحيانًا بالترجمة والاقتباس من نظريّات الآخرين. في هذا المجال، قلّما نجد خطوة مكلّلةً بالابتكارات؛ وبخاصّة الإبداعات



الناشئة من الأسس الإسلاميّة، وما يزال أمامنا دربٌ طويلٌ ومليءٌ بالتحدّيات حتى الوصول إلى المستوى المطلوب. من هنا، فإنّ البحث عن الرؤية الإسلاميّة في مسائل العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، مع تبيينها؛ يُعدّ من أهمّ الأهداف والأولويّات عند المؤسّسات العلميّة، وبخاصّة المراكز البحثيّة في الحوزات العلميّة، فضلًا عن دورها في استنباط الأحكام الدينيّة واستخراجها وتفسيرها وتبيينها، وفي تنظيم المعارف الإسلاميّة.

وفي ظلّ تأييدات المرشد الأعلى للثورة الإسلاميّة قدس سره والدعم المتواصل من خلفه الصالح آية الله العظمى الخامنئي دام ظله، اهتمّت مؤسّسة الإمام الخميني قدس سره التعليميّة والبحثيّة من أوّل تأسيسها بالأبحاث العلميّة والدينيّة، وذلك طبقًا للسياسات والأهداف المحدّدة من قبل آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزديّ رحمه الله، حيث تصدّت للأبحاث التأسيسيّة والتوجيهيّة والعمليّة في سبيل تأمين حاجات المجتمع الفكريّة والدينيّة. وفي إطار السعي إلى تحقيق هذا الأمر الهامّ، فإنّ معاونيّة البحوث في المؤسّسة، ومضافًا إلى إعدادها البرامج والتوجيهات اللازمة للطلّاب والباحثين؛ قد بذلت الجهود أيضًا في مجال نشر مؤلّفات الباحثين، حيث قدّمت إلى المجتمع الإسلامي حتى الآن مؤلّفاتٍ قيّمة ـ بحمد الله تعالى ـ ضمن حدود استطاعتها.

يشكّل الكتاب الحاضر قسمًا من المحاضرات الأخلاقيّة لأستاذنا القدير آية الله الشيخ محمّد تقي مصباح اليزدي، والتي قدّمها خلال شهر رمضان المبارك من العام ١٤٢٩ هـ الموافق لشهر أيلول (سبتمبر) من العام ٢٠٠٨م. وقد تولّى الباحث القدير حجّة الإسلام والمسلمين أسد الله الطوسي تدوينها وتحريرها. ويهدف الكتاب بشكلٍ أساس إلى



تقديم شرحٍ مناسبٍ للدعاء الرابع والأربعين من الصحيفة السجّاديّة المنسوبة إلى الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام، يرتوي به المتعطشون لمعارف أهل البيت عليهم السلام الأصيلة، راجين في معاونيّة البحوث أن يرفع الله المنّان درجات أستاذنا القدير، وأن يمدّ الباحث المحترم بدوام التوفيق.

معاونيّة البحوث

مؤسّسة الإمام الخميني قدس سره التعليميّة والبحثيّة

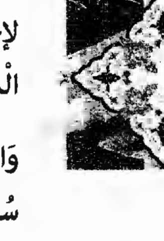


نصّ الدعاء الرابع والأربعين

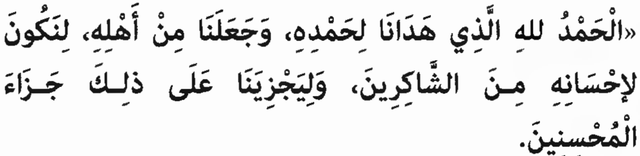
من الصحيفة السجّاديّة







كان من دعائه عليه السلام إذا دخل شهر رمضان:



«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِحَمْدِهِ، وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ، لِنَكُونَ لإِحْسَانِهِ مِـنَ الشَّاكِرِينَ، وَلِيَجْزِيَنَا عَلَى ذلِـكَ جَـزَاءَ الْمُحْسِنِينَ.

وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ، وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إحْسَانِهِ، لِنَسْلُكَهَا بِمَنِّهِ إلَى رِضْوَانِهِ، حَمْدًا يَتَقَبَّلُهُ مِنَّا، وَيَرْضَى بِهِ عَنَّا.

وَالْحَمْدُ لِلّه الَّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ شَهْرَ رَمَضَانَ، شَهْرَ الصِّيَامِ، وَشَهْرَ الإِسْلاَمِ، وَشَهْرَ الطَّهُورِ، وَشَهْرَ التَّمْحِيْصِ، وَشَهْرَ الْقِيَامِ، الَّذِي أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ، فَأَبَانَ فَضِيْلَتَهُ عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنَ الْحُرُمَاتِ الْمَوْفُورَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمَشْهُورَةِ، فَحَرَّمَ فِيْهِ ما أَحَلَّ فِي غَيْرِهِ إعْظَامًا، وَحَجَرَ فِيْهِ الْمَطَاعِمَ وَالْمَشَارِبَ إكْرَامًا، وَجَعَلَ لَهُ وَقْتًا بَيِّنًا لاَ يُجِيزُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يُقَدَّمَ قَبْلَهُ، وَلا يَقْبَـلُ أَنْ يُؤَخَّرَ عَنْهُ.

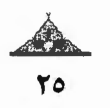
ثُمَّ فَضَّلَ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنْ لَيَالِيهِ عَلَى لَيَالِي أَلْفِ شَهْر، وَسَمَّاهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ، تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْر، سَلاَمٌ



دَائِمُ الْبَرَكَةِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا أَحْكَمَ مِنْ قَضَائِهِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ فَضْلِهِ وَإِجْلاَلَ حُرْمَتِهِ وَالتَّحَفُّظَ مِمَّا حَظَرْتَ فِيهِ، وَأَعِنَّا عَلَى صِيَامِهِ بِكَفِّ الْجَوَارِحِ عَنْ مَعَاصِيْكَ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ بِمَا يُرْضِيْكَ، حَتَّى لاَ نُصْغِي بِأَسْمَاعِنَا إِلَى لَغْوٍ، وَلا نُسْرِعُ بِأَبْصَارِنَا إِلَى لَهْوٍ، وَحَتَّى لاَ نَبْسُطَ أَيْدِيَنَا إِلَى مَحْظُورٍ، وَلاَ نَخْطُوَ بِأَقْدَامِنَا إِلَى مَحْجُورٍ، وَحَتَّى لاَ تَعِيَ بُطُونُنَا إِلَّا مَا أَحْلَلْتَ، وَلا تَنْطِقَ أَلْسِنَتُنَا إِلَّا بِمَا مَثَّلْتَ، وَلا نَتَكَلَّفَ إِلَّا ما يُدْنِي مِنْ ثَوَابِكَ، وَلاَ نَتَعَاطَى إِلَّا الَّذِي يَقِيْ مِنْ عِقَابِكَ، ثُمَّ خَلِّصْ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ رِئاءِ الْمُرَائِينَ وَسُمْعَةِ الْمُسْمِعِينَ، لاَ نُشْرِكُ فِيهِ أَحَدًا دُونَكَ، وَلا نَبْتَغِيْ فِيهِ مُرَادًا سِوَاكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَقِفْنَا فِيْهِ عَلَى مَوَاقِيْتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ بِحُدُودِهَا الَّتِي حَدَّدْتَ، وَفُرُوضِهَا الَّتِي فَرَضْتَ وَوَظَائِفِهَا الَّتِي وَظَّفْتَ وَأَوْقَاتِهَا الَّتِي وَقَّتَّ، وَأَنْزِلْنَا فِيهَا مَنْزِلَةَ الْمُصِيْبِينَ لِمَنَازِلِهَا الْحَافِظِينَ لِأَرْكَانِهَا الْمُؤَدِّينَ لَهَا فِي أَوْقَاتِهَا عَلَى مَا سَنَّهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيْعِ فَوَاضِلِهَا، عَلَى أَتَمِّ الطَّهُورِ وَأَسْبَغِهِ، وَأَبْيَنِ الْخُشُوعِ وَأَبْلَغِهِ، وَوَفِّقْنَا فِيهِ لِأَنْ نَصِلَ أَرْحَامَنَا بِالبِرِّ وَالصِّلَةِ، وَأَنْ نَتَعَاهَدَ جِيرَانَنَا بِالإِفْضَالِ وَالْعَطِيَّةِ، وَأَنْ نُخَلِّصَ أَمْوَالَنَا مِنَ التَّبِعَاتِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا بِإِخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ، وَأَنْ نُرَاجِعَ مَنْ هَاجَرَنَا، وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنَا، وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا، حَاشَا مَنْ عُودِيَ فِيْكَ وَلَكَ، فَإِنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذِي لاَ نُوالِيهِ، وَالحِزْبُ الَّذِي لاَ نُصَافِيهِ.



وَأَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيْكَ فِيْهِ مِنَ الأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ بِمَا تُطَهِّرُنا بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَتَعْصِمُنَا فِيهِ مِمَّا نَسْتَأْنِفُ مِنَ الْعُيُوبِ، حَتَّى لا يُورِدَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ مَلائِكَتِكَ إِلَّا دُونَ مَا نُورِدُ مِنْ أَبْوابِ الطَّاعَةِ لَكَ، وَأَنْوَاعِ الْقُرْبَةِ إِلَيْكَ.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذَا الشَّهْرِ، وَبِحَقِّ مَنْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ مِنِ ابْتِدَائِهِ إِلَى وَقْتِ فَنَائِهِ، مِنْ مَلَكٍ قَرَّبْتَهُ أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلْتَهُ أَوْ عَبْد صَالِح اخْتَصَصْتَهُ، أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَأَهِّلْنَا فِيهِ لِمَا وَعَدْتَ أَوْلِياءَكَ مِنْ كَرَامَتِكَ، وَأَوْجِبْ لَنَا فِيهِ مَا أَوْجَبْتَ لِأَهْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي طَاعَتِكَ، وَاجْعَلْنَا فِي نَظْمِ مَنِ اسْتَحَقَّ الرَّفِيْعَ الأَعْلَى بِرَحْمَتِكَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَجَنِّبْنَا الإِلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ وَالشَّكَّ فِي دِينِكَ وَالْعَمَى عَنْ سَبِيْلِكَ وَالإِغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ وَالانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَإِذَا كَانَ لَكَ فِيْ كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِيْ شَهْرِنَا هَذَا رِقَابٌ يُعْتِقُهَا عَفْوُكَ أَوْ يَهَبُهَا صَفْحُكَ، فَاجْعَلْ رِقَابَنَا مِنْ تِلْكَ الرِّقَابِ وَاجْعَلْنَا لِشَهْرِنَا مِنْ خَيْرِ أَهْل وَأَصْحَاب.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَامْحَقْ ذُنُوبَنَا مَعَ امِّحاقِ هِلالِهِ، وَاسْلَخْ عَنَّا تَبِعَاتِنَا مَعَ انْسِلاخِ أَيَّامِهِ، حَتَّى يَنْقَضِي عَنَّا وَقَدْ صَفَّيْتَنَا فِيهِ مِنَ الْخَطِيئاتِ، وَأَخْلَصْتَنَا فِيهِ مِنَ السَّيِّئاتِ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَإِنْ مِلْنَا فِيهِ فَعَدِّلْنا، وَإِنْ زِغْنَا فِيهِ فَقَوِّمْنَا، وَإِنِ اشْتَمَلَ عَلَيْنَا عَدُوُّكَ الشَّيْطَانُ فَاسْتَنْقِذْنَا مِنْهُ.

اللَهُمَّ اشْحَنْهُ بِعِبَادَتِنَا إِيَّاكَ، وَزَيِّنْ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَتِنَا لَكَ، وَأَعِنَّا فِي نَهَارِهِ عَلَى صِيَامِهِ، وَفِي لَيْلِهِ عَلَى الصَّلاةِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْكَ وَالخُشُوعِ لَكَ وَالذِّلَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ، حَتَّى لا يَشْهَدَ نَهَارُهُ عَلَيْنَا بِغَفْلَة، وَلا لَيْلُهُ بِتَفْرِيط.

اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنَا فِي سَائِرِ الشُّهُورِ وَالأَيَّامِ كَذَلِكَ مَا عَمَّرْتَنَا، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ، وَمِنَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ.

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، فِي كُلِّ وَقْت وَكُلِّ أَوَان وَعَلَى كُلِّ حَال، عَدَدَ مَا صَلَّيْتَ عَلَى مَنْ صَلَّيْتَ عَلَيْهِ، وَأَضْعَافَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِالأَضْعافِ الَّتِي لا يُحْصِيهَا غَيْرُكَ، إِنَّكَ فَعَّالٌ لِمَا تُرِيدُ».



المقدّمة





نشكر الله تعالى الذي وفّقنا بعناياته الخاصّة حتى نتناول بعض الأدعية والمناجيات المأثورة عن النبيّ الأكرمﷺ والأئمّة المعصومينعليهم السلام. ومن بين أهمّ المصادر الروائية في هذا المجال الكتاب القيّم ومنقطع النظير: **الصحيفة السجّادية** المنسوبة إلى الإمـام عليّ بن الحسين زين العابدينعليه السلام.

ومن بين الأدعية والمناجيات المنقولة عن هذا الإمام المبارك والواردة في هذا الكتاب الشريف: الدعاء الرابع والأربعون من هذه الصحيفة النورانية، حيث أنشأعليه السلام هذا الدعاء الشريف بمناسبة الدخول إلى شهر رمضان المبارك. هذا الدعاء الشريف، مثل سائر أدعيته ومناجياتهعليه السلام، يحتوي على مطالب فائقة الجمال وعالية ورفيعة في مجال الالتجاء والتضرّع على أعتاب الحضرة الإلهية جلّت وعلت. وأمّا هدفنا من قراءة هذا الدعاء الشريف وبيان توضيحاتٍ مختصرةٍ حوله، فهو أن نقوم، بقدر استطاعتنا، باغتراف جرعةٍ من ذلك النبع الفيّاض نروي بها أرواحنا وقلوبنا إن شاء الله تعالى.



أنواع الدعاء

الأدعـيـة الــواردة فـي الـقـرآن الكريم أو المنقولة عـن الأئمّة المعصومين عليهم السلام؛ تارةً تكون عامّة، وتارةً أخرى تكون في بعض الموارد مختصّةً بأيامٍ ومناسبات خاصّة.

الأدعية العامّة

كثيرٌ من الأدعية المأثورة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام لا تحتوي على خصوصيّة مرتبطةٍ بزمانٍ أو مناسبةٍ ما، بل تأتي مضامين هذه الأدعية بنحوٍ يتناسب مع جميع الأيام والمناسبات. هذه الأدعية غالبًا ما تتضمّن ميزتَين عامّتَين أيضًا تبرزان وتظهران بوضوح في أدعية كتاب **الصحيفة السجّادية** الشريف. وهاتان الميزتان هما:

أ- **الحمد والشكر الإلهي:** تشرع هذه الأدعية عـادةً بالشكر والتقدير الإلهي؛ تارةً بلفظ «الحمد» و«الشكر»، وتارةً أخرى بألفاظ أخرى تفيد هذا المعنى. وبحسب اصطلاح علم المنطق، فهذا الشكر الإلهي إما مع «الحمد» بالحمل الأوّلي وإمّا معه بالحمل الشائع.

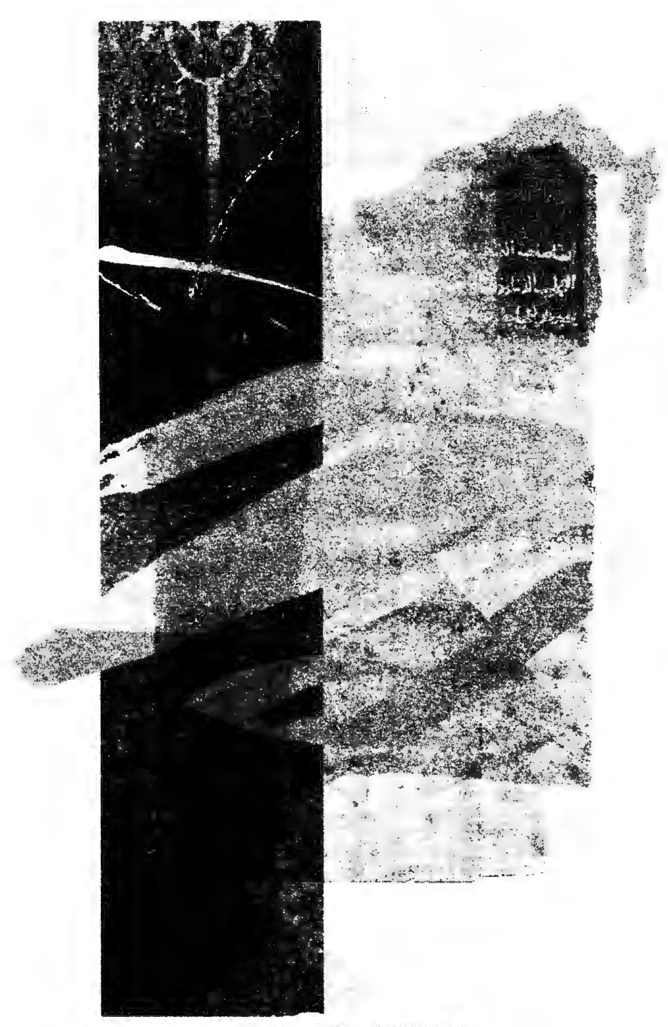
ب- **الصلوات على محمد وآل محمد** صلى الله عليه وآله وسلم: الميزة الأخرى هي أنّه في بداية الأدعية أو في طيّاتها، يبدأ كلّ مقطعٍ بـ«الصلوات على محمّد وآل محمّد». إن تأثير هذا الذكر الإلهي كبيرٌ إلى درجة أنّه يبثّ في شخص الداعي طاقةً واستعدادًا جديدًا.



الأدعية الخاصة

أمّا الأدعية من هذا القسم، فمضافًا إلى احتوائها على الميزتَين المذكورتَين، فهي ترتبط بأوقاتٍ ومناسباتٍ خاصّة؛ أوقات مثل عيد الفطر، عيد الأضحى، أوّل الشهر، نصف رجب، نصف شعبان... والأدعية التي تختصّ بمناسبات خاصّة، غالبًا ما تحتوي على مضامين ترتبط بتلك المناسبات. في هذه الأدعية نطلب من الله تعالى التوفيق لأداء الواجبات الخاصّة بتلك المناسبات، أو يكون طلبنا من الله تعالى أن يمنحنا بركاتٍ في تلك المناسبات تشمل حال العباد الخواصّ. وعلى أيّ حال، فمضامين هذه الأدعية ترتبط بتلك المناسبات الخاصّة بنحوٍ أو بآخر.

ثمّ إنّ مجموعةً من تلك الأدعية الخاصة قد وردت في شهر رمضان المبارك والفضيل، وهي أدعية كثيرة؛ مثل أدعية أيام شهر رمضان، دعاء السحر، أدعية ليالي القدر، دعاء وداع شهر رمضان وغير ذلك. ومن جملة تلك الأدعية الدعاء المنقول عن إمامنا المعصوم زين العابدين عليه السلام بمناسبة الدخول إلى شهر رمضان المبارك؛ وهذا الدعاء الشريف هو الدعاء الرابع والأربعون من كتاب **الصحيفة السجادية** الثمين.



الجلسة الأولى:

التوفيق لحمد الله والكون من أهله



«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِحَمْدِهِ، وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ، لِنَكُونَ لإحْسَانِهِ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلِيَجْزِيَنَا عَلَى ذلِكَ جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ»

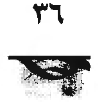
يبدأ الإمام زين العابدين عليه السلام دعاء الدخول إلى شهر رمضان المبارك بالحمد والتقدير الإلهي، ولكن بشكلٍ فائق الجمال وبترتيب منطقي وجاذب، ثمّ يطلب من الله تعالى مجموعةً من الطلبات ضمن فقراتٍ تبدأ كل واحدةٍ منها بالصلوات على محمد وآل محمد.

يطرح الإمام عليه السلام أمام محضر الحق تعالى العبارات التالية: **«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِحَمْدِهِ، وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ، لِنَكُونَ لإحْسَانِهِ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلِيَجْزِيَنَا عَلَى ذلِكَ جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ».**

في هذه الفقرة من الدعاء، احتمل بعضهم أن يكون مرجع الضمير في «مِنْ أَهْلِهِ» هو "الله" تعالى؛ أي "جعلنا من أهل الله". هذا الاحتمال وإنْ كان يتضمّن معنىً لطيفًا، لكنه ليس بذلك الاحتمال القويّ.

الفرق بين الحمد والشكر





يذكر الإمام زين العابدينعليه السلام في القسم الأوّل من هذا الدعاء أنّ الله تعالى قد هدانا إلى الحمد وجعلنا من أهل الحمد حتى نكون من الشاكرين. والسؤال هنا عن الحمد والشكر؛ ما هو الفرق بينهما، وما هو وجه الارتباط بينهما؟

والجواب هو أنّ بين «الحمد» و«الشكر» ارتباطًا وتقاربًا كبيرَين، ولكنّهما مع ذلك مختلفان. «الحمد»[١] ينبع من نوعٍ من الإحساس بالتعظيم والخضوع تجاه فردٍ نرى أنّه رمزٌ لمجموعةٍ من الفضائل، فنتوجّه إلى تلك الفضائل ونكون بصدد تقديرها. من الطبيعيّ أن الإنسان حين يقف في مقابل الكمال والجمال والحُسن المميّز، فإنّه يجد في نفسه حالةً انفعاليةً وعاطفيةً وشعوريةً تجاهه بنحوٍ تجعله يريد الخضوع أمامه.

أمّا «الشكر» فهو بمعنى الامتنان، وهو يتحقّق في مقابل نعمةٍ أو خدمةٍ ينالها الإنسان. وبناءً عليه، فالشكر والامتنان هما نوعٌ من ردّة فعل عند الإنسان أو تعويضٌ منه في مقابل خدمةٍ أو نعمةٍ أو عطاءٍ أو إحسانٍ تم توجيهه إليه[٢].

---

(١) الذي يُترجم في الفارسية إلى «ستايش».

(٢) «والحمد هو الثناء بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل للممدوح، سواء النعمة وغيرها، والشكر فعل ينبئ عن تعظيم المنعم لكونه منعمًا، سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان... فالحمد أعمّ من جهة المتعلّق وأخصّ من جهة المورد، والشكر بالعكس» (فخر الدين الطريحي، **مجمع البحرين**، كلمة «حمد»).



وبناءً عليه، فللحمد والشكر مفهومان مختلفان ليس من السهل العثور على جامعٍ مشتركٍ بينهما، على أنّ بعضهم يعتقد بأنّ «الحمد هو الثناء على الجميل، سواء كان اختياريًا أو غير اختياري، والشكر هو الثناء على الجميل الاختياري». وعلى هذا الأساس، فـ«الثناء على الجميل» هو الجامع المشترك بين الحمد والشكر. ولكن على فرض قبول هذا الرأي، فإنّه يبقى للحمد مفهومٌ مختلفٌ عن الشكر. «الحمد والتقدير» اللذان ليسا أكثر من مجرّد حالةٍ شعورية، هما أمرٌ مختلف عن «الشكر والامتنان» اللذين هما نوعٌ من ردّة الفعل والأداء في مقابل الخدمة والنعمة[1].

على الرغم من الاختلاف المفهومي بين هاتَين الكلمتَين، فلا يظهر بينهما مثل هذا الاختلاف من جهة المورد والمصداق. للحمد والشكر في كثيرٍ من الموارد والمصاديق تطابقٌ في ما بينهما. أي عندما يقدّم شخصٌ ما خدمةً لشخصٍ آخر أو يمنّ عليه بنعمةٍ ما، فالإنسان يشعر أنّ عليه، قبل أن يكون شاكرًا له على خدمته وممتنًّا له بسببها، أن يقدّره ويقدّر خدمته؛ وذلك لأنّه راضٍ ومسرورٌ نتيجة العمل والخدمة التي أُنجزت لأجله.

---

(١) يعتبر بعضهم أنّ الحمد والشكر مترادفان، فيما ذهب بعضهم إلى أنّ للحمد، من الجهتَين، معنًى أوسع من الشكر، معتقدين بأنّ الشكر إنّما يتحقّق فقط في الحالات التي تكون مقابل النعمة والإحسان، في حين أنّ الحمد ليس له هذا القيد: «الشكر الحمد، بل هو أعمّ منه، فإنّ الشكر لا يكون إلّا في مقابل نعمة، أمّا الحمد فيكون في مقابل نعمةٍ أو غيرها، حيث يقال: شكرًا للصنيعة أو ابتداءً للثناء على المحمود. فكلّ شكر حمد وليس كلّ حمدٍ شكرًا» (أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص ١٣١). وقد أشار إلى ذلك بعض اللغويّين مثل ابن منظور، حيث يقول: «الْحَمْدُ يَكُونُ عَنْ يَدٍ وَعَنْ غَيْرِ يَدٍ، وَالشُّكْرُ لا يَكُونُ إلا عَنْ يَدٍ» (أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، كلمة الشكر).



المسألة الأخرى هي أنّ نفس التوجّه إلى النعمة والرضى الكامل عن العمل والخدمة التي أُنجزت، هو بنفسه تقديرٌ وثناء؛ وذلك لأنّ الشكر والثناء هو بمعنى التوجّه، والتذكّر، والتفكير بالنعمة، وإبرازها وإظهارها أيضًا، وكذلك بمعنى إدراك ومعرفة النعمة التي مُنحت للإنسان وبيان تلك النعمة ونشرها أيضًا[١]. وفي مقابل ذلك، فكلمة الكفر والكفران بمعنى نسيان النعمة وكذلك سترها[٢].

على أنّ أنواع التقديرات والامتنانات مختلفة وهي ذات مراتب؛ فأغلب الأفراد، مثلنا نحن الذين في مراتب المعرفة الأولى، نتوجّه في الأدعية وفي مقام الحمد والتقدير الإلهي إلى النعم المادية والدنيوية. والسبب هو أنّنا ندرك في البداية احتياجاتنا المادية ونشعر بالصَغار أمام كلّ من يرفع لنا احتياجاتنا المادية. ولهذا اللحاظ نتوجّه في البداية إلى نعم الله تعالى المادية ونتعرّف عليه من خلال هذا النوع من نعمه؛ تمامًا مثل المولود الذي يشعر بعد ولادته بالجوع والعطش في البداية، ثمّ يشعر شيئًا فشيئًا باحتياجاتٍ ترتبط هي الأخرى بالماديات وبأعضاء الجسد بشكلٍ أو بآخر. هذا الشعور بالاحتياجات الابتدائية يبقى حيًّا في الإنسان بعد سنوات، وحتى في السنوات الأعلى وفي سنيّ الشيخوخة أيضًا يبقى لديه هذا التوجّه

---

(١) «عرفان الإحسان ونشره» (أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، كلمة الشكر).

(٢) «في اللغة: تصوّر النعمة وإظهارها، ويضادّها الكفر؛ وهو نسيان النعمة وسترها. أصله من عينٍ شكرى أي ممتلئة. فالشكر على هذا هو الامتلاء من ذكر المنعم عليه» (أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص ٢٦٥).



إلى هذا النوع من الاحتياجات المادية. إنّ طلباتنا التي نطلبها من الله تعالى في قالب الدعاء هي غالبًا من هذا السنخ؛ طلبات من قبيل الرزق الواسع، والأمن، والماء والغذاء الوافر والمناسب وما شاكل. أو ما هو أعلى قليلًا من هذه الموارد؛ مثل المكانة الاجتماعية، أو العزّة والاحترام، أو الحيثية والجاه. هذه الموارد والأمثلة غير المعدودة من هذا السنخ إنّما هي مؤشرٌ على الاحتياجات التي تحضر عندنا وتشكّل أولويةً لنا.

وطبعًا، إحساس الاحتياج إلى النعم المعنوية الخالصة والروحانية المحضة، هو كذلك موجودٌ في الإنسان بحسب الفطرة، غير أنّ أكثر الناس لا يرون هذا الإحساس في الأولويّة بل يأتي توجّههم إليه وطلبهم إيّاه في مراتب أكثر تأخّرًا من الاحتياجات المادية. وأحيانًا يشتبه الأمر عند بعض النّاس إلى حدّ طرح السؤال التالي: هل يحتاج الإنسان أساسًا إلى هذا السنخ من النعم غير المادية حتى يتوجّه إليها ويطلبها ومن ثمّ يقدّرها ويؤدّي شكرها إذا ما شملته العناية الإلهية؟

ولهذا السبب، فإنّ كثيرًا من الناس لا يعتبرون أمورًا مثل الصلاة، أو صوم شهر رمضان المبارك أو ما شابه، نعمةً يشعرون بحاجتهم إليها؛ بل يعتبرونها نوعًا من الواجب والتكليف ويشعرون في أدائها بالتّكلّف والمشقّة، ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1].

إقامة الصلاة التي لا تستغرق أكثر من دقائق معدودة، ولا تتسبّب للإنسان بذلك التعب الذي يُذكَر؛ تصبح عند بعض الأشخاص مثل حملٍ

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤٥.





ثقيل على كاهلهم، وهذا بسبب أنّهم ابتعدوا عن المعنويّات، وأساسًا فإنّ أداء العبادات لا يستتبع لذّةً عندهم ولا يرون له أهمّية. ولهذا السبب فهم لا يشعرون بأنّ الصلاة نعمةٌ كبرى حتى يروا أنّ من اللازم أن يؤدّوا الشكر والحمد في مقابلها. نعم يبقى أن الإنسان إذا شمله لطف الله وعنايته فإنّه يجد في نفسه حالةً من الخشوع الذي يبعث فيه السرور واللّذة، ما يهيّئ الأرضية لتعلّق الإنسان بالعبادات، ومن جملتها الصلاة.

هذه المسألة تنطبق كذلك على سائر العبادات؛ من قبيل الصوم. فما لم تحيا لدى الإنسان الرغبة في العبادات، فلن يعتبر هذه العبادات والمناسك نعمةً يرى من اللازم أن يؤدّي الشكر والثناء في مقابلها، وليس هذا فحسب؛ بل سيشعر بأنّها حملٌ ثقيلٌ على كاهله يصعب عليه تحمّله. وإنّه لمن دواعي السرور أنّ رواج بعض العادات الاجتماعيّة الدينيّة قد أدّى إلى رواج عباداتٍ من قبيل الصلاة والصوم، الأمر الذي أدّى في النتيجة إلى تسهيل أداء تلك العبادات.

اللهمّ ثمة عددٌ من عباد الله الذين وصلوا إلى مراتب أعلى من المعرفة، حيث يتوجّه هؤلاء إلى الأمور المعنوية أكثر من المسائل المادية؛ على أنّ قلّة توجّه هذه الفئة إلى المسائل المادية لا يعني أنّهم يعتقدون بأن ليس لها أيّ قيمة؛ بل يرون أنّ الماديات نعمٌ قيّمة يعتبرون أنفسهم مدينين في مقابلها، وبالتالي يعتبرون أن شكرها لازمٌ وواجب عليهم، ولكن يبقى أنّ هذه الأمور عند مقارنتها بالنعم المعنوية إنّما تحظى عندهم بدرجة أهمية أقلّ منها.



ومـن جملة النعم المعنوية التي يشير إليها الإمـام زين العابدين عليه السلام في هذا الدعاء ويأتي على حمدها وشكرها: نعمة شهر رمضان المبارك وبَحر النعم التي جعلها الله لعباده في هذا الشهر. إن شهر رمضان المبارك هو أحد أثمن النعم على مدار العام، وفي هذا الشهر ليلة القدر التي هي أفضل من ألف ليلة، أي ما يعادل تقريبًا عمر إنسان بتمامه. هذه الفرصة الاستثنائية والفضيلة العظيمة، والتي جُعِلت لليلة واحدةٍ فقط، لها أهمية فائقة لا يمكن مقارنتها مع أيّ عبادةٍ أخرى. كما أنّ درك ذلك وفهمه يختصّ بعدّةٍ قليلةٍ من عباد الله، هي نفسها تلك العدّة القليلة التي، حسب ما ذكره الله تعالى في قرآنه الكريم، تتوفّق لشكره: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[1].

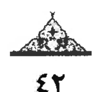
عناية الله بالشاكرين

كيف ينال العباد الشاكرون توفيق الحمد والثناء؟

لا شكّ في أنّ الحمد والثناء بذاتهما نعمةٌ عظيمة لا ينالها جميع الأشخاص. نحن جميعًا مغمورون بالنعم، ولكنّ التوجّه إلى تلك النعم وبيانها ونشرها ليس بالعمل الذي نوفّق إليه جميعنا. وبعبارةٍ أخرى: إنّ نعمة الشكر ليست بالنعمة التي ينالها الجميع، وإذا ما وفّق عبدٌ للشكر، فهذا بذاته علامةٌ على عناية أخرى من الله تعالى لذلك العبد، ولهذا السبب نجد أن العبد المطيع لله؛ أي الإمام السجّاد عليه السلام، يلتفت في مقام الحمد والثناء إلى هذه المسألة في البداية حيث يقول: إلهي

---

(١) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾، سورة سبأ، الآية ١٣.





كيف لي أن أشكرك وأحمدك على أنّك تفضّلت علينا بهذه النعمة وشرّفتنا بهذه الفضيلة؟

ثم يلتفتعليه السلام، وبالتدقيق في هذا السؤال المهمّ، إلى مطلبٍ أكثر أهميةً ودقةً أيضًا، حيث يبيّن الإمام السجادعليه السلام، وفي مقام الحمد والشكر على النعم الإلهية، ذلك المطلب المهمّ بسؤاله لنفسه: من هو الذي منحنا أساسًا الحمد والشكر على النعم؟ طبعًا فأيدينا قاصرة عن هذا المقام الرفيع والمرتبة السامية، إلا إذا طلبنا ذلك بأنفسنا وقرنّاه بالسعي والجهود الحثيثة، ومع الأمل بأن يوفّقنا الله تعالى للتوجّه إلى هذه الأمور. إن فهم هذه الأمور ودركها، ومن ثمّ القدرة على العمل بها، هو بنفسه نعمةٌ يوفّقنا إليها الله تعالى.

إن لزوم الحمد والشكر الإلهي، والذي يعدّ بذاته حكمًا عقليًا، يحظى بأهمية فائقة إلى حدّ أن الله تعالى قد ذكّرنا به من خلال أشكالٍ متعدّدة:

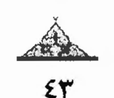
أولًا: فقد جعل تعالى الحمد أول سورةٍ من سور القرآن الكريم وأشرفها[1].

ثانيًا: ولكي يُظهر عظمة مقام هذه السورة المباركة، فقد جعلها عِدلًا لتمام القرآن الكريم، فقال لنبيّه الأكرمصلى الله عليه وآله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَـٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[2][3].

(١) سورة فاتحة الكتاب.

(٢) سورة الحجر، الآية ٨٧.

(٣) المقصود من ﴿سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى﴾ هو سورة فاتحة الكتاب المباركة أو سورة **الحمد**، وهي السورة الأولى في القرآن الكريم، وقد قالوا في تسميتها إنّ هذه السورة تحتوي على سبع آيات: ﴿سَبْعًا﴾





ومضافًا إلى ذلك، فأوّل آيات القرآن هي كذلك تبدأ بكلمة «الحمد».

ثالثًا: هناك سورٍ عدّة أُخر من سور القرآن قد بدأت بعبارة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[1].

رابعًا: قد تكرّرت في مواضع مختلفة من القرآن التوصية والأمر بالحمد والشكر الإلهي وبعبارات مختلفة؛ من قبيل: ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾[2].

وبناءً عليه، فالله تعالى قد منّ علينا في البداية بتوفيق فهم الحمد والشكر، ومن ثمّ بتوفيق أدائه والإتيان به.

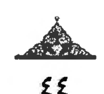
قدرة العقل على معرفة الله

من الجيّد هنا وبالمناسبة أن نطرح البحث التالي: هل يمكننا، بالاستعانة بالأدلّة العقليّة، وبالبراهين والمسائل الفلسفيّة والكلاميّة، أن نعرف الله تعالى بنحوٍ نستغني به عن تعاليم الدين، أم لا؟ طبعًا فهذا البحث المهم لا يختص بدينٍ خاصٍ مثل الإسلام، ولا بمذهبٍ خاصّ مثل المذهب الشيعي أو السنّي؛ بل هذه المباحث تشكّل هاجسًا

وبسبب أهمية مضمونها فقد نزلت على رسول الله ﷺ مرّتين ﴿ٱلْمَثَانِي﴾. وعلى أساس القول الآخر، فهذه السورة تحتوي على سبع آيات ﴿سَبْعًا﴾ من قسمين: ﴿ٱلْمَثَانِي﴾، نصفها حمدٌ وثناء إلهي، والنصف الآخر دعاء وطلبٌ للحاجات.

(١) السور التي بدأت بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هي: **الحمد**، **الأنعام**، **الكهف**، **سبأ**، **فاطر**.

(٢) سورة **الحجر**، الآية ٩٨؛ سورة **طه**، الآية ١٣٠؛ سورة **غافر**، الآية ٥٥؛ سورة **ق**، الآية ٣٩؛ سورة **الطور**، الآية ٤٨؛ سورة **النصر**، الآية ٣؛ وغيرها كثير.





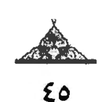
فكريًا وذهنيًا عند جميع العلماء والمفكّرين، ومن جملتهم العلماء والمتكلّمون المسيحيّون واليهود أيضًا. هؤلاء هم أيضًا يتتبّعون هذه المباحث ويسعون إلى الحصول على نتائج واضحة فيها[١].

في إحدى المناظرات العلمية التي أقيمت بيننا وبين شخصَين من المتكلّمين المسيحيين واليهود، كان موضوع البحث هذه المسألة بالضبط، حيث كان القسّ المسيحي يعتقد بأنّ معرفة الله غير ممكنة إلا عن طريق العقل وفقط من خلال البرهان والمناهج الفلسفية، في حين أنّ الحاخام اليهودي كان يرى أنّ المناهج الفلسفية والبراهين العقلية ليس لديها القدرة على إثبات الله ولا يمكنها أن تعرّفنا عليه، بل إنّ إثبات وجود الله والتعرّف عليه غير ممكن إلا من خلال الدين وعن طريق الوحي؛ أي التوراة واتّباع الأنبياء الإلهيّين.

أما نحن فقد أجبنا بصفتنا مسلمين، وبناءً على طلبهم، بالجواب التالي: إنّ إثبات وجود الله بصفته خالق العالم والإنسان، لا يمكن إلّا عن طريق العقل والبرهان العقليّ، وإذا أنكرنا قدرة البرهان العقليّ في هذه الموضوعات فلن يكون بالإمكان أساسًا أن نثبت حجّية الدين واعتباره، بمعنى نزول محتوى الدين من قِبَل الله تعالى إلى النبيّ؛

---

(١) قبل ٢٠ سنة تقريبًا من الآن، دُعينا إلى تقديم مقالةٍ في مؤتمرٍ علميٍّ في الولايات المتحدة الأمريكية، وقد اتّفق أن سافرنا إلى هناك برفقة السيّد الدكتور حدّاد عادل. بعد ذلك المؤتمر وبعد أن عرضنا مقالتَين فلسفيّتَين اقترحوا علينا أن نشارك في بحثٍ ومناظرة علمية بين حاخام يهودي وقسّ مسيحي يُعدّ كلاهما من أساتذة الجامعة. كان القسّ المسيحي كاثوليكيًا ومن فرقة اليسوعيّين، واليسوعيّون أساسًا فرقةٌ فلسفية ومن أهل الاستدلال والبرهان. وبسبب عدم تسلّط كلٍّ منا على لغة الآخر، فقد تمّت ترجمة المطالب لكلٍّ من الطرفين بالاستعانة بأحد الأساتذة هناك وبالسيد الدكتور حداد عادل.



وذلك لأنّه إذا كنّا ننكر البرهان العقليّ فلن يثبت ثمّة وجود إله أصلًا، فكيف يمكن إذًا أن ندّعي الاعتقاد بالدين؟ وبالنتيجة فلن يكون بالإمكان إثبات أيّ أمرٍ ديني ولا الاستدلال على أيّ مطلبٍ ديني. ولكن بعد إثبات وجود الله وصفاته التي تستوجب هداية الإنسان وتشريع الدين، يمكن حينها أن نتعرّف عن طريق الدين على تفاصيل الصفات والأفعال الإلهية وعلى كيفية الارتباط به والتقرّب إليه.

وبناءً عليه، ففي رأينا أنّ كِلا الطريقَين؛ أي طريق العقل والبرهان العقلي وطريق الوحي والدين، لازمٌ ولا يمكن لأيٍّ منهما أن يأخذ مكان الآخر، خلافًا للآراء الأخرى التي تارةً تتجاهل أحد هذَين الطريقَين وتارةً أخرى تضحّي بأحدهما من أجل الآخر. طبعًا فالفلسفة والبرهان العقلي يثبتان أنّ الإنسان له خالق، كما أنّ العقل يشخّص أنّه لا بدّ له من أن يشكر وليّ نعمته؛ أي الخالق المتعال، على نعمة الوجود وعلى سائر النعم، ولكن بعد إثبات وجود الله وأصل الدين، لا يمكن للعقل أن يحدّد نوع ارتباط الإنسان مع الله، فكيفية الارتباط مع الله إنما تكون في أمورٍ من قبيل الصلاة، والركوع والسجود، وأنواع العبادات المختلفة، وهي ما لا يمتلك عقل الإنسان القدرة على إدراكها وتشخيصها، وجميع هذه الأمور والمسائل الدينية والشرعية إنما تتيسّر للبشر ببركة الدين والأنبياء الإلهييّن.

طبعًا فكلّ من يستفيد أكثر من معارف الدين والأولياء الإلهيّين فسينال من هذه المواهب فائدةً أكثر وأفضل. نحن المسلمون، وبخاصّة نحن الشيعة، مدينون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام في تعلّم هذا النحو من المعارف التي تبيّن كيفية الارتباط مع الله تعالى. هذه المعارف تفوق قدرة العقل البشري. ولهذا السبب نشكر

الله تعالى آلاف المرات على جميع نعمه، وبخاصّة نعمة التعرّف على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام ومعارفهم[١].

كيفيّة الحمد والشكر والأعمال والمناسك المرتبطة به هي كذلك من الموارد التي منّ الله بها على الإنسان وهداه إليها من خلال أنبيائه وضمن قالب الدين والشريعة. ولهذا السبب يشرع الإمام السجّاد عليه السلام دعاء بداية شهر رمضان المبارك بهذه العبارة: «**الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِحَمْدِهِ**».

الجعل والهداية التكوينية والتشريعية

في الفقرة اللاحقة يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ**».

في هذه العبارة نجد أن المطلب أعلى وأهم بدرجات، كما أنّ فهمه أكثر صعوبة. أنّه مَنّ علينا بنعمة الشكر وعلّمنا طريق الشكر والحمد، فهذا ممّا يمكن فهمه بسهولة. أمّا أنْ يجعلنا من مجموعة الشاكرين والحامدين، فهذه مسألة أصعب بدرجات وفهمها أكثر تعقيدًا، فما المقصود في الحقيقة؟ وما هو نوع هذا «الجعل» في عبارة «**وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ**»؟

---

(١) كيف يمكن للإنسان بدون الاستعانة بالأنبياء وبالمعارف الدينية أن يدرك كذلك أنّ الدعاء الذي لا يبدأ بحمد الله ليس جديرًا بالإجابة؟ وكيف يحمد الله تعالى؟ بأيّ تعابير يذكره ويتوجّه إليه؟ كيف يكون أدب الدعاء بين يدَي الله؟ كيف يمكنه أن يتواصل معه ويكلّمه؟ من أين يعلم أنّ الله تعالى يسمع كلامه ويجيبه؟ ما الذي ينبغي أن يقال في التواصل معه وما هي الأمور التي ينبغي أن تُطلب منه... وأمورٌ من هذا القبيل، هي ليست ممّا يمكن للعقل البشري أن يستنبطه بالتأمّل وبمزيدٍ من التدقيق؛ بل جميع هذه المسائل من تعاليم الأنبياء وأهل البيت عليهم السلام، ومن المسائل التي تُستَقى من داخل الدين.

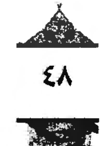




إنّ المشيئة والجعل والإرادة التي تُنسب إلى الله تعالى تكون على صورتَين:

١- تارةً يُقال إنّ الله تعالى قد أمر بأن يُفعل كذا وكذا، وفي هذه الحالة يكون الجعل أو الإرادة تشريعيّين؛ كأن يريد الله منّا أن نصلّي مثلًا، أي إنّ إرادته التشريعيّة قد تعلّقت بأدائنا للصلاة التي أوجبها علينا. وبناءً عليه، فقد أراد الله منّا أداء الصلاة، والصوم، والحج، و... وشرّعها لنا حتى نبادر إلى أداء هذه الأعمال وفقًا لإرادته. وطبعًا، في بعض الأحيان قد تأتي الإرادة التشريعيّة الإلهيّة كذلك ضمن قالب الأمر الاستحبابيّ؛ من قبيل تسبيحات السيّدة الزهراء عليها السلام التي أراد الله تعالى منّا أن نقولها بعد الصلاة أو في موارد أخرى. هذه الإرادة هي نوعٌ من التشريع والأمر الاستحبابي حتى نكون من خلال هذا الطريق مسبّحين لله تعالى مثل سائر المخلوقات، اللهمّ مع اختيارنا وإرادتنا.

٢- أحيانًا يقال إنّ الله تعالى قد جعل الأمور تكوينًا بنحوٍ ما وهيّأ الأسباب بشكلٍ يؤدّي إلى تحقّق كذا وكذا.. ففي هذه الحالة تكون الإرادة أو المشيئة أو الجعل تكوينيًا. لقد تعلّقت إرادة الله التشريعيّة بأدائنا للصلاة وأوجبها وفَرضها علينا، ولكن عندما نوفّق لأداء الصلاة فذلك يكون على أساس الإرادة التكوينيّة؛ أي إنّ الله تعالى قد هيّأ على أساس إرادته التكوينيّة جميع المقدّمات حتى نبادر بإرادتنا نحن إلى أدائها، وبتعبيرٍ آخر: فمشيئة الله التكوينيّة قد تعلّقت بأن يكون أداء الفعل متعلّقًا بمشيئتنا الاختياريّة، فنعزم على العمل، ونوفّق لأدائه، ونصلّي.



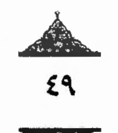
وكذلك في الآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[١]، صحيحٌ أنّ الإرادة الإلهيّة التشريعيّة مرادة أيضًا، من جهة أنّ إرادة الله التشريعية قد تعلّقت بتطهير جميع الناس[٢]، ولكن في ما يتعلّق بأهل البيت عليهم السلام فمضافًا إلى تلك الإراد التشريعية، ثمّة إرادة تكوينية أيضًا قد تعلّقت بهم أيضًا. ولهذا السبب، فقد أراد الله وهيّأ المقدّمات والأسباب اللازمة حتى لا يقوم هؤلاء العظام في مقام العمل بأيّ فعلٍ يخالف الطهارة والنقاء والعصمة أبدًا، على أنّ تعلّق الإرادة التكوينية الإلهية بطهارة أهل البيت عليهم السلام وعصمتهم لا يتنافى إطلاقًا مع إرادتهم واختيارهم[٣].

---

(١) سورة **الأحزاب**، الآية ٣٣.

(٢) أراد الله تشريعًا أن يكون الجميع طاهرين، وقد تعلّق الأمر الإلهي وجوبًا واستحبابًا بأداء أمورٍ أو تركها حتى يتطهّر جميع الناس نتيجة ذلك. وكذلك في الآية الشريفة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ (سورة **المائدة**، الآية ٦)، فالمقصود من «يريد» هو الإرادة التشريعية؛ أي إنّ الأمر الإلهي هو أن نراعي الطهارة ولأجل ذلك نقوم في الموارد اللازمة ولكي نتجنّب النجاسات والخبائث، بالوضوء والغسل، ونتيمّم إذا لم تكن شروط الوضوء والغسل متوفّرة. إذًا فهذه إرادة تشريعية، مع ملاحظة أنّه عندما يتحقّق التوفيق للعمل، وعندما نبادر إلى ذلك العمل بعد الإرادة والعزم، فإنّ مبادرتنا وعملنا وكذلك الإرادة قبلهما، هذه جميعها إنّما تتحقق على أساس الإرادة التكوينيّة الإلهيّة.

(٣) ليس لإرادة الله التكوينيّة أيّ ارتباط بالجبر في أفعال الإنسان، طبعًا فإنّ وجود إرادة الإنسان هو من مقدّمات هذه الإرادة التكوينيّة الإلهية؛ إذًا فإرادة الإنسان هي أيضًا مراد الله؛ فإنّ إرادة الله التكوينيّة تتعلّق بوجود الشيء والعمل، وقيام الإنسان بالأفعال والأعمال بشكلٍ إراديّ هو مراد الله التكوينيّ. وبناءً عليه، فإنّ عزم أهل البيت عليهم السلام وإرادتهم في الأفعال والمراقبات وأداء الأعمال، وكذلك تركهم لأمورٍ لأجل الطهارة والنقاء، هذه جميعها مراد الله التكوينيّ.



بعد أن اتّضحت مكانة كلٍ من الإرادة والجعل والمشيئة التكوينية والتشريعية، نصل إلى طرح السؤال التالي: هل المقصود من الجعل في عبارة «**وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ**» هو الجعل التشريعي أم التكويني؟

في العبارة السابقة التي تقول: «**هَدَانَا لِحَمْدِهِ**» يمكن للهداية أن تكون تشريعية كما يمكن أن تكون تكوينية؛ وذلك لما يلي:

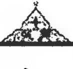
إما أن يكون المقصود هو أنّ الله قد منّ علينا بنعمة العقل والوحي والدين، وبالتالي فقد هيّأ لنا أسبابًا حتى نتعرّف على الدين ونكون متديّنين، وبالتالي نتعرّف على أصل الشكر والحمد الإلهي وعلى طرقه، وفي هذه الحالة تكون الهداية إلى الحمد هدايةً تكوينيّة.

وإما أن يكون المقصود هو التكليف والأمر الاستحبابي بحمد الله وشكره، من قبيل سائر الأوامر والتكاليف الاستحبابيّة التي أرادها الله حتى نوفّق من خلالها للأداء العملي فنستفيد من بركاتها. في هذه الحالة فالهداية إلى الحمد تكون هدايةً تشريعيّة.

أما بخصوص هذه الفقرة التي يقول فيها: «**وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ**»، فهذا الجعل ليس هدائيًّا تشريعيًا وتابعًا لإرادتنا؛ بل هو تفضّلٌ ولطفٌ من الله بعباده الذين نالوا توفيق الشكر فى محضره، تمامًا مثل أيّ عمل خيرٍ آخر يتمّ بعد التفضّل والإذن الإلهيّ[1].

---

(١) إنّ أداء أيّ عبادةٍ وفعل خير إنّما يتيسّر مع التوفيق والإرادة والإذن الإلهيّ، وأساسًا فلا يمكن لأيّ عملٍ في العالم (وحتى عمل الشر) أن يتمّ دون إذن الله، والمقصود هنا هو الإذن والإرادة التكوينيّة وليس التشريعيّة. طبعًا ففي أفعال الخير لا بدّ من الإذن التشريعيّ مضافًا إلى الإذن التكوينيّ، في حين أنّ المطلوب في أفعال الشر هو الإذن التكوينيّ فقط.





ينبّهنا الإمام زين العابدين عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء إلى نعمتَين وتوفيقَين إلهيَّين:

النعمة الأولى هي أن نلتفت إلى أنّ الله تعالى قد علّمنا حمده وتقديره وأمرنا بذلك. هذه نعمة كبرى، والله بمنحنا نعمة العقل، ونزول الدين، والتذكير بهذه النعم... قد عرّفنا على حمده وشكره ومن ثمّ علّمنا أيضًا طريقة شكره وحمده. هذا بذاته نعمةٌ كبرى تستوجب بذاتها الشكر.

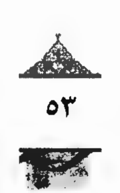
والنعمة الأخرى هي أنّه، مضافًا إلى الهداية، قد هيّأ وسائل حتى نكون من خلالها من أهل الحمد، أي أن نقوم عمليًا بالحمد الإلهي. إدراك هذه النعمة الثانية أصعب، ولكنّه ممكنٌ مع قليلٍ من الذوق والقريحة.



الجلسة الثانية:

هدف الهداية الإلهيّة





«الْحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لِحَمْدِهِ، وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ، لِنَكُونَ لإِحْسَانِهِ مِنَ الشَّاكِرِينَ، وَلِيَجْزِيَنَا عَلَى ذلِكَ جَزَاءَ الْمُحْسِنِينَ»

ما هو الهدف من الهداية الإلهية؟

السؤال: ما هو هدف الله تعالى من تعليمنا الشكر والحمد أو من هدايتنا في هذا الاتجاه؟

طُرحت في العلوم العقلية، مثل علم الكلام، مباحث عميقة حول أنّ الأفعال الإلهية هل لها أساسًا علة غائية، هدف أو غرض (بمعنى العلّة الغائية) أو لا؟ ولأجل إيضاح المطلب، لا بد من أن نوضّح في البداية معنى الهدف، والغاية، والعلّة الغائية.

قالوا إنّ العلّة الغائية إنّما تُتَصوّر في الموارد التي يكون الفاعل فيها فاقدًا لكمالٍ ما، وبإتيانه للفعل يكون بصدد رفع هذه النقيصة والوصول إلى الكمال. مثل هذا المعنى للهدف والعلّة الغائية يمكن تصوّره في الأفعال الإنسانية[1]، ولكنّه لا ينطبق على أفعال الله تعالى؛

(١) مثل أن يكون الإنسان في إتيانه لفعلٍ ما بصدد الوصول إلى هدفٍ ماديّ (مال، لباس، طعام،

وذلك لأنّه بلا نقص، ولديه جميع الكمالات إلى ما لا نهاية له. إنّ تَصوّر مثل هذا الهدف والغرض للأفعال الإلهيّة؛ أي تصوّر علّةٍ غائيّة وغرضٍ خارجٍ عن الذات الإلهيّة وزائدٍ على ذاته، محالٌ وباطل. ولهذا السبب يقال: "إنّ الأفعال الإلهية غير معلّقة بالأغراض".

هذا، ولكن من الممكن أن نقدّم العلّة الغائيّة بصورةٍ يمكنها معها أن تنطبق أيضًا على الذات نفسها؛ أي أن نبحث عن الهدف والغاية في ذات «الـذات» وليس في خارجها. في هذه الحالة يكون تصوّر الغاية ممكنًا في الأفعال الإلهية أيضًا؛ أي إنّ الذات الإلهية تقتضي إفاضة بعض الكمالات والرحمات[١]. وعلى هذا الأساس يُقال إنّ كلّ ما يفعله الله تعالى هو لنفع الآخرين، ولرفع النقص عنهم وإيصالهم إلى الكمال، وليس لأجل ذاته:

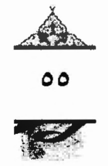
من نكردم خلق تا سودى كنم
بلكه تا بر بندگان جودى كنم[٢]

هذا، وقد أُشير في القرآن الكريم إلى موارد متعدّدة من الأفعال التي ينسبها الله تعالى إلى ذاته مبيّنًا لها أهدافًا أيضًا؛ مثل أنّ الله تعالى قد خلق الإنسان بهدف اختباره وامتحانه حتى يختار في هذا

أو تهيئة سائر متطلّبات الحياة) أو معنويّ (جاه، مقام، رتبة، جوائز غير ماديّة و...) أعم من كونه دنيويًا أو أخرويًا، أي أن يكون بصدد تحصيل ما لا يملكه، وهذا ما لا يُتصوَّر في حقّ الله الكامل الغنيّ.

(١) على أنّ الأشخاص الذين ينفون عن الفعل الإلهيّ مطلق الأغراض وكلّ نوعٍ من العلّة الغائيّة يقولون إنّ مثل هذه الموارد من مصاديق «غاية الفعل» لا «غاية الفاعل». وهذه المباحث من أدقّ المباحث العقليّة، حيث قد تمّ درسها وبحثها بشكل دقيق في محلّها (العلوم العقليّة).

(٢) الترجمة: أنا لم أخلق [الخلق] لأنتفع، بل لأجود على عبادي.



الميدان، وبإرادته واختياره، الأصلح «العبادة»، ويصبحَ نتيجة هذه العبادات جديرًا بالحصول على الثواب الإلهيّ، وحتى ينال الأفراد المؤمنون أيضًا، نتيجةً للعبادات الأكثر والأفضل، مراتبَ أعلى من القرب الإلهي ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١].

بناءً عليه، وبحسب ما تقدّم، فالأفعال الإلهيّة هي كذلك لها أغراضٌ وغايات، أي إنّ الله يقوم بفعلٍ ما لأجل تحقيق هدفٍ معيّن، سواءً اعتبرنا ذلك هدف الفعل، أو ـ بمعنًى من المعاني ـ هدف الفاعل أيضًا.

يعلّمنا الإمام زين العابدينعليه‌السلام في هذا الدعاء أن الله تعالى قد هدانا إلى حمده وشكره. وهذا الفعل الإلهي ليس عبثًا وبدون هدف؛ بل هدف الله وغايته من هذا العمل هو ارتقاؤنا إلى مقام «الحمد» و«الشكر». ومتى ما وصلنا إلى مقام «الحامدين» و«الشاكرين» فسنصبح جديرين بثواب أكثر وأفضل. ولو لم تكن هذه الهداية الإلهية لكنّا بقينا محرومين من هذه المقامات والمثوبات، على أنّ استعمال هذه التعابير القرآنية الراقية: ﴿وَسَنَجْزِي ٱلشَّٰكِرِينَ﴾[٢]، ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٤]، إنّما هو لبيان هذا المعنى.

---

(١) سورة **القمر**، الآية ٥٥.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٤٥.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٥٨.

(٤) سورة **التوبة**، الآية ١٢٠.



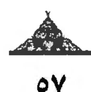
النقطة الدقيقة الأخرى هي أنّ تعليم الله وإرشاده للإنسان؛ أي تهيئة الأرضية لتشخيص الصحيح من الغلط وهدايته، إنّما يصبّ في هدف خلق الإنسان؛ فالهدف من خلق الإنسان هو وصوله إلى أعلى المقامات وحصوله في النهاية على الثواب الإلهي وجوار الله تعالى، والتنعّم بالمثوبات الخالدة، مع كمال اختياره في ذلك. ولو لم يقم الله تعالى بهذا النحو من إرشاد الإنسان وتبيان الطريق له، لبقي هدفه من خلق الإنسان ناقصًا، وهذا يعني نقض الغرض؛ وهو ما يتنزّه عنه شأن الحقّ تعالى.

حقيقة العبادة الإلهية

إنّ التدقيق في البيانات الحكيمة لأهل البيت عليهم السلام توفّر للإنسان معارف راقية وثمينة لا يمكنه الحصول عليها من أيّ مكانٍ آخر. وفي هذا القسم من بيان الإمام السجّاد عليه السلام أيضًا مطلبٌ لطيفٌ ودقيقٌ يمكننا استخراجه؛ وهو أنّ الله تعالى قد خلق الإنسان لأجل العبادة. وقد صرّح القرآن الكريم بهذه المسألة حيث قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

هذا، ولكنّ طرح هذه المسألة على الأذهان البسيطة التي لم تتعرّف بعد على المعارف الإسلامية، وبخاصّة معارف أهل البيت عليهم السلام، لن يكون له تلك الفائدة المرجوّة؛ إذ سيسأل هؤلاء أنفسهم أنّه إن كان الله قد خلقنا بالحقيقة فقط من أجل أن نعبده، إذًا فما هو الفرق بين الله وسائر الحكّام المتكبّرين والملوك والأسياد المستبدّين؟ فهؤلاء هم

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.





أيضًا يحبّون أن يكون الآخرون عبادًا مطيعين لهم، وأن يتمرّغوا بالتراب أمامهم، وينحنوا أمامهم ويخضعوا لهم ويخشعوا ويتملّقوا...

عندما يُقال إن الله قد خلق الإنسان فقط من أجل أن يعبده، فسيخطر في ذهنه مثل هذا التصوّر. ثم إنّ هذا الاستنتاج الخاطئ يتقوّى عندما نقول: «إنّ حمد الله وشكره واجب وتكليف على الإنسان قد علّمه الله إيّاه وأرشده إليه في هذا المجال. إذًا فكل عبدٍ يتحرّك في هذا المسير أكثر وأفضل، فإنّه يستجلب رضوان الله تعالى وسروره بشكلٍ أكبر وأفضل». إنّ تنزيل المقام الإلهي الرفيع إلى حدّ إنسانٍ ناقص، وتنزيل نظام الخلق الإلهي العظيم إلى حدّ النظام المَلَكي الظالم والمستبدّ الذي يسعى، من خلال ظلم سائر العباد واستغلالهم ومعاقبتهم، إلى رفع نقائصه وإلى التشفّي لبقاء سلطانه وسطوته؛ هذا النزيل ليس إلا نتيجة لمثل هذه الرؤية.

من البديهي أنّ مثل هذا التصوّر للعبودية والعبادة، والذي هو بعيدٌ كلّ البعد عن المعارف الصحيحة، ومشوبٌ بالجهل والحماقة، مضافًا إلى أنّه لا يزيد من معرفة هذا النحو من الأشخاص ولا يؤدّي إلى تَقرّبهم؛ فإنّه يؤدّي بهم إلى مزيدٍ من الانحراف والبُعد والضلال.

والواقع هو أنّ هذا الأمر ليس من حقيقة العبودية وعبادة الله، فالعبادة حقيقةٌ يصل عبد الله من خلال أدائها إلى مقام القرب الإلهي، وإذا نال العبد هذا المقام الرفيع يكون قد وصل إلى أعلى مرتبة وجوديّة ممكنة لأيّ مخلوق؛ أي مرتبة القرب من الله تعالى. والطريق الوحيد للوصول إلى هذه المرتبة من الوجود هو أن يدرك الإنسان عبوديّته ومن ثمّ يلتزم بلوازم هذه العبوديّة.



طبعًا فهذا الأمر بحدّ ذاته مبهم وغامضٌ ومعقّد، وإدراكه ليس متيسّرًا لأيٍّ كان؛ إذ كيف [يقال] إنّ الإنسان ما لم يعش العبودية وما لم يكن لديه الطاعة المطلقة فلا يمكنه أن ينال هذا المقام العظيم؟(١) إنّ إدراك هذه الحقيقة يتطلّب معرفةً عالية، ولهذا فإنّ تأكيد وإصرار القرآن الكريم وبيانات الأئمّة الأطهار عليهم السلام، حتى في الأدعية والمناجيات، على تعليمنا هذه المسائل؛ هذا التأكيد والإصرار إنّما هو لأجل أن نحصل على مرحلةٍ من إدراك المعارف الأصيلة حتى يمكننا بالتالي أن نكتشف جانبًا من هذه الأسرار والرموز. وكلّما اقترب الإنسان من هذه المعارف أكثر، تذوّق حلاوة درك هذه الأمور ولذّة ذلك بشكلٍ أكبر، وساق نفسه باتّجاهها بكلّ رغبةٍ ومحبّة، وبالنتيجة فسيبادر إليها في مرحلة العمل أيضًا بحرصٍ وولعٍ عجيبَين. أما الابتعاد عن هذه المعارف والغرق في الجهل والاشتغال بأمورٍ دون شأن الإنسانية، فهو يحرم الإنسان من حلاوتها ولذّتها ويجعلها في نظر الإنسان مرّةً وغير مستساغة، ما يؤدّي بالنتيجة إلى أن يصبح توجّهه نحوها ومبادرته إليها أو العمل طبقها صعبًا وشاقًا بالنسبة إليه(٢).

---

(١) بحسب التعبير المتعارف، فهذه المسألة فيها مفارقة و«تناقض» نوعًا ما؛ ذلك أنّ الإنسان متى ما حصل على أدنى مرتبة من المقام والموقعيّة فإنّ ذاك سيوصله إلى أعلى مقام، وبتعبيرٍ آخر: فإذا فرضنا أنّ المقام والمنزلة هو في موضع ومكان معيّن، فبحسب هذا الفرض، كلّما ابتعدنا عن هذا الموضع والمكان، كلّما صرنا أقرب منه!

(٢) ولهذا السبب قالوا إنّ التكليف من التكلّف والمشقّة، وتحمّل هذه المشقة في غاية اللذّة والعذوبة عند أصحاب المعرفة وعباد الله المطيعين، أما بالنسبة إلى الفئة من الناس المحرومين من هذه الدرجة من المعارف فهو حقيقةً أمرٌ صعبٌ وشاق. وفي مقام بيان حالات هذه الفئة من الناس ونوع نظرتهم وتوجّههم إلى إحدى أبرز العبادات؛ أي الصلاة، يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٤٥)، وكذلك في حادثة تغيير القبلة من المسجد الأقصى في بيت المقدس باتّجاه المسجد الحرام في مكّة يصف القرآن كيف وقع هذا



خطأ الإنسان التاريخي

هذا النقص المعرفي جعل الإنسان يتورّط في خطأ كبير على امتداد سنيّ عمره، وهذا الأمر قد أدّى إلى أن يبتعد الإنسان عن الله وأن يُحرَم من القرب إلى الله ومن الوصال بأصله ومنشئه. ويكمن ذلك الخطأ التاريخي الكبير في أنّ الإنسان كان له [ـ وما يزال ـ] نوعٌ من النظرة الاستقلالية إلى نفسه، حيث يرى لوجوده، وفكره، وقلبه، وممتلكاته، و... وزنًا و«قيمة» في مقابل الله تعالى.

هذا النقص المعرفي عند الإنسان قد أدّى إلى أن لا يعلم ولا يلتفت إلى أنه هو نفسه وكل ما يتعلّق به قلبه ويشعر بمالكيّته، هو من عند غيره. هذا الإنسان لا يلتفت إلى أنّه لم يكن موجودًا من الأساس وأنّ غيره أوجده، وأنّه عند الحدوث والإيجاد لم يكن يملك شيئًا، وأنّ كلّ شيءٍ قد تمّ وهبه إليه هبةً: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾[١].

نحن بأنفسنا نعلم أنّنا لم نكن أكثر من قطرة ماءٍ نتنة، وقبلها لم يكن لدينا حتى هذه الهويّة الدنيئة والحقيرة[٢]. كلّ ما نملكه ونفتخر

الأمر ثقيلًا على هذا النوع من الناس حيث يقول: ﴿وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ﴾ (سور **البقرة**، الآية ١٤٣).

(١) سورة **الإنسان**، الآية ١.

(٢) ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ٣٦ أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةٗ مِّن مَّنِيّٖ يُمۡنَىٰ ٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ (سورة **القيامة**، الآيات ٣٦ - ٣٩). وروي عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام في هذا المجال: «عَجَبًا لِلْمُخْتَالِ الْفَخُورِ وَإِنَّمَا خُلِقَ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ يَعُودُ جِيفَةً وَهُوَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ لَا يَدْرِي مَا يُصْنَعُ بِهِ».

ونتباهى به من ابتكارات وإبداعات واختراعات، ومن كشف لمعارف عقلية وحسية وتجريبية وعلوم وكل ما سوى ذلك؛ إنّما يُنسَب إلينا بنوعٍ من المسامحة. كيف يمكن لجميع هذه الأمور أن تكون قد صدرت من مجرد قطرة ماء نتنة؟ جميع هذه الأمور منسوبة بالحقيقة إلى الله تعالى؛ وذلك لأنّه لولا مشيئة الله وإرادته لما صدر أي فعلٍ من الإنسان ومن أي مخلوقٍ آخر. إن تمام وجود الإنسان، وإرادته واختياره، وعلمه وممتلكاته؛ هي من الله، وليس استقلاله أكثر من مجرّد خيال، كما أنّ رأس مال الإنسان ليس سوى جهله! كما يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في خطابه لأبي حمزة الثمالي: «بَنَاهُم بِنْيَةً عَلَى الجَهْل»[1][2].

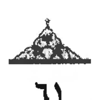
هذه المشكلة لا تنحصر بالإنسان، بل بعض مخلوقات الله الأخرى، من قبيل الجنّ، قد وقعت في هذا الخطأ أيضًا، وبهذا اللحاظ فقد تورّطت في مشكلةٍ كبيرةٍ أيضًا. نقطة الانطلاق بهذا الخطأ كانت في الشيطان، وسقوطه إنّما كان من هنا أيضًا، حيث اعتقد باستقلاليّة وجـوده ورأى نفسه أفضل من غيره، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾[3]، وبالنتيجة فقد تمرّد على الأمر الإلهي. لقد كان الشيطان مخلوقًا من زمرة أفضل عُبّاد الله تعالى، يقول أمير المؤمنين عليه السلام عن الشيطان:

---

(١) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٣، الباب ٢، ص ١٥.

(٢) في هذه الأيام يقوم بعض الإفراطيين في مجال قيمة مقام الإنسان وحقوقه برفع مقامهم الإنساني صابغين خيالاتهم بصبغة الواقع إلى حدّ الكلام على حقٍ لهم على الله؛ حيث يعتقدون بأن الله مدينٌ للإنسان وأنّ الإنسان الحداثوي ينبغي أن يأخذ حقّه من الله!

(٣) سورة **الأعراف**، الآية ١٢.





«قَدْ عَبَدَ اللَّهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ لا يُدْرَى أَمِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِيِّ الْآخِرَةِ»[١].

نقطة بداية سقوط قارون كانت من هاهنا أيضًا؛ فقد أعطاه الله ثروةً عظيمةً إلى حدّ أنّ القرآن يعبّر ويقول: ﴿إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ﴾[٢]. ولكن عندما قيل له إنّ قسمًا من هذه الثروة العظيمة من نصيب الفقراء، وعليك أن تفكّر بآخرتك وتَمدَّ يد المساعدة إليهم[٣] أجاب بالجواب التالي: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾[٤].

إنّ ما أدّى إلى تعاسة قارون وشقاوته هو توهّمه الاستقلال في مقابل الله تعالى. وفي الواقع، فإنّ قارون وأمثاله لا يقرّون للّه تعالى بالألوهيّة ومالكيّة الوجود. صحيحٌ أنّ بعض الأفراد من هذا النحو هم مؤمنون ومسلمون بالظاهر ولكنّهم في العمل غير موحّدين. كثيرٌ من أمثالنا كذلك لا نقرّ من الناحية العملية بألوهيّة الله، وكذلك لا نرى عبوديّتنا له كما ينبغي للعبوديّة أن تكون؛ وذلك لأنّنا في كلّ ما نفعله نقدّم ميولنا وأهواءنا على رضا الله تعالى.

---

(١) **نهج البلاغة**، ص ٢٨٧، الخطبة ١٩٢.

(٢) ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُوْلِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ (سورة **القصص**، الآية ٧٦).

(٣) ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (سورة **القصص**، الآية ٧٧).

(٤) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًاۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (سورة **القصص**، الآية ٧٨).



إنّ عنوان دعوة الأنبياء الإلهيّين، والبساط العظيم والواسع للتعليم والتربية، وما بذله المصلحون والمربّون الإلهيّون من تضحيات، وما تحمّلوه من آلامٍ وتعذيب؛ كل ذلك إنّما كان ليصبّ في تفهيم الإنسان أنّه عبد الله. ليس لسعادة البشر وفوزهم طريقٌ غير إطاعة الله تعالى، وفي هذه الطريق كل من كان مطيعًا أكثر فسيحظى بالسعادة أكثر. وأساسًا فإنّ خلق البشر هو من أجل الوصول إلى الكمال والسعادة، وليس لذلك طريقٌ غير هذا[1].

لقد خلق الله الإنسان لأجل هدفٍ مهمّ؛ وهو مقام العبودية والطاعة الذي يقع تمامًا في النقطة التي تقابل الإحساس بالاستقلال. وإذا ما ترفّع الإنسان إلى هذا المقام فسيحصل على إكسيرٍ أعظم، وسيجذب إليه الكمالات الإلهيّة، مثل القدرة، والرحمة، والعلم، والرأفة، و... تمامًا مثل صيّادٍ لديه شبكة قويّة جدًا، وفي هذه الحالة فقط يحصل الإنسان على الصبغة الإلهيّة وتصدر منه بالتالي الأعمال الإلهيّة، وحينها يصبح هذا العبد المخلوق وجودًا غنيًّا، حيًّا، وخالدًا، ويكون أمره أمرًا إلهيًّا فيتصرّف في الكائنات بإشارةٍ «كن فيكون»[2]. وفي غير هذه الحالة يكون الإنسان غريبًا عن الله ويُحرم من الفيوضات الربّانيّة؛ وذلك لأنّ أي أمرٍ لا يمكنه أن يتحقّق بدون الإذن والإرادة الإلهيّة.

---

(١) ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة **الذاريات**، الآية ٥٦).

(٢) عن أبي جعفر عليه السلام قال: «... وفي الحديث القدسيّ: [قال الله تعالى]: يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا غَنِيٌّ لا أَفْتَقِرُ أَطِعْنِي فِي مَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ غَنِيًّا لا تَفْتَقِرُ، يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا حَيٌّ لا أَمُوتُ أَطِعْنِي فِي مَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ حَيًّا لا تَمُوتُ، يَا ابْنَ آدَمَ أَنَا أَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكونُ، أَطِعْنِي فِي مَا أَمَرْتُكَ أَجْعَلْكَ تَقُولُ لِلشَّيْءِ كُنْ فَيَكونُ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٠، الباب ٢٤، ص ٣٧٦).



وطبعًا فإنّ العلم والمعرفة شرطٌ لازم للتوجّه إلى هذه الأمور المهمّة والإيمان بها؛ ولكنّ بني آدم محرومون منها ولا يؤمنون بها، نتيجة الجهل والتجاهل أو الغفلة والنسيان. إنّ المشقّات التي تكبّدها الأنبياء الإلهيّون ومربّو البشريّة على امتداد المسير الطويل لتربية البشر وإصلاحهم، إنّما كانت لأجل أن يوضحوا لهم وبشكل صحيح بعض المعارف الراقية المرتبطة بمعرفة الله، وبارتباط الإنسان مع الله، وبمقام العبوديّة.

ثمّ إنّ الطريقة الأفضل والأكثر إنتاجيةً التي كان الأنبياء الإلهيّون يوصون الناس بها لأجل فهم هذه المعارف الراقية والعميقة بالشكل الصحيح، إنّما هي في الاعتماد على العبودية لله وطاعته والابتعاد عن التمرّد والعصيان في مقابل الله، حتى تترسّخ هذه المعارف شيئًا فشيئًا في أرواحهم، تمامًا مثل النور. وفي غير هذه الحالة فإنّ اجتياز هذا الطريق سيكون طويلًا وخَطِرًا للغاية. أما إذا سلَّم الإنسان لهذه المسألة المهمّة من خلال اتّباعه لإرشادات الأنبياء والمربّين الإلهيّين، وقال: «سمعًا وطاعة»، فسيكون الله في هذه الحالة بعون الإنسان، وسينجّيه من أغلال النفس ووسوسات الشيطان المتنوّعة.

فقط في هذه الحالة، وبعون الله، يرتقي الإنسان في أقصر فرصة إلى درجةٍ من التربية والرشد المعنوي، ويكون توجّهه الدائم إلى الله وإلى النعم الإلهية، ويرى نفسه محتاجًا وبالطبع عاجزًا عن شكر هذه النِعَم. نعم؛ عباد الله الشاكرون، بدلًا من أن يقعوا دائمًا في الحسرة



على ما لم يحصلوا عليه وفي الغمّ على ما خسروه، يطأطئون رؤوسهم دائمًا ويرون أنفسهم خجلين من الألطاف الإلهية[١].

إنّ الله تعالى يمنّ على عباده اللائقين بالالتفات إلى نعمه وإلى ألطافه ومراحمه. وإذا ما بات هذا الالتفات عند الإنسان حيًّا وتلقّى هذه الرسالة الإلهية بشكل جيّد، فسيحصل على مقام الشكر والحمد الرفيع. والإمام زين العابدين (عليه السلام) في هذه العبارة من الدعاء يلفت النظر إلى هذه المسألة المهمّة، ويعرض في محضر الحقّ تعالى: أنتَ قد علّمتنا الحمد والشكر ووفّقتنا له حتى نصل من خلال الشكر في محضرك إلى مقام الشاكرين، «لنكون لإحسانه من الشاكرين»، وبأدائنا للشكر والوصول إلى هذا المقام تتفضّل علينا بمرتبةٍ ومقامٍ أرقى وأعلى: «وليجزينا على ذلك جزاء المحسنين». تمامًا مثل مُربٍّ خبير وعارف يأخذ بيد المتربّي ويتقدّم به درجةً درجة في طريق الترقّي والرشد، حتى يصبح في كل مرحلة جديرًا بمثوبات أعلى وأفضل وحينها يمنحه، برضاه التام، تلك المثوبات المناسبة.

إذا صار الإنسان بلطف الله من أهل الحمد، فسيقوم بشكر جميع المحاسن التي يراها في الله تعالى، وسينسب إلى الله حتى جميع المحاسن الموجودة فيه أيضًا، ويحمده عليها. مثل هذا العبد الصالح يعتبر نفسه دائمًا مدينًا لله تعالى، فيستشعر في نفسه حالةً

---

(١) الدنيا دنيا النعم والتكاثر، والخسائر والنواقص. وقد شاء التدبير الإلهي أن يكون البشر دائمًا في دائرة الاختبار الإلهي {وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} (سورة الأنبياء، الآية ٣٥). والامتحان والابتلاء يستلزم أن لا تكون الدنيا على حالةٍ واحدة، بل ينبغي أن يكون بعض الناس في رفاهية وراحة وتكون فئةٌ أخرى في ضيقٍ وعسر، حتى يُختَبَر المتنعّمون بنعمهم ويُسرهم، ويُختبَر المحرومون بحرمانهم وعسرهم.





من الخضوع أمام الكمال والجمال الإلهي، وحينها يعتبر أنّ تكليفه هو الشكر، أو الشكر اللساني بالحدّ الأدنى، على أن يكون في المراتب اللاحقة شكرًا عمليًا مقرونًا برعاية الشؤون والحدود الإلهية: «**وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ، لِنَكُونَ لإحْسَانِهِ مِنَ الشَّاكِرِينَ**».





الجلسة الثالثة:

الهداية العامّة والهداية الخاصّة





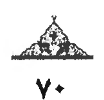
«وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ، وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إِحْسَانِهِ، لِنَسْلُكَهَا بِمَنِّهِ إِلَى رِضْوَانِهِ، حَمْدًا يَتَقَبَّلُهُ مِنَّا، وَيَرْضَى بِهِ عَنَّا»

الهداية العامّة والخاصّة

مجددًا يشير الإمام زين العابدين عليه السلام في هذه العبارة من الدعاء إلى هذه المسألة المهمّة؛ أي هداية البشر بقدرة الله تعالى: «**وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ**».

قد بيَّنّا في ما مضى أنّ الله تعالى قد هدى البشر وأرشدهم إلى المسير الصحيح من خلال طريقَين عُبِّر عنهما بـ«الهداية التكوينيّة» و«الهداية التشريعيّة». أمّا في هذه الفقرة فيشير عليه السلام إلى نوعَين آخرَين من الهداية والفعل الإلهي قد عُبِّر عنهما بـ"الهداية العامّة والخاصّة».

الهداية العامّة: حيث قد أرشد الله تعالى وهدى جميع ما في عالم الوجود، ومن جملته الإنسان، باتّجاه غايةٍ وهدفٍ خاصّ، ومن



ذلك مثلًا أنّه يقول حول الهداية العامة لجميع الناس ما يلي: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[١].

هذه الهداية تشمل جميع العباد، حتى المنكرين والمعاندين أيضًا، ولذا نرى القرآن الكريم يتحدّث عن قوم ثمود الذين أعرضوا عن هذه الهداية الإلهية واستكبروا عليها حيث يقول: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٢].

هذه الطريقة من الهداية والإرشـاد هي نوعٌ من بيان الطريق فحسب، وأمّا قبولها أو عدم قبولها فهو مرتبطٌ بكلّ فرد، فبعضهم يتقبّل هذه الهداية بكلّ رحابة صدر فتشمله بالنتيجة الرحمات والألطاف الإلهية، فيما يُعرض آخرون ويقعون في طريق الانحراف والضلال.

الهداية الخاصّة: بعد أن يقوم الله تعالى ببيان الطريق، يعصيه بعض العباد، فيُحرمون بالتالي من الهدايات اللاحقة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٣]. لقد بيّن الله الطريقَ لهذه الفئة من عباده، ولكنّه لا يوصلهم إلى المقام المقصود بسبب إعراضهم.

أمّا تلك الفئة من عباد الله التي لبّت الدعوة الإلهية، وكانت شاكرةً له وبقيت في الطريق التي بُيّنت لها؛ فتشملها المرحلة اللاحقة من الدعوة والهداية. في هذه المرحلة، مضافًا إلى بيان الطريق، فإنّ

---

(١) سورة **الإنسان**، الآية ٣.

(٢) سورة **فصّلت**، الآية ١٧.

(٣) سورة **المنافقون**، الآية ٦.



«الإيصال إلى المطلوب» يتحقّق هو أيضًا. هذه الفئة من عباد الله يساعدها الله تعالى تكوينًا حتى تطوي مسير السعادة والكمال وتصل إلى المقام المقصود.

في الفقرة السابقة من الدعاء، كان الإمام زين العابدين (عليه السلام) قد أشار بتعبيره «**هَدَانَا لِحَمْدِه**» إلى هذه المسألة الدقيقة التي قد يكون فيها إشارة إلى الهداية العامة؛ أي إنّ الله قد أرشد جميع عباده حتى يبادروا إلى الحمد الإلهي ويستفيدوا من نتائجه. وقال في الفقرة التالية: «**وَجَعَلَنَا مِنْ أَهْلِهِ**»، حيث يتضمّن هذا القسم إشارةً إلى الهداية الخاصّة، التي هي نفسها فعل الله التكويني؛ بمعنى أنّ الله قد وفّقنا لنستفيد من هذه الهداية ونصدر الحمد الإلهيّ. وهناك يشير الإمام عليه السلام في تتّمة الدعاء أيضًا إلى الهداية الخاصّة والإلهية التكوينيّة، حيث قال: «**وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ**». فبحسب بيانه عليه السلام، فقد هدى الله المؤمنين وأرشدهم إلى أكبر نعمه؛ أي الدين. ولولا إرسال الرسل والأنبياء الإلهيين وإراءة الأديان والشرائع، لبقي الإنسان في أوّل الطريق، أو لكان قد وقع في الضلال والانحراف. وشاهد الصدق على هذا الادّعاء هو الضلال والانحراف الذي يعاني منه البشر اليوم على الرغم من جميع ادّعاءاتهم في التقدّم الحضاري والإبداعات والاختراعات؛ وذلك ليس إلّا بسبب إعراضهم عن مسير الحق وعن مصدر الوحي الإلهي الدائم. إن أيًّا من هذه التطورات الظاهرية المادية لم يساعد الإنسان في الوصول إلى السعادة الأبدية ولن يساعده. وحدهما الدين والشريعة ما يهدي اللهُ الإنسانَ عن طريقهما؛ ويرشدانه في المسير الصحيح للسعادة الأبدية.



على أنّ النعم المادية، والتطوّرات والاكتشافات البشرية، إذا تمّ استعمالها في ظلّ الدين وفي اتّجاه التكامل المعنويّ وطاعة الله، وفي سياق الوصول إلى السعادة الأبديّة؛ فستكون قيّمةً حتمًا.

الفرق بين الدين والملّة

في هذا القسم من الدعاء «**وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ**»، استعمل الإمام السجّاد عليه السلام تعبيرَي «الدين» و«الملّة»، فما معنى هذَين التعبيرَين؟

بحسب قول أهل اللغة، فـ«الدين» و«الملّة» لهما مصداقٌ واحد ولكنّهما ذوا مفهومَين مختلفَين. الدين بمعنى الطاعة والجزاء والثواب الشامل لمجموعة من الأوامر الصادرة من الله تعالى والتي لا بدّ من إطاعتها للوصول إلى ثوابها. والشريعة والدين إنّما سُمّيا بهذا الاسم من جهة أنّهما يشتملان على الطاعة، والامتثال، والجزاء والثواب[1].

ولكن عندما يُلتفت فقط إلى بُعد امتثال المتديّنين وعملهم بأحكام الدين، فحينها يُقال له «ملّة» أيضًا. إذًا فـ«الملّة» هي ذاك البُعد من الدين الذي يشمل مجموعةً من السلوكيّات أو مجموعةً من القيم السلوكيّة التي يتقبّلها مجموعة من الأفراد، ويعملون بها، ويجعلونها أساسًا لسلوكهم ولشكل حياتهم.

---

(١) أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مفردة «دين»؛ الطبرسي، ذيل الآية ١٩ من سورة **آل عمران**.



وبناءً عليه، فحيثية الدين حيثية أكمل، وبهذا اللحاظ فهو يُنسب إلى الله مباشرة: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1].

أمّا «الملّة» التي لها حيثيّة أكثر محدوديّة وتُطلَق على حيثيّة العمل بالدين، فهي تُنسَب إلى الأشخاص الذين يعملون بها؛ من قبيل الأنبياء ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2]. أو قد يُنسب في بعض الموارد إلى بعض الأقوام، الجماعات، والأفراد أيضًا: ﴿إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ﴾[3].

وكذلك تأتي «الملّة» بمعنى القسم الأعظم من دينٍ ما أو بمعنى العرف والطريقة المنسوبة إلى أهل وأتباع ذلك الدين[4].

يقول عليه السلام في هذا القسم من الدعاء: **«وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي حَبَانَا بِدِينِهِ»**. إنّ تعبير **«حَبَانَا»** هو إشارة إلى أنّ الله لم يطلب منّا شيئًا في مقابل إعطائه هذه النعمة العظيمة لنا. ثم يقول عليه السلام: **«وَالْحَمْدُ للهِ الَّذي ... اخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ»**.

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٨٣.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ١٣٥.

(٣) ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (سورة **يوسف**، الآيتان ٣٧ - ٣٨).

(٤) أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم بن منظور، **لسان العرب**، مفردة «ملل».





سؤال: ما وجه هذا الاختصاص؟ هَل أنزل الله تعالى دين الإسلام فقط لنا نحن المسلمين؟

الجواب: إنّ كون دين الإسلام المقدّس أو ملّة الإسلام مختصًّا بمجموعة خاصّة أو لا؛ إنّما هو أمرٌ يتبع بحث الهداية العامّة والخاصّة.

من البديهيّ أنّ الإسلام بوصفه طريقًا صحيحًا وصراطًا إلهيًا مستقيمًا، هو طريقٌ لجميع عباد الله، وهو لا يختصّ بفردٍ، أو جماعةٍ، أو بملّةٍ خاصّة؛ حاله كحال جميع الدعوات الإلهية العامّة الموجّهة إلى جميع العباد. إلى هنا يكون التشريع والهداية عامًّا يشمل جميع الأفراد والجماعات. وبناءً عليه، فالدعوة إلى دين الإسلام المقدّس عن طريق النبيّ محمّدﷺ كانت بيانًا لطريقٍ موجّهٍ إلى الجميع، وجميع البشر البالغين والعاقلين الذين سمعوا نداءهﷺ مكلّفون بهذا الدين الخاتم، وهذه الدعوة لا تختصّ بالمسلمين.

هذا، ولكنّ جميع الدعوات الإلهية العامّة لا تلقى دائمًا الاستجابة [المطلوبة] من جميع العباد؛ وإنّما فئةٌ خاصّةٌ فقط هي التي تستجيب فيما يُعرض عنها البقية. وانطلاقًا من هذا، فالدعوة الخاصّة و«الوصول إلى المطلوب» لا يشمل إلا تلك الفئة التي تُقدّر هذه النعمة الإلهية وتلتزم بها. هذه الفئة هي التي تشملها الهداية الخاصّة والتكوينيّة الإلهيّة فيما يُحرَم منها البقيّة.

مقصود الإمام زين العابدينعليه السلام في عبارة «**حَبَانَا بِدِينِهِ وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ**» هو الاختصاص التكوينيّ للمسلمين والمؤمنين بدين الله وملّته؛ أي الإسلام.



ثمّ يقول عليه السلام في تتمّة ذلك القسم من الدعاء: «**وَالْحَمْدُ لله الَّذِي... سَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إِحْسَانِهِ، لِنَسْلُكَهَا بِمَنِّهِ إِلَى رِضْوَانِهِ**».

هذا التعبير يكشف عن وجود طرقٍ لا يصبح الإنسان من أهل البرّ والإحسان إلا عبرها. واللطف الآخر الذي منحنا الله إيّاه هو أنّه أخذ بأيدينا وأرشدنا، مثل دليل القافلة ومرشدها، وجعلنا في طرق الإحسان وفعل الخير، وفي الطريق التي ينبغي أن نكون فيها.

لقد بيّن الإمام زين العابدين عليه السلام في هذه الجملة القصيرة معارف راقيةً ولطيفةً وغايةً في الدقّة. في هذا البيان المختصر ولكن الحكيم، تمّ تحديد الطريق كما تمّ بيان ميزتها وتحديد مقصدها وهدفها الأعلى، كما تمّ بيان الحاجة إلى اللطف والنعمة الإلهية من أجل اجتياز هذه الطريق. هذه جميعها نكات تربوية وعقائدية قيّمة يطول شرحها وتفصيلها، كما أنّ فهم هذه المطالب بهذه العبارات القصيرة يحتاج إلى معارف وعلوم كثيرة.

والذي يبدو أنّ هذا التعبير الحكيم ناظرٌ إلى حقيقة أنّ الله قد أرشد وهدى، بشكل عام، جميع عباده ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[1]، ولكنّ بعض العباد سلكوا طريق الخطايا والعصيان وانحرفوا، فيما بعضهم الآخر آمنوا بالله وصاروا شاكرين للهداية الإلهية، وبالنتيجة فقد سلكوا في المسير الذي قد هُدُوا إليه. والله تعالى يشمل هذه المجموعة من الناس المؤمنين الذين اجتازوا حدود الإيمان الظاهري وآمنوا به حقيقةً؛ يشملهم بعنايته الخاصّة ويجعلهم في المسير الصحيح. لكنّ هذه العناية والاهتمام الإلهيّ الخاص بهم

---

(١) سورة **الإنسان**، الآية ٣.

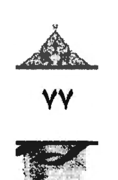
حتى هذه المرحلة ليس كلّ شيء؛ بل يظلّ الإنسان بحاجة إلى الإرشاد والهداية؛ وذلك لأنّ طريق العصيان وباب الانحراف ما يزال مفتوحًا. إذا لم يقترن العمل بالإرشادات والعنايات الإلهيّة الخاصّة، فحتى وإنْ وصل الإنسان إلى أعلى مراتب اليقين والإخلاص، فإنّه سيبقى مع ذلك في خطرٍ عظيم[1].

الإنسان، وبخاصّةٍ في أوائل الطريق، ليس لديه بعدُ معرفة كاملة بالطريق، ولا يميّز بين مسير الاستقامة ومسير الضلال والانحراف.

إذًا، فأُولى مراتب الإيمان والاعتقاد هي معرفة الطريق، وحتى لو كانت هذه المرتبة ظاهريّةً وسطحيَّةً وحاصل تعليم الوالدين وتربيتهم، إلا أنّها تمنح الإنسان توفيق أن تجعله في الطريق، وهذا يُعدّ بذاته أكبر نعمة إلهية إذ هيّأ لنا البيئة المناسبة وجعلنا وربّانا في عائلةٍ ومحيطٍ أوجد لدينا ـ بالحدّ الأدنى ـ ذلك الإيمان الظاهري به تعالى. ولكن مع ذلك ليس لدينا أيّ ضمانةٍ بأن نبقى في الطريق

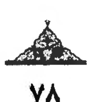
---

(١) في هذا الخصوص يقول إمامنا مولى الموحّدين وأمير المؤمنين: «الإخلاص خطرٌ عظيم حتى ينظر بما [بماذا] يختم له» (عبد الواحد الآمدي التميمي، **غرر الحكم ودرر الكلم**، ص ١٩٧)؛ ويقول الإمام الصادق: «ولا بُدَّ لِلْعَبْدِ مِنْ خالِصِ النِّيةِ في كلِّ حَرَكَةٍ وسُكونٍ ... هَلَك الْعَامِلُونَ إِلَّا الْعَابِدُونَ، وَهَلَك الْعَابِدُونَ إِلَّا الْعَالِمُونَ، وهَلَك الْعَالِمُونَ إِلَّا الصَّادِقُونَ، وهَلَك الصَّادِقُونَ إِلَّا الْمُخْلِصُونَ، وَهَلَك الْمُخْلِصُونَ إِلَّا الْمُتَّقُونَ، وَهَلَك الْمُتَّقُونَ إِلَّا الْمُوقِنُونَ، وإِنَّ الْمُوقِنِينَ لَعَلَى خَطَرٍ عَظِيم. قَالَ اللهُ تَعالَى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾، وَأَدْنَى حَدِّ الإِخْلاصِ بَذْلُ الْعَبْدِ طَاقَتَهُ، ثُمَّ لا يَجْعَلَ لِعَمَلِهِ عِنْدَ اللهِ قَدْرًا فَيُوجِبَ بِهِ عَلَى رَبِّهِ مُكَافَاةً بِعَمَلِهِ؛ لِعِلْمِهِ أَنَّهُ لَوْ طَالَبَهُ بِوَفَاءِ حَقِّ الْعُبُودِيَّةِ لَعَجَزَ. وَأَدْنَى مَقَامِ الْمُخْلِصِ فِي الدُّنْيَا السَّلامَةُ مِنْ جَمِيعِ الآثَامِ، وفِي الآخِرَةِ النَّجَاةُ مِنَ النَّارِ والْفَوْزُ بِالْجَنَّةِ» (الميرزا حسين بن محمّد تقي النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ج ٣، ص ٤٣٧، نقلًا عن كتاب **مصباح الشريعة**).



وأن نطوي المسير بالشكل الصحيح، وبناءً عليه، فالله تعالى لا يبيّن طريق الهداية والسعادة فحسب؛ بل يأخذ بيد عدّةٍ ويرشدهم على امتداد المسير، حتى يوصلهم إلى الرضوان الإلهي الذي يشكّل السعادة الأبدية.

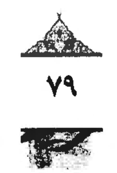
ومن المناسب هنا أن نبيّن هذه النكتة التربوية؛ وهي أنّ الأولاد في الماضي كانوا يتمتّعون بنعمة التربية الصحيحة من العائلة والمربّين والمعلّمين الصالحين، مضافًا إلى إرشادات العلماء الكبار، وبالتالي فقد كانوا يسيرون في طريق الله من بداية التكليف، حيث كانت القيم الدينية والالتزامية هي الحاكمة في تلك العوائل والأجواء التربوية والتعليمية. كان احترام الأب والأم والأكبر سنًّا، وكذلك رعاية الأدب وآداب المعاشرة معهم، يترسّخ في أرواح الأولاد، وكان هؤلاء الأولاد مع هذا النوع من التربية يدخلون مجتمعًا أصلح بمرّات. من الواضح أنّ مثل هؤلاء الأطفال والشبّان كانوا أعرف بالمسائل الدينية وكانوا أعرف بالله من أولاد هذه الأيام، فالأولاد اليوم لا يتربّون بعد مثل هذه التربية، كما أنّ ذاك المحيط قلّما نجده اليوم أيضًا، ففي مجتمعات اليوم، مع الأسف، نجد أنّ القيم الأخلاقية والدينية قد تراجعت، وأنّ المعلّمين والمربّين الدينيين والمتديّنين صاروا أقل من ذي قبل. مثل هؤلاء الأولاد اليوم عندما يكبرون قليلًا ويصلون إلى مرحلة الشباب يدخلون إلى مجتمعات تحكمها الأفكار والقيم الليبرالية؛ من الواضح أنّ اللذّة ستكون محور حياتهم، وأنّ الملذّات المادية هي التي ستحتلّ الأهمّية عندهم، لا الأب والأم واحترامهما. من الطبيعي أنّ هؤلاء الأفـراد مع تلك الخلفية التربوية لن ينالوا التوفيق اللازم لمعرفة الله والأنس بالعبادة والعبادات.



عندما لا يتربّى الولد تربيةً يكون فيها شاكرًا لوالديه على جهودهما وألطافهما؛ فمن الطبيعي أن لا يكون لديه أساسًا الدافع للشكر والحمد حتى يشكر ربّه [عزّ وجل]؛ وذلك لأنّ بين هذَين النوعَين من الشكر ترابطًا واتّصالًا، قال تعالى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[1]. لقد هجمت موجة ترك تديّن والثقافة الإلحادية الغربية على قيمنا الدينية، وهي تشهد شيئًا فشيئًا حالةً من الانتشار في مجتمعاتنا الدينية والإسلامية، وبناءً عليه، فعلى جميع الآباء والأمهات والمربّين والمتولّين لشؤون التربية أن يكونوا واعين حتى لا يشمل العذاب الإلهي المستشري في الغرب، والذي أبعدهم عن الدين وعن القيم الدينية؛ حتى لا يشملنا ومجتمعَنا وأبناءَنا أيضًا، وحتى لا تُسلَب منا التوفيقات التي نلناها ببركات جهود السابقين.

لقد تحمّل السابقون مشقّات كثيرة وأوصلونا إلى هذه السبل، ولكنّنا مع ذلك في معرض الخطر ووحدها يد العناية الإلهية يمكنها أن تنجينا من المهلكات. إذا كنّا شاكرين لتلك الألطاف الأولى، فالله تعالى هو كذلك سيأخذ بأيدينا ويحول دون انحرافنا عن المسير الصحيح. والإمامعليه السلام يشكر الله تعالى ويحمده على أنّه لم يهملنا في بداية الطريق؛ بل ما زال كذلك يعيننا لاجتياز مسير الخير والإحسان بشكلٍ صحيح: «**وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إِحْسَانِهِ**». ولكن، مع ذلك، ليس لدينا ضمانة ونحن نعبر الطريق. إذا كنّا شاكرين ومن أهل الإحسان، فالله تعالى بالمقابل سيستمرّ في توفيقه [لنا] بالإحسان وفعل الخير، وسيشملنا بأفضل الثواب. هو تعالى قد أمرنا بأن نحسن إلى الأب

(١) سورة **لقمان**، الآية ١٤.



والأم: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[١]، كما قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[٢].

الحسن الفعلي والحسن الفاعلي

الإنسان بفطرته عارفٌ بكلّيات أفعال الخير وأفعال الشر. اللهمّ في تشخيص مصاديق كلٍّ منهما قد يقع في الاشتباه أحيانًا، ولهذا السبب فهو محتاج إلى مرشدين يعينونه في التشخيص الصحيح لمصاديق أفعال الخير وأفعال الشر، وهذه هي فلسفة بعثة الأنبياء الإلهيّين. إنّ أحد موارد اشتباه الإنسان يكمن في التشخيص الصحيح للهدف الذي يقوم بالأعمال من أجل تحقّقه. وعلى هذا الأساس، فأحيانًا قد يكون العمل بنفسه حسنًا، وفطرة الإنسان تعتبره حسنًا كذلك، ولكن يكون لفاعل هذا الفعل هدفٌ غير صائب في أدائه له. وبتعبير أكثر فنّية: فهذا الفعل حسن فعلي ولكن ليس له حسن فاعلي.

لهذا السبب نجد أحيانًا أنّ فعلًا حسنًا واحدًا يصدر من فاعلَين ولا يكون له الثواب نفسه، بل تكون درجة امتياز كلٍّ من الفعلَين مختلفةً أيضًا عن الأخرى تبعًا لنوع النية والهدف الموجود عند كلٍّ

---

(١) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٨٣).

(٢) ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة **التوبة**، الآية ١٢٠).



من الفاعلَين. ومن ذلك على سبيل المثال: الإحسان إلى الوالدين أو مساعدة الفقير والمحتاج؛ فكلٌّ من هذَين الفعلَين حسنٌ وممدوح؛ ولكن عندما يقوم بهما الأفراد فإنّ ثواب كلّ فردٍ من هؤلاء الأفراد يختلف عن ثواب البقيّة تبعًا لنيّة كلٍ واحد منهم؛ بمعنى أنّ تقييم الفاعلين ومنحهم الدرجة المناسبة لأعمالهم، كما يتأثّر بدرجات حُسن نفس الفعل، يتأثّر كذلك بحُسن نيّات الفاعل أيضًا.

عموم الناس كذلك، ومع غضّ النظر عن حضور الدين والثقافة الدينية عندهم، يلتفتون إلى حُسن الأفعال وقبحها؛ ولكنّ تشخيص هذا النوع من الامتيازات والاختلافات الناشئة عن النوايا والدوافع وإيلاء الأهمية له يُعدّ من مختصّات الدين ومدرسة الأنبياء عليهم السلام. في ثقافة الإسلام، يُعَدّ التوجّه إلى نيّات الأفراد في قيامهم بالأفعال أمرًا مهمًّا جدًّا ومن أكثر المعايير القيمية أساسية. [قد] يقوم شخصان بفعلٍ صالح وحسن مثل بناء مدرسة، وقد لا يكون في الظاهر اختلاف بين عمليهما، فكلٌّ منهما قام بنوع عملٍ راجح وحسن؛ ولكنّ أحدهما يقوم بهذا العمل بنية الشهرة ولكي يصبح معروفًا، ولهذا السبب يضع عليه اسمه، في حين أنّ الآخر يقوم بالفعل نفسه لأجل رضا الله فقط وبنحوٍ مخفيٍّ وبدون اسم وترويج؛ أي يكون مصداق هذه الآيات الشريفة: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ﴾[1]، ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[2]، ﴿ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[3].

---

(١) ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٢٧٢).

(٢) سورة **الليل**، الآية ٢٠.

(٣) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٢٠٧).



على أنّه لا بدّ من التذكير بهذه المسألة؛ وهي أنّ القيام بالفعل لأجل الله وفي سبيل رضوان الله هو بذاته له كذلك مراتب لا حصر لها. فليس جميع الذين يقومون بالعمل بنيّة حسنة ينالون الامتياز ذاته؛ وذلك لأنّه، وكما قال الإمام عليه السلام، فهذه الأعمال والعبادات التي تؤدّى لأجل الله لها بالحدّ الأدنى ثلاثة أنواع أو ثلاث مراتب: قسم من العبادات يتمّ بقصد الوصول إلى نعم الجنّة؛ قسم آخر يتمّ لأجل النجاة من جهنّم، وقسمٌ ثالث يقوم به عبد الله فقط من أجل حبّه لله وتعلّقه به. أغلب الأفعال الصالحة التي نعتبرها ذوات حسنٍ فاعليٍّ أيضًا هي من النوع الأوّل والثاني؛ أي:

إمّا من أجل الوصول إلى نعم الجنّة[1].

وإمّا للفرار من عذاب جهنّم[2].

لعلّ هاتَين الفئتَين ليس لديهم إدراكٌ صحيح للرضوان الإلهي ولا يدركون الإخلاص لله تعالى.

---

(١) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ۝ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة **المرسلات**، الآيات ٤١ - ٤٤). ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ۝ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ۝ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ۝ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ۝ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ۝ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ (سورة **الواقعة**، الآيات ٢٠ - ٣٤). ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ١٣٦).

(٢) يصف القرآن الكريم عذاب جهنّم الأليم فيقول: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ۝ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ (سورة المرسلات، الآيات ٣٠ - ٣٣).



ولكن هناك في المقابل أشخاصٌ قد عرفوا أنفسهم جيّدًا وعملوا عليها، وبذلوا كذلك جهودًا كبيرة من أجل تنمية مشاعرهم، وقد تجذّرت في قلوبهم العواطف الدينية، وبخاصّة محبّة أهل البيت عليهم السلام وشيئًا فشيئًا محبّة الله تعالى. هذه الفئة تدرك ما معنى أن لا يكون المقصود من أعمالها وعباداتها سوى رضوان الله تعالى، كما يدركون حال الشخص الذي يمتلئ قلبه بالمحبّة ولا يطلب أيّ شيء سوى رضا المحبوب، وهذا ما ورد في آيات القرآن، الروايات، الأدعية ومناجيات المعصومين عليهم السلام والعرفاء، وفي النقول التاريخية عن هؤلاء الأفراد وعن حالاتهم.

لعلّ إحـدى طرق التمرين للتقدّم في هذا المسير الصحيح والوصول إلى هذا المقام السامي هو أن يقوم على امتداد الوقت بعملٍ واحدٍ بالحدّ الأدنى ليكون هدفه فقط رضوان الله ولا يطلب في مقابله أي أجر؛ كأن يصلّى مثلًا في يومه أو ليلته ركعتَين تكون لرضوان الله فقط. ومع السعي والجهد [المتواصل] يمكنه الوصول شيئًا فشيئًا إلى حدّ أن يقول لنفسه: «إلهي، حتى لو أخذتني إلى جهنّم فسأصلّي هاتَين الركعتَين لرضاك فقط».

وكأنّ الإمام زين العابدين عليه السلام يشير إلى هذه المسألة المهمّة، وهي أنّ الله تعالى قد سلكنا في الطريق الصحيح؛ أي مسير الإحسان وفعل الخير، حتى نصير في زمرة قافلة المحسنين ويكون هدف إيماننا هو الوصول إلى الرضوان الإلهي: «**لِنَسْلُكَهَا بِمَنِّهِ إِلَى رِضْوَانِهِ**». إذًا فالهدف الأعلى هو الرضوان الإلهي، ولكن من أجل الوصول إلى هذا الهدف الأعلى والأفضل، فقدرتنا لا تكفي؛ بل نحتاج إلى فضله ومنّه لاجتياز هذا المسير الصعب والشاقّ.



ثمّ يلفت الإمام عليه السلام في الفقرة اللاحقة إلى هذه المسألة المهمّة وبتعبيرٍ آخر؛ حيث يقول: الحمد لله الذي هدانا لحمده وشكره اللائق والمناسب، حتى يتقبّل منّا ذلك الحمد والشكر ويرضى عنّا بذلك الحمد اللائق. أي لو لم يكن هذا الإرشاد والهداية من الله لما وُفّقنا كذلك حتى لاختيار الحمد الأفضل، وحتى لو وُفّقنا للحمد أيضًا لما كان ذلك الحمد اللائق بالله الغني، وبالتالي لما كان الله تعالى كذلك ليقبل منّا حمدنا ولا ليرضى عنّا: «**وَالْحَمْدُ للهِ الَّذِي حَبَانَا بِدِينِهِ، وَاخْتَصَّنَا بِمِلَّتِهِ، وَسَبَّلَنَا فِي سُبُلِ إِحْسَانِهِ، لِنَسْلُكَهَا بِمَنِّهِ إِلَى رِضْوَانِهِ، حَمْدًا يَتَقَبَّلُهُ مِنَّا، وَيَرْضَى بِهِ عَنَّا**».



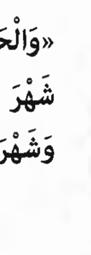


الجلسة الرابعة:

شهر رمضان درب السعادة







«وَالْحَمْدُ لِلّه الَّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ شَهْرَ رَمَضَانَ، شَهْرَ الصِّيَامِ، وَشَهْرَ الإِسْلَامِ، وَشَهْرَ الطَّهُورِ، وَشَهْرَ التَّمْحِيْصِ، وَشَهْرَ الْقِيَامِ، الَّذِي أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ»

رمضان درب السعادة

في الفقرات السابقة، يشكر الإمام السجادعليه السلام الله تعالى على أنّه هدانا إلى حمده وعلّمنا نعمته الكبرى؛ أي دينه، وجعلها بين أيدينا. وفي ظلّ الدين بيّن لنا أيضًا الطرق التي تنتهي إلى الرضوان الإلهي وجعلنا في النهاية في هذه الطرق حتى نسعى نحن، نتيجة هذه التفضّلات، للوصول إلى رضوانه فيكون راضيًا عنّا كذلك: «**وَيَرْضَى بِهِ عَنَّا**».

وأمّا في هذه الفقرة من الدعاء فيذكرعليه السلام إحدى هذه الطرق: شهر رمضان المبارك؛ حيث يقول: «**وَالْحَمْدُ لِلّه الَّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ شَهْرَ رَمَضَانَ، شَهْرَ الصِّيَامِ، وَشَهْرَ الإِسْلَامِ، وَشَهْرَ الطَّهُورِ،**





وَشَهْرَ التَّمْحِيْصِ، وَشَهْرَ الْقِيَامِ، الَّذِي أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ».

شهر رمضان هو إحدى الطرق التي يمكن لاجتيازها أن يوصلنا إلى الرضوان الإلهي، حيث يصف الإمام عليه السلام هذا الطريق القيّم؛ أي شهر رمضان المبارك، بالتوصيف التالي:

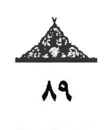
رمضان شهر الله

شهر رمضان شهر الله. طبعًا، ففي ثقافتنا الإسلامية، جميع ما سوى الله مخلوقٌ ومنسوب إلى الله، ولكن في بعض الموارد قد منح الله ميزةً «خاصّة» لبعض هذه المخلوقات؛ أي منح بعض المخلوقات شرفًا وقيمةً خاصّةً من خلال نسبتها إلى نفسه. جميع الأماكن في الأرض هي من الله تعالى، ولكنّ المساجد فقط هي التي يسمّيها «بيت الله»، وكذلك فجميع المساجد هي مكان عبادة الله وهي له جلّ وعلا، ولكن من بينها كلّها مسجدٌ واحد فقط يسمّيه بيته؛ وهو المسجد الحرام الذي يُقال له: «بيت الله الحرام». وكذلك جميع الأزمنة منسوبة إلى الله، ولكنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته المعروفة في آخر شهر شعبان، يطلق اسم «شهر الله» على شهر رمضان: «قَدْ أَقْبَلَ إِلَيْكُم شَهْرُ اللهِ بِالبَرَكَةِ وَالرَّحْمَةِ وَالمَغْفِرَةِ»[1].

سؤال: إذا كان مقرّرًا أن تُنسَب بعض الأزمنة والأمكنة إلى الله تعالى، فلماذا ينبغي أن يُحدَّد ويُعيَّن المكان الفلاني أو الزمان

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٣، الباب ٤٦، ص ٣٥٦، «وجوب صوم شهر رمضان وفضله».



الكذائي؟ ما هي الحكمة من هذه النسبة والشرف؟ هذه النسبة المهمّة ينبغي أن لا تكون عبثًا وبدون حكمه، إذًا فما هي الحكمة فيها؟

الجواب: هذه النسبات والتشريفات هي لأجل أن ندرك نحن أهمية ذلك الزمان والمكان، ونستفيض من الرحمة الإلهية بشكل أكبر. عندما يُسمَّى مكانٌ ببيت الله، فهذا يجلب اهتمامًا أكبر به ويجعل الناس تتوجّه إليه أكثر، وبالتالي فمع حضور الناس في ذلك المكان بشكل أكبر، تزداد الفيوضات والرحمة الإلهيّة في ذلك المكان ويصبح الناس أقرب إلى الله ويحظون أكثر ببركات ذلك المكان؛ إذ إنّ نسبة ذلك المكان إلى الله بسبب وجود الرحمة الإلهية فيه.

إنّ كون شهر رمضان المبارك شهر الله هو لهذا السبب أيضًا؛ وذلك لأنّ الرحمة الإلهية في هذا الزمن أكثر منها في سائر الأزمنة. ونسبة هذا الشهر إلى الله تؤدّي إلى أن يُقبِل عليه عباد الله أكثر ويستفيدوا من الفيوضات الربانية فيه بشكلٍ أكبر، إلى حدّ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نراه في تلك الخطبة يحثّ عباد الله على شهر رمضان بهذا النحو فيقول: «دُعِيتُمْ فِيهِ إِلَى ضِيَافَةِ اللهِ».

وعلى أيّ حال، فإنّ أحد أسماء شهر رمضان المبارك هو: «شهر الله»، وقد فتح الله لنا هذا الطريق لكي نصل إلى رحمته ورضوانه، وأسماه باسمه حتى يلفتنا أكثر إلى أهميته.

ثمّ يعتبر الإمام السجّاد عليه السلام أنّ الميزة الثانية لهذا الشهر هي كونه: «**شَهْرَ رَمَضَانَ**». فما معنى اسم «رمضان»، وما هو وجه التسمية بهذا الاسم؟ في هذا الخصوص ذُكِر في كتب اللغة والأدب، بل في



كتب التفسير والروايات بحوثٌ كثيرة، ولكنّ أيًّا من تلك الأبحاث حول وجه تسمية شهر رمضان المبارك لا يُمكن أن يُركَن إليه بالشكل الكافي[١].

غير أنّ من جملة المباحث التي يمكن قبولها أكثر من البقية: هو أنّ الله تعالى قد خصّ شهر رمضان من بين أشهر السنة الاثني عشر بذكره في القرآن الكريم بالاسم، حيث قال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٢]. هذا الأمر بذاته يكشف عن لطف الله الخاص بهذا الشهر. كما يكشف هذا الأمر المهمّ أيضًا عن أنّ تسمية شهر رمضان المبارك ليس أمرًا ذوقيًّا وتابعًا لميل هذا وذاك؛ بل هو اسمٌ ارتضاه الله لهذا الشهر، ولهذا السبب يعتبر الإمام السجادعليه السلام أنّ إحدى صفات هذا الشهر هي اسمه: «شهر رمضان»[٣].

---

(١) أحد هذه التوجيهات في هذا المجال هو ما يلي: قال بعضهم: «أصل رمضان من مادة «رمض» بمعنى شدّة الحرارة واللهيب. وعندما سُمّي شهر رمضان بهذا الاسم أول مرّة، كان الطقس في غاية الحرارة والشدّة. وكذلك شهرا ربيع الأول وربيع الثاني عندما سُمّيا بهذا الاسم أول مرّة كانا مقترنَين مع شهرَين من أشهر فصل الربيع، وقد بقيا بهذا الاسم لاحقًا نتيجةً لكثرة الاستعمال، في حين أنّ الشهر القمري أساسًا في حال تغيّر على امتداد السنة الشمسية، ومع مرور الزمن، فجميع الأشهر القمرية يمكن أن تتطابق مع جميع الأشهر الشمسية». على أنّ هذه البيانات في وجه تسمية الأشهر لا يمكن الاعتماد عليها.

(٢) ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ١٨٥).

(٣) في ما يتعلّق بوجه تسمية شهر رمضان المبارك، قيل إنّ «رمضان» هو أحد أسماء الله تعالى، ولهذا السبب، فلا ينبغي حين الاستعمال أن يطلق كلمة «رمضان» فقط، وإنّما يُقال: «شهر رمضان». وهذه الصيغة هي التي وردت في القرآن الكريم أيضًا، وكذلك في خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله وفي دعاء الإمام السجادعليه السلام لم ترد كلمة «رمضان» وحدها. ونحن بدورنا، رعايةً للأدب [والاحترام] نعتمد دائمًا الاستعمال القرآني وما ورد في الرواية النبوية وفي دعاء الإمام السجادعليه السلام فنقول: «شهر الله»



أمّا الصفة الثالثة التي يذكرها الإمام السجادعليه السلام لشهر رمضان المبارك فهي: «**شَهْرَ الصِّيَامِ**». هذا التعبير يمكننا أن نستخرج منه الدرس التالي: وهو أنّ شرفَ هذا الشهر ومكانته عند الله كبيرةٌ جدًا؛ وذلك لأنّه جعل هذا الشهر بتمامه زمانًا للصيام ولضيافته، ومن خلال هذه الوسيلة يتهيّأ للعباد بشكلٍ أكبر أرضية الاستفادة من الفيوضات، والرحمات، والبركات الإلهية حتى يكون عباد الله شاكرين له وحامدين باستفادتهم من هذا الشهر.

رمضان شهر الإسلام

الميزة الأخرى لشهر رمضان المبارك هي كونه «**شَهْرَ الإِسْلَامِ**»، وحول كون شهر رمضان المبارك «شهر الإسلام» وجوهٌ كثير قد ذُكرت، بعضها معروفٌ أكثر من سواه، وهي التي نشير إليها في ما يلي:

الوجه الأول: أنّ الإسلام في هذه العبارة هو بالمعنى اللغوي؛ أي التسليم، فشهر الإسلام بمعنى شهر التسليم لله. في شهر رمضان المبارك على الإنسان أن يكون لديه جهوزية لمزيدٍ من التسليم في مقابل الشرع المقدّس والأحكام الإلهية، فعبد الله في هذا الشهر، من أوّل طلوع الفجر إلى آخر النهار، دائمًا مثل أذنٍ صاغية لأوامر الله. فمن أوّل الصبح وقبل أن يطلع الفجر يُوجِّه إليه الأمر بالإمساك:

أو «شهر رمضان». هذا النوع من رعاية الأدب، ولو كان لمجرد وجود احتمال، له قيمته، ولعلّ لرعاية الأدب المحتمل قيمةً أكثر حتى؛ أي أن يبادر الشخص إلى أن يضيّق الأمر الصادر من الشرع المقدَس ولو كان ذلك لمجرد احتمال كونه مراعاةً للأدب. على أنّه لم يرد في أي روايةٍ من الروايات التي بُيّن فيها أسماء الله، لم يرد «رمضان» بصفته اسمًا من أسماء الله تعالى، وكذلك لم يذكر أي كتابٍ من كتب اللغة أنّ رمضان اسمٌ من أسماء الله تعالى.

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾[1]، وعلى امتداد النهار يُحرَم على الإنسان كثيرٌ من الأمور المحلّلة، وعليه أن يبتعد عمّا كان حلالًا عليه في سائر الشهور. عبد الله في هذا الشهر مُسلِّمٌ لجميع هذه الأحكام الإيجابية والسلبية والأوامر والنواهي الإلهيّة. طبعًا فالإنسان المسلم والعبد المؤمن مُسَلِّمٌ دائمًا للأمر الإلهي؛ ولكنّ ظهور هذا التسليم وبروزه في هذا الشهر أكثر منه في سائر الشهور؛ وذلك بسبب وجود تكاليف أكثر في هذا الشهر.

الوجه الثاني: إنّ صوم شهر رمضان المبارك قد شُرّع للمسلمين فقط فهو خاصٌ بالمسلمين، ولهذا السبب كان شهر رمضان المبارك «شهر الإسلام». لقد خصّ الله تعالى أمّة الإسلام؛ أي أمّة آخر الزمان، بهذا الشهر وبما له من خصوصيّات وبركات، ولا توجد أيّ أمّةٍ أخرى، غير المسلمين، لها شهرٌ باسم شهر رمضان ينبغي أن تصوم فيه. هؤلاء ليس لديهم في هذا الشهر تكليفٌ مثل التكليف المُوجَّه إلى المسلمين. وعلى الرغم من أنّ الآخرين قد يكون لديهم، هم أيضًا، صومٌ واجبٌ وبعض العبادات الشبيهة بعبادات المسلمين، ولكنّهم مع ذلك محرومون من عبادةٍ بهذه الميزة والخصوصية.

الوجه الثالث: في شهر رمضان المبارك تظهر آثار الإسلام بشكل أكبر، بحيث إنْ دخل شخصٌ غير مسلمٍ إلى المجتمع الإسلامي في شهر رمضان المبارك فإنّه يرى في هذا المجتمع المميّزات الحصرية التي تختلف عن ميزات سائر الشهور. هذه المميّزات من قبيل تعطيل

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٧.



المطاعم وجميع مراكز تقديم خدمات الطعام والشراب، حالة الخضوع والاستكانة والسكينة عند أغلب الناس، اشتغالهم بالعبادة، توجّههم إلى الله بشكل أكبر، الازدحام في المساجد والمراكز العبادية، تراجع نسبة ارتكاب الذنوب... هذا الشخص غير المسلم عندما يسأل عن هذا الاختلاف الواضح فسيقولون له إنّ أهالي هذا المجتمع مسلمون والتزامهم بدين الإسلام هو الذي جعلهم بهذا الشكل. وبناءً عليه، يمكن القول إنّ علائم الإسلام وشعائره تظهر في هذا الشهر أكثر من سائر الشهور.

رمضان شهر الطهارة والخلوص

الصفة الجميلة الأخرى التي يعدّدها الإمام السجاد عليه السلام لشهر رمضان المبارك هي: قدرة الطهارة والتطهير: «**وَشَهْرَ الطَّهُورِ**». الطَهور بمعنى الطاهر والنقيّ أو المطهّر. في مواضع عديدة من القرآن الكريم أطلق الله تعالى وصف الطاهر والطهور على نعمة الماء القيّمة، كما في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾[1].

شهر رمضان المبارك هو كذلك شهر الطهور، شهرٌ يزيل التلوّثات. أغلب الناس، بحسب المتعارف يتورّط على امتداد العام بتلوّثات

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٤٨. للماء آثار وبركاتٌ كثيرة، فالماء منبع الحياة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (سورة **الأنبياء**، الآية ٣٠). ومن بين الموادّ الطبيعية لا توجد أيّ مادة تزيل الأوساخ مثل الماء؛ فالماء هو الوسيلة الأفضل، والأسهل، والأكثر نفعًا للغسل وإزالة الأوساخ والقذارات. نعم: إنّ كثرة الماء حولنا وتوفّره قد أدّيا إلى أن لا نعرف قدره، ولو كان مقدّرًا للناس أن يقيّموا أو يثمّنوا الماء على أساس آثاره ومنافعه، لكانت قيمته أكبر بكثير من سائر المواد. ثم إنّ إحدى خواصّ الماء هي أنّه «طاهر» و«مطهّر».






وذنوبٍ تبعّدهم عن الله تعالى. أمّا شهر رمضان فله هذه الخاصية التي تميّزه عن سائر الشهور؛ وهي أنّ هذا النوع من التلوّثات والذنوب في مقام العمل يكون أقل في هذا الشهر. لقد اعتمد الله تعالى في هذا الشهر حِكَمًا تجعل الناس يراعون أحكام الشرع المقدّس بشكلٍ أكبر ويحافظون على احترامهم لهذا الشهر أكثر من سائر أشهر السنة.

وفي النتيجة، فمضافًا إلى أنّ ارتكابهم للذنوب يصبح أقلّ في هذا الشهر، فإنّ كثيرًا من تلوّثاتهم وذنوبهم السابقة تُمحى أيضًا. الصوم، الصلاة، تلاوة القرآن، الأدعية، المناجيات، الصدقات، التوبة من المعاصي والخطايا السابقة وسائر العبادات والأعمال الصالحة التي يقوم بها عباد الله في هذا الشهر؛ هي سفرة إلهيّة ممدودة تؤدّي إلى تساقط الذنوب وإلى خلوص روح الإنسان من الملوّثات. هذه القدرة الموجودة في هذا الشهر الإلهيّ الكبير عالية إلى درجة أنّ كثيرًا من عباد الله الصالحين، ومع توفيقهم للتوبة والاستغفار في هذا الشهر، يتحضّرون للاستزادة منه لكي يطهّروا وينقّوا أنفسهم بشكل كامل، بنحو كما لو أنّهم قد وُلدوا من جديد.

وحسب التعبير المبارك للإمام السجادعليه السلام، فالصفة الجميلة الأخرى لشهر رمضان المبارك هي تخليصه وتمحيصه: «**وَشَهْرَ التَّمْحِيْصِ**».

كلمة التمحيص بمعنى تخليص شيءٍ من العيب والنقص[1]. وتُطلَق كلمة «تمحيص» على العملية التي تُجعل فيها المعادن الثمينة (مثل الذهب) داخل الفرن حتى تطهر وتخلص، نتيجةً لدرجة الحرارة

---

(١) أبو القاسم الحسين بن محمّد الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، مفردة «محص».



المرتفعة جدًا، من الشوائب والعيوب. وفي القرآن الكريم يذكر الله قصّة مسلمين كانوا في إحدى الغزوات مع الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، كانوا في البداية في معرض الهزيمة ثمّ جاءهم المدد الإلهي وانتصروا. يعتبر الله أنّ فلسفة هذه المِحَن والصعوبات هو اختبار ما في داخل صدورهم ومن ثمّ تخليص قلوبهم وتطهيرها: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[1].

ثمّ إنّ الله تعالى يدبّر مثل هذا التدبير لبعض الناس، وبخاصّةٍ المؤمنين؛ ومن جملة هذه التدابير: تهيئة بعض الظروف للمؤمنين الذين لديهم في قلوبهم تلوّثات، وشوائب، وأغلال وأحقاد... وبالنهاية آثارٌ من ضعف الإيمان والعصيان والفسق والفجور.

هذه الفئة من المؤمنين التي تخضع للعملية التي تتضمّن مثل هذه التدابير، تَخلُص وتطهر شيئًا فشيئًا، حيث تواجه تدابير من قبيل المرض أو الفقر أو الكوارث الطبيعية أو الحوادث أو غير ذلك.

طبعًا، فالذنب لا يَسلب من الإنسان المؤمن إيمانه؛ ولكنّه يورطه بنوعٍ من التلوّث. وفي هذه الحالة يعرّضه الله لمشكلةٍ ما؛ كأن يجعله يمرض مثلًا، حتى يؤدّي به التوجّه الذي يحصل لديه حال المرض إلى أن يندم ويتوفّق للتوبة ويُمحى ذنبه. ثمّ إذا لم يكن هذا التدبير فعّالًا ولم يوفّق هذا العبد للتوبة والندم ـ نتيجةً للوساوس الشيطانية ـ

---

(١) ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ١٥٤).

فإنّ الله تعالى يعتمد معه تدبيرًا آخر؛ كأن يبتليه بالفقر مثلًا، حتى يعود ـ نتيجةً للصعوبات والمشقّات الإضافيّة ـ إلى نفسه، ويتوب من ذنبه. أما إذا لم يكن هذا التدبير مؤثّرًا كذلك، فإنّه يبتليه بمشكلات وابتلاءاتٍ أخرى حتى يتيقّظ في النهاية ويتوفّق للتوبة.

في المرحلة الأخيرة، إذا ارتحل مؤمنٌ عن هذه الدنيا دون أن يكون قد تاب فالله ينتزع روحه بشدّة حتى يؤدّي إلى طهارته وتحرّره من الذنب ولا يواجه مشكلةً في عالم البرزخ بعد نزع الروح(١). طبعًا إنْ لم ينتفع الشخص من هذه المرحلة أيضًا ولم يصل إلى شاطئ النجاة، فسيكون أمره في غاية الصعوبة.

وعلى أيّ حال، ففلسفة الابتلاءات والصعوبات التي يدبّرها الله للمؤمنين هي اليقظة والتوجّه إلى الله بشكلٍ أفضل، وبالتالي تمحيصهم وتطهيرهم.

خلق را با تو چنين بدخو كنند
تا ترا ناچار رو آن سو كنند(٢)

هذا التمحيص والتطهير والتخليص يُعدّ من ميزات شهر رمضان المبارك. صعوبة الصوم ومشقّته، وبخاصّة في أيّام الصيف الطويلة والحارّة وحين الاشتغال بالعمل والنشاطات، وكذلك القيام بالأعمال والعبادات، مثل بعض الصلوات، والأدعية، والمناجيات الطويلة؛ هذه

---

(١) راجع: محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٧٨، الباب ١، ص ١٩٨.

(٢) البيت من قصيدة بالفارسية لمولوي في **مثنوي معنوي**، وترجمته: يدفعون الناس إلى إساءة الخلق معك، حتى يوجّهوك قهرًا بذاك الاتّجاه. [المترجم]



جميعها إنّما هي لكي يطهر الإنسان ويخلص من الأغلال والعيوب. ومن هنا يتّضح أنّ مشكلات الدنيا وآلامها لطفٌ ومرحمة إلهية بالنسبة إلى الإنسان المؤمن. صحيحٌ أنّ ظاهرها بلاء ومعاناة، ولكنّ باطنها نوعٌ من التطهير والتصفية. ولهذا السبب، فالأولياء الإلهيّون بدلًا من الجزع والفزع من هذه البلايا، يرحّبون بها ويشكرون الله تعالى على هذه المصائب.

نعم؛ أنواع التعلّقات بالدنيا هي بذاتها من النجاسات والتلوّثات، والظروف والمناسبات الخاصة، مثل شهر رمضان المبارك، هي أفضل فرصة ولطفٍ إلهي بالعباد لكي يتطهّروا من هذه التلوّثات.

هذا؛ وتتّضح أهمية هذه المسألة أكثر عندما نعلم أنّ أحد أكثر العبادات الإلهية فرادة وتميّزًا قد شُرِّع في هذا الشهر العزيز؛ حيث قد شرّع الله تعالى في شهر رمضان المبارك الصوم الذي يقول في أهمّيته: «الصَّوْمُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ»[1].

هذا التعبير لم يرد حول أيّ عبادة أخرى، ومثلما قد خصّ الله شهر رمضان المبارك من بين أشهر السنة، وجعله شهره [وحده دون غيره]، كذلك فقد خصّ الصوم من بين العبادات وجعله له، وتكفّل أيضًا بأن يكافئ الصائمين ويجازيهم بنفسه.

طبعًا فسرّ هذه القضية ليس واضحًا بالنسبة إلينا، ولعلّ أحد أسرارها هو أنّ الصّوم يخلّص الإنسان من تعلّقاته أكثر ممّا يفعله أيّ

---

(١) أبو جعفر محمّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٢، باب فضل الصيام، ص ٧٥.



شيءٍ آخر، كما ينقّي الإنسان ويطهّره، ويحرّره من الأثقال والقيود والأغلال غير الإلهية، ويجعل طائر القلب جاهزًا للتحليق. هذه الحالة لا يجدها الإنسان في أيّ عبادةٍ أخرى؛ وبخاصّةٍ إذا روعيت آداب الصوم بشكلٍ صحيح، حيث سينال الإنسان لـذّاتٍ من هذه الحالة اللطيفة لا يحصل عليها من أيّ عبادةٍ [من العبادات الأخرى]، ومن هذا المنطلق كان شهر رمضان المبارك يحظى بميزة تمحيص الإنسان وتنزيهه عن التلوّثات.

الميزة الأخرى التي يذكرها الإمام زين العابدين عليه السلام لشهر رمضان المبارك؛ هي كونه «**شَهْرَ الْقِيَامِ**»، والمقصود من القيام في هذا الشهر هو الاستيقاظ في الأسحار، وإحياء الليالي والتهجّد. أما وجه تسميته بهذا الاسم فهو أنّ التهجّد واليقظة في الأسحار غالبًا ما يقترن بالصلاة، والصلاة بدورها غالبًا ما تتمّ في حال القيام والنهوض والوقوف. وكذلك فالمقصود من التوصيات الكثيرة الواردة حول قراءة القرآن إنّما هو قراءة القرآن حال الصلاة. وفي آيات القرآن الكريم جاء الأمر بقراءته في حال الصلاة: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[١]. جاء في تفسير هذه الآية أنّ المقصود من "قرآن الفجر" هو صلاة الصبح[٢].

---

(١) سورة **الإسراء**، الآية ٧٨.

(٢) يعتقد العلامة الطباطبائي في تفسير هذا القسم من الآية ٧٨ من سورة **الإسراء** المباركة، أنّ جميع الروايات متّفقة على أنّ المقصود من قرآن الفجر هو صلاة الصبح؛ وذلك لأنّ صلاة الصبح تشتمل على قراءة القرآن (السيد محمد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج ١٣، ذيل الآية ٧٨ من سورة **الإسراء** المباركة، نقلًا عن: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور**، ج ٤، ص ١٩٦).



كذلك في الآيات الشريفة من سورة المُزّمل المباركة، تكرّر قوله تعالى ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾[١] أكثر من مرّة. أمّا المسألة الجديرة بالانتباه فهي أنّ القرآن الكريم اعتبر أنّ أرضية هذه القراءة هو قيام الليل والإحياء [والتهجّد]؛ وذلك لأنّه قبل أن يوصي بقراءة القرآن وترتيله، أوصى بصلاة الليل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[٢].

أي إنّ الليل هو وقت اليقظة ووقت القيام، فقم وأحيِ الليل بالعبادة. سورة المزّمل من أوائل السور التي نزلت على النبيّ الأكرم ﷺ، حيث يأمره الله في هذه السورة بأن يكون يقظًا[٣] أكثر

---

(١) سورة **المزّمل**، الآية ٢٠.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلاً ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (سورة **المزّمل**، الآيات ١-٤).

(٣) هذه التوقّعات التي يتوقّعها الله من عباده، ولكن، هل عباده على هذه الحال؟ أم إنّ جلّ ما يشغل فكر العبد هو السهر لمقدارٍ من الليل من أجل مشاهدة فيلم أو قرصٍ أو متابعة التلفاز؟ مثل هذا الشخص هل يمكنه أن يصلّي صلاة الصبح في وقتها؟ يتوقّع الله من عباده أن يستفيدوا أفضل استفادة من هذه الفرص الاستثنائية والنادرة حتى تشملهم بالتالي رحماته وألطافه ﷻ، ولذا فهو يوصي نبيّه العظيم بأن ينام أقل من نصف الليل ويحييه بشكل أكبر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (سورة **المزّمل**، الآيات ١ - ٤)، وأن يصلّي ويقرأ القرآن في جوف الليل ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (سورة **المزّمل**، الآية ٤). طبعًا فالنبي ﷺ وبعض أصحابه الخواصّ والمؤمنين كانوا يعملون بهذه التوصية والله تعالى بدوره كان مطّلعًا على هذا الأمر فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ﴾ (سورة **المزّمل**، الآية ٢٠). من الواضح أنّ هذا الفعل لا يصدر من جميع الناس، وليس للجميع القدرة على القيام بمثل هذا العمل، ولكن المنتظر والمتوقّع منهم هو أن لا يحرموا أنفسهم - قدر المستطاع - من فيض التهجّد والصلاة وقراءة القرآن في جوف الليل. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي





الليل ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ ويشتغل بالعبادة وقراءة القرآن ﴿وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾[1].

كان المسلمون في صدر الإسلام وأصحاب الرسول الأكرم ﷺ يعبّرون عن حماستهم وشوقهم لآيات القرآن الكريم إلى حدّ أنّهم كانوا بعد نزول الآيات الجديدة يجهدون فورًا لحفظها، ومذاكرتها، وفهمها وإدراكها، وكانوا يسعون إلى قراءتها في صلواتهم. هذه الخصال الحسنة والتأسّي بالسنّة النبوية في إحياء الليل وقراءة القرآن بشكلٍ مستمر كانت تؤدّي إلى أن يصبحوا أحباب الله وأن يمنحهم الله أيضًا «عناية» ولطفًا خاصًّا.

سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ (سورة **المزّمّل**، الآية ٢٠).

(١) سورة **المزّمّل**، الآية ٤.

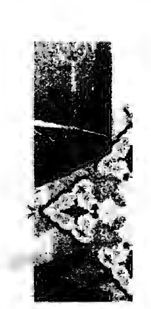


الجلسة الخامسة:

شهر رمضان شهر نزول القرآن







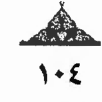
«وَالْحَمْدُ لِلّه الَّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ شَهْرَ رَمَضَانَ، شَهْرَ الصِّيَامِ، وَشَهْرَ الإِسْلَامِ، وَشَهْرَ الطَّهُورِ، وَشَهْرَ التَّمْحِيْصِ، وَشَهْرَ الْقِيَامِ، الَّذِي أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ»

رمضان شهر نزول القرآن

في تتمّة الدعاء، يعتبر الإمام السجادعليه السلام شهر رمضان المبارك أحد طرق نجاة الإنسان التي توصله إلى الرضوان الإلهي، ومن ثمّ يعدّد بعض صفات هذا الشهر العزيز وخصائصه. بحسب تعبيرهعليه السلام، فمن جملة ميزات شهر رمضان المبارك، ولعلّها أهمّ ميزة لهذا الشهر؛ الحدث العظيم المتمثّل بنزول القرآن الكريم فيه. ولكي يبيّن الإمامعليه السلام هذه الميزة المذكورة، يقرأ الآية الشريفة من سورة البقرة المباركة: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٥.





لقد صُرّح في الآيات القرآنية أنّ القرآن الكريم قد أُنزل في شهر رمضان المبارك. ولهذا السبب فهذا الشهر هو شهر ربيع القرآن، وإلى جانب المبادرة إلى الصلاة والصوم وسائر العبادات، فتلاوة القرآن كذلك هي إحدى العبادات المهمّة التي ينبغي الاهتمام بها في هذا الشهر.

سؤال: نزول القرآن في شهر رمضان المبارك بأيّ معنى هو؟

الجواب: في توضيح معنى هذه الآية وتفسيرها ذكر المفسّرون عباراتٍ مختلفة.

يعتقد أغلب مفسّري أهل السنّة أنّ المقصود هو بداية نزول القرآن في هذا الشهر. طبعًا فهذا بيانٌ ورأي عرفي وهو غير فني؛ وذلك لأنّه عندما يشرع أمرٌ ما في زمانٍ خاصٍّ فيقال عرفًا إنّ هذا العمل قد أُنجز في ذلك الزمان. ولكنّ هذا الرأي لا يتناسب مع الوضع التاريخي لنزول القرآن، إذ نحن نعتقد بأن النبيّ الأكرمﷺ قد بُعث في اليوم السابع والعشرين من شهر رجب، وبأنّ الآيات الأولى من سورة العلق قد نزلت عليه في ذلك الزمان أيضًا.

بعضهم الآخر يعتقد بأنّ عدّة آيات فقط من سورة العلق قد أُنزلت في بداية البعثة، ثمّ مرّت فترة لم تنزل فيها أيّ آية، ثمّ في شهر رمضان المبارك صارت آيات القرآن تنزل بالتدريج وبشكلٍ مستمر.

أمّا روايات الأئمّة المعصومينعليهم السلام في باب نزول القرآن فهي تشير إلى مسألة مهمّة؛ وهي أنّ القرآن قد نزل بنوعَين من النزول أو مرّتَين: في المرّة الأولى كان نزوله من اللوح المحفوظ أو من عند الله



إلى البيت المعمور[١]. وفي المرّة الثانية كان نزوله من البيت المعمور إلى القلب المقدّس للرسول الأكرمﷺ[٢]. أما نزول القرآن في شهر رمضان المبارك أو في ليلة القدر فهو عينه النزول الأوّل، ومن حينها صار ينزل على النبيّ الأكرمﷺ بالتدريج وعلى امتداد ٢٣ سنة.

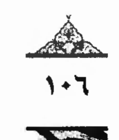
ليس المقصود من نزول القرآن النزول والهبوط الحسّي والمادي. ولفهم معنى النزول لا بدّ من مقدارٍ من التجريد والتلطيف. مضافًا إلى القرآن، ثمّة أمورٌ كثيرةٌ أيضًا يذكر الله في القرآن نزولها من عنده. وأساسًا فكلّ ما هو موجودٌ في هذا العالم إنّما هو صورة ونموذجٌ عن حقائق خزائنها عند الله تعالى، وهو قد أنزل علينا، على أساس حكمته ومصلحته، مقدارًا من تلك الخزانة التي لا نهاية لها: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ﴾[٣]، على أنّ بعض الموارد، مثل الحديد، قد ورد ذكرها في القرآن بشكلٍ خاص: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ

---

(١) في توضيح البيت المعمور، جاء في بعض الروايات ما يلي: هو بيتٌ في السماوات يحاذي مكّة أو الكعبة وتطوف حوله الملائكة؛ تمامًا مثل طواف الحجاج حول الكعبة على وجه الأرض. والبيت المعمور هو واسطة بين مقام اللوح المحفوظ وهذا العالم الذي نعيش فيه نحن البشر.

(٢) عَلِيُّ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ وَمُحَمَّدُ بْنُ الْقَاسِمِ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سُلَيْمَانَ، عَنْ دَاوُدَ، عَنْ حَفْصِ بْنِ غِيَاثٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِؑ، قَالَ: «سَأَلْتُهُ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾، وَإِنَّمَا أُنْزِلَ فِي عِشْرِينَ سَنَةٍ مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ؟ فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِؑ: نَزَلَ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً فِي شَهْرِ رَمَضَانَ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ، ثُمَّ نَزَلَ فِي طُولِ عِشْرِينَ سَنَةً» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٦٢٨؛ وراجع روايات أخرى في: محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٤، ص ١١؛ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١٠، ص ٣١٦، وسائر الكتب الروائيّة).

(٣) سورة **الحجر**، الآية ٢١.



فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾[١]. وبناءً عليه، فنزول القرآن هو كذلك كنزول سائر الأمور؛ لا ينبغي أن يكون نزولًا حسيًّا وظاهريًّا ومن المكان الأعلى إلى الأسفل، كما أنّ الخزائن الإلهية كذلك ليست مثل مستودعاتنا المادّيّة والحسّية؛ بل المقصود شيءٌ آخر.

لعلّ المقصود هو أنّ موجودات عالم المادّة قد وُجدت في ظروفٍ خاصّة. أما حضور هذه الموجودات ووجودها في العوالم الأخرى فيكون بنحوٍ آخر؛ وذلك لأنّ ذاك العالم من سنخٍ آخر ويختلف كثيرًا عن عالم الدنيا وهو أوسع منه. من الطبيعي أن تكون موجودات ذلك العالم هي أيضًا مختلفة عن موجودات هذا العالم. هذا الاختلاف كبيرٌ إلى درجة أنّ الله تعالى، ولكي يظهر هذا الاختلاف الكبير، يقدّم ذلك العالم على أنّه خزينة لهذا العالم ولموجوداته، مثل كوبٍ صغيرٍ من الماء أمام محيطٍ كبير لا نهاية له.

ما يشبه هذه التعابير كثيرٌ في القرآن. والأمر كذلك بما يخصّ الأسماء الإلهيّة أيضًا، يقول تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[٢]. إنّ تعبير «استوى» في هذه الآية ليس مثل استعمال هذه المادة في سورة الزخرف، إذ يقول هناك: ﴿لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾[٣]، حيث إنّ المقصود هو الاستيلاء والركوب الظاهري والمادي؛ أي حتى تركبوا على المراكب والسفن وتستفيدوا منها. لكنّ هذا المعنى لا يصدق على الله

---

(١) سورة **الحديد**، الآية ٢٥.

(٢) سورة **طه**، الآية ٥.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ۝ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ (سورة **الزخرف**، الآيتان ١٢ - ١٣).



تعالى؛ إذ ليس المقصود الركوب والجلوس والاستيلاء الماديّ والظاهريّ على العرش، كما ليس المقصود من العرش تلك الكرسيّ الماديّة والظاهريّة مثل عروش الملوك؛ بل المقصود هو حقيقة أعلى وأرقى من هذا، ولكن عندما يراد تبيان تلك الحقائق بنحوٍ يكون قابلًا للفهم عندنا، فلا مناص حينئذٍ من استعمال هذه التعابير والألفاظ، مع أنّ كُنه حقائق العالم العُلويّ لا يمكن أن يُبَيَّن من خلال هذه الألفاظ والعبارات.

وبناءً عليه، فنزول القرآن، وكل نزولٍ آخر، ليس بمعنى الهبوط من مرتبة مادية حسّية أعلى؛ بل بمعنى هبوط تلك الحقيقة من المرتبة الأعلى والرفيعة وإيصالها إلى مرتبةٍ أدنى وأسفل. نحن لا نفهم عن حقيقة النزول وعن العوالم العليا أكثر من هذا المقدار، وجهل البشر مانعٌ كبيرٌ أمام إدراك حقائق العالم.

أمّ الكتاب واللوح المحفوظ

التعبير الآخر الذي جاء في القرآن والذي تكرّرت الإشارة إليه في الروايات أيضًا هو تعبير: «اللوح المحفوظ»، ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[1]، على أنّ المقصود من اللوح المحفوظ ليس واضحًا عندنا. من المتيقّن أنّه أيًّا يكن المقصود فاللوح ليس ماديًّا كما أنّ الكتاب والدفتر ليس حسّيًّا وماديًّا؛ ذلك أنّه، وبحسب ما ورد في القرآن وبيانات أهل البيت عليهم السلام، فليس القرآن فحسب؛ بل جميع موجودات عالم الوجود من البداية وحتى النهاية، مسجّلة في ذلك اللوح

(١) سورة **البروج**، الآيات ٢١ - ٢٢.



المحفوظ، ونحن، مع ما لدينا من حدودٍ مادية ونقصٍ وجهل، لا نتوقّع أن ندرك حقيقته، ومهما استعنّا بقدرة عقلنا وجرّدنا المفاهيم، فمع ذلك لا نصل إلى كنهه. نعم؛ كلّما تعالى الإنسان وابتعد عن هذه المادية، والنقص والجهل، فالله تعالى سيمنحه بالمقدار نفسه فيض إدراك حقائق العالم، والقرآن الكريم يعتبر أنّ إدراك هذه الأمور خاصٌّ بالأفراد المطهّرين من الجهل والنقص: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾[1]. القرآن كتابٌ مكنون وأمرٌ سرّيٌّ ومستور. مثل هذا الأمر الهام لا يمكن إلّا لمجموعةٍ «مطهّرة» و«معصومة» أن تمسّه وتلمسه وتتّصل به[2].

إجمالًا ينبغي أن نفهم أنّ الله تعالى له علوّ، وكل ما يكون أقرب إلى ذلك الوجود المقدّس والمتعال فسيكون له هذا المقام والمنزلة.

---

(١) سورة **الواقعة**، الآيات ٧٨ - ٧٩.

(٢) حقيقة «المسّ» و«اللّمس» هي أيضًا مستورةٌ عنّا، وكذلك ليس واضحًا أيضًا نوع الارتباط مع الكتاب المكنون. هل المسّ هو نفسه إدراك وفهم كتاب الله أم هو أمرٌ آخر؟ فعلى سبيل المثال نزول الأمين جبرائيل‌عليه السلام على قلب رسول الله‌صلى الله عليه وآله أو نزول القرآن على قلبه الكريم بواسطة ملاك الوحي؛ هذه المطالب بهذا السياق معقّدة وإدراكها صعب. وعندما يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ (سورة **الشعراء**، الآيات ١٩٢ - ١٩٥) فهنا نزول الملك بأيّ معنى؟ وما المقصود من «قلب النبي»؟ ثمّ إنّ تنزيل القرآن وإنزاله على قلبه، سواءً أكان مباشرًا أم من خلال الملك، بأيّ معنى هو؟ ما معنى جعل القرآن في الكتاب المكنون؟ وأحيانًا كذلك كانت آيات القرآن تُعرَض عليه‌صلى الله عليه وآله على شكل كتابات يعرضها جبرئيل مع مشايعة آلاف الملائكة الآخرين ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٞ قَيِّمَةٞ﴾ (سورة **البيّنة**، الآيتان ٢ - ٣). جميع هذه الأمور من المسائل المعقّدة والمبهمة، وإدراك حقيقة هذه الأمور مليءٌ أيضًا بالأسرار الصعبة والمشكلة، وعلمها عند أهل البيت‌عليهم السلام. طبعًا فقد طرح بعضهم مسائل بالاستعانة بالقرآن وبيانات أهل البيت‌عليهم السلام ولكنّ حقيقة هذا الأمر مستورة عن الجميع، باستثناء عدّة قليلة من مفسّري القرآن وشارحيه الحقيقيين؛ أي أهل بيت العصمة والطهارة‌عليهم السلام، والله أعلم.



طبعًا فهذا المقام وهذه المرتبة ليست بمعنى العلوّ والأفضلية الجسمانية؛ بل هذا العلوّ والأفضليّة هو بلحاظ المرتبة الوجوديّة. في القرآن الكريم يشير الله تعالى إلى تلك المرتبة المعنويّة والوجوديّة الرفيعة؛ حيث يقول: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾(١). وبناءً عليه، فالنزول والتنزيل بمعنى الهبوط والتنزّل من هذه المرتبة الوجودية حتى يصير إدراكه وفهمه ممكنًا للإنسان في العالم المادي والأدنى.

يقول العلّامة الطباطبائي رحمه الله في تفسير «أمّ الكتاب»(٢):

«الكتاب في موطنه الأصلي وراء تعقّل العقول... والمراد بكونه عليًّا على ما يعطيه مفاد الآية السابقة أنّه رفيع القدر والمنزلة من أن تناله العقول، وبكونه حكيمًا أنه هناك محكم غير مفصّل ولا مُجزّى إلى سور وآيات وجمل وكلمات كما هو كذلك بعد جعله قرآنًا عربيًّا كما استفدناه من قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٣).

وهذان النعتان؛ أعني كونه عليًّا حكيمًا هما الموجبان لكونه وراء العقول البشرية، فإنّ العقل في فكرته لا ينال إلا ما كان من قبيل

---

(١) سورة **الزخرف**، الآية ٤.

(٢) عرض العلامة الطباطبائي رحمه الله في كتابه الثمين **الميزان** مباحث مفصّلة في تفسير «أمّ الكتاب»، وذلك ضمن المباحث المرتبطة بالآيات: السابعة من سورة **آل عمران**: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞ﴾، والتاسعة والثلاثين من سورة **الرعد**: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، والرابعة من سورة **الزخرف**: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾، وفي أواخر سورة **الجاثية**.

(٣) سورة **هود**، الآية ١٠.



المفاهيم والألفاظ أوّلًا، وكان مؤلّفًا من مقدّماتٍ تصديقيّة يترتّب بعضها على بعض كما في الآيات والجمل القرآنية، وأما إذا كان الأمر وراء المفاهيم والألفاظ، وكان غير متجزّئٍ إلى أجزاء وفصول فلا طريق للعقل إلى نيله.

فمحصل معنى الآيتَين: أن الكتاب عندنا في اللوح المحفوظ ذو مقام رفيع وإحكام لا تناله العقول لذينك الوصفَين، وإنما أنزلناه بجعله مقروًّا عربيًّا رجاء أن يعقله الناس»[1].

هذه الخطوط التي نكتبها على الورق بصفتها آيات القرآن، والأصوات التي نصدرها من خلال قراءتنا للقرآن، أو المعاني والمفاهيم التي تخطر في أذهاننا من هذا النصّ، ليست هي ذلك الشيء المحفوظ عند الله؛ بل هذه جميعها انعكاسات من تلك الحقيقة النورانية المليئة بالأسرار والإشارات، التي نزلت على القلب الكريم لرسول الله صلى الله عليه وآله، وكأنّنا نلتقط صورةً عمّا أنزله الله على قلب النبي صلى الله عليه وآله، ونتذكّر صوتًا يشبه الصوت الذي يتلوه النبي صلى الله عليه وآله... ونتصوّرها في أذهاننا، ومن ثمّ نقرؤها ونجريها على ألسنتنا. وبحسب تعبير العلّامة الطباطبائي رحمه الله فما هو موجودٌ في أيدينا وما يستطيع عقلنا أن يدركه، ليس هو عينه القرآن الموجود في اللوح المحفوظ وأمّ الكتاب؛ بل هو مَثلٌ عن ذلك المُمَثّل، وعقلنا ليس لديه قدرة على إدراك المُمثَّل، وإنّما يدرك مَثَلًا فحسب من بين تمام حقيقة ذلك المُمثَّل، وهذا المَثل ليس إلا مَثَل ذلك المُمَثّل؛ وذلك لأنّ آيات القرآن

(١) السيد محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج ١٨، ذيل الآية الرابعة من سورة **الزخرف** ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾.



تشير إلى هذا القرآن حيث تقول: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾[١]؛ ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾[٢]. ولكن لمّا كان العقل البشري عاجزًا عن إدراك الممثَّل، فقد جيء له بمَثَلٍ حتى يُفهم![٣].

على أنّ قراءتنا للقرآن أو كتابتنا التي نكتبها على الورق بصفتها قرآنًا، لها بحدّ ذاتها القيمة النورانيّة والقداسة؛ وذلك لأنّها انعكاس لتلك النورانيّة والقداسة الحقيقيّة. طبعًا فهو يُكتَب بذلك القلم وعلى ذاك الورق الذي ليس له بحدّ ذاته أيّ قداسة ونورانيّة؛ ولكن بسبب ارتباطه بنورانيّة القرآن الحقيقيّة فهو منوّرٌ ومقدّس، وعلامة هذه القداسة هو أنّه لا يحقّ لنا أن نلمسه بدون طهارة؛ إذ إنّ كلًّا من هذه الألفاظ والأصوات يُعبّر عن حقائق وبواطن هي عينها حقيقة القرآن، والنورانية الداخلية شرطٌ لكي يدرك الإنسان باطن القرآن وحقيقته، كما لا بدّ من صفاء الباطن ومن نورانيّةٍ مثل نورانيّة المرحوم كربلائي كاظم[٤].

---

(١) سورة **البروج**، الآيتان ٢١ - ٢٢.

(٢) سورة **الواقعة**، الآيتان ٧٧ - ٧٨.

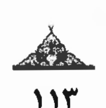
(٣) السيد محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج ١٨، ذيل الآية الرابعة من سورة **الزخرف** {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ}.

(٤) كربلائي كاظم، المدفون حاليًا في المقبرة الجديدة في مدينة قم، كان شيخًا مزارعًا وقرويًّا ذا لباسٍ ومظهرٍ بسيط. لم يذهب إلى مدرسة كما لم يكن متعلّمًا ومثقّفًا؛ بل حتى لم يكن يعلم كيف يكتب اسمه! ولكن بعد سنوات من الحياة في عالم الأمّيّة، أُلهِم إليه فجأةً تمام القرآن وبشكلٍ كاملٍ إعجازيّ. كان ابن أحد المزارعين، وسمع أحد العلماء على المنبر يقول إنّ دفع الخمس وزكاة الأموال واجب، فذهب إلى والده (أو إلى سيّده حسب نقلٍ آخر) وطلب منه أن يدفع الخمس وزكاة ماله حتمًا، ولكنّه امتنع عن ذلك. عندها عزم كربلائي كاظم على أن ينفصل في حياته عن والده، فطلب منه قطعة أرضٍ فوافق وأعطاها له. ذهب كربلائي كاظم وأخذ الأرض وانفصل عن والده،



نتيجةً للأهلية التي توفّرت عنده، منحه الله عنايةً جعلته يدرك نورانيّة باطن القرآن الكريم. لم يكن يستطيع التمييز حتى بين حرفَين مكتوبَين على ورقةٍ إلى جنب بعضهما إذا كان أحدهما يشبه الآخر،

دفع خمس الأرض وصار يحرثها ويزرعها بعرق جبينه ويمضي أوقاته في تلك الأعمال. في يومٍ من الأيام، وبينما هو في مزرعته يعمل أو يستريح، إذ يرى عدّة أشخاصٍ محترمين وكبار يقتربون منه ويطلبون منه عنوان الضريح الموجود في تلك القرية لأحد أبناء الأئمّة عليهم السلام، فيعطيهم عنوانه. ثمّ طلبوا منه أن يذهب بنفسه معهم، ففعل ذلك حتى وصلوا إلى المقام، وإذ بكربلائي كاظم يراه في ذلك اليوم بشكلٍ عظيمٍ ونوراني. ثمّ يطلب منه هؤلاء السادة أن يقرأ آيات القرآن المكتوبة على جدار المقام فيقول لهم كربلائي: أنا أمّيّ ولا أعرف القراءة، ولكنّهم يصرّون. نتيجةً لإصرارهم الكبير ينظر كربلائي كاظم ويلتفت حينها إلى أنّه يعرف كل تلك الآيات كما لو أنّها مطبوعةٌ في قلبه، فتصيبه حالةٌ من الغشوة ويغيب عن الوعي لعدّة ساعات إلى أن عثر عليه الأهالي قرب الضريح. بعد استيقاظه لم يعد يرى هؤلاء الأشخاص المحترمين والكبار، ولكنّه يلتفت إلى أنّه بات حافظًا لكل القرآن بنحوٍ يعلم معه كلّ آيةٍ من القرآن وجميع مسائلها، وخصوصيّاتها، وخواصّها العلاجية، والأمور الأخرى المرتبطة بها. شيئًا فشيئًا صار معروفًا، وأخذوه إلى مجلس العلماء الذين اختبروه وتيقّنوا بصدقه في ادّعائه العجيب وبالإعجاز القرآني. حتى أن الشهيد نوّاب صفوي رحمه الله اصطحبه معه إلى مصر وعرّفه أمام علمائها. كما ينقل المرحوم الشيخ مرتضى الحائري رحمه الله، الذي تشرّفنا بالتتلمذ عليه وتقبيل يده، فيقول: «وضعت كتاب جواهر الكلام أمام كربلائي كاظم، وفي الطبعات القديمة من هذا الكتاب كانت آيات القرآن، والروايات، وتعابير الفقهاء، وكلام المؤلّف، جميعها يُكتَب بنمطٍ واحد دون أن يكون بينها أيّ اختلاف ظاهري. قلت له: هل ترى شيئًا من القرآن في هذه الصفحات؟ فجأةً رأيته قد وضع يده فوق بعض الكلمات وقال: هذه آيات القرآن. قلت له: من أين علمت ذلك؟ وما هو الفرق بين هذه الكتابات؟ فقال كربلائي كاظم: آيات القرآن منوّرة، ومن نورها أعلم أنّها آية قرآنية». أي إنّ هذا الورق وهذه الكتابة مرتبطة بحقيقة القرآن وهو ما يراه كربلائي كاظم؛ أما كيف؟ فلا نعلم! ولماذا لا يرى الآخرون هذه النورانية؟ لا نعلم كذلك! يكفي أن تُفتَح عين القلب، وأن تتوفّر الأهلية حتى يرُى أيضًا كثيرٌ من الأمور التي لا تُرى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة **الحجّ**، الآية ٤٦).





ولكن إذا ما كُتب أحد الحروف بنيّة كونه حرفًا قرآنيًا، كان يعرف ذلك الحرف ويرى فيه نورانيّة القرآن[١].

هذا الحرف بحسب الظاهر من سنخ ذاك الحرف، قد كُتب بالحبر نفسه وعلى ورقٍ واحد ومن كاتبٍ واحد، ولكن فقط نيّة الكاتب حين الكتابة مختلفة. لقد باتت روح الإنسان الكاتب واسطةً حتى ترتبط هذه الكتابة مع حقيقة القرآن وتتنّور من أنواره[٢].

وفي الحقيقة، فقد أعطى الله الإنسان القدرة على أن يجعل، بإرادته، صفحة ورقٍ مظهرًا للنور الإلهيّ، أفلا يمكن لهذا الإنسان، مع مثل هذه القدرة الإعجازيّة، أن يغير نفسه؟

---

(١) يقول سماحة آية الله خزعلي: «كتب أحدهم على ورقةٍ حرفَي (واو)؛ (واو) بقصد الحرف العادي و(واو) أخرى بقصد الحرف القرآني. وعند عرض هذه الورقة على كربلائي كاظم قال: هذه الواو (أي تلك الواو التي كانت قد كُتبت بقصد الحرف القرآني) من الحروف القرآنيّة؛ لأنّ لها نورًا»؛ أي إنّ قصد الكاتب ونيّته بذاتهما يجعلان الحرف نورانيًّا ويمتدّ شعاعٌ من ذلك النور الأصليّ عند الله إلى هذا الحرف؛ أي إنّ روح ذلك الإنسان الكاتب أو الطابع واسطةٌ في أن تتنوّر الحروف والألفاظ وتكتسب نورًا من حقيقة القرآن النورانية. الأفراد الذين لديهم الأهلية، مثل كربلائي كاظم، يدركون ذلك ويجدونه، أما نحن فلا نعلم سرّه.

(٢) يُنقل ما يلي: «كان في همدان شخصٌ حافظ للقرآن باسم «آقا سيد يوسف»، ذهب للمرّة الأولى لزيارة المرحوم الملّا علي همداني. قال له المرحوم الآخوند: «يا سيد يوسف، إذا أحرق أحدٌ القرآن، فماذا يصير؟»، أجابه آقا سيد يوسف: «لا سمح الله يا سيد، أيجرؤ أحدٌ على أن يحرق القرآن؟!» حينها قال له المرحوم الآخواند: «أوليس القرآن إلا هذه الخطوط المكتوبة على الورق مثل سائر الكتب؟ إذا كانت هذه الكتابات التي كانت كُتبت على الورق بقصد القرآن محترمةً ولا يجوز أن تُحرَق، إذًا أليس القلب الذي كُتب عليه القرآن محترمًا كذلك؟ هل تتصوّر أنّ الله يحرقه بالنار؟ وهل قيمة واحترام القلب الذي حفظ القرآن أقلّ من الورق؟ وبخاصة إذا ما طُبعت على قلبه آثار القرآن كما طُبعت حروفه وألفاظه، فسيظهر فيه معناه وحقيقته أيضًا، وسيشرق عليه نور القرآن أيضًا»». وعلى أيّ حال، فقد بشّر المرحوم الآخوند «آقا سيّد يوسف الهمدانيّ» بأن الله لن يحرقه بالنار؛ لأنه قد وفّقه ليكون حافظًا للقرآن الكريم.





حقيقة النزول على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

سؤال: كيف كان نزول القرآن على قلب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم؟

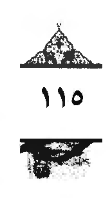
الجواب: إنّ حقيقة هذا الأمر هي أيضًا مستورةٌ عنا، ولكن قد يمكننا أن نتصوّر أنّ روح النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هي وجود ذو مراتب، وأنّ لروحه صلى الله عليه وآله وسلم حقيقة نورانيّة شديدة لعلّ أحدًا لا يستطيع الوصول إلى إدراكها وتحمّلها سوى أهل البيت عليهم السلام الذين هم «مطهّرون» وقادرون على إدراك «اللوح المحفوظ والكتاب المكنون». لعلّه وحدها الأنوار المقدّسة لمثل أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام قد رأت ذلك النور وأدركت حقيقته. أمّا أمثالنا نحن، فحتى وإن رأينا ذلك الوجود المقدّس فإنّنا نراه كما يراه الآخرون ولا ندرك حقيقة وجوده.

إن مرتبةً من الوجود النوراني للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم تنكشف لها تلك الحقيقة النورانيّة للقرآن فتدركها، وحقيقة القرآن في هذه المرتبة ليست الألفاظ المتكثّرة التي نراها نحن؛ بل هي نورٌ بسيط ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾[1]، اللهمّ تكون بنحوٍ يتلقّاه ويتحمّله قلب إنسان رفيع المقام مثل الوجود المقدّس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم.

طبعًا فحقيقة ذلك النور ليست مكشوفة لنا، ولكنّ المقدار الواضح لدينا هو أنّه ليس من سنخ الأنوار الطبيعيّة، وإنما هو وجودٌ متعالٍ شبيه بالأنوار الإلهيّة القدسيّة: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١٥.



نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[١]. هذه الحقيقة النورانية ذات مراتب؛ فمرتبة من نورانيّة القرآن لها مقام «ما عند الله»، ومرتبةٌ أخرى منها قد تنزّلت في قالب الألفاظ والعبارات والأصوات والمفاهيم؛ أي إنّ تلك الحقيقة البسيطة نفسها تتكثّر مع تنزّلها إلى عالم الدنيا والعالم الأدنى. هذا الأمر يشبه الأنوار الشديدة والضعيفة الموجودة في الطبيعة، حيث يمكن للجميع أن يرى الأنوار الضعيفة، ولكنّ الأنوار القويّة الشديدة، مثل نور الشمس، لا بدّ من النظر إليها من خلال النظّارات الخاصة وإلا فستتأذّى عين الإنسان.

طبعًا فما ينزل على قلب النبيّ ﷺ صحيحٌ أنّه مرتبة نازلةٌ من تلك الحقيقة النورانيّة، ولكن مع ذلك فهو ليس بالأمر الذي ندركه نحن؛ ما ندركه نحن، وما نشاهده ونسمعه، ليس إلا صورةً، نقلًا، وإشارةً من تلك الحقيقة النازلة على قلبه المقدس ﷺ. طبعًا فكلما زادت أهليّة الإنسان واستعداده وصار قلبه أكثر جهوزيّةً لتلقّي نورانيّة القرآن، زاد - بالنسبة نفسها - تنوّره بنور القرآن وتقدّسه به؛ إلى درجة أنّ قلبه إنْ كان حافظًا للقرآن فالله تعالى لن يحرق ذلك القلب بالنار.

وبناءً عليه، فإنّ معنى ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ هو أنّ تمام القرآن قد أشرق مرّةً واحدةً في ليلة القدر من شهر رمضان المبارك، وبصورة حقيقةٍ نورانيّة وبسيطة، على القلب المقدّس لرسول الله ﷺ، وهو ما تحمّله وجوده المقدّس ﷺ. ثمّ عندما أشرق ذلك النور الإلهيّ على الألفاظ صار عندنا هذا القرآن الذي نراه ونسمعه. ثمّ إنّ المقصود من النزول هو التنزّل من رتبة أرقى وأعلى، أي من مقام

(١) سورة **النور**، الآية ٣٥.

«ما عند الله»، إلى مرتبةٍ أدنى، أي القلب المقدّس للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، ومن ثمّ إبلاغه للناس من خلاله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو ما تمّ بدوره في قالب الألفاظ والأصوات.



الجلسة السادسة:

أهمّيّة مقام القرآن





«وَالْحَمْدُ لِلّه الَّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ شَهْرَ رَمَضَانَ، شَهْرَ الصِّيَام، وَشَهْرَ الإِسْلَام، وَشَهْرَ الطَّهُورِ، وَشَهْرَ التَّمْحِيْصِ، وَشَهْرَ الْقِيَامِ، الَّذِي أُنْزِلَ فِيْهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ، وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقَانِ»

أهمية مقام القرآن

في هذا الدعاء يعتبر الإمام زين العابدين عليه السلام أنّ شهر رمضان المبارك هو أحد الطرق التي توصل الإنسان إلى منزل السعادة والسرور؛ أي الرضوان الإلهي. ومن ثمّ يتمسّك عليه السلام في مقام توصيفه لهذا الشهر الشريف بهذه الآية الشريفة: ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾[1].

لعلّ الفضيلة الكبرى لشهر رمضان المبارك هي الحدث المهم المتمثّل بنزول القرآن فيه، والذي تتّضح أهميته عندما نعلم أن القرآن

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٥.

قد أُنزل في ليلة القدر التي تقع أيضًا في هذا الشهر المبارك: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[(١)].

إن اكتساب ليلة القدر وشهر رمضان المبارك أهمّيتهما من نزول القرآن فيهما يظهر عظمة حقيقة القرآن النورانية؛ فعظمة القرآن وأهمّيته بالغة إلى درجة أنّ هذه الأهمّية والشرف يسريان إلى ظرف نزول هذا القرآن الكريم. ولا يبعد أيضًا أن تكون سائر فضائل شهر رمضان المبارك وليلة القدر إنّما هي ببركة فضيلة نزول القرآن؛ ذلك أنّنا نعتقد بأنّ القرآن هو الهديّة الإلهية الكبرى للإنسان. إنّ عظمة القرآن لا يمكن مقارنتها مع أيّ شيءٍ آخر، وفي أهمّية مقام القرآن ومكانته يكفي أنّ الوجود المقدس لحضرة مولى الموحّدين أمير المؤمنين‌عليه‌السلام قد أطلق في مقام توصيفه للقرآن تعابير تظهر أنّه لا يمكن بيان حقائق القرآن بشكلٍ صحيح وأنّ مقام القرآن ليس في حدّ فهمنا وإدراكنا: «إِنَّ الْقُرْآنَ ظَاهِرُهُ أَنِيقٌ وَبَاطِنُهُ عَمِيقٌ لا تَفْنَى عَجَائِبُهُ وَلَا تَنْقَضِي غَرَائِبُه»[(٢)].

ولعله لهذا السبب كان بعض الأفراد حين نزول القرآن يسخرون من آياته، وعندما كانت تنزل آياتٌ حول بعض الأمور التي قد تظهر

---

(١) سورة **الدخان**، الآية ٣. بعضهم تصوّر خطأً أنّ النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله عندما تلقّى نور القرآن كانت ألفاظه وكلماته وخطوطه منه‌صلى‌الله‌عليه‌وآله وليست من الله. هذا التصوّر خاطئ، فقد أنزل الله آيات القرآن بنمطٍ خاص ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ﴾ (سورة **عبس**، الآيات ١٣ - ١٦). فالله تعالى كتب بنفسه آيات القرآن في صحف نورانية وأنزلها بالألفاظ والعبارات عينها. ثمّ قام رسول الله‌صلى‌الله‌عليه‌وآله بعد تلقّيها، بإبلاغها للناس بالصورة نفسها التي تلقّاها بها؛ دون زيادة ولا نقصان. وبناءً عليه، فما نراه، وما نسمعه وما نقرأه، هو عينه كلام الله تعالى.

(٢) **نهج البلاغة**، ص ٦١، الخطبة ١٨.



لهم أنّها ساذجة؛ مثل البعوضة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾[١] أو الذباب ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾[٢]، كانوا يضحكون وينظرون بعضهم إلى بعضٍ ويقولون: كيف يمكن لهذا الكتاب الذي يطرح هذه المسائل الساذجة والبدائيّة أن يزيد من إيمان الإنسان؟ ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا﴾[٣]. في حين أنه كان ثمّة في المقابل أشخاص حتى من غير المسلمين ومن أهل الكتاب، عند استماعهم لآيات القرآن النورانية ترتجف قلوبهم من الخضوع أمامه، وتجري الدموع من عيونهم ويؤمنون به مباشرةً، ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[٤].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٦.

(٢) سورة **الحج**، الآية ٧٣.

(٣) سورة **التوبة**، الآية ١٢٤.

(٤) ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة **المائدة**، الآيتان ٨٢ - ٨٣). سافرنا قبل عدّة سنوات إلى أمريكا الجنوبية. وفي مدينة ريو دي جانيرو البرازيلية كان هناك جامعة تابعة للكنيسة، كما كانوا قد بنوا كنيسةً للجامعيين إلى جانب الجامعة. دُعينا في إحدى الليالي حتى نتحدّث مع القساوسة والأساقفة والراهبات. في تلك الجلسة جلس في الصف الأول أساقفة وقساوسة متقدّمون وطاعنون في السن مع لحًى في غاية البياض، و كان عدّةٌ من أعضاء الجلسة راهبات، وبعضهنّ غير معروفاتٍ في الواقع، حيث اكتشفنا في ذلك السفر عندما ذهبنا للقاء أسقفٍ كان إلى جواره كنيسة ودير؛ اكتشفنا أنّ ذلك الدير تعيش فيه راهبات ما يزلن من أوائل سنيّ شبابهنّ وحتى ذلك الوقت لم يخرجن من الدير ولم يتعرّفن على أيّ شيءٍ آخر غير الإنجيل، وهنّ إمّا في حال العبادة والدعاء وإمّا في حال قراءة الإنجيل وشرحه، دون أن يكون لهم أيّ تواصل مع المحيط الخارجي. وعلى أيّ حال، فقد تقرّر



هؤلاء مع أنهّ لم يكونوا مؤمنين ولا حتّى مسلمين، ولكن لمّا كانوا بعيدين عن الغرور، فقد تهيّأت عندهم الأرضيّة المناسبة لقبول الحق، وهذه الأهليّة التي كانت عندهم أدّت إلى أن لا يتركهم الله تعالى، بل يهديهم.

إن للقرآن عظمةً إلى حدّ أنّ إنسانًا معصومًا مثل حضرة مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام يقدّمه على أنّ حقيقته في غاية العمق ولا يمكن إدراكها، كما أنّ له نورانيّةً تنوّر الحروف، والكلمات، والعبارات، وتجعل قلوب غير المسلمين ترتجف وبهذا النحو، نورانيّته عندما تشرق على حرفٍ ما أو على كلمةٍ أو عبارة تجعلها منوّرةً ومقدّسةً بحيث لا يمكن لمسها دون وضوء.

ليس للقرآن مدّة لانتهاء الصلاحية

إذا لم يكن قلب الإنسان نورانيًا ولم يكن مؤمنًا ومتّقيًا؛ فحتى لو كان علّامة دهره وكان متخصّصًا في العلوم الإلهيّة والدينيّة؛ فذلك لن ينفعه ولن يوصله إلى أيّ مكان. إن نتيجة عمى الباطن والانحراف عن المسير الإلهي هي الغرور والتكبّر العلمي الكاذب الذي يجعل صاحبه يشكّك حتى في أوضح المسائل والأركان الاعتقادية أيضًا.

إنّ ما يدعو إلى التأسّف البالغ هو أنّ عـدّةً من المسلمين ـ بحسب الظاهر ـ ومدّعي التنوّر، يقفون هذه الأيام لينتقدوا هذا

أن نتحدّث للأساقفة والقساوسة الحاضرين قليلًا حول الدعاء من وجهة نظر الإسلام، وبهذه المناسبة خطرت في بالي عباراتٌ من دعاء عرفة، فقرأتها هناك ورأيت الدموع تنهمر من عيون القساوسة وكبار السنّ الجالسين في الصف الأمامي. وكذلك في الأرجنتين كان هناك قسّيس يتتبع برامجنا كل يوم حتى يشارك هو أيضًا في كلّ محاضرةٍ لنا.



الكتاب السماويّ العظيم؛ وبالاستناد إلى جهالتهم يعتقدون بأنّ القرآن ليس له حجّية واعتبار، إذ إنّ مضمونه يرتبط بعصر الحياة القَبَليّة قبل أكثر من ألف عام، وبالتالي فهو غير نافعٍ ليومنا هذا، وقد انتهت مدّة صلاحيّته!

هؤلاء، ونتيجةً لانحرافهم الفكري حول الوجود المقدّس لشخصيّةٍ مثل رسول الله ﷺ، يعتقدون أيضًا بأنّه ﷺ هو كذلك مثل المرتاضين قد اعتكف حتّى أصابته في النهاية حالة من الخلسة والغشيان (الغيبوبة) في غارٍ قرب مدينة مكّة. وبينما هو كذلك وكأنّ شخصًا يقول له: ﴿ٱقۡرَأۡ﴾، أو لعلّه لم يسمع كلامًا حتّى، وإنّما عرضت له تلك الحالة وصدرت كلمة ﴿ٱقۡرَأۡ﴾ من تلقاء نفسه! ومنذ ذلك الحين صار يطرح مسائل أكثر ارتباطها هو بالحياة العشائرية والقَبَلية لآبائه وأجداده؛ مسائل من قبيل تعدّد الزوجات الذي كان رائجًا في ذلك العصر في حياة الحجاز القَبَليّة، وبناءً عليه فقد أوصى أصحابه بأنّه يمكنكم أن تتزوّجوا حتى أربعة نساء[١]؛ أو لمّا كان الناس في ذلك الزمان والمكان يتّسمون بالشدّة والعنف، فلكي يردعهم عن الفواحش وفعل السوء، فقد أمر بأن يُجلد مرتكبو الفواحش[٢].

هذه الأحكام كان ﷺ يبثّها من تلقاء نفسه وبعد تلك الحالة من «الخلسة» (التي كانت تنتابه)، وأيٌّ من هذه الأحكام لم يكن صادرًا من الله تعالى؛ وإنما كانت تُبيَّن بناءً على مقتضيات الزمان والمكان

---

(١) ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (سورة **النساء**، الآية ٣).

(٢) ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ وَلۡيَشۡهَدۡ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (سورة **النور**، الآية ٢).

الذي كان النبي ﷺ يعيش فيه. ولهذا السبب فهذه الأوامر والأحكام الموجودة لا تناسب ظروف المجتمع البشري هذه الأيّام، وقد انتهت مدّة صلاحيتها!

وفي ما يتعلّق بوجود الله وبراهين إثبات وجوده، يعتقد هؤلاء العدّة من «المتنوّرين» عُميُ القلوب أنّه ليس لدينا أيّ دليل وبرهانٍ على وجود الله، وأنّ جميع أدلّة إثبات وجوده مخدوشة، وحتى لو سلّمنا بوجوده، فلا دليل على صدق ما يقال في هذا الإطار وصوابه؛ إذ القول بحُسن الصدق أمرٌ اعتباري والاعتبارات غير برهانيّة! كما أننا لا نملك برهانًا على كون الله لا يكذب، بل من الممكن أن يكون كلّ ما يُنسَب إلى الله وكلّ ما يقوله كذبًا! أعاذنا الله من شرورهم[١].

إن نتيجة سقوط الإنسان وهبوطه هو أن يصدر منه هذه الكلمات السخيفة والمتهتّكة بحقّ أقدس أسس القيم الاعتقادية وأصولها[٢]. هذه المجموعة[٣] قد سقطت إلى مرتبةٍ ابتلاهم الله فيها

---

(١) مع الأسف فهذه البيانات السخيفة قد صدرت من أستاذ مُنظّر في الفكر الإسلامي أثناء درسه في كليّة الإلهيّات من جامعة طهران في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، والأعجب من ذلك أنّ رجال الدولة (رئيس الجمهورية الإسلامية في ذلك الحين) يقول في مجلس الشورى الإسلامي: «إننا نفتخر بوجود مثل هؤلاء الأفراد»!

(٢) ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ...﴾ (سورة **الروم**، الآية ١٠).

(٣) ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ (سورة **الروم**، الآية ٢٩)؛ وكذلك يقول في الآية الثالثة والعشرين من سورة **الجاثية**: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. واقع حال هؤلاء أن الله وضع ختمًا على قلوبهم بحيث تمتنع بعد ذلك إمكانية هدايتهم ونجاتهم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٧).





بالضلالة وختم على قلوبهم. وبحسب تعبير القرآن، فهم أضلّ وأحقر حتى من الحيوانات(١).

هذه الكلمات إذا ما قارنّاها مع الكلام الحكيم لأمير المؤمنين عليه السلام فهي إنّما تعبّر عن جهل قائلها وحماقته. إنّ منتهى عدم الإيمان وعدم التعقّل أن نعتبر أنّ فهم العقل البشري القاصر هو المعيار لتقييم آيات القرآن ومضمونها الراقي والملكوتي. هؤلاء لا يمكن أن يقال إنّهم مشتركون في الإنسانية مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعليّ المرتضى عليه السلام؛ وإنّما هم عدّةٌ من عمي القلوب الذين سلب الله من قلوبهم نور الإيمان، نتيجةً لعدم استحقاقهم ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾(٢).

إذا كان إثبات حقّانية القرآن واعتباره تابعًا لتجارب حفنة من الكفّار عُمي القلوب؛ فأيّ صلاحيّة بعد ذلك ستكون له عندنا؟ مثل هذا القرآن كيف يمكنه أن يكون معيار الحق والباطل، والصحيح والسقيم؟ إن مثل هذا الرأي هو نتيجة لعَمى الباطن الذي اكتسبوه على أثر فهمهم الأعوج والانحرافات والمعاصي. نعم؛ قد يصل الأمر بالإنسان المسلم أن يُمضي سنواتٍ من العبادة ويدّعي أيضًا معرفته بالإسلام، ثمّ يصبح المصداق البارز للآية الشريفة التالية: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ

---

(١) ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (سورة **الأعراف**، الآية ١٧٩).

(٢) سورة **النور**، الآية ٤٠.

أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

هذا قانون وسنة إلهيّة لا تتخلّف؛ فعندما يوصل الإنسان نفسه إلى تلك الدرجة من الأهليّة التي يكون قلبه معها جاهزًا لتلقّي أنوار القرآن، فالله يمنحه إياها؛ سواء أكان كربلائي كاظم أم أيّ شخصٍ آخر من طرفٍ آخر. وعندما يهبط الإنسان بنفسه إلى هذه المرتبة من الذلّة والضلالة، فالله يجعله كذلك أكثر ضلالة، ويسلب منه تمام نورانيّته الداخلية ورؤيته الصحيحة. حتى وإنْ كان إلى آخر عمره عابدًا وزاهدًا أو عالمًا وحكيمًا، إذا ما سلّم زمام عقله وقلبه للهوى والشهوة، فعليه أن يتوقّع مثل هذا السقوط وعمى القلب: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[٢].

كان بلعم بن باعوراء قد وصل إلى درجاتٍ عالية من العرفان ومعرفة النفس وتهذيبها، إلى حدّ أنْ بات لديه مقام العلم باسم الله الأعظم وبات مستجاب الدعوة؛ وبتعبير القرآن، فقد آتاه الله آيات

(١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة **البقرة**، الآيتان ٦ - ٧)؛ وفي سورة **يس** المباركة يقول عنهم: ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (سورة **يس**، الآيتان ٩ - ١٠).

(٢) ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة **الأعراف**، الآيتان ١٧٥ - ١٧٦).





وعلاماتٍ منه، ولكنّ حبّ الدنيا واتباع الأهواء النفسانية قد أخلده إلى الأرض، وبالنتيجة فقد هبط بنفسه إلى مستوى الكلب.

لم يعقد الله عقد الأخوّة مع أي شخصٍ، كما ليس له قومٌ وأقارب: «لَيْسَ بَيْنَ اللهِ وَبَيْنَ أَحَدٍ قَرَابَة»[1]. علينا أن نراقب أنفسنا حتى نحافظ على تلك المعتقدات الفطريّة التي تلقّيناها من آبائنا وأمّهاتنا؛ وحتى نزيدها كذلك كمًّا وكيفًا. فعلنا وسلوكنا ينبغي أن يكون بنحوٍ يزيد الله معه من معارفنا ونورانيّتنا.

كان للمرحوم العلّامة الطباطبائيرحمه الله مع بعض تلامذته جلسات أسبوعية ليالي الخميس والجمعة. كانت الكتب ومصاحف القرآن موضوعةً على الجدران في بيوت الطلبة. وكان العلّامة عندما يريد الجلوس يراقب كي لا يكون القرآن خلف رأسه، وحتى لو كان على الأرض كتاب روائيّ، مثل **بحار الأنوار** مثلًا، فقد كان يرفعه، ويقبّله أحيانًا، ويضعه جانبًا. علماؤنا العظام لم يكونوا يسيئون الاحترام لأوراق القرآن، ومجلّداته، وحتى للرحل والإطار المنسوب إلى القرآن بنحوٍ ما. هذا النوع من السلوك علامة التقوى، والله تعالى يهتمّ بهذه التقوى. يقول ـ عزّ وجلّ ـ حول الأضحية: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾[2]. ليست الغاية من تقديم الأضحية أن يصل دمها أو لحمها إلى الله؛ بل المهمّ عند الله هو النية والتقوى الداخلية ﴿وَلَـٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾. المهمّ هو ذاك الانقياد وحفظ الحريم الإلهي وتقوى

---

(١) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، باب الطاعة والتقوى، ص ٧٤.

(٢) سورة **الحج**، الآية ٣٧.





الله تعالى، والتي علامتها: حفظ حريم الله وبذل الاحترام لدين الله، وللقوانين والأحكام الدينية، ولكتاب الله عزّ وجلّ.

إنّ نفس تقبيل المصحف ووضعه على الرأس لا قيمة له ولا نفع له عند الله، ولكن إذا كان هذا السلوك علامةً على التقوى الإلهية، فستكون له قيمة عند الله، كما أنّ التوجّه مثلًا والاستماع إلى آيات القرآن حين تلاوتها، إذا كان من قِبلنا أو من قبل الآخرين، هو بنفسه نوعٌ من الاحترام وعلاقةٌ للتقوى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ﴾[1]. هذه علامة الاعتقاد بإعجاز القرآن، وبأن كل آية وكلّ حرفٍ منه هو في حد ذاته أمر نورانيٌّ معجزٌ، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[2].

الأفراد المؤهّلون الذين وصلوا، بالاستعانة بآيةٍ أو اثنتَين من القرآن، إلى مقاماتٍ تمكّنوا معها من طيّ الأرض، وشفاء أمراض لا علاج لها، وحلّ مشكلاتٍ كبيرة من خلالها، ليسوا بالقلة. التقوى هي أن نعرف قدر هذا الكتاب العظيم ونستفيد من معنويّاته، ولكن مدعاة التأسّف أنّ كثيرًا منّا، وإنْ كنّا مطّلعين على هذه الأمور، ولكن ليس لدينا الهمّة للعمل. بعض أحكام القرآن لم نوفّق للعمل بها حتى لمرّةٍ أو مرّتَين على مدى عمرنا؛ من قبيل مضامين آيات سورة المزّمل

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠٤.

(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ (سورة **الرعد**، الآية ٣١).

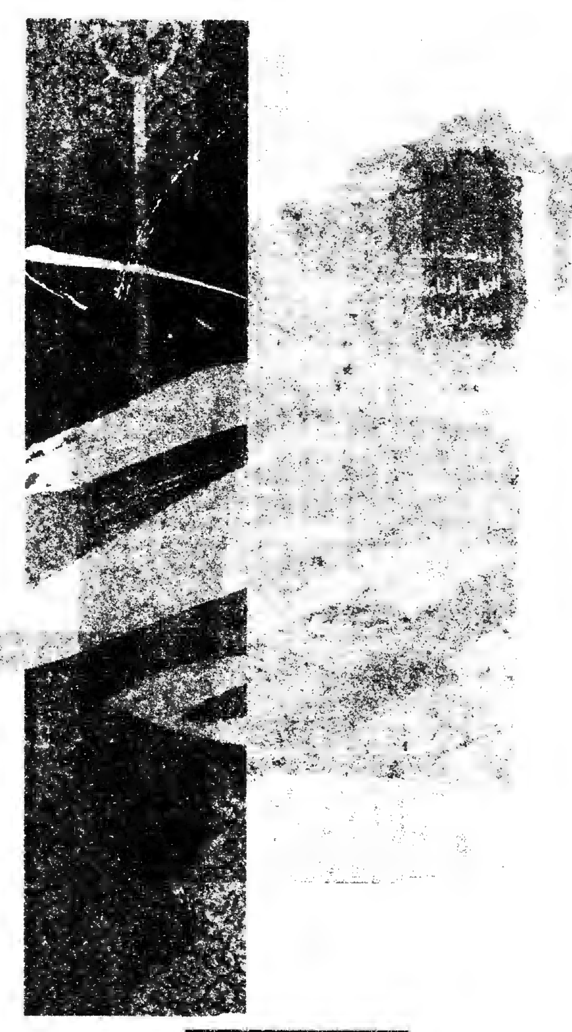


المباركة حول التهجّد وإحياء الليل[١]، أو سورة مريم المباركة التي كان تتحدّث عن الذين يخرّون ساجدين باكين عند الاستماع إلى آياتٍ من القرآن[٢]، وكان خشوعهم أمام الله والكلام الإلهي يتضاعف أكثر فأكثر. فليت شعري كم يُعَمل بهذه المضامين القرآنية الرفيعة؟

وبناءً عليه، فالاستفادة من القرآن تبدأ من تقبيل غلاف القرآن وأوراقه والسكوت أثناء تلاوته، وصولًا إلى مواجهة الكلمات المبتذلة والجوفاء التي يذكرها بعضهم للتقليل من شأن القرآن؛ صحيحٌ أنّهم قد لا يصبحون من أهل النجاة، ولكنّ التنبيه من شرّ هؤلاء المنحرفين ضروريٌّ من أجل نجاة الآخرين. وكذلك علينا نحن أن نتمسّك ونلتزم بما نعتقد به، وأن نعمل بما نعلمه.

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ۝ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ۝ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا﴾ (سورة **المزمّل**، الآية ١ - ٤)؛ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ وَنِصۡفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرۡضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضۡرِبُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَبۡتَغُونَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ (سورة **المزمّل**، الآية ٢٠).

(٢) {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا} (سورة مريم، الآية ٥٨)؛ {وقُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولا * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا} (سورة الإسراء، الآيات ١٠٨ - ١١٠).

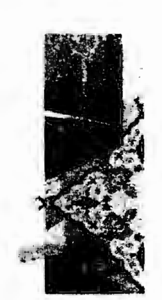


الجلسة السابعة:

الإجابة عن شبهة







«وَالْحَمْدُ لِلّه الَّذِي جَعَلَ مِنْ تِلْكَ السُّبُلِ شَهْرَهُ شَهْرَ رَمَضَانَ، شَهْرَ الصِّيَام، وَشَهْرَ الإِسْلَام، وَشَهْرَ الطَّهُورِ، وَشَهْرَ التَّمْحِيْصِ، وَشَهْرَ الْقِيَامِ، ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾»

الإجابة عن شبهة

يذكر الإمام السجّاد عليه السلام أنّ شهر رمضان هو الشهر الذي أنزل الله فيه القرآن: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾. وهنا يُطرح السؤال التالي:

نحن نعلم أنّ كلّ ما هو موجود في هذا العالم قد أُنزل من قِبَل الله تعالى، وحتى ثمّة موارد أيضًا قد ذكرت في القرآن بالاسم[1]. وقد صرّح الله تعالى في بعض الموارد بأنّ لديه خزائن جميع مخلوقات

---

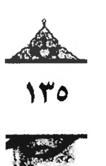
(١) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة **الحديد**، الآية ٢٥).



عالم المادة والدنيا، وأنّه ينزّله بالقدر الذي فيه المصلحة[١]. القرآن والأشياء الأخرى الموجودة في هذا العالم هو الذي أنزلها، وحتى الأفكار الموجودة عند كل شخصٍ والتي قد تكون صحيحةً أو خاطئة. بالنهاية فهي كذلك موجودٌ، وكلّ موجودٍ من الله تعالى وهو الذي أنزله. إذًا فمجرّد كون شيءٍ ما منسوبًا إلى الله ونازلًا من قبله ليس دليلًا على صحّة ذلك الشيء وحقّانيته. ولو كان القرآن لهذا السبب صحيحًا، ومعصومًا، ومصونًا من كل نوعٍ من الخطأ، إذًا فلا بدّ من أن يكون كل أمرٍ آخر كذلك أيضًا في حين أنّه ليس كذلك.

الجواب: الكلام على أنّ كلّ ما في هذا العالم قَد أُنزل من العالم العُلويّ ومن قبل الله تعالى صحيحٌ، ولكنّ نزول جميعها وموجوديّتها في هذا العالم ليس على حدٍّ سواء، فبعض الأمور قد نزلت وتنزل بشكل مباشر من قبل الله تعالى، والله تعالى حين إنزال هذه الأمور يصونها حتى لا يصيبها أي تلاعبٌ أو تغيير. في المقابل ثمّة أمورٌ أخرى أيضًا أصل وجودها من الله تعالى، ولكنّها في المرحلة اللاحقة تقع في دائرة الأسباب والمسبّبات، وقد يقع بين الأسباب بذاتها تزاحمات وتصرّفات تؤدّي إلى المسّ بأصالتها وعصمتها الأولى. أمّا في ما يرتبط بنزول الوحي إلى الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام، فهو من النوع الأوّل، وبخاصّة نزول القرآن الكريم الذي كان بنحوٍ قد حُفظ فيه من كلّ نحوٍ من أنحاء تصرّف الأسباب والوسائط، والمعارضين أو الشياطين. وقد أشار القرآن إلى هذا الأمر المهم بقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ

(١) ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (سورة **الحجر**، الآية ٢١): ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ (سورة **المؤمنون**، الآية ١٢).



غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ۝٢٧ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا﴾[١].

بحسب بيان القرآن، فالوحي الإلهي من الموارد التي يحرص الله بشدة على حفظها وسلامتها، والتي يحفظها بعيدًا عن كل نوعٍ من تدخّل الشيطان أو أي عاملٍ آخر. ولهذا السبب فالأمور الغيبيّة عند الله تكون بنحوٍ لا يطّلع عليها أيّ شخص، وحتى العدة المعدودة والمحدودة من الذين اختارهم الله وباتوا معروفين بصفتهم أمناء الوحي؛ هم كذلك يكونون مراقبين ومحروسين بشدّة من خلال حفظة وحرّاس، قد يصل عددهم أحيانًا إلى سبعين ألف مَلَك[٢]. هذا التشديد كلّه إنما هو لأهمّيّة مسألة الوحي، وكأنّ الله تعالى قد قام بهذه الإجراءات المشدّدة بهذا الشكل لأجل دفع هذا النوع من الشبهات الواردة على ذهن بعض الوسواسيّين.

إن قول الله تعالى في قرآنه الكريم: ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ يُظهر أنّ حفظه وحراسته للوحي لا ينحصر بإيصال الوحي إلى النبيّ صلى الله عليه وآله، بل هذا الحفظ والحراسة يستمرّان حتى إلى ما بعد ذلك؛ أي إلى إيصال الوحي إلى عباد الله عن طريق النبيّ أيضًا، وذلك حتى تصل الرسالات الإلهيّة إلى الناس بشكلٍ صحيح. وبناءً عليه، فإنّ أيّ جنٍ أو إنسٍ أو شيطان لا يمكنه أن يكون لديه أدنى نفوذٍ وتصرّفٍ في قلب النبي صلى الله عليه وآله أو لسانه، بل جميع هذه المراحل من

---

(١) سورة **الجن**، الآيات ٢٦ - ٢٨.

(٢) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٦٢٢.

بدايتها إلى نهايتها في حفظ الله وصيانته. وكذلك فالآية المذكورة تدلّ أيضًا على الإحاطة الإلهية بجميع الأمور، أي إنّه لا يسلم من الوقوع في الخطأ فحسب؛ بل لديه بين يدَيه تفاصيل كل شيء أيضًا، وهو قادرٌ على إيصال الوحي إلى عباده بالشكل الصحيح وسالمًا من كلّ عيب.

ومضافًا إلى هذا، نجد آيات تحدّي القرآن التي تدّعي الإعجاز وتعلن أمام جميع الجن والإنس أنّهم إن أتوا بكتابٍ مثل القرآن، أو بعشر سور مثل سور القرآن، أو حتى بسورةٍ مثل سوره؛ لتراجع القرآن عن ادّعائه[١]. هذه الادّعاءات جميعها تظهر إعجاز هذا الكتاب وأنّه من عند الله، إذ لو كان ثمّة تدخّل من الإنسان أو من أي موجودٍ آخر في أي قسمٍ من القرآن أو في أيٍ من مراحل نزوله، فمن المتيقّن أن القرآن ما كانٍ استطاع أن يأتي بمثل هذا التحدّي الصادح والجريء[٢]. على أنّ مسألة عدم وجود خطأ في القرآن قد ذُكر لها أيضًا أدلّة غير قرآنية مذكورة في المباحث التفسيرية وضمن العلوم القرآنية والكلامية.

ولعلّه لأهمّية المحافظة على القرآن وحمايته، أو لعلّه من باب الشوق والاندفاع، كان النبي الأكرم ﷺ عندما ينزل عليه القرآن

---

(١) ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٢٣)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة **يونس**، الآية ٣٨)؛ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (سورة **هود**، الآية ١٣).

(٢) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ (سورة **النساء**، الآية ٨٢).



بواسطة جبرئيل يُسرع إلى قراءة الآيات والكلمات، وأحيانًا لم تكن جميع الآيات قد أُلقيت عبر جبرئيل، ومع ذلك كان ﷺ يقرأ ذلك القسم مباشرة، ولهذا السبب كان الله تعالى ينهاه أن يعجل بالقرآن[١]، ووعده بأنّه سيتكفّل بعملية الحفظ والجمع[٢].

هذا، وثمّة أدّلة كثيرة على هذا المدّعى القرآني، والشخص الذي يبحث عن الحقيقة تكفيه هذه الأدلة. أما من أغمض عينَيه عن الحقيقة اتّباعًا لهوى نفسه فالله تعالى سيبتليه بأن يجعل جميع العلوم غير نافعةٍ له، وجميع هذه الأدلة وآلاف الأدلة الأخرى لا تؤثّر أو تغيّر فيه[٣].

مثل هذا الإنسان لا يمكنه أن يفهم أن تلقّي رسول الله ﷺ للوحي بأيّ معنًى هو، ولن يتّضح لديه أنّ قلب النبيّ ﷺ المقدّس قد تلقّى حقيقة الوحي النورانيّة، وظهرت لعيونه المباركة ألفاظ الوحي وخطوطه بعينها، وأنّ أذنَيه كانتا تتلقّيان صوت الوحي الإلهي العذب؛ أي إنّ كل بُعدٍ من أبعاد الوحي يقع في القسم المرتبط من الوجود المقدّس للرسول ﷺ، بنحوٍ شمل معه الوحي تمام وجوده المبارك. هذه الحقائق عندما لا تتّضح لمثل هؤلاء الأفراد فسيبرز عندهم السؤال أنّه كيف يمكن لإنسانٍ غير متعلّم أن يأتي بخطوط القرآن وألفاظه؟ كيف لا يقع خطأ في تلقّي الوحي وإبلاغه؟ عندما

---

(١) ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ (سورة **طه**، الآية ١١٤).

(٢) ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ (سورة **القيامة**، الآيتان ١٦ - ١٧).

(٣) ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةٗ فَمَن يَهۡدِيهِ مِنۢ بَعۡدِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة **الجاثية**، الآية ٢٣).



لا تتّضح له هذه المسائل فسيلجأ إلى تحريف الحقائق، وسيدّعي أنّه لا بد من أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله هو أيضًا مثل الدراويش، عندما تأخذه حالة الخلسة نتيجة الاعتكاف، فسيتلقّى أشياء مهمّةً ومن ثمّ يطوّرها بذوقه الشخصي، ويبيّنها في قالب الألفاظ والعبارات ويكتب بعده كُتّاب الوحي، وهذا يصبح القرآن؛ أي الكتاب السماويّ الخالد! ومن ثمّ يستنتج بأنّ الأمر إن كان على هذا النحو، فمثل هذا القرآن لا يمكنه أن يكون له حجّية علينا.

ولكن الحقيقة هي أنّ هذا القرآن الذي بين أيدينا الآن، هو ـ بجميع خصائصه ـ عين الوحي الإلهي الذي كان الله تعالى حافظه وحاميه في جميع مراحل نزوله وإبلاغه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ﴾[1].

وعلى أيّ حال، فإنّ أصل أهمّية شهر رمضان المبارك هو بنزول القرآن؛ بذلك المعنى الذي نقلناه عن العلّامة الطباطبائي رحمه الله: أنّه قد أُنزل في البداية في ليلة القدر بشكل الحقيقة البسيطة على القلب النورانيّ للنبيّ صلى الله عليه وآله، ثمّ أُنزل في قالب الألفاظ والعبارات بشكل تدريجيّ، ودُوِّن على امتداد رسالته وبشكل مفصّل حسب المناسبات المتنوّعة.

القرآن نعمة إلهية كبرى قد خصّها الله باحترام خاص، وجميع الأديان الإلهيّة، وبخاصّة الإسلام، قائمة وحيّة ببركة القرآن، كما أنّ إثبات حقّانية النبي صلى الله عليه وآله وتمام الكلمات والمضامين التي جاء بها من الله إلى البشر، وكذلك صحّة أو عدم صحّة مدّعيات الأديان الأخرى،

---

(١) سورة **الحجر**، الآية ٩.



وبيان الطريق الصحيح للوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة، وتوضيح الطرق المنحرفة لجميع البشر، وكثير من الأمور الأخـرى... مرهونةٌ جميعها بهذا الكتاب السماوي الشريف، فلا يليق أن نواجه هذا الكتاب القيّم والمهم بمثل هذه المواجهة السخيفة والجهلاء.

في فقرةٍ أخرى من الدعاء، يذكر الإمام السجّاد عليه السلام في بيانه لفضيلة شهر رمضان المبارك ما يلي:

«فَأَبَانَ فَضِيلَتَهُ عَلَى سَائِرِ الشُّهُورِ بِمَا جَعَلَ لَهُ مِنَ الْحُرُمَاتِ الْمَوْفُورَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمَشْهُورَةِ، فَحَرَّمَ فِيهِ مَا أَحَلَّ فِي غَيْرِهِ إِعْظَامًا، وَحَجَرَ فِيهِ الْمَطَاعِمَ وَالْمَشَارِبَ إِكْرَامًا، وَجَعَلَ لَهُ وَقْتًا بَيِّنًا لا يُجِيزُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يُقَدَّمَ قَبْلَهُ وَلَا يَقْبَلُ أَنْ يُؤَخَّرَ عَنْه».

في سبيل توضيح أهمية شهر رمضان المبارك، شرع الله تعالى بعض الأحكام الخاصّة بهذا الشهر، وهي أمورٌ لم تشرّع للأشهر الأخرى؛ من قبيل ما يلي:

أولًا: لكي يحفظ عظمة هذا الشهر وينبّه عباده إلى عظمته، حرّم أعمالًا محلّلةً في سائر الشهور: «**فَحَرَّمَ فِيهِ مَا أَحَلَّ فِي غَيْرِهِ إِعْظَامًا**»، ولعل الإمام عليه السلام يشير في هذه الفقرة إلى التمتّعات الجنسية.

ثانيًا: ولأجل حفظ احترام مقام هذا الشهر وتعظيمه، كمّ الأفواه بمنع الأكل والشرب: «**وَحَجَرَ فِيهِ الْمَطَاعِمَ وَالْمَشَارِبَ إِكْرَامًا**»، في حين أنها حلالٌ طيلة أيّام السنة، بل حتّى قد أوصى جل وعلا بالاستفادة من النعم الإلهية.

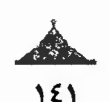




ثالثًا: لم يأذن في تغيير زمانه: «**وَجَعَلَ لَهُ وَقْتًا بَيِّنًا لا يُجِيزُ جَلَّ وَعَزَّ أَنْ يُقَدَّمَ قَبْلَهُ وَلَا يَقْبَلُ أَنْ يُؤَخَّرَ عَنْه**»، فلا يحقّ لأحد أن يقدّم صوم شهر رمضان المبارك ولو يومًا واحدًا، ولا أن يؤخّره كذلك. زمان هذا الشهر من رؤية هلال شهر رمضان إلى رؤية هلال شهر شوّال. وكذلك لا يمكن لأحدٍ أن يبدّل زمان هذا الشهر بسائر أشهر السنة؛ كأن يصوم في شوّال أو في شعبان بدلًا من شهر رمضان، أو أن يختار دائمًا شهرًا من فصول الشتاء فيصومه بدلًا من شهر رمضان.

وبناءً عليه، فلا يحقّ لأيّ شخصٍ أن يتصرّف في الزمان المعيّن لهذا الشهر فيغيّره بحجّة الحرّ أو البرد، أو بحجة طول الأيام والليالي وقصرها، أو لمصالح شخصية أو اجتماعية أو غير ذلك. ولعلّ هذا التشديد من أجل أنّه لو كان قد أجيز تغيير زمان شهر رمضان المبارك لفاتت المصالح الحاصلة من وحدة المسلمين واتّحادهم في تعظيم هذا الشهر واستفادة مجتمع المسلمين العالمي من البركات الحاصلة منه. طبعًا فنحن غافلون بشكل كامل عن بركات هذه الأحكام الإلهيّة الدقيقة والحكيمة، كما أنّ عقل الإنسان عاجزٌ عن تلقّيها، وإنْ كانت بعض الزوايا الخفيّة من آثارها وبركاتها تتّضح أحيانًا نتيجةً لتطوّر العلوم. ففي هذه الأيام، ونتيجةً لتطوّر العلوم البشرية، يتكشّف للبشر شيئًا فشيئًا بعض الآثار المفيدة للأحكام الإلهيّة، وهو ما كان خافيًا عنهم في ما مضى، حيث كان المسلمون يلتزمون بأحكام الإسلام من باب التعبّد ليس غير.

وفي المجموع، فقد بات واضحًا لدينا إجمالًا أنّ الصوم له ميزة خاصّة بالمقارنة مع سائر الأحكام والواجبات الإلهيّة: فالصوم يؤدّي إلى تعالي روح الإنسان عن التلوّثات، ويهيّئها لتلقّي الفيوضات الربانية





والنعم الإلهية. وبحسب تعبير كبار أهل المعرفة، فالاستعداد لإدراك المعارف الذي يحصل عليه الإنسان في ظلّ الصوم لا يحصل عليه من أي عبادة أخرى. لقد منّ الله تعالى علينا بهذا الفضل وأوجبه علينا في شهر رمضان المبارك حتى ننال ـ إن شاء الله، وبالاستفادة الصحيحة منه ـ بركاتِه من المعارف الإلهيّة الرفيعة.

عباد الله الصالحون يستفيدون من هذا الشهر الفضيل إلى حدّ أنّهم يحزنون في الأيام الأخيرة منه على خسارتهم هذه الفضيلة، ويقولون: «ليت جميع الأشهر شهر رمضان، وليت الصوم كان واجبًا علينا على مدار العام».

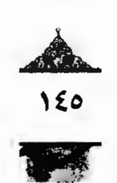




الجلسة الثامنة:

أهمّيّة ليلة القدر







«ثُمَّ فَضَّلَ لَيْلَةً وَاحِدَةً مِنْ لَيَالِيهِ عَلَى لَيَالِي أَلْفِ شَهْرٍ، وَسَمَّاهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ، ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَٰمٌ﴾ **دَائِمُ الْبَرَكَةِ إِلَى طُلُوعِ الْفَجْرِ، عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا أَحْكَمَ مِنْ قَضَائِهِ».**

أهمية ليلة القدر

من المميّزات التي ذكرها الإمام السجّادعليه السلام لشهر رمضان المبارك: وجود ليلة القدر فيه؛ هذه الليلة التي هي أفضل من ألف شهر: **«ثُمَّ فَضَّلَ لَيْلَةً وَاحِـدَةً مِنْ لَيَالِيهِ عَلَى لَيَالِي أَلْفِ شَهْرٍ، وَسَمَّاهَا لَيْلَةَ الْقَدْرِ»**، ثمّ لكي يبيّنعليه السلام عظمة تلك الليلة الكبرى تلا قوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾[1].

ومن المناسب في ما يلي أن نبيّن بعض المسائل المهمّة حول ليلة القدر:

---

(١) سورة **القدر**، الآية ٤.

١- ليلة القدر بأي معنًى هي؟ وماذا تعني ليلة القدر؟

يرى بعض المفسّرين أنّ «القدر» بمعنى الشرف، والمنزلة، والعظمة. وهذا الاستعمال رائجٌ في محاورات المتكلّمين بالفارسية في مقام بيان قيمة الأفراد ومنزلتهم. مجموعةٌ أخرى من المفسّرين، وبالاستناد إلى الروايات المنقولة حول خصائص ليلة القدر، يعتقدون بأنّ «القدر» مصدر، وهو يعني التقدير[1]، وبالمعنى نفسه الذي يُطلَق على القضاء والقدر.

لعلّ تسمية ليلة القدر بهذا الاسم لأنّ الله تعالى، واستنادًا إلى روايات كثيرة منقولة عن رسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، يُحدّد في هذه الليلة تقديرات عباده لتمام السنة[2].

---

(١) «قدر»، مصدر ثلاثي مجرّد، «قَدَرَ»، «يَقْدِرُ»، «قَدْرًا». وأمّا «تقدير» فهو فعل ثلاثي مزيد من باب تفعيل، «قَدَّرَ»، «يُقَدِّرُ»، «تَقديرًا».

(٢) هناك رواياتٌ كثيرة حول تقسيم الرزق وتعيين جميع مقدّرات السنة في ليلة القدر، وفي ما يلي نذكر نموذجًا واحدًا منها: «عن زُرَارَةَ وَمُحَمَّدِ بن مُسْلِمٍ عَنْ حُمْرَانَ أَنَّهُ سَأَلَ أَبَا جَعْفَرٍ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾. قَالَ: نَعَمْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَهِيَ فِي كُلِّ سَنَةٍ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ فِي الْعَشْرِ الْأَوَاخِرِ فَلَمْ يَنْزِلِ الْقُرْآنُ إِلَّا فِي لَيلَةِ الْقَدْرِ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، قَالَ عليه السلام: «يقَدَّرُ فِي لَيلَةِ الْقَدْرِ كُلُّ شَيءٍ يكُونُ فِي تِلْكَ السَّنَةِ إِلَى مِثْلِهَا مِنْ قَابِلٍ؛ خَيرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيةٍ وَمَوْلُودٍ وَأَجَلٍ أَوْ رِزْقٍ. فَمَا قُدِّرَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ وَقُضِي فَهُوَ الْمَحْتُومُ وَلِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِيهِ الْمَشِيئَةُ». قَالَ: قُلْتُ: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ أَيَّ شَيءٍ عُنِي بِذَلِكَ؟ فَقَالَ عليه السلام: الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا مِنَ الصلاة وَالزَّكَاةِ وَأَنْوَاعِ الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنَ الْعَمَلِ فِى أَلْفِ شَهْرٍ لَيْسَ فِيهَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ، وَلَوْلَا مَا يُضَاعِفُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ مَا بَلَغُوا، وَلَكِنَّ اللَّهَ يُضَاعِفُ لَهُمُ الْحَسَنَاتِ بِحُبِّنَا» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٤، ص ١٥٨).





٢- ماذا يعني أنّ ليلة القدر أفضل من ألف شهر؟

بالاستناد إلى روايات من الأئمة الأطهارعليهم السلام فإنّ أفضليّة ليلة القدر من ألف شهر أو من أكثر من ثمانين سنة هو بسبب أنّ العبادات التي تُؤدَّى في هذه الليلة أفضل من عبادة ألف شهر: قراءة القرآن، والصلاة، والمناجاة، والصدقة، والدعاء للنفس وللآخرين، وسائر العبادات التي تؤدَّى في ألف شهر أو في أكثر من ثمانين سنة، في كلّ ليلةٍ منها.

ولهذا السبب، فإنّ وجود هذه الليلة في الواقع هو امتيازٌ وتوفيق تفضّل به الله تعالى على نبيّ الإسلامصلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين حتى يستفيدوا من مزاياه وفضائله، على أنّ الألطاف الإلهية عليهصلى الله عليه وآله وسلم وعلى المسلمين لا تنحصر بليلة القدر، بل قد خصّ الله مناسباتٍ مكانية وزمانية متعدّدة على امتداد السنة حتى يستفيد المسلمون والمؤمنون خلالها من الفضل والرحمة الإلهيّين.

٣- ليلة القدر أيّ ليلةٍ من ليالي السنة هي؟

يتّفق جميع علماء الإسلام تقريبًا على أنّ ليلة القدر تقع في شهر رمضان المبارك، كما أنّ آيات القرآن هي أيضًا شاهدةٌ على صحّة هذا القول، فقد ذكر الله تعالى في سورة البقرة المباركة أنّ نزول القرآن كان في شهر رمضان المبارك[١]، ويقول في سورة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[٢]. أما أنّ ليلة القدر أيّ ليلةٍ هي من بين ليالي

(١) ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ١٨٥).

(٢) سورة **القدر**، الآية ١.



شهر رمضان المبارك، فهذا ما طُرح حوله آراء مختلفة. يتّفق علماء الشيعة تقريبًا على القول إنّ ليلة القدر هي إحدى الليالي الثلاث: التاسعة عشرة، والحادية والعشرين والثالثة والعشرين، وفي بعض الروايات صُرّح بأنّ اللّيلة الثالثة والعشرين أكبر أهمّية. ولعلّ أفضل طريق للجمع بين الأقوال والروايات هو هذا النوع من الروايات التي تقول: «فَإذا كانَت لَيلَةُ ثَلاثٍ وعِشرينَ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾»[1]. ومضمون هذه الروايات هو أنّ مقدّرات عباد الله في أقسام مختلفة؛ من قبيل الرزق، وحجّ بيت الله الحرام، والموت والحياة... هذه المقدّرات إنّما تتحدّد في هذه الليالي المهمّة على الشكل التالي: بداية تُحدّد هذه المقدّرات في الليلة التاسعة عشرة. ثمّ في الليلة الحادية والعشرين يتأكّد ويتحتّم ما كان قد قُدّر في الليلة التاسعة عشرة. والنهاية في الليلة الثالثة والعشرين حيث إنّها ليلة الإمضاء النهائي والقضاء الإلهي. وبناءً عليه، فكلٌّ من الليالي الثلاث هو جزءٌ من ليالي القدر، غير أنّ التقديرات في هذه الليالي الثلاث مختلفة.

---

(١) السيد علي بن طاووس في كتاب عمل شهر رمضان المسمّى بـ**المضمار**، عن كتاب الصيام لعليّ بن فضّال بإسناده إلى عبد اللّه بن سنان «قال: سَألتُهُ ﷺ عَنِ النِّصفِ مِن شَعبانَ. فَقالَ ﷺ: «ما عِندي فيهِ شَيءٌ، ولكِن إذا كانَت لَيلَةُ تِسعَ عَشرَةَ مِن شَهرِ رَمَضانَ، قُسِّمَ فيهَا الأَرزاقُ، وكُتِبَ فيهَا الآجالُ، وخَرَجَ فيها صِكاكُ الحاجِّ، وَاطَّلَعَ اللّهُ إلى عِبادِهِ فَغَفَرَ اللّهُ لَهُم إلّا شارِبَ مُسكِرٍ، فَإذا كانَت لَيلَةُ ثَلاثٍ وعِشرينَ ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾، ثُمَّ يَنتَهي ذلِكَ ويُقضَى». قالَ: قُلتُ إلى مَن؟ قالَ ﷺ: «إلى صاحِبِكُم، ولَولا ذلِكَ لَم يَعلَم»». (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج ٩٤، ص ٢٢؛ الميرزا حسين بن محمّد تقي النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل ومستنبط الوسائل**، ج ٧، ص ٤٧٠؛ وكذلك قد ورد في المجلّد الرابع من كتاب **الكافي** الشريف ضمن باب «تعيين ليلة القدر» رواياتٌ كثيرة في هذا المجال).





هذا، وقد نُقل عن بعضهم أيضًا قول ضعيف بأنّ ليلة القدر في النصف من شعبان.

٤- ما هي ميزة ليلة القدر وخصوصيّتها التي أدّت إلى أن يلحظ الله تعالى لها هذه الأفضليّة والبركة؟

لعلّ أهمّ ميزة لليلة القدر هي نزول الملائكة والروح فيها لإنجاز أهمّ مهمّة إلهية[١]. وإنْ كان بعض المفسّرين يعتقد بأنّ «الروح» هو روح الأمين جبرئيل، ولكنْ طبقًا لروايات متعدّدة نُقلت في المصادر الروائيّة الشيعيّة، فقد اعتبر الأئمّة المعصومون عليهم السلام أنّ «الروح» موجودٌ أفضل من الملائكة[٢] وأكبر من جبرئيل[٣]. ويظهر أنّ المقصود من نزول الملائكة ومعها الروح هو جميع الملائكة أو القسم الأعظم منها.

ينقسم الملائكة إلى مجموعات متنوّعة، ولكن في بعض المنقولات قُسمت الملائكة إلى مجموعتَين كبيرتَين:

---

(١) ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ (سورة **القدر**، الآية ٤).

(٢) «عن أَبِي بَصِيرٍ قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، قَالَ: خَلْقٌ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ، كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله، وَهُوَ مَعَ الْأَئِمَّةِ عليهم السلام، وَهُوَ مِنَ الْمَلَكُوتِ» (أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ١، ص ٢٧٣؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ١٨، ص ٢٦٥).

(٣) «عن أبي بصير قال: حَجَجْنَا مَعَ أَبِي عَبْدِ اَللَّهِ عليه السلام فِي اَلسَّنَةِ اَلَّتِي وُلِدَ فِيهَا اِبْنُهُ مُوسَى عليه السلام... قُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ الرُّوحُ لَيْسَ هُوَ جَبْرَئِيلَ؟ قَالَ: الرُّوحُ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ. إِنَّ جَبْرَئِيلَ مِنَ اَلْمَلاَئِكَةِ، وَإِنَّ اَلرُّوحَ هُوَ خَلْقٌ أَعْظَمُ مِنَ اَلْمَلاَئِكَةِ، أَلَيْسَ يَقُولُ اَللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾؟» (أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ١، ص ٣٨٥؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٢٥، ص ٤٢).





مجموعة منهم معروفة باسم «العالين» و«المَهيّمين»، وهذه المجموعة عبارة عن موجودات مميّزة وذات رتبة عالية مستغرقة في وجود الحقّ تعالى وليس لها توجّه إلى أيّ شيءٍ آخر إطلاقًا، وبخصوص السجود لآدمعليه السلام كانت هذه المجموعة من الملائكة مستثناةً من السجود نتيجة توجّهها التامّ إلى الله تعالى، وقد أشارت إليهم الآية الشريفة: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾[1]؛ أي: هل امتنعت عن السجود لاستكبارك أم أنت من الملائكة «العالين» الذين لم يؤمروا بالسجود؟ وأحيانًا تُسمّى هذه المجموعة بملائكة العرش أو ملائكة السماوات.

---

(١) سورة **ص**، الآية ٧٥. «وقيل إنّ العالين صنف من الملائكة يقال لهم (المهيّمون) مستغرقون بملاحظة جمال الله تعالى وجلاله، لا يعلم أحدهم أن الله تعالى خلق غيره، لم يؤمروا بالسجود لآدمعليه السلام، أو هم ملائكة السماء كلّهم ولم يؤمروا بالسجود، وإنّما المأمور ملائكة الأرض؛ فالمعنى: أتركت السجود استكبارًا أم تركته لكونك ممّن لم يؤمر به؟» (أبو الفضل شهاب الدين محمود الآلوسي البغدادي، **تفسير الآلوسي**، ج ١٧، ص ٣٩٥)؛ وكذلك أشار المرحوم العلّامة الطباطبائي إلى هذا المطلب، فانظر: **الميزان في تفسير القرآن**، ذيل الآية ٧٥ من سورة **ص**).

على أنّه قد نُقل في مصادرنا الروائيّة أنّ المقصود من «العالين» هم الخمسة أهل العباعليهم السلام الذين كانوا قبل خلق آدمعليه السلام في عرش الله مستغرقين في ذات الباري تعالى ومنصرفين عن غيره: «كِتَابُ فَضَائِلِ الشِّيعَةِ، لِلصَّدُوقِرحمه الله بِإِسْنَادِهِ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِصلى الله عليه وآله إِذْ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِبْلِيسَ ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾، فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ الَّذِينَ هُمْ أَعْلَى مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَنَا وَعَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَالْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ كُنَّا فِي سُرَادِقِ الْعَرْشِ نُسَبِّحُ اللَّهَ وَتُسَبِّحُ الْمَلَائِكَةُ بِتَسْبِيحِنَا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ بِأَلْفَيْ عَامٍ، فَلَمَّا خَلَقَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ آدَمَ أَمَرَ الْمَلَائِكَةَ أَنْ يَسْجُدُوا لَهُ وَلَمْ يَأْمُرْنَا بِالسُّجُودِ، فَسَجَدَتِ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ إِلَّا إِبْلِيسَ فَإِنَّهُ أَبَى أَنْ يَسْجُدَ، فَقَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾؛ أَيْ مِنْ هَؤُلَاءِ الْخَمْسِ الْمَكْتُوبِ أَسْمَاؤُهُمْ فِي سُرَادِقِ الْعَرْشِ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ١١، ص ١٤٢).





والمجموعة الأخرى هي الملائكة التي أُمرت بالسجود لآدم عليه السلام، ويقال لهذه المجموعة أيضًا: «ملائكة الأرض»[١].

بناءً عليه، فلعلّ المقصود من الملائكة التي تنزل في ليلة القدر مع الروح هو ملائكة المجموعة الثانية فقط، في حين أنّ ملائكة المجموعة الأولى أو «العالين» ليسوا في زمرة الملائكة التي تنزل في ليلة القدر؛ وإنّما النازلون في ليلة القدر مجموعة من الملائكة الموكلين بإنجاز مهامّ إجرائية.

٥- هل نزول الملائكة في ليلة القدر دائم أم كان مرّةً واحدة حين نزول حقيقة القرآن على قلب النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟

يعتقد بعض علماء أهل السنّة بأنّ نزول الملائكة لمّا كان من أجل إنزال القرآن، فإنّ نزول جميع الملائكة مع الروح على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إنّما كان مرّةً واحدة، ولم يكن له استمرارٌ بعد ذلك ولن يكون، وفي الواقع، فإنّ أفضليّة العبادات في ليلة القدر إنّما هو لإحياء ذكرى تلك الليلة الإلهية العظيمة، مثل ميلاد النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي حدث مرّةً واحدة، ولكنّ التفضّل الإلهي ما زال مستمرًا ببركة ذلك الحدث العظيم.

ولكنّ هذا الرأي لا يتطابق مع ظاهر آيات القرآن، ولا مع الروايات الواردة في هذا المجال. ففي القرآن ذُكِر نزول القرآن في ليلة القدر بصيغة الفعل الماضي: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾؛ أي إنّنا أنزلنا القرآن في ليلة القدر، وذلك إنّما كان مرّةً واحدةً وقد انقضت، في حين أنّ نزول الملائكة قد ذُكر بصيغة المضارع التي تدلّ على

(١) سورة ص، الآية ٧٥.



الاستمراريّة: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾؛ أي إنّ نزول الملائكة في الليلة التي هي خيرٌ من ألف شهر ما زال مستمرًّا.

ولهذا السبب، تعتقد الأكثرية (القريبة من الاتّفاق) من علماء أهل السنّة، وكذلك جميع العلماء والمحدّثين الشيعة؛ يعتقدون بأنّ ليلة القدر، بما لها من خصائص، تتكرّر كلّ سنة في شهر رمضان المبارك، ففي كلّ شهر رمضان ليلةٌ هي ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ تتنزّل فيها الملائكة.

ضرورة الحضور الدائم للإمام والحجّة الإلهية في العالم

يُطرح هاهنا سؤال هو: بعد أن نزل القرآن وأدّت الملائكة مهمّتها في إنزال القرآن على قلب النبيّ ﷺ، **أولًا**: لماذا يستمرّ نزولهم في كلّ عام؟ ولأيّ غاية تنزل الآلاف المؤلّفة من الملائكة في ليلة القدر؟ **ثانيًا**: أين هو محلّ نزول الملائكة وعلى من تنزل؟

من الجيّد أن نسأل حول هذه المسألة التي تُفهَم من القرآن بشكلٍ محكَم، والتي يتّفق عليها أيضًا الأكثرية (القريبة من الاتّفاق) من علماء أهل السنّة؛ أن نسأل عن الملائكة على مَن تنزل في ليلة القدر وما هي الرسالة التي تحملها؟

من الواضح أنّ الأفراد العاديّين لا يدّعون إدراكهم لنزول الملائكة في ليلة القدر، في حين أنّ القرآن يدّعي أنّ هذا الحدث يقع في ليلة القدر من كلّ عام. إذًا، فعلى من تنزل الملائكة؟ قد نُقل في رواياتنا من كلام الأئمّة المعصومين عليهم السلام أنّ ذلك الشخص العظيم الذي تهبط





عليه الملائكة في ليلة القدر ليس إلا الإمام وحجّة الله في كلّ عصر وزمان[١].

أوّل ما تقوم به الملائكة في ليلة القدر هو أنّها تتشرّف بالقدوم عليه أفواجًا، ملقيةً عليه السلام ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾. ثمّ بعد أن تصل إلى هذا الشرف وهذه المنزلة، تقدّم له عليه السلام من الله مقدّرات ذلك العام؛ أي الأمور التي حُتّمت في ليلة ثلاث وعشرين ووصلت إلى حدّ الإمضاء الإلهيّ المحتوم. وقد ذكر الإمام عليه السلام أنّ هذا الأمر لو لم يحدث لما كان الإمام عالمًا بالأمور[٢]. وقد وردت في المصادر الشيعيّة حول هذا الخصوص روايات وأخبار كثيرة تبلغ حدّ الاستفاضة[٣]. بناءً عليه، فالملائكة تنزل على إمام الزمان عليه السلام؛ هذا أولًا. ثانيًا: فهي تقدّم له مقدّرات العام.

---

(١) السيد علي بن طاووس في كتاب عمل شهر رمضان المسمّى بـ«المضمار»، عن كتاب الصيام لعليّ بن فضّال بإسناده إلى عبد الله بن سنان، قال: «سَألتُهُ عليه السلام عَنِ النِّصفِ مِن شَعبانَ. فَقالَ عليه السلام: ما عِندي فيهِ شَيءٌ، ولكِن إذا كانَت لَيلَةُ تِسعَ عَشرَةَ مِن شَهرِ رَمَضانَ، قُسِّمَ فيهَا الأَرزاقُ، وكُتِبَ فيهَا الآجالُ، وخَرَجَ فيها صِكاكُ الحاجِّ، وَاطَّلَعَ اللّهُ إلى عِبادِهِ فَغَفَرَ اللّهُ لَهُم إلّا شارِبَ مُسكِرٍ، فَإذا كانَت لَيلَةُ ثَلاثٍ وعِشرينَ ﴿فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ﴾، ثُمَّ يَنتَهي ذلِكَ ويُمضَى. قالَ: قُلتُ إلى مَن؟ قالَ عليه السلام: إلى صاحِبِكُم، ولَولا ذلِكَ لَم يَعلَم». (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٤، ص ٢٢؛ الميرزا حسين بن محمّد تقي النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ج ٧، ص ٤٧٠).

(٢) «... قالَ: قُلتُ إلى مَن؟ قالَ عليه السلام: إلى صاحِبِكُم، ولَولا ذلِكَ لَم يَعلَم». (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٤، ص ٢٢؛ الميرزا حسين بن محمّد تقي النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ج ٧، ص ٤٧٠).

(٣) راجع الكتب الروائية، وبخاصّة كتابَي **الكافي وبحار الأنوار** وغيرهما من المصادر، في ذيل عنوان «تعيين ليلة القدر»، وكذلك راجع الكتب التفسيرية في ذيل الآيات التي طُرح على إثرها مباحث حول ليلة القدر.



وكذلك الإمام السجّاد عليه السلام يشير إلى هذه الحقيقة في تفسير هذه الآية الشريفة ﴿سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾، وذلك في تتمّة الدعاء حيث يقول: «**عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا أَحْكَمَ مِنْ قَضَائِهِ**».

ومع أنّ الإمام عليه السلام هو الإمام الرابع، وهو كذلك حجّة الله، ولكنّه لم يقل إنّ الملائكة تنزل عليّ؛ حتى لا يشتبه أحدٌ في أنّها لا تنزل على غيره من بعده. لقد ذكر عليه السلام عبارة تدلّ على أنّ الملائكة تنزل في ليلة القدر على كلّ إمام في كلّ عصر؛ وهذا يعني أنّ ثمّة دائمًا، وفي كلّ عام، إمامًا يريد الله أن تنزل عليه الملائكة في ليلة القدر، وتعرض عليه الأمور والتقديرات التي عبرت من مرحلة التقدير ووصلت إلى مرحلة القضاء والحتميّة والإمضاء وباتت محكمة ـ بشكلٍ لا يمكن تغييره بعد ـ: «**بِمَا أَحْكَمَ مِنْ قَضَائِهِ**».

بناءً على ما تقدّم من الكلام حول ليلة القدر، من الممكن أن يخطر إلى الذهن السؤال حول تكليف علم الإمام عليه السلام ما هو؟

نحن نعتقد أنّ الإمام عليه السلام عالمٌ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ[1]؛ ولكن من جهةٍ أخرى، وبشهادة بعض الروايات، ففي كلّ ليلة جمعة

---

(١) «عَنْ سَيْفٍ ٱلتَّمَّارِ قَالَ: كُنَّا مَعَ أَبِي عَبْدِ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشِّيعَةِ فِي ٱلْحِجْرِ فَقَالَ: عَلَيْنَا عَيْنٌ، فَٱلْتَفَتْنَا يَمْنَةً وَيَسْرَةً فَلَمْ نَرَ أَحَدًا، فَقُلْنَا: لَيْسَ عَلَيْنَا عَيْنٌ، فَقَالَ: «وَرَبِّ ٱلْكَعْبَةِ وَرَبِّ ٱلْبَنِيَّةِ ـ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ـ لَوْ كُنْتُ بَيْنَ مُوسَى وَٱلْخَضِرِ لَأَخْبَرْتُهُمَا أَنِّي أَعْلَمُ مِنْهُمَا، وَلَأَنْبَأْتُهُمَا بِمَا لَيْسَ فِي أَيْدِيهِمَا؛ لِأَنَّ مُوسَى وَٱلْخَضِرَ عليهما السلام أُعْطِيَا عِلْمَ مَا كَانَ وَلَمْ يُعْطَيَا عِلْمَ مَا يَكُونُ وَمَا هُوَ كَائِنٌ حَتَّى تَقُومَ ٱلسَّاعَةُ، وَقَدْ وَرِثْنَاهُ مِنْ رَسُولِ ٱللَّهِ صلى الله عليه وآله وِرَاثَةً». وكذلك قد نُقل عن ذلك الإمام الهمام عليه السلام أيضًا أنه قال: «إِنِّي لَأَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا فِي الْجَنَّةِ وَأَعْلَمُ مَا فِي النَّارِ وَأَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ...» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ١، ص ٢٦١). وفي الحديث المعروف بـ«حديث النورانية» يجيب أمير المؤمنين عليه السلام عن سؤالٍ طرحه عليه سلمان وأبو ذر حول المعرفة بمقامه الشامخ، فقال عليه السلام: «يا سلمان ويا جندب!... وَصَارَ مُحَمَّدٌ



- أو في أيّ زمانٍ آخر - يُضاف إلى علم الإمامعليه السلام[1]. وكذلك قد ذُكر في المباحث السابقة أنّ مقدّرات كلّ سنة تُعرَض على الإمامعليه السلام في ليلة القدر. ومن جهةٍ أخرى، فكثيرًا ما حدث أنْ يُظهر الأنبياء الإلهيّون والأئمّة المعصومونعليهم السلام عدم اطّلاعهم على أمرٍ ما في مقام إجابتهم

نَبِيًّا مُرْسَلًا وَصِرْتُ أَنَا صَاحِبَ أَمْرِ النَّبِيِّصلى الله عليه وآله. قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وَهُوَ رُوحُ اللَّهِ لا يُعْطِيهِ وَلَا يُلْقِي هَذَا الرُّوحَ إِلَّا عَلَى مَلَكٍ مُقَرَّبٍ أَوْ نَبِيٍّ مُرْسَلٍ أَوْ وَصِيٍّ مُنْتَجَبٍ، فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ هَذَا الرُّوحَ فَقَدْ أَبَانَهُ مِنَ النَّاسِ وَفَوَّضَ إِلَيْهِ الْقُدْرَةَ وَأَحْيَا الْمَوْتَى وَعَلِمَ بِمَا كَانَ وَمَا يَكُونُ، وَسَارَ مِنَ الْمَشْرِقِ إِلَى الْمَغْرِبِ، وَمِنَ الْمَغْرِبِ إِلَى الْمَشْرِقِ فِي لَحْظَةِ عَيْنٍ، وَعَلِمَ مَا فِي الضَّمَائِرِ وَالْقُلُوبِ، وَعَلِمَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ. يَا سَلْمَانُ وَيَا جُنْدَبُ! وَصَارَ مُحَمَّدٌ الذِّكْرَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَ: ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾. إِنِّي أُعْطِيتُ عِلْمَ الْمَنَايَا وَالْبَلَايَا وَفَصْلَ الْخِطَابِ، وَاسْتُودِعْتُ عِلْمَ الْقُرْآنِ وَمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ...» (محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٢٦، ص ٥). وقد نُقل في المصادر الروائية والكتب الكلامية روايات متعدّدة حول علم الإمامعليه السلام، وحتى نُقل أنّ بعض الأجلاء من أصحاب الأئمّة المعصومينعليهم السلام، مثل سلمان، هم أيضًا كانوا عالمين ومطّلعين على أمورٍ غير اعتيادية وعلى علم ما كان وما يكون.

(١) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ١، ص ٢٥٣. ومن المناسب هنا أن نبيّن مسألةً، هي أنّ العلم بالأمور في العوالم الأخرى ليس مثله في هذا العالم؛ ومنه مثلًا إعلام الملائكة بعلم الماضي والمستقبل، أو إعلامهم إمام الزمانعليه السلام بمقدّرات السنة في ليلة القدر، فهذا ليس مثل أيّ إعلامٍ في هذه الدنيا. نعم، هذا النوع من الإعلام له في هذا العالم مقتضياته الخاصّة؛ ومن ذلك مثلًا أنّه يستغرق وقتًا، وهو من نوع العلم الحصولي، وبناءً عليه، فهذا النوع من المعارف والعلوم يتطلّب أدواتٍ وإمكانات. أمّا بالنسبة إلى الملائكة ومقام الإمامعليه السلام الذي هو أبعد من هذا العالم، فلا حاجة إلى هذه الأمور، إذ إنّ ذلك العالم ليس خاضعًا لظروف وشروط هذا العالم. الأسماع والأبصار هناك تكون بنحوٍ لا يحتاج إلى زمانٍ ولا إلى مكانٍ وشرائط خاصّة مادّيّة ودنيويّة، بل يقع في لحظة قصيرة، وفي تلك اللحظة وذلك الآن، يمكن الاستماع إلى كثيرٍ من الأمور والمطالب وفهمها كذلك، ما يشبه تقريبًا قصّة المرحوم كربلائي كاظم، الذي حفظ القرآن كلّه في لحظة قصيرةٍ جدًا، فبات حافظًا ويقرأ من حفظه. بناءً عليه، وعلى أساس ترتّب عوالم الوجود، فلكلّ عالمٍ مقتضياته التي تختصّ به على أساس سعته الوجوديّة، كما أنّ أيًّا من العوالم ليس تابعًا لظروف العالم الآخر.



عن سؤالٍ ما حوله، أو قد يكلّفون أشخاصًا للبحث والتحقيق في أمرٍ ما بهدف الاطّلاع عليه. وهنا أيضًا ذُكِر لرفع هذه الشبهة أنّ حالات هؤلاء العِظام كانت بنحو أنّهم متى ما شاؤوا وأرادوا فيمكنهم أن يطّلعوا على هذا الأمر بواسطة المدد الإلهي. هذا والحال أنّهم عالمون بجميع الأمور. إذًا، فكيف يمكن الجمع بين هاتَين الطائفتَين من الروايات وبين هاتَين الدعويَين؟

نشرع بالجواب عن هذه الشبهة من خلال الرواية عن الإمام العسكري عليه السلام التي يقول فيها: «قُلُوبُنا أوعيةٌ لِمَشِيئَةِ الله، فَإِذَا شَاءَ شِئْنَا، وَاللهُ يَقُولُ: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾»[1].

لقد كان الأئمّة المعصومون عليهم السلام ـ وما زالوا ـ قد سلّموا تمام وجودهم لله عزّ وجلّ، معتقدين بأن ليس لأنفسهم أيّ استقلالية في الحياة والممات، والشخص الذي يكون بهذا النحو لا يمكن أن يشاء ويريد أيّ شيءٍ غير مشيئة الله تعالى وإرادته؛ بل مشيئته وإرادته هي عينها مراد الله تعالى[2].

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٢٥، ص ٣٣٦، ج ٥٢، ص ٥٠.

(٢) في الكتاب الشريف المسمّى **مصباح الشريعة** والمنسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام تعبيرٌ عجيب يبيّن غاية فناء هؤلاء الأعزّاء واستغراقهم في ذات الحقّ تعالى، حيث يتحدّث الإمام عن حالات الشخص الذي يريد أن يكون متوكّلًا على الله تعالى حقيقةً، فيقول: «...فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكونَ مُتَوَكّلًا لا مُتَعَلّلًا فَكَبِّرْ عَلى روحِكَ خَمْسَ تَكْبيراتٍ، وَدَعْ أَمانِيَكَ كُلَّها تَوْديعَ الْمَوْتِ لِلْحَياةِ، وَأَدْنى حَدِّ التَوَكُّلِ أَنْ لا تُسابِقَ مَقْدُورَكَ بِالْهِمَةِ وَلا تُطالِعَ مَقْسُومَكَ وَلا تَسْتَشْرِفَ مَعْدُومَكَ، فَتَنْقُضَ بِأَحَدِهِما عَقْدَ إيمانِكَ وَأَنْتَ لا تَشْعُرُ» (**مصباح الشريعة**، ص ١٦٥؛ الميرزا حسين بن محمّد تقي النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ج ١١، ص ٢١٨).



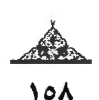
والرواية المعروفة حول قرب النوافل شاهدةٌ على هذا المدّعى، فهذه الرواية حديثٌ قدسيّ ينقله الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أنّه قال: «قال الله تعالى: مَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتّى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا؛ إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ...»[1].

لم يقل رسول الله صلى الله عليه وآله إنّ ذلك الشخص الذي يتقرّب إلى الله بالنوافل ويرتقي إلى تلك الدرجة العالية لا بدّ من أن يكون إمامًا معصومًا، بل كلّ إنسان يصبو إلى مرضاة الله تعالى، في المستحبّات فضلًا عن الواجبات، ولا يتوانى في الاجتهاد في أدائها؛ فسوف يصل إلى هذا المقام العظيم؛ أي يصبح الله تعالى عينَه وسمعَه، وتكون إرادته هي عينها إرادة الله تعالى.

إذا وصل الإنسان إلى هذا المقام الرفيع، فالله تعالى هو الذي سيقرّر بدلًا عنه، ويتولّى رعاية شؤون حياته المختلفة، وينجز له

---

(١) «عَنْ حَمَّادِ بْنِ بَشِيرٍ، قَالَ :سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَرْصَدَ لِمُحَارَبَتِي، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتى أُحِبَّهُ؛ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا؛ إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ، وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي عَنْ مَوْتِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ، وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٣٥٢؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٧٢، ص ١٥٥).





أعماله. قراراته وإرادته لن تكون بعد ذلك نابعةً من ذاته حتى يقع فيها خطأ!

ولكن هل يمكن لأيّ شخصٍ أن يحظى بهذه الحياة الخالدة؟ الكرة في ملعب الجميع، والباب مفتوح لكلّ من يتوق إليه، فهنيئًا له! ولكن واحسرتاه على أنّ هذا التوق وإنْ كان موجودًا عند كثيرين، ولكنّ جمعًا قليلًا وعدّةً محدودةً فقط من أصل ملايين عباد الله، هم من يتحمّلون الدخول إلى هذا الميدان الصعب الشاق.

نعم؛ هذا الميدان يحتاج إلى همّة وشوقٍ نبويّين وإرداة وعشقٍ علويّين.

لا بدّ [للعبد] من التسليم إلى الله في جميع الأمور حتى يكون كما العباس بن عليّ عليهما السلام الذي بات باب الحوائج واستطاع أن يأخذ بأيدي كثيرين وإنْ لم يكن لديه يد «وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا»(١). هنا تصير إرادة الإنسان هي عينها إرادة الله ولا يكون له من ذاته أيّ إرادة. وهذا هو تفسير أو تأويل الآية الشريفة: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٢)؛ أي إنّ إرادة الله تتجلّى في إرادة أولياء الله، فلا يريدون ما لا يريده الله، ومتى ما أرادوا وشاؤوا فالله تعالى يكون قد أراد.

---

(١) نعم، لا بدّ من الوصول إلى مقام سيّدنا ومولانا حضرة أبي الفضل العباس عليه السلام حتى يُفتح الباب كما لفحولٍ من أمثال الشيخ العارف وآية الحقّ السيّد علي القاضي رحمه الله، الذي بعد سنواتٍ من عبور الطريق ومن تحمّل الآلام والمحن الكثيرة، تشرّف في حرم ذلك السيّد الوفيّ مقطوع اليد. بأن ينال منه أجر مشقّاته على مدى السنوات الطويلة.

(٢) سورة **التكوير**، الآية ٢٩.



وبناءً عليه، فالإمامعليه السلام يكون له علمٌ بالأمور متى ما رأى اللهُ في ذلك مصلحةً وشاء ذلك الأمر، وعندما لا تقتضي المصلحة الإلهيّة ولا يشاء الله ذلك، فلن يعلم الإمام، بل حتى سيُظهر أيضًا أنّه لا يعلم.

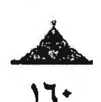
على أنّه من أجل الجمع بين هذا المدّعى وبين الروايات التي تقول إنّ كلًا من الأئمّةعليهم السلام «عالمٌ بما كان وما يكون وما هو كائن»، وكذلك الروايات التي تقول إنّهم يعلمون متى ما أرادوا ذلك؛ يمكن أن نذكر التوضيح التالي:

تنقسم علوم الأئمّة المعصومينعليهم السلام إلى قسَمين: قسمٌ من هذه العلوم من نوع العلوم الحاضرة في الذهن والقلب، والقسم الآخر هو من العلم المكنون[1].

عندما يقال إنّ هؤلاء العظام عالمون بجميع الأمور في الماضي والحاضر والمستقبل، فالمقصود هو قدرتهم العالية على تحمّل تلك العلوم من الله تعالى، فقد منحهم الله القدرة على تحمّل جميع تلك العلوم، ولكنّ فعليّة علمهم أو عدم فعليّته يبقى تابعًا للمصالح الإلهية ولمشيئة الله تعالى.

---

(١) كان للمرحوم الشيخ عبد الكريم الحائريرحمه الله مثالٌ وتعبيرٌ حول مسائل الفقه والأصول، ينفع ـ إلى حدٍّ ما ـ في فهم المطلب في هذه المسألة، حيث كان سماحته يقول: «العلم على نحوَين: علمٌ توجيبي وغير حاضر، وعلمٌ جاهز وحاضرٌ في الذهن. العلم التوجيبي يكون عندما يسألون العالم عن مسألةٍ ما فيجيبهم: «لا أعلم، ولكن قد كتبتها في ورقةٍ أو في كتاب، أو هي في جيبي». ولكن أحيانًا يطرحون عليه سؤالًا فيجيبهم فورًا وبدون أدنى تأمّل. في كلتا الحالتَين هو عالم، ولكنّه في مسألةٍ [مثل الحالة الثانية] يكون عالمًا بالفعل وبلا واسطة، وفي مسائل أخرى يكون عالمًا بالواسطة وبعلمٍ توجيبي».



في الظروف التي يشاء فيها الله وتقتضي المصلحة الإلهية، فالإمام عليه السلام هو كذلك يرى في ذلك مصلحة، فيشاء، فيفيض الله تعالى علمه عليه في اللحظة نفسها وفي الآن ذاته. وكذلك في الظروف التي لا تقتضي المصلحة الإلهية فيها العلم بالمطلب الكذائي ولا يريد الله تعالى ذلك، لا يشاء الإمام؛ فلا يُفاض عليه علمٌ بخصوص ذلك المورد الخاصّ، ولهذا السبب فهو يعبّر عن عدم علمه.

في الواقع، فعندما تقتضي المصلحة الإلهية، فالإمام عليه السلام هو بدوره سيطلب من الله. وعندما يطلب يُعلَم أنّ الله تعالى قد أراد وسيفيض عليه؛ وذلك لأنّ الإمام ليس له مشيئة من ذاته، فقد فوّض جميع ما لديه إلى الله، والله تعالى بات متكفّلًا بجميع أموره، وجميع الأمور التي يريدها الإمام ويحتاج في تأديتها إلى الأسباب العادية، يؤدّيها الله له حتى بدون دخالة تلك الأسباب، كما قال عليه السلام: «قُلُوبُنَا أَوْعِيَةٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ»، وكلّ ما يشاؤه الله يظهر في قلوبنا ولا غير.

اللهمّ لا بدّ من التذكير بأنّ هؤلاء العظام قد وصلوا إلى هذه المرتبة من الكمال بإرادتهم واختيارهم التام، مع تحمّل المشقّات والصعوبات، ومن خلال المراقبات الشديدة وطيّ المراحل.

وبناءً عليه، فهذا النوع من التبعيّة للإرادة والمشيئة الإلهية ليس فيه أيّ منافاة مع اختيار الإنسان وإرادته، وهو ليس جبرًا بأيّ وجهٍ من الوجوه. لقد سلّم هؤلاء الأئمّة أنفسهم لله تعالى حتى قبِل الله ولايتهم، وكلّ من كان لديه مثل هذا الاختيار الصحيح فسيأخذ الله ولايته على عاتقه.





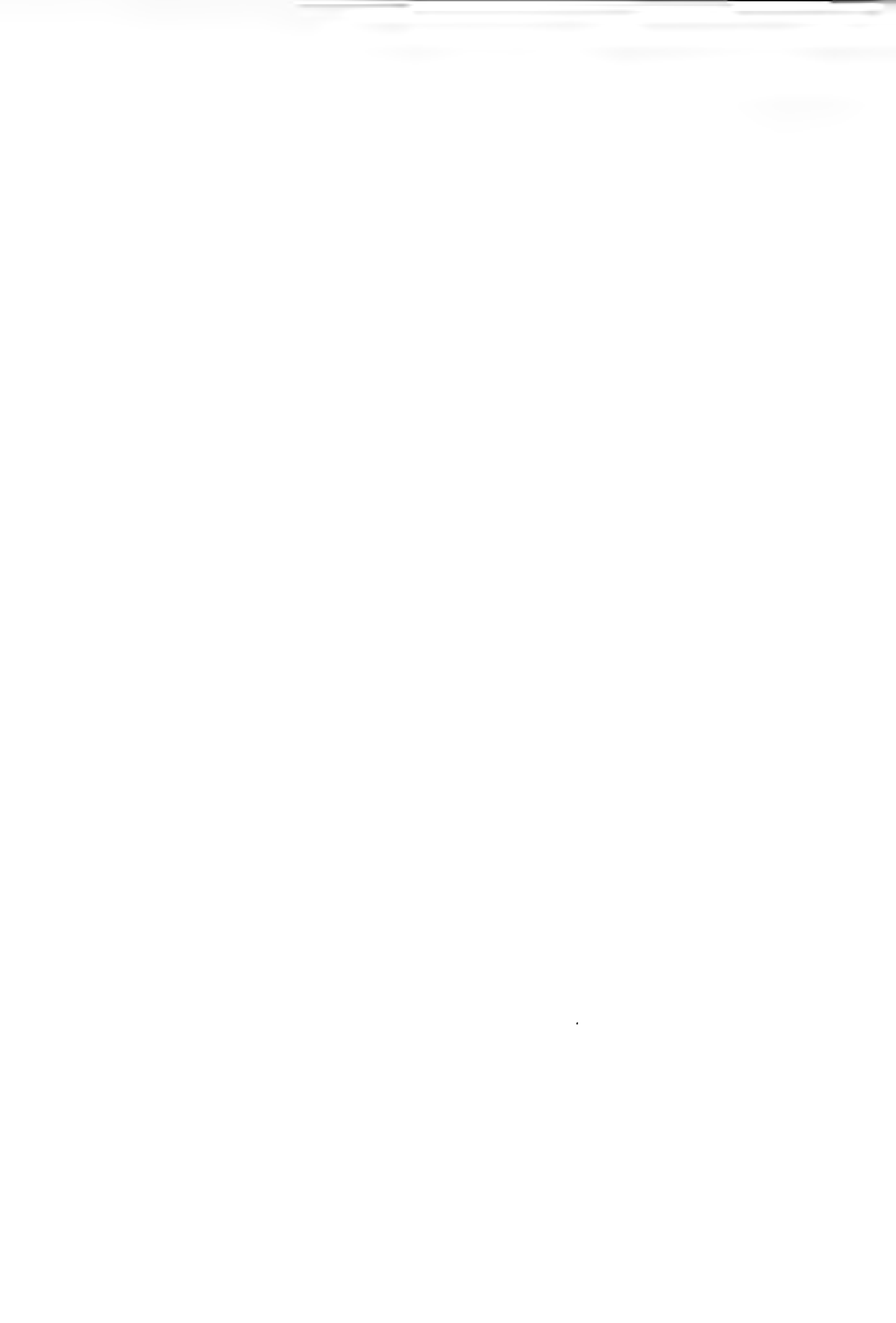
وعلى أيّ حال، فمن أهمّ خصائص ليلة القدر هو أنّ مقدّرات السنة تُعرَض فيها على إمام الزمان عجّل الله تعالى فرجه الشريف بواسطة الملائكة الإلهيّين والروح.



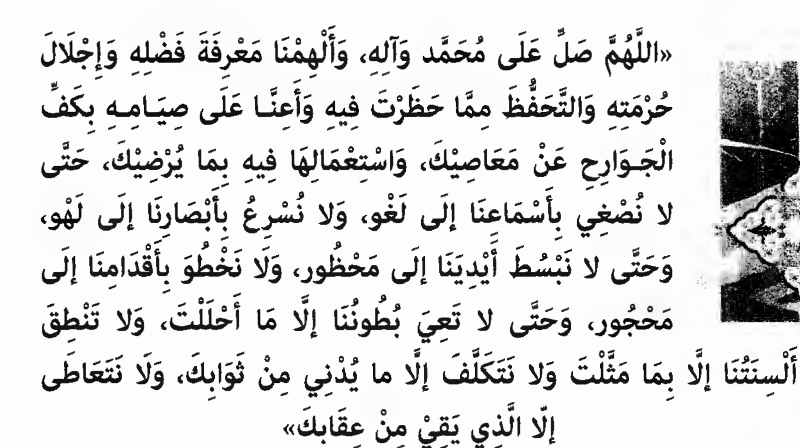


الجلسة التاسعة:

فلسفة تشريع الصيام ومراتبه







«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ فَضْلِهِ وَإِجْلَالَ حُرْمَتِهِ وَالتَّحَفُّظَ مِمَّا حَظَرْتَ فِيهِ وَأَعِنَّـا عَلَى صِيَـامِـهِ بِكَفِّ الْجَـوَارِحِ عَنْ مَعَاصِيْكَ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ بِمَا يُرْضِيْكَ، حَتَّى لا نُصْغِي بِأَسْمَاعِنَا إِلَى لَغْو، وَلا نُسْرِعُ بِأَبْصَارِنَا إِلَى لَهْو، وَحَتَّى لا نَبْسُطَ أَيْدِيَنَا إِلَى مَحْظُور، وَلَا نَخْطُوَ بِأَقْدَامِنَا إِلَى مَحْجُور، وَحَتَّى لا تَعِيَ بُطُونُنَا إِلَّا مَا أَحْلَلْتَ، وَلا تَنْطِقَ أَلْسِنَتُنَا إِلَّا بِمَا مَثَّلْتَ وَلا نَتَكَلَّفَ إِلَّا ما يُدْنِي مِنْ ثَوَابِكَ، وَلَا نَتَعَاطَى إِلّا الَّذِي يَقِيْ مِنْ عِقَابِكَ»

بعد أن أتمّ الإمام السجّادعليه‌السلام مقدّمات الدعاء وآدابها الخاصّة، يفتتح الآن القسم الأصلي من الدعاء بالصلاة على محمّدصلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأهل بيتهعليهم‌السلام. سبق أن ذكرنا في بداية المباحث أنّ إحدى خصائص أدعية الإمام زين العابدينعليه‌السلام هو أنّ كلّ فقرة، في ابتداء أكثر الأدعية أو خلالها، تبدأ بـ«الصلوات على محمّد وآل محمّدعليهم‌السلام». وهذا القسم كذلك يفتتحه الإمامعليه‌السلام على هذا النحو.

في التتمّة، وقبل أيّ طلب، يتوجّه الإمامعليه‌السلام إلى الله تعالى حتى يلهمنا ويتفضّل علينا بمعرفة فضل هذا الشهر وحرمته، وأن يوفّقنا لأداء التكاليف التي فرضها علينا فيه.



يذكر الإمامعليه السلام طلبه الأوّل الذي يتطابق مع أصلٍ نفسيّ وإرشادٍ تربويّ. وذاك الأصل النفسي هو أنّ الإنسان في مسيره ضمن أيّ طريق وفي اجتيازه له بالشكل الصحيح، لا بدّ من أن يكون له معرفة صحيحة بتلك الطريق. الإنسان الناجح هو الشخص الذي يقوم بالعمل والفعل الذي يكون له علمٌ به، واشتغاله بذلك الفعل ونسبة اهتمامه ونجاحه في ذلك العمل منوطٌ بمقدار ما لديه من معرفة حوله، كما أنّ مقاومته وثباته في ذلك العمل إنّما يكون على قدر علمه واطّلاعه على زواياه وتفاصيله.

الأشخاص الذين يدخلون إلى شهر رمضان المبارك، ويطلبون من الله التوفيق، ويصومون ويؤدّون سائر العبادات؛ ليسوا على حدٍّ سواء. إنّ الفوارق الموجودة بين الصائمين، و[الاختلاف في] الاهتمام والاحترام الذي يولونه لهذا الشهر، إنّما ترجع إلى معرفتهم بهذا الشهر العظيم. بعضهم يرون الصيام عبادةً وتكليفًا شاقًّا قد أُلقي على عاتقنا. وفي المقابل مجموعةٌ أخرى تراه أكبر توفيق أهداه الله إليهم. لهؤلاء نظرةٌ إيجابيّة إلى الصوم إلى حدّ أنّهم يذهبون إلى استقباله، وكأنّهم يرحّبون به قائلين: «أهلًا وسهلًا». جميع هذه الفوارق، والطيف الواسع من الذين يقعون بين هاتَين المجموعتَين؛ إنّما يرجع إلى طبيعة نظرتهم إلى هذا الشهر ومعرفتهم بعظمته وفضائله. ومن هنا، فمن المناسب أن يكون أوّل طلبنا من الله تعالى هذه المسألة المهمّة جدًّا؛ أي معرفة هذا الشهر ومعرفة فضائله وحرمته.

أمّا الطلب التالي الذي يطلبه الإمامعليه السلام، فهو التوفيق الإلهي للامتناع عمّا لا يريده الله وينهى عنه. لعلّ هذا المقطع من الدعاء



إشارة إلى أنّ روح الصيام هي الامتناع والإمساك[1]، فمن خصوصيّات هذا الشهر وهذه العبادة؛ أي الصوم، هو أنّ الإنسان يلتزم من البداية بالامتناع؛ الامتناع عن كلّ مفطّر، والامتناع عن كثيرٍ من الرغبات والميول النفسانية.

سؤال: لماذا كلّف الله تعالى البشر بالتغاضي عن رغباتهم؟ حيث كلّف بالصيام شريحةً واسعةً من المؤمنين، من الشبّان والفتيان الذين بلغوا حديثًا سنّ التكليف الشريعي، إلى الشيوخ والعجائز الذين قد منحهم الله ما يقرب من مئة عام من العمر، وكذلك كثيرٌ من الأفراد الذين يعملون أعمالًا شاقّة. وعلاوةً على ذلك، فإنّ الصوم المنهك في أيّام الصيف الطويلة والحارّة، وبخاصّة في بعض الأقاليم الحارّة؛ هو بذاته مسألة أخرى... جميع هذه الأمور تعبّر عن تكليفٍ شاقٍّ ألقاه الله على عاتق المؤمنين. لماذا لم يأمر الله تعالى الإنسان في هذا الشهر بتناول الأطعمة الصحية وبالرياضة وبأنشطة أخرى ضمن إطار المحافظة على صحّة البدن والسلامة الجسمانية، حتى يكون جاهزًا للعمل والنشاط في جميع هذه الميادين؟ ما هي الحكمة من ذلك؟

والجواب: للوصول إلى الإجابة الصحيحة على هذا السؤال لا بدّ من إيضاح فلسفة وجود الإنسان في هذا العالم؛ فالإنسان، على أساس

---

(١) بالاستناد إلى الآيات والروايات، فسّر فقهاء الشيعة الصيام بأنّه «الإمساك والامتناع عن الإتيان بالمفطّرات». وفي المصادر الحديثية والفقهية أبوابٌ مختلفة في مقام بيان مفطّرات الصوم؛ جاءت حاملةً عناوين الإمساك عن الأكل والشرب، الإمساك عن الرمس في الماء، الإمساك عن الجماع، الإمساك عن الكذب على الله ورسوله والأئمّة ﵈... وبناءً عليه، فماهية هذا التكليف الإلهي هي الامتناع والإمساك. راجع: محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، كتاب الصوم؛ **العروة الوثقى**، كتاب الصوم؛ وغيرهما.

نوع خلقته، مثل جميع الحيوانات الأخرى، لديه مجموعة من الرغبات الغريزية والفطرية، وهذه الميول لا تعرف بحدّ ذاتها أيّ حدٍّ أو قيدٍ تتوقّف عنده، بل هي تميل إلى كلّ ما يمنحها لذّةً أكثر من الطعام والشراب والمحفّزات الجنسية... وأقصى همّها هو أن تجد طريقًا لمزيدٍ من اللذّة وللاستفادة منها بشكلٍ أكبر. على أنّ العامل الوحيد الذي يعدّل هذا الشره الإنساني الذي لا يعرف الشبع؛ إنّما هو ضعفه وعجزه نتيجةً للشيخوخة أو المرض وأمثال ذلك.

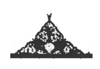
ولهذا السبب، فأيّ أمرٍ ومشيئة تقف في مقابل هذه الميول وكأنّها بصدد الحدّ منها، لن تكون مرحّبًا بها عنده، بل علاوةً على ذلك، فالنواهي والموانع أحيانًا تكون بحدّ ذاتها مشجّعة [على الفعل]، كما هو الأمر عندما تقولون للطفل لا تأكل من هذا الطعام أو لا تلعب بالشيء الفلاني فيصبح بعد ذلك أشدّ حرصًا عليه؛ وذلك لأنّ الإنسان أساسًا ينفر من التقييد ويطلب الحرّية بطبعه: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[1].

على أنّ رغبات الإنسان لا تكون هي ذاتها دائمًا، وإنّما تتغيّر ميوله على امتداد العمر. فبعد أن يطوي قسطًا من عمره، تحلّ محلّ ميوله السابقة ميولٌ جديدة كانت من قبل موجودة عنده في لاوعيه، فيظهر عنده بالتدريج رغباتٌ جديدة.

إحساس الفضول، غريزة الجوع والعطش، الارتباط العاطفي مع الوالدين وسائر الأفراد الذين يتواصل معهم الإنسان، اللعب... هذه وغيرها تُعدّ من جملة الميول الإنسانية التي يكون لها فعلية من

---

(١) سورة **القيامة**، الآية ٥.



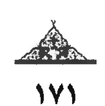
مرحلة الطفولة، ويشكّل الإشباع الصحيح والكامل لكلٍّ منها مصدرًا للّذّة عنده. ولكنّه بعد مدّة يتنبّه إلى أنّ الإشباع الكامل لجميع الميول، ونتيجة للقيود الموجودة، ليس ممكنًا له، وأنّه لا مناص له من أن يختار الامتناع عن بعضها، وأن يضحّي بها لأجل البقية. من خلال هذا الطريق يقترب الإنسان شيئًا فشيئًا من مرتبة العقلانيّة والتفكير ويصبح مهيّأً لتقبّل القانون، ومن ذلك الحين يصبح لـ«ما ينبغي» و«ما لا ينبغي» معنًى عنده. ومن خلال هذا الامتناع والاختيارات يتعلّم أنّه لا بدّ من أن يرجّح الأمور الأكثر قيمةً من غيرها على ما سواها، على أنّ الميول والرغبات الفطريّة في الإنسان [مبنيّةٌ] على أساس الحكمة وهي ليست لغوًا. فقد جعل الله لكلٍّ منها مكانًا للاستعمال، ولكن أحيانًا تتزاحم هذه الرغبات في مقام العمل وإشباع الميول، وعندما تتزاحم الرغبات، لا بدّ من إرضاء بعضها وعدم إرضاء بعضها الآخر، ولكن ما هي الميول التي ينبغي إرضاؤها والميول التي ينبغي عدم إرضائها؟ وأيّها ينبغي أن يكون مرجّحًا على البقيّة؟

إنّ من مشكلات الإنسان الأساس عدم وعيه ومعرفته الصحيحة بهذه الأمور، وما أكثر الحالات التي يظنّ فيها أنّه قد شخّص واختار ما هو صحيح، ثمّ سرعان ما يكتشف خطأه لاحقًا. هذه التشخيصات الخاطئة والقرارات غير الصائبة تُفهم الإنسان أنّه في سبيل الوصول إلى المعارف الصحيحة واتّخاذ القرارات الصائبة فهو محتاجٌ إلى مصدر أكمل يعلم ما الذي يصلح للإنسان وما هي الأمور التي لا تصلح له، ويشخّص ما هي الأمور التي «ينبغي» القيام بها وما هي الأمور التي «لا ينبغي» القيام بها.



لقد جعل الله في وجود الإنسان مصدرًا غنيًّا باسم العقل حتى يشخّص المصالح والمفاسد إلى حدٍّ ما، ويحلّ في هذا المجال كثيرًا من مشكلات الإنسان، ولكنّ الإنسان يفهم مع مـرور الزمن ومن خلال التجربة أنّ هذا المصدر المعرفي يبقى غير كافٍ أيضًا، فكثيرٌ من الميادين المعرفية والقرارات المهمّة خارجة عن دائرة تشخيص أو قدرة العقل العادي، ولهذا السبب فهو ما زال يرى نفسه محتاجًا إلى قوّةٍ ومصدرٍ ماورائي أفضل من الإنسان ومن قدرته. وهذه القوّة الأفضل هي الوحي والشرائع الإلهيّة، وميزة الشريعة والدين تكمن في رفع هذه المشكلة. الدين هو الذي يرفع أهمّ حاجات الإنسان وأفضلها؛ فهو يهدي هذا الإنسان ويعرّفه على الطريق الصحيح من غير الصحيح، وبالتالي، فمشكلة المعرفة والنقص المعرفي عند الإنسان إنّما تُحلّ بالدين.

مشكلة الإنسان الثانية، والتي لعلّها أصعب من المشكلة المعرفية، هي التسليم للأحكام الإلهيّة في العمل. يعيش الإنسان لسنوات حرًّا نوعًا ما، وبخاصّة في مرحلة الطفولة التي اعتاد فيها على الوصول إلى ما يريد، والتي يقوم فيها بكلّ ما يرغب به بنحوٍ يُشعرك وكأنّ الوالدين عبدان وخادمان له. ونتيجة إغراق الأطفال في هذا الجوّ من الحرّية، فإنّهم يصلون إلى الشعور بالحرّية والتحرّر بدون حدّ ولا قيد؛ هذا وإنْ كان لا بدّ للولد ـ على أيّ حال ـ من أن يبقى حتى سنواتٍ خاصّة حرًّا إلى حدٍّ ما، وأن تتهيّأ له فرصة الحركة واللعب؛ وذلك لأنّ هذا النوع من النشاطات الحرّة يهيّئ الأرضيّة لنموّه ورشده. وهذا جزءٌ من حاجات الأطفال الضروريّة التي أكّدت عليها تعاليم دين الإسلام المقدّس بشكلٍ كبير، وقد نُقل في المصادر الروائيّة والتاريخيّة





روايـات كثيرة في هذا السياق من سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام وسنّتهم[١].

عندما يكون الطفل حرًا ومطلق العنان في رفع احتياجاته وتلبية رغباته، ولا يتعرّض لأيّ منع ولا يتحمّل في الحياة أيّ صعوبة ومشقّة، فلا شكّ في أنّ مثل هذا الطفل سيواجه مشكلة في السنوات الأعلى وفي مرحلة تقبّل القانون والأوامر والنواهي، وبخاصّة إذا كان قليلًا ما يُراعَى معه الجوانب الدينية في التربية وتعاليم الشرع المقدّس في تربية الأطفال. وكذلك إذا استمرّت هذه الحرية المطلقة ورافقته إلى السنوات الأعلى، فستستمرّ المشكلة بل ستزيد وتتضاعف؛ فعلى سبيل المثال، وفقًا لتعاليم دين الإسـلام المبين، ينبغي أن يُعرّف الأطفال من سنّ السادسة أو السابعة على بعض الأحكام الدينيّة، وأن يُشجّعوا، بطريقة صحيحة، على أداء بعض الأعمال والتكاليف السهلة والمُيسّرة[٢]. هذا النوع من التربية يهيّئ الأطفال شيئًا فشيئًا للتعرّف على الالتزام بالقانون ويهيّئ عندهم الأرضيّة لتحمّل المسؤوليّة وإطاعة التكليف. أمّا عندما لا يكون الأمر كذلك، بل يعيش الأطفال

---

(١) قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «الوَلَدُ سَيدٌ سَبعَ سِنينَ وَعَبدٌ سَبعَ سِنينَ وَوَزيرٌ سَبعَ سِنينَ. فَإِن رَضيتَ خَلائِقَهُ لإحدى وَعِشرينَ وَإِلا فَاضرِبْ عَلى جَنبِهِ فَقَد أعذَرتَ إلى اللهِ تَعالى» (محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١٥، ص ١٩٥).

(٢) عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام قال: «إنّا نَأمُرُ صِبيانَنا بِالصَّلاةِ إذا كانوا بَني خَمْسِ سِنينَ، فَمُروا صِبيانَكُمْ بِالصَّلاةِ إذا كانوا بَني سَبْعِ سِنينَ، وَنَحنُ نَأمُرُ صِبيانَنا بِالصَّوْمِ إذا كانوا بَني سَبْعِ سِنينَ بِما أَطاقوا مِن صيامِ الْيَومِ إن كانَ إلى نِصْفِ النَّهارِ أَوْ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ أَوْ أَقَلَّ، فَإِذا غَلَبَهُمُ الْعَطَشُ وَالْغَرَثُ أَفْطَروا، حَتّى يَتَعَوَّدُوا الصَّومَ وَيُطيقوهُ، فَمُروا صِبيانَكُم إذا كانوا بَني تِسْعِ سِنينَ بِالصَّومِ مَا اسْتَطاعوا مِن صيامِ الْيَوْمِ، فَإِذا غَلَبَهُمُ الْعَطَشُ أَفْطَروا» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٣، ص ٤٠٩).



في حرية أكثر من اللازم، فستطول مرحلة الطفولة عندهم، والأوامر والنواهي لن يكون لها أيّ معنى أو تأثير عندهم حتى في السنوات الأعلى.

ما يؤسف له أنّ مجتمعاتنا اليوم أحيانًا لا تضع أيّ قيودٍ في التعامل مع الأطفال ومع الأفعال التي تصدر منهم في المنزل، وأحيانًا أخرى تكون هذه القيود في المجتمع قليلةً جدًّا، وفي المقابل يتوفّر لهؤلاء الأطفال أشكالٌ وألـوانٌ من الخدمات ووسائل الترفيه. وبدل أن يتلقّى الطفل في سلوكيّاته تنبيهًا إلى أخطائه وعقوبةً عليها، نرى أنّه يتلقّى التشجيع، بشكلٍ تلقائي، من والدَيه أو من القيّمين في المجتمع. من الطبيعي أنّ التعامل بهذا الشكل مع الأطفال والمراهقين والشباب سيرغّبهم ويشجّعهم يومًا بعد يوم على الأعمال الفاسدة التي تصدر منهم. هؤلاء الأطفال والمراهقون الذين لم يتعرّفوا على أصول وآداب التعليم والتربية، وترعرعوا في أجواء الحرية واللهث وراء اللذّة سيقعون في سنوات الالتزام بالقانون بحالاتٍ عجيبة من الاضطراب والتمرّد، ولن يكون لديهم روحيّة الالتزام بالقانون، بل على العكس؛ سيصبحون متنفّرين من القانون، ومن الطبيعي أن يكون لديهم بشكلٍ دائم نزاع فكري، أو حتى جسدي أحيانًا، مع القانون ومنفّذي القانون، ومع كلّ أمرٍ يفرض عليهم حدودًا وقيودًا.

اللهمّ لا بدّ من التنبّه في جميع هذه الأمـور إلى أنّ الإفراط والتفريط في كلّ مرحلة يولّد المشاكل؛ فالحريّة من جهة، والحدود والقيود من جهةٍ أخرى، كلاهما لا بدّ من أن يكونا على أساس الأصول والمعايير الصحيحة.



جميع ما ذكرناه يدخل في دائرة مسائل العقل العملي، [ولكنّ] هذه الازدواجية في الأفعال لها جذورها في الازدواجية في الرؤى؛ أي إذا وصل الإنسان إلى نتيجة مفادها أنّه قد وُجد من تلقاء نفسه وليس له خالق، فلا ينبغي أن يكون ثمّة شخصٌ أو قانون يفرض عليه واجبًا أو يضع له قيودًا خارجةً عن إرادته. أمّا إذا اعتقد بأنّ له خالقًا أوجده وهيّأ لوجوده برنامجًا، بحيث تكون سعادته الدنيوية والأخروية معيّنةً ومشخّصةً على أساس ذلك البرنامج، وكان الوصول إلى تلك السعادة والكمال مشروطًا بطريق محدّدٍ «ينبغي» أن يعبره و«لا ينبغي» أن يسير في الضياع والانحراف؛ فهنا يلتزم الإنسان بالحدود ويرى نفسه ملزمًا، رغمًا عن ميله الباطني أحيانًا، بأن يقوم بفعلٍ ما أو يلتزم بتركه.

وكذلك في مجال العقائد ومسائل العقل النظري نجد هاتَين الرؤيتَين أيضًا: مجموعة ترى أنّ عالم الوجود عالمٌ منظّمٌ ودقيق، قام بتأسيسه مشغّلٌ عالمٌ وحكيم، من خلال تصميم ومخطّطٍ وُضع بدقّة ومهارة ولأجل هدفٍ معيّن ومحدّد؛ وذلك المشغّل والمصمّم الحكيم يُطلق عليه الإلهيّون اسم «الله». وفي المقابل كذلك رؤية يعتبر أصحابها أنّ تمام عظمة هذا العالم المبهم والمعقّد إنّما هو أمرٌ صُدفويّ وعشوائيّ: فتكوّن المواد الأوّلية، التغيّرات والتحوّلات اللاحقة، وتكوّن موجودات العالم بكلّ ذلك النظام والحساب الدقيق، وكلّ ما يحدث في هذا الكون؛ ذلك كلّه لا يرونه إلا مجرّد صدفةٍ وحادثةٍ وقعت من تلقاء ذاتها وبدون تخطيطٍ، ولا برنامج أو إدارة معيّنة.

في مجال المسائل النظريّة أساسنا واضح؛ فبرأي الإسلام والأديان الأخرى، تحقّق هذا العالم ليس تحقّقًا اتّفاقيًّا وعبثًا ولغوًا، كما أنّ نهايته لن تكون عبثًا ولغوًا، وإنّما عالم الوجود قد خلقه حكيمٌ وعالمٌ



نطلق عليه اسم «الله». هذا، في حين أنّ الأمر في المسائل السلوكية ليس بهذا الوضوح: نعتقد بوجود الله وبأنّنا مخلوقون، ولكن من الناحية العملية، وفي كثيرٍ من الأمور، نضع الله وأحكامه وقوانينه في الهامش، فالدين أساسًا ليس في صلب حياتنا، وإنّما أساس حياتنا أمورٌ أخرى. نعم؛ إلى جانب مسائل حياتنا المتعدّدة واشتغالاتنا ونشاطاتنا المتنوّعة والتسالي والترفيه وما شابه، نجد أنّ التديّن، أداء الصلاة بين وقتٍ وآخر، الصيام وغير ذلك، هذه الأمور أيضًا تشكّل قسمًا من حياتنا، ولكنّ الدين يبقى مع ذلك على هامش الحياة وليس في صلبها.

عندما يكون الأمر كذلك، يكون الأصل في الحياة هو الحرية وإطلاق العنان، والإنسان لا يحبّ أن يحول أدنى مانع دون وصوله إلى لذّاته ولا أن يحدّها ويقيّدها: ﴿بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ﴾، بل حتى القيود والقوانين يرى أنّها لا بدّ من أن تصبّ في إطار تحقيق هذا الأمر مهما أمكن.

أمّا إذا كانت فلسفة حياة الإنسان فلسفة إلهيّة، وعلى أساس معرفة الحدود الدينية ومراعاتها، فسيكون الوضع على نحوٍ آخر، وهذا يعني التقوى الحقيقيّة والخشية من الله بالمعنى الحقيقي. الإنسان المتّقي هو إنسانٌ لا يراعي القوانين والقيود لمجرّد الخوف من العقاب، ولكن بما أنّه يعتقد بعبوديّته فهو يراقب نفسه، ويعرف القانون ويراعيه، ويراعي الحدود حتى لو لم يكن ثمّة ضابطٌ وناظر؛ وذلك لأنّه قد سلّم من البداية بأنّ لأفعاله حدودًا، قانونًا، ومنها «ما ينبغي» وَ«ما لا ينبغي»، ومنها «الحَسن» و«السيّئ»، ولا بدّ من الإتيان بالأفعال الحسنة، كما لا بدّ من اجتناب الأفعال السيّئة؛ أي إذا كانت تلك المسائل النظرية والرؤية الكونية صحيحةً وكاملةً لديه وكان يؤمن



بها، فسيترجم ذلك في مرحلة العمل أيضًا. اللهم إلا أنّ اكتساب مثل هذه التقوى في عالم لديه ثقافة لا تنسجم معها هو عملٌ في غاية الصعوبة، فما هو الحلّ إذًا؟

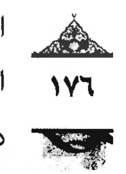
لقد قلنا إنّ لدينا مشكلتَين أساسيّتَين:

المشكلة الأساس الأولى هي معرفة القانون، فأساسًا ما هو معنى «الحسن» حتى يؤمر به في القانون، وما هو معنى «القبيح» حتى يُنهَى عنه في القانون؟

تعتقد فئةٌ بأنّ معيار حُسن الأمور وقبحها هو مقبوليّتها أو عدم مقبوليّتها في نظر المجتمع الإنساني. أمّا الرؤية المقابلة فترى أنّ معيار حُسن الأمور وقبحها هو رضا الله تعالى أو عدم رضاه؛ أي إنّ ما يصبّ في كمال الإنسان وسعادته حسنٌ، وما لا يصبّ في هذا الاتّجاه أو يخالفه لا يعتبره الله تعالى حسنًا، وجميع القوانين والأحكام الإلهيّة إنّما تُحدَّد وتُشرّع على هذا الأساس.

إذا كان الأمـر كذلك، إذًا فلا بـدّ، وبحسب حكم العقل، من التحرّك، بعد الاعتقاد بالله وقبول تشريعه للأديان، باتّجاه معرفة الدين وأحكامه؛ أي إنّ العقل يقول: ما دمت لم تفهم ما هو الشيء الحسن وما هو الشيء القبيح، فكيف تريد أن تتصرّف في مرحلة العمل حتى تصل إلى السعادة؟

وأمّا المشكلة الأساس الثانية فهي في مرحلة العمل. الإنسان عالمٌ بكثيرٍ من الأمور وليس لديه مشكلة من ناحية العلم والمعرفة، ولكنّه ليس ملتزمًا بذلك في مرحلة العمل. في كثيرٍ من أمور حياتنا؛ من المأكل والمشرب، إلى اللباس، وشراء مستلزمات الحياة، ومصاحبة



الآخرين، واختيار الزوج، واختيار التخصّص الدراسي والوظيفة، وإنفاق الأموال، وقبول بعض المسؤوليّات، والتوجّه نحو بعض الأفعال... في ذلك كلّه نطّلع أحيانًا على طرفَي المسألة: الحَسن منهما القبيح، ومع ذلك نختار القبيح، فلماذا؟

إنّ سبب ذلك الفعل هو الأنس والعادة التي عايشناها مع ملذّات الدنيا، حيث إنّ تجربة هذه الملذّات يمنع من تدخّل العقل في قراراتنا. مع هذه الخصلة الموجودة عند الإنسان، لو اكتفى الله تعالى بتركه في هذه المرحلة وبتبليغه رسالتَه مرّةً واحدة عبر أنبيائه، ما كان لعمل الإنسان أن يُختتم بخاتمة حسنة، ولكنّ لطف الله تعالى بعباده أكثر من هذا، إذ لم يكتفِ سبحانه بتبليغ تعاليمه وأحكامه وبيانها، وإنّما تكفّل، مضافًا إلى بيان أحكام الشريعة، بتربية الإنسان وتعليمه بطرق متنوّعة، وأخذ يعين هذا الإنسان، بأنواعٍ وأقسامٍ من الوسائل والأسباب، على أداء واجباته كما ينبغي، وعلى اجتياز الطّريق بالشكل الصحيح، حتى يقوم الإنسان، نتيجةً لهذه التربيات والهدايات والمساعدات، بمواجهة عاداته السيّئة ليفرض على نفسه أن تكون منضبطةً وتابعةً لقانون الله.

إنّ إحدى أهمّ طرق التربية والتأديب، والتي هي محلّ تأييد في علم التعليم والتربية وفي علم النفس أيضًا، هي التمرين والممارسة في الأعمال. فالإنسان قادرٌ من خلال التمرين العملي، على أن يقوم، شيئًا فشيئًا، بأداء أصعب الأعمال، وبرامج التمرين مؤثّرة للغاية في الأعمال طويلة الأمد. كثيرٌ من الأبطال الرياضيّين يتمرّنون لفترات من أجل أداء بعض الحركات الصعبة والشاقّة، وكذلك كثيرٌ من السالكين والعارفين، ومن أجل اكتساب بعض الملَكات النفسانيّة أو استئصال



بعض العادات الذميمة، يكتفون بالتمرين لفترات طويلة ومديدة، حتى ينجحوا في أداء فعلٍ ما أو ترك عادةٍ معيّنة. وكذلك الذين يتصدّون لمبارزة الشيطان ويريدون أن يتسلّطوا على أنفسهم، لا بدّ لهم من برنامجٍ طويل وشاقٍّ من التمرين.

بدوره، نجد أنّ دين الإسلام المقدّس، في سبيل تربية الإنسان وتأديبه، ولكي يستأصل منه بعض العادات الذميمة ويستبدلها بملكات نفسانية حسنة وإيجابية، قام بتشريع أفضل برنامج تمريني، ومن ثمّ أبلغه إلى عباد الله عبر الأنبياء الإلهيّين الكفوئين وضمن قالب الدين والشريعة. والصوم من جملة أهمّ هذه البرامج: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]، وهو ليس كذلك عند المسلمين فقط؛ بل عند جميع الأمم السابقة أيضًا. ثمّ إنّ هذا البرنامج ليس من أجل توعية عباد الله بأحكام الدين وتعاليمه فحسب؛ بل هو برنامجٌ عمليٌّ وتمريني من أجل تثبيتهم على الدين والسير بهم ليكونوا متّقين بالنتيجة.

بناءً عليه ففلسفة الصيام هي الوصول إلى الانضباط ومراعاة المقرّرات الإلهية. وهنا يكمن تمام الأهمّية التي أُعطيت لشهر رمضان المبارك وللصيام فيه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. عندما يترك الصيام والأمر بالكفّ والامتناع تأثيره في الإنسان ويجعله إنسانًا منضبطًا، فحينها سيقدر على أن يسيطر بسهولة على نفسه، وكذلك السيطرة على القلب، والعين، والأذن، واللسان، واليد، والغرائز، والميول، ستكون

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٨٣.





عند هذا الشخص أمرًا في غاية السهولة، وسيُذعن بكلّ راحة لأشقّ التكاليف وأصعبها.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ فَضْلِهِ وَإِجْلَالَ حُرْمَتِهِ**»، وهذا هو الطلب الأوّل من الله تعالى يذكره بعد الحمد والثناء الإلهي، ويكمل: «**وَالتَّحَفُّظَ مِمَّا حَظَرْتَ فِيهِ**».

في هذه الفقرة من الدعاء يشير الإمام عليه السلام إلى أنّ روح الصوم هي الامتناع عن المنهيّات الإلهيّة، على أنّ المقصود إمّا النهي التحريمي الخاصّ؛ مثل النهي عن الإتيان بمفطّرات الصوم، وإمّا مطلق النهي التحريمي؛ أي المعاصي، وإمّا النهي التنزيلي الذي يشمل المحرّمات وغير المحرّمات.

مراتب الصوم

مضافًا إلى تمرين كفّ النفس والسيطرة على الذات، ففي الصوم أيضًا ألطافٌ إلهيّة أخرى كامنة. يقوم الإنسان حين الإفطار أو السحر بتناول الطعام على أساس غرائزه، ولكن بما أنّه يلتزم بأمر الشريعة ويمتنع عن هذا الأكل قبل ذلك الحين وبعده، وبما أنّ الشرع المقدّس أيضًا قد جعل تناول الإفطار والسحر عملًا مستحبًّا، فإنّ تناول الإفطار والسحر يصبح من هذه الجهة مشمولًا بالعنايات الإلهيّة. وفي الحقيقة، فإنّ تشريع الله تعالى للصوم هو لطفٌ مضاعف للعباد المؤمنين. وكذلك فإنّ طبيعة الإمساكات ونوعها، كيفيّتها وكميّتها مختلفة، ولهذا السبب فإنّ للصوم مراحل ومراتب مختلفة، وقد بيّن الإمام السجّاد عليه السلام جميع هذه المراتب ضمن أربعة مراتب:



المرحلة الأولى: «وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ فَضْلِهِ وَإِجْلَالَ حُرْمَتِهِ» الامتناع عن المفطّرات، هذه المرتبة من الصوم هي الخطوة الأولى في الامتناع وكفّ النفس، وهي تشمل جميع المسلمين، وفي الواقع فهي بمنزلة «الصفّ الدراسيّ الأوّل» في مدرسة الصيام. غير أنّ الاستفادة من هذا الواجب الإلهي لا تقتصر على هذه المرحلة.

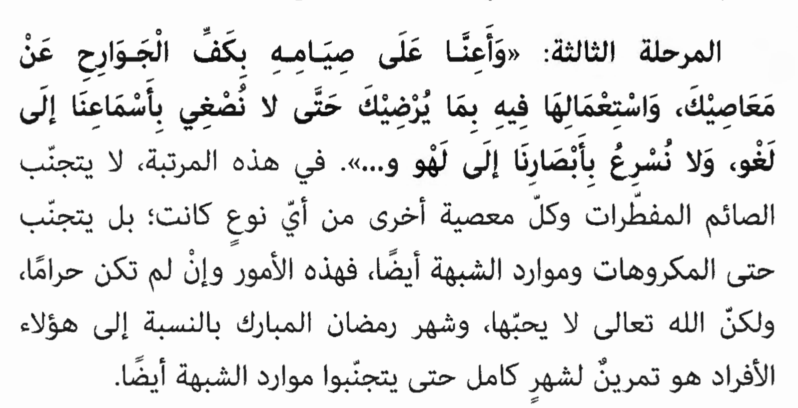
المرحلة الثانية: «وَأَلْهِمْنَا مَعْرِفَةَ فَضْلِهِ وَإِجْلَالَ حُرْمَتِهِ وَالتَّحَفُّظَ مِمَّا حَظَرْتَ فِيهِ وَأَعِنَّا عَلَى صِيَامِهِ بِكَفِّ الْجَوَارِحِ عَنْ مَعَاصِيْكَ». الامتناع عن جميع الذنوب؛ ليس المطلوب الامتناع عن المأكل والمشرب وسائر المفطّرات ومبطلات الصوم فحسب؛ بل هو تمرينٌ لمدّة شهرٍ كامل من أجل الامتناع عن جميع الذنوب. في هذه المرتبة والمرحلة من الصيام، لا بدّ من همّة أقوى واستعدادٍ أكبر، ففي هذه المرحلة تكون القوانين والمقرّرات المفروضة على الصائم أدقّ وأصعب.

على أنّ ثمّة بين هاتَين المرتبتَين مراتب متعدّدة؛ وذلك لأنّ المعاصي لها أنـواعٌ وأقسامٌ متنوّعة. ترك بعض المعاصي في غاية السهولة، ولكنّ ترك بعضها الآخر أو ترك جميع هذه المعاصي، حتى الظنون[١] والحركات الذهنيّة والسيطرة على الأمور المرتبطة بالقلب والخيال والأمور الأخرى؛ هو أمرٌ في غاية الصعوبة. وعلى أيّ حال، فجميع هذه التروك والسيطرات إنّما تندرج تحت المرتبة الثانية من الصوم، ولذا قال الإمام عليه السلام: حتى نؤدّي الصيام بالشكل الصحيح، أعنّا حتى نتجنّب المعاصي. اجتناب المعاصي هنا ليس محدودًا

(١) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ١٢).



بالمفطرات، بل المقصود مرحلة أعلى من الصوم العادي؛ مقصود الإمام عليه السلام هو تحفّظ جميع الأعضاء والجوارح عن كلّ معصية.



المرحلة الثالثة: «**وَأَعِنَّا عَلَى صِيَامِهِ بِكَفِّ الْجَوَارِحِ عَنْ مَعَاصِيْكَ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ بِمَا يُرْضِيْكَ حَتَّى لا نُصْغِي بِأَسْمَاعِنَا إِلَى لَغْو، وَلا نُسْرِعُ بِأَبْصَارِنَا إِلَى لَهْو و...**». في هذه المرتبة، لا يتجنّب الصائم المفطّرات وكلّ معصية أخرى من أيّ نوعٍ كانت؛ بل يتجنّب حتى المكروهات وموارد الشبهة أيضًا، فهذه الأمور وإنْ لم تكن حرامًا، ولكنّ الله تعالى لا يحبّها، وشهر رمضان المبارك بالنسبة إلى هؤلاء الأفراد هو تمرينٌ لشهرٍ كامل حتى يتجنّبوا موارد الشبهة أيضًا.

المرحلة الرابعة: يقول الإمام عليه السلام: «**وَأَعِنَّا عَلَى صِيَامِهِ بِكَفِّ الْجَوَارِحِ عَنْ مَعَاصِيْكَ، وَاسْتِعْمَالِهَا فِيهِ بِمَا يُرْضِيْكَ**». وهذا يعني أن يوقف الإنسان نفسه لله على امتداد شهر رمضان المبارك. هذه المرتبة من الصوم هي مرتبة «الخواصّ»، وفي هذه المرتبة لا يؤدّي الصائم أيّ عملٍ لغير الله تعالى. المرتبة الثالثة من الصيام كانت الكفّ عن المكروهات وموارد الشبهة، وليس ثمّة كلامٌ حول الكفّ عن المباحات، فما أكثر ما يميل الصائم إلى القيام بعملٍ مباحٍ والله تعالى لم يمنع من ذلك أيضًا، فيفعل ذلك المباح. ولكن في المرتبة الرابعة، فالصائم في جميع الأفعال، والحركات، والسكنات، والنيّات، والذهنيّات، والخيالات، والأمور المرتبطة بالقلب؛ في جميعها لا يرى إلا الله تعالى فقط، ولا يعمل إلا على أساس رضاه.

قال عليه السلام: أعنّا على أن نستعمل أعضاءنا وقوانا في الطريق التي تستوجب رضاك، بحيث «**لاَ نُصْغِي بِأَسْمَاعِنَا إِلَى لَغْو**»، فلا نترك



مفطّرات الصوم فحسب؛ بل حتى لا نصغي إلى الكلام اللغوي والعبثي وغير المفيد. «**وَلا نُسْرِعُ بِأَبْصَارِنَا إِلَى لَهْوٍ**»، ونحرّر أبصارنا من النظر إلى كلّ مشهد ومنظر يصرفنا عن ذكر الله ويجعلنا نغفل عنه. «**وَحَتَّى لاَ نَبْسُطَ أَيْدِيَنَا إِلَى مَحْظُورٍ**»، ولا نمدّ أيدينا نحو المعصية. «**وَلاَ نَخْطُوَ بِأَقْدَامِنَا إِلَى مَحْجُورٍ**»، ولا نسير في الطرق المحرّمة والممنوعة. «**وَحَتَّى لاَ تَعِيَ بُطُونُنَا إِلَّا مَا أَحْلَلْتَ**»، ولا تمتلئ بطوننا إلا بحلالك. «**وَلا تَنْطِقَ أَلْسِنَتُنَا إِلَّا بِمَا مَثَّلْتَ**»، ولا تتكلّم ألسنتنا إلا بما قد بيّنته وأجزته. «**وَلا نَتَكَلَّفَ إِلَّا ما يُدْنِي مِنْ ثَوَابِكَ**»، ولا نتّبع إلا ما يستوجب ثوابك.

وفي آخر الفقرة قال عليه السلام: «**ثُمَّ خَلِّصْ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ رِئاءِ الْمُرَائِينَ وَسُمْعَةِ الْمُسْمِعِينَ، لا نَشْرِكُ فِيهِ أَحَدًا دُونَكَ، وَلا نَبْتَغِيْ فِيهِ مُرَادًا سِوَاكَ**»، أي: يا ربّاه! جميع هذه الأفعال والتروك والنيّات خلّصها لي من التلوّث بالرياء وطلب السمعة وابتغاء الشهرة حتى لا أجعل الآخرين شركاء معك فيها، وحتى لا يكون سعيي وجهدي فيها إلا طلبًا لمرادك ومشيئتك.

ولكن هل هذا ممكن؟ نعم؛ هذا ممكن! إنّ ضعف فئةٍ من عباد الله، مثلنا نحن، وعدم امتلاك الهمّة والعزم اللازمَين، ليس دليلًا على عدم إمكان ذلك. لقد كان الأولياء الإلهيّون كذلك وما زالوا؛ كانوا على هذا النحو، هكذا فعلوا، وكان هذا ممكنًا لهم. ونحن كذلك إذا شحذنا الهمّة، شيئًا فشيئًا سيمنحنا الله تعالى من همّته أيضًا، وحينها سنستطيع، إن شاء الله.

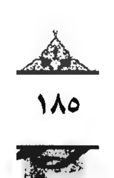




الجلسة العاشرة:

نيّة العمل ومراتبها

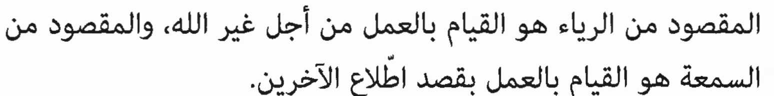




«ثُمَّ خَلِّصْ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنْ رِئاءِ الْمُرَائِينَ وَسُمْعَةِ الْمُسْمِعِينَ، لا نَشْرِكُ فِيهِ أَحَدًا دُونَكَ، وَلا نَبْتَغِيْ فِيهِ مُرَادًا سِوَاكَ»

في هذه الفقرة من الدعاء يطرح الإمامعليه السلام مجدّدًا البحث الذي سبقت الإشارة إليه من قبل بعنوان الحسن الفاعلي والخلوص في النيّة. من وجهة نظرهعليه السلام فمجرّد أداء العمل، وإنْ كان عملًا جيّدًا وحسنًا، لا يكفي؛ وذلك لأنّ رضوان الله تعالى إنّما يكون لأداء الأعمال الصالحة التي تكون مقرونةً بالحسن الفاعلي أيضًا، وهذا يعني أنّ عبد الله، من أجل أن ينتفع من أعماله الحسنة، ويستفيد الاستفادة القصوى من فضائل شهر رمضان المبارك، لا بدّ من أن تكون نيّته في ذلك العمل صحيحةً هي أيضًا. أمّا العمل المشوب بالرياء والسمعة، وإنْ كان قد يبدو ظاهره على أنّه عملٌ حسنٌ ومرغوب، ولكنّه مذموم ومرفوضٌ ولا وزن له عند الله تعالى. ولهذا السبب يقولعليه السلام في محضر الله تعالى: إلهي! وفّقنا واحفظ عباداتنا حتى لا نكون مثل المرائين وأهل السمعة، وحتى لا تكون نيّتنا وقصدنا في أعمال وعبادات هذا الشهر المبارك إخبار الآخرين وإسعادهم والمنافع الدنيوية وغير الإلهيّة؛ وذلك لأنّ هذه الأمور ستجعل أعمالنا بلا قيمة.




المقصود من الرياء هو القيام بالعمل من أجل غير الله، والمقصود من السمعة هو القيام بالعمل بقصد اطّلاع الآخرين.

هذا النوع من النوايا يتنافى مع قصد القربة ومع عبادية العمل، وهو يبطل هذا العمل. وليس أنّ هذا النوع من النيّة والقصد يتسبّب ببطلان العمل فحسب؛ فتصبح قيمة العمل صفرًا، ولكنّه أحيانًا أخرى يكون له أثر أكبر من هذا؛ فمضافًا إلى أنّ العمل يصبح بلا قيمة، فإنّه يصبح أيضًا ذا قيمة سلبية ويستتبع الجزاء والعقاب؛ ومن ذلك على سبيل المثال أنّ المصلّي الذي يصلّي بقصد إعجاب الآخرين بصلاته ومدحهم لها، فلن تكون صلاته باطلةً فحسب؛ بل يكون قد ارتكب معصيةً وسوف يعاقب عليها.

النكتة الأدقّ هو أنّ الرياء في العبادات الواجبة هو بذاته معصية ونوعٌ من الشرك؛ صحيحٌ أنّه ليس من الشرك بمعنى عبادة الأصنام، ولكنّنا على أيّ حال قد جعلنا في قصدنا ونيّتنا شريكًا لله تعالى؛ فإلى جانب الله تعالى الذي عبدناه، خصّصنا للآخرين أيضًا نصيبًا [من تلك العبادة] حتى يُعجبوا ويُسرّوا، وحتى يمدحونا. نعم؛ في الأعمال التوصّليّة التي لا يُشترط فيها قصد القربة يقتصر الأمر على أن يصبح العمل بلا قيمة؛ على سبيل المثال: الأعمال ذات المنفعة العامّة، من قبيل بناء المدارس والمستشفيات و... هذه الأعمال إذا كانت بقصد الرياء والسمعة أو من أجل الحصول على موقعيّة سياسيّة أو





اجتماعيّة... فإنّها تتسبّب في أن يصبح العمل بلا قيمة، ولكن دون أن يكون الفرد قد ارتكب معصيةً في أيٍّ منها[١].

المسألة الأخرى التي جرى البحث عنها هي أنّ درجة خلوص النيّة في العبادات ما هو تأثيرها في قبول العبادة أو عدم قبولها أو في بطلانها؟ ما يستفاد من آيات القرآن الشريفة ومن روايات المعصومين عليهم السلام هو أنّ اقتران العبادة التي تؤدّى لأجل الله تعالى بنيّة الرغبة في التنّعم بالنعم الإلهيّة في الجنّة والنجاة من العذاب الإلهي في جهنّم؛ هذا الاقتران لا يؤدّي إلى الإضرار بالعبادة، بل هو أمرٌ مستحسن، وهذا ما صُرِّح به في الآيات الشريفة وأمثالها: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[٢]، ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾[٣].

---

(١) حتى في العبادات كذلك، أحيانًا يكون العمل مصحوبًا بقصدٍ ونيّة غير عباديّة، إذا كانت من نوع المنافع العقلائيّة والشرعيّة والشخصيّة، وفي هذه الموارد إذا لم تكن النيّة رياءً فلا تؤدّي إلى بطلان العبادة. ومن ذلك مثلًا الوضوء للصلاة بالماء البارد في حرّ الصيف حتى يكون على وضوء للصلاة ويتبرّد في الوقت نفسه، أو الوضوء للصلاة بالماء الدافئ في الشتاء حتى يشعر بالدفء في الوقت نفسه، أو مثلًا في الصوم حيث يهدف منه إلى المحافظة على الصحّة الجسمية والروحيّة مضافًا إلى العبادة وقصد التقرّب من الله... ففي مثل هذه الحالات ذكر الفقهاء العظام أنّه إنْ كانت النية الأساس هي أداء تلك العبادة وكان إلى جانبها قصد التبريد أو التدفئة، فلا مانع من ذلك طالما أنّها ليست نيّة رياء، وهي لا تتسبّب ببطلان العبادة. وأمّا إذا كانت النيّة الأساس أمورًا غير عباديّة وكانت نيّة أداء العبادة مرفقةً بها، أو كانت النيّتان متساويتين، فهذا يؤدّي إلى بطلان العبادة. على الرغم من أنّ بعض الفقهاء القدماء أفتوا بالبطلان حتى في جميع هذه الموارد.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٥٥.

(٣) ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ (سورة **الأنبياء**، الآية ٩٠).

بعض علماء أهل السنّة، مثل الفخر الرازي، ادّعوا أنّ المتكلّمين المسلمين مجمعون على بطلان هذا النوع من العبادة؛ وذلك لأنّ العبادة لا بدّ من أن تكون خالصةً لله وبنيّة إطاعته. هذا، في حين أنّ أغلب علماء الإسلام، وبخاصّة المتكلّمين وسائر علماء الشيعة، لا يقولون ببطلان هذا النوع من العبادة، ولكنّهم يعتقدون بأنّ نيّةً من هذا النوع تُنقِص من قيمة العبادة، بحيث يكون الخضوع والخشوع لأجل الله حتى يتقرّب إليه، وكذلك حتّى ينعّمه الله تعالى بنعم جنّته ويخلّصه من عذاب جهنّم.

نعم؛ إذا وصل الإنسان، نتيجةً لاكتساب المعارف الإلهية، وبعد المراقبات والتمارين العملية الكثيرة، إلى حدّ أن تكون عباداته فقط لأجل الله، وفي مقابل ذلك لا يكون ناظرًا حتى إلى الجنّة وإلى جهنّم؛ فهذه مرتبة عالية جدًّا وتوفيقٌ لا يقدّر بثمن، ولا يناله جميع الأفراد. والتوفيق الأعلى هو أن يرتقي الإنسان إلى مرتبة لو علم فيها أنّ الله يدخله جهنّم في مقابل عباداته، فمع ذلك يستمر في تلك العبادات. هذه المراتب مراتب عالية جدًّا، وهي لأمثال إمامنا مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام، وليس من السهل حتى تصوّرها للأفراد العاديّين؛ إذ قد جُعلت فقط لمثل ذلك الإنسان المنتجب الذي يقول مخاطبًا ربّه: «إِلَهِي مَا عَبَدْتُكَ خَوْفًا مِنْ عِقَابِكَ وَلَا طَمَعًا فِي ثَوابِك وَلكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ»[1]. وفي الواقع، فشخصيّة مثل عليّ المرتضى عليه السلام قد رأت في الله تعالى وجودًا لا يليق في مقابله شيءٌ سوى العبادة.

---

(١) محمد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٤١، الباب ١٠١، ص ١٤.



إنّ الوصول إلى تلك المراتب العالية ليس ميسورًا لنا، ولكن من المناسب أن نعلم بالحدّ الأدنى أنّ مثل هذه المراتب أيضًا متصوّرة للإنسان! فهذا العلم من شأنه أن يوجد الحافزيّة عند الفرد، ويسهّل عليه عبور الطريق، فيسعى نتيجة ذلك نحو زيادة معرفته بالله تعالى، ومن ثمّ نحو زيادة محبّته له، وإذا عاش قلب الإنسان بمحبّة الله وتزايدت هذه المحبّة، فلن يعبد الله بعد ذلك بشرط الأجر، فالمحبّ إنّما يجتهد لكسب رضا المحبوب لا لتلقّي الأجر منه؛ وسيسعى لكي يبذل تمام ما عنده للمحبوب حتى يرى ابتسامته وسروره، وليس لشيءٍ آخر. إذا وصل الإنسان إلى هذه المرتبة من المعرفة بالله والمحبّة له، فمضافًا إلى أنّه لن يسعى وراء أجر العبادة؛ سيخجل من الله أن يطلب منه الأجر.

ومن الأساس، لماذا لا نكون محبّين لله تعالى؟ أو هل فيه نقصٌ أو عيب؟ أم هل قصّر في ما أعطانا إيّاه؟ أوليس كلّ وجودٍ حسن منه؟ أوليس كلّ عفوٍ وتفضّل منه؟ أوليس كلّ ما نملكه من ابتداء وجودنا إلى قيام القيامة وإلى ما بعدها من عطائه هو؟ أوليس من كان كذلك جديرًا بالمحبّة؟ وإذا كان لا بدّ من محبوب، فمن الأولى منه بذلك؟ أولا ينبغي لنا أن نرى أنفسنا مدينين دائمًا أمامه؟ وهل يريد الإنسان المدين من الدائن شيئًا غير رضاه وسروره؟

إذا وفّق الله تعالى الإنسان لهذا التوفيق، وللوصول إلى هذه المعرفة، فحينها سيقف في محضر الله العظيم مثل الإمام السجّاد عليه السلام ليقول: إلهي! لقد وفّقتني على امتداد شهر رمضان المبارك حتى أجتنب كلّ معصية، وأؤدّي كل فعل خيرٍ يمكنني القيام به، وحتى أستعمل جميع جوارحي وأعضائي للخدمة في سبيل رضاك. هذا،



وجميع ما تمّ من ترك المعاصي والقيام بأفعال الخير لا يكون نافعًا إلا عندما يكون خالصًا وبعيدًا عن الرياء والسمعة، إلهي فوفّقني حتى تكون أعمالي التي أقوم بها لأجلك فقط.

فلسفة التكاليف الإلهية

في هذا القسم من البحث مسألتان جديرتان بالالتفات:

الأولـى: هي أنّ الله تعالى قد أخذ بعين الاعتبار ثوابًا لنا في مقابل امتثالنا للتكاليف: إمّا أن يغفر لنا ذنوبنا، وإمّا أن ينعّمنا بنعمه في الدنيا والآخرة، في حين أنّه لا ينتفع بشيءٍ من عباداتنا ولا يضرّه شيءٌ من معاصينا. إذا كان الأمر كذلك، فما هي فلسفة جميع هذه التكاليف الشاقّة والمتعبة؟ ولماذا ينبغي لكثيرٍ من عباد الله المخلصين أن يبذلوا جهودهم ويتحمّلوا في سبيل أداء واجباتهم؟ لو أنّ الله تعالى يغفر لنا جميعًا من دون أن نؤدّي التكاليف، لما أصابه نقصٌ من ذلك؛ إذًا فلماذا جعل الوصول إلى مغفرته ورضاه مشروطًا بأداء جميع هذه التكاليف إلى حدّ أنّ النبيّ الأكرمﷺ قد أوقع نفسه في الحرج والمشقّة حتى عاتبه الله على ما أتعب نفسه به،





فقال مخاطبًا إيّاه في بداية سورة طه المباركة[١]: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾[٢].

في تفسيره للآيات الأولى من سورة طه المباركة، يذكر المرحوم العلّامة الطباطبائي رحمه الله العبارات التالية: «لمّا نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ قام الليل كلّه حتّى تورّمت قدماه، فجعل يرفع رجلًا ويضع رجلًا»[٣]. وكذلك نُقِل عن إمامنا مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «ولقد قام صلى الله عليه وآله عشر سنين على أطراف أصابعه، حتى تورّمت قدماه واصفرّ وجهه»[٤].

هذا، وقد ذُكر في آيات القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام والمصادر التاريخية أحـداثٌ كثيرةٌ عن تهجّدات كثيرٍ من الأنبياء الإلهيّين وبكائهم وتأوّهاتهم وسط الليالي وفي كلّ حين. وممّا يستحقّ التوقّف عنده وأخذ العبر ما يُنقَل كذلك من تفاصيل المناجيات والبكاء الطويل لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام، والإمـام السجّاد عليه السلام

---

(١) عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عِنْدَ عَائِشَةَ لَيْلَتَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ لِمَ تُتْعِبُ نَفْسَكَ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ، أَ لا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟». قَالَ: «وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يَقُومُ عَلَى أَطْرَافِ أَصَابِعِ رِجْلَيْهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ﴾» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٩٥).

(٢) سورة **طه**، الآيتان ١ - ٢.

(٣) السيّد محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ذيل الآيات الأولى من سورة طه المباركة.

(٤) الميرزا حسين بن محمّد تقي النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ج ٤، ص ١١٨.



والأنبياء العظام كيحيى[1]، وشعيب[2]، وداوود[3]، وموسى[4]، وعيسى[5]



(١) كان النبيّ يحيى بن زكريا‌عليه السلام يبكي إلى حدّ أنّ الدموع أكلت من لحم خدّيه، فأعدّت له أمّه قطعتَي لُبود [الصوف المتلبّد] حتى تحمي لحم خدَّيه من كثرة الدموع بامتصاصها للدموع المنهمرة من عينيه (راجع: محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج ١٤، ص ١٦٦، «قصص زكريا ويحيى‌عليهما السلام»).

(٢) بناءً على النقول التاريخية، فقد عمّر النبي شعيب‌عليه السلام أكثر من ٣٠٠ سنة، وعلى امتداد تلك السنوات الطويلة، بكى من حبّ الله عزّ وجلّ حتى عمي، فردّ الله عزّ وجلّ عليه بصره، ثمّ بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثمّ بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فلمّا كانت الرابعة أوحى الله إليه: يا شعيب إلى متى يكون هذا؟ أبدًا منك؟ إن يكن هذا خوفًا من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقًا إلى الجنّة فقد أبحتك. فقال‌عليه السلام: «إلهي وسيّدي! أنت تعلم أنّي ما بكيت خوفًا من نارك، ولا شوقًا إلى جنّتك، ولكن عقد حبّك على قلبي فلست أصبر أو أراك»، فأوحى الله‌ جلّ جلاله إليه: «أما إذا كان هذا هكذا فمن أجل هذا سأُخدِمك كليمي موسى بن عمران» (المصدر نفسه، ج ١٢، ص ٣٨٠، «قصص شعيب‌عليه السلام»). وبناءً عليه، فمن المحتمل أن تكون إحدى الحكم من الحوادث التي وقعت على النبي موسى‌عليه السلام، من قتله لأحد أقباط مصر وبالنتيجة فراره من مصر ووروده إلى مدين، وسقائه لبنات النبيّ شعيب‌عليه السلام... يُحتمل أن يكون ذلك كلّه حتى يصبح موسى الكليم‌عليه السلام خادمًا لشعيب المكفوف‌عليه السلام.

(٣) ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ (سورة **ص**، الآية ١٧). وينقل إمامنا مولى الموحّدين أمير المؤمنين‌عليه السلام حول سيرة نبيّ الله داوود فيقول: «وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صَاحِبِ الْمَزَامِيرِ وَقَارِئِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ الْخُوصِ بِيَدِهِ وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: «أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا؟»» (**نهج البلاغة**، الخطبة ١٦٠).

(٤) وحول حياة نبيّ الله موسى الكليم‌عليه السلام البسيطة، الزاهدة والمتواضعة، يقول إمامنا مولى الموحّدين أمير المؤمنين‌عليه السلام: «وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ اللَّهِ، حَيْثُ يَقُولُ: {رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ}، وَاللَّهِ مَا سَأَلَهُ إِلَّا خُبْزًا يَأْكُلُهُ، لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ» (المصدر نفسه).

(٥) وحول السيرة المباركة لنبيّ الله عيسى بن مريم‌عليه السلام، يقول إمامنا مولى الموحّدين أمير المؤمنين‌عليه السلام: «وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ الْحَجَرَ وَيَلْبَسُ الْخَشِنَ وَيَأْكُلُ الْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ الْجُوعَ وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ الْقَمَرَ، وَظِلَالُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، وَفَاكِهَتُهُ وَرَيْحَانُهُ مَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُهُ وَلَا وَلَدٌ يَحْزُنُهُ وَلَا مَالٌ يَلْفِتُهُ وَلَا طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلَاهُ وَخَادِمُهُ يَدَاهُ» (المصدر نفسه). وكذلك حول زهد النبيّ عيسى‌عليه السلام وعزوفه عن الدنيا يقول أمير المؤمنين‌عليه السلام: «يَا نَوْفُ طُوبَى لِلزَّاهِدِينَ فِي الدُّنْيَا، الرَّاغِبِينَ فِي



وأمّه الجليلة، وغيرهم عليهم السلام.

والسؤال الذي يُطرح هاهنا هو التالي: لماذا يرتضي الله تعالى لعباده، ومنهم عباده العظماء من أمثال الأنبياء والأولياء الإلهيّين عليهم السلام؛ لماذا يرتضي لهم مثل هذه الحياة الشاقّة؟

الحقيقة والسرّ في هذه المسألة يكمنان في أنّ الإنسان إنّما يصل إلى الدرجة العليا من خلافة الله حينما يبذل ويتنازل عن كلّ شيءٍ في مقابل الله تعالى؛ أي يكون عبدًا حقيقيًّا [لله تعالى]. نحن كلّما رأينا لأنفسنا ولغيرنا وجودًا مستقلًّا، فقد وقعنا في الجهالة بالحقيقة؛ إذ ليس لدينا بذاتنا أيّ شيء، وكلّ ما لدينا إنّما هو له، والعبودية الحقيقيّة إنما تكون بأن يدرك الإنسان هذا الفقر والعجز والذلّة الذاتيّة عنده ويؤمن بهذه الحقيقة، وفقط في هذه الحالة سيكون جديرًا بمقام الخلافة الإلهيّة.

إذًا، فسِرّ تحمّل هذه الصعوبات، والبلايا، والامتحانات، والتكاليف والواجبات... هو أن ندرك جيّدًا عبوديّتنا وأنّا لسنا بشيء. ثمّ في عمليّة أداء التكاليف والالتزام بها سنُظهر إنْ كنّا عبادًا حقيقيّين ونقوم بواجباتنا بشكلٍ صحيح ودقيقٍ وبدون أيّ انتظارٍ [للأجر]، حتى نصير بالنتيجة جديرين بمقام الخلافة الإلهيّة؛ أو نرى لأنفسنا وجودًا وإرادةً مستقلّةً في مقابل الله، فنعترض بالنتيجة على تلك التكاليف وكمّها وكيفها، ونتذمّر من أدائها بالشكل الصحيح والدقيق، فلا نكون، بناءً على ذلك، جديرين بذلك المقام السامي. على أنّ مقام الخلافة الإلهية

الْآخِرَةِ، أُولَئِكَ قَوْمٌ اتَّخَذُوا الْأَرْضَ بِسَاطًا وَتُرَابَهَا فِرَاشًا وَمَاءَهَا طِيبًا وَالْقُرْآنَ شِعَارًا وَالدُّعَاءَ دِثَارًا، ثُمَّ قَرَضُوا الدُّنْيَا قَرْضًا عَلَى مِنْهَاجِ الْمَسِيحِ» (المصدر نفسه، الحكمة ١٠٤).

له بحدّ ذاته مراتب لا تُعدّ، والمعصومون عليهم السلام، أي رسول الله وأهل بيته الكرام عليهم السلام، يقعون في أعلى مرتبةٍ من بين تلك المراتب.

إنّ التعبّد بالشريعة الإلهيّة والتديّن بأحكام الدين وتعاليم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والالتزام الدقيق بها دون أيّ انتظار للأجر، سيجعلنا نسير خطوةً فخطوة على المسار الصحيح حتى نجتاز طريق التقرّب القويم. هذه المتابعات الدقيقة في الواجبات تقودنا إلى أن نكون مطيعين ومسلّمين؛ وبعدها شيئًا فشيئًا سنخطو خطوةً أكبر لنصبح مطيعين في المستحبّات والنوافل أيضًا، ونشتغل بأمر العبوديّة بكل عشق، وإذا صار الإنسان على هذا النحو، فلن يكون بعدها عبدًا عاصيًا ومعترضًا. العبد الحقيقي لا بدّ له من أن يكون تابعًا مطلقًا أمام الله، لا طاغيًا ولا متمرّدًا، وعلى حدّ تعبير المرحوم الآخوند الكاشي، فعبادتنا وصلاتنا ينبغي أن تكون بالحدّ الأدنى بكيفية نقول فيها: «إلهي نحن لسنا طغاةً في مقابلك».

كان المرحوم الآخوند الكاشي رحمه الله يسكن في مدرسة الصدر العلميّة في أصفهان. وفي أحد الأيّام جاء فردٌ من البدو المقيمين في أطراف أصفهان ليقيم الصلاة وقت الغروب. جاء إلى حوض الماء ورشّ الماء على يدَيه ووجهه، ثمّ انحنى واستقام على فرض أنّه قد صلّى. اقترب المرحوم الآخوند منه وسأله: «ماذا فعلت؟ هل ما فعلته كان صلاةً؟!»، فأجاب: «لا»، سأله: «فما الذي كنت تفعله إذًا؟» أجاب: «أردت فقط أن أقول لله إنّي لست متمرّدًا!»، ما إن سمع المرحوم الآخوند الكاشي هذا الكلام حتى بكى وقال: «هذه هي الصلاة!».



صلاتنا ليست بصلاة! ولو كانت صلاتنا بمقدارٍ تتضمّن رسالةً نقول فيها: نحن لسنا متمرّدين ولا نريد أن نعصي ونخالف؛ لكان هذا بحدّ ذاته عملًا عظيمًا؛ غير أنّ الأهواء النفسانيّة، والشيطان والخدع الشيطانية، لا تسمح للإنسان بالنجاح في هذا العمل، إلا إذا نال الإنسانَ مددٌ من لطف الله وعنايته.

إلهي! بحقّ أحبابك، الذين يؤدّون عبادتهم الخالصة، وفّقنا حتى نؤدّي، ولو لحين، عبادتنا الخالصة، ونتذوّق من حلاوة هذه العبادة، حتى لا نروم بعدها إلا هذا النحو من العبادات، إن شاء الله.





الجلسة الحادية عشرة:

خصائص الصلاة المقبولة





«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَقِفْنَا فِيْهِ عَلَى مَوَاقِيْتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْس بِحُدُودِهَا الَّتِي حَدَّدْتَ، وَفُرُوضِهَا الَّتِي فَرَضْتَ، وَوَظَائِفِهَا الَّتِي وَظَّفْتَ، وَأَوْقَاتِهَا الَّتِي وَقَّتَّ، وَأَنْزِلْنَا فِيهَا مَنْزِلَةَ الْمُصِيْبِينَ لِمَنَازِلِهَا الْحَافِظِينَ لِأَرْكَانِهَا الْمُؤَدِّينَ لَهَا فِي أَوْقَاتِهَا عَلَى مَا سَنَّهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيْعِ فَوَاضِلِهَا عَلَى أَتَمِّ الطُّهُورِ وَأَسْبَغِهِ، وَأَبْيَنِ الْخُشُوعِ وَأَبْلَغِهِ».

في الفقرات السابقة، طرح الإمام زين العابدينعليه السلام في محضر الباري تعالى عبارات طالب فيها أن يتفضّل علينا في هذا الشهر الفضيل بالتوفيق لأداء الصوم على أكمل وجه، بحيث لا نكتفي بالإمساك عن مبطلات الصوم فحسب؛ بل نترك جميع ما لا يرتضيه. وأمّا الفقرات اللاحقة فهي في الحقيقة تفصيلٌ لهذا الإجمال.

التعبّد بأحكام شهر رمضان المبارك، وبخاصّة الإمساك، هو في الحقيقة نوعٌ من البرنامج التمريني والتربوي لسائر أيّام السنة، والهدف الأساس من هذه التمارين العمليّة هو صيرورة الإنسان منضبطًا وغير جَموح؛ وهذا هو التقوى. لعلّ الطريقة الأفضل للتمرين العملي للوصول إلى التقوى هي هذا الإمساك والصيام في شهر رمضان





المبارك. ولهذا السبب يُقال إنّ روح الصيام هي أن يصبح الإنسان متعبّدًا ومسلّمًا بسائر العبادات والأعمال العباديّة.

محوريّة الصلاة في الإسلام

الصلاة من أهمّ العبادات في الإسلام، إلى حدّ أنّه قد عُبّر عنها في الروايات بعنوان «عمود الدين»، كما في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام حيث يقول: «الصَّلاةُ عَمُودُ الدّينِ، مَثَلُها كَمَثَلِ عَمُودِ الْفُسْطاطِ إِذا ثَبَتَ الْعَمُودُ ثَبَتَتِ الأَوْتادُ وَالأَطْنابُ، وَإِذا مالَ الْعَمُودُ وَانْكَسَرَ لَمْ يَثْبُتْ وَتَدٌ وَلا طُنبٌ»[١].

وفي تعبيرٍ آخر يقول عليه السلام: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ الصَّلاةُ؛ فَإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ مَا سِوَاهَا»[٢].

ومن هذه المجموعة من التعابير الحكيمة التي يذكرها أهل البيت عليهم السلام يمكننا أن نتتبّع بشكل جيّد ما تحظى به الصلاة من أهمّيّة تفوق سائر العبادات.

لعلّ أحد وجوه أهمّية الصلاة من بين العبادات يكمن في بعدها التمريني. صحيحٌ أنّ جميع العبادات لها بعد تمريني بشكلٍ أو بآخر،

---

(١) محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ٤، ص ٢٧.

(٢) عن أبي بصير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «كُلُّ سَهْوٍ فِي الصَّلَاةِ يُطْرَحُ مِنْهَا غَيْرَ أَنّ اللهَ تَعَالى يُتِمُّ بِالنَّوَافِلِ؛ إِنّ أَوّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ العَبْدُ الصّلاةُ؛ فَإِنْ قُبِلَتْ قُبِلَ مَا سِوَاهَا. إِنَّ الصَّلَاةَ إِذَا ارْتَفَعَتْ فِي أَوَّلِ وَقْتِهَا رَجَعَتْ إِلى صَاحِبِهَا وَهِيَ بَيْضَاءُ مُشْرِقَةٌ تَقُولُ: حَفِظْتَنِي حَفِظَكَ اللهُ، وَإِذَا ارْتَفَعَتْ فِي غَيْرِ وَقْتِهَا بِغَيْرِ حُدُودِهَا، رَجَعَتْ إِلى صَاحِبِهَا وَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ تَقُولُ: ضَيَّعْتَنِي ضَيَّعَكَ اللهُ» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٣، ص ٢٦٨).





ولكنّ هذا البُعد في الصلاة أوضح منه في غيرها، وهو أكثر تأثيرًا وعمقًا في مقام العمل.

ثمّ إنّ أحد الأبعاد التمرينيّة في الصلاة مسألة مراعاة أوقات الصلاة، وأحد أهمّ طرق النجاح في أيّ برنامج عمليّ هو مراعاة النظم والانضباط في هذا البرنامج، ومراعاة النظم والانضباط لا يتيسّر إلا بمراعاة الوقت والبرامج الزمنيّة فيه، وأمّا الاستخفاف وعدم الاهتمام به فسيؤثّر في البرنامج بتمامه وسيعرّضه للفشل والخسارة.

إنّ الالتفات الفائق إلى أوقات الصلاة، والاهتمام بإقامة الصلاة في أوّل الوقت وفي وقت الفضيلة، هو بذاته برنامجٌ تمرينيٌّ قويّ ومؤثّر بالنسبة إلى الإنسان السالك إلى الله، ومراعاة هذا الأمر تجعل الإنسان السالك منضبطًا ومنظّمًا، وتشجّعه على مراعاة الأمور الأخرى. ولهذا السبب نجد أنّ الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء، وبعد الصلاة والسلام على رسول الله وأهل بيته الكرام عليهم السلام، نجده يطلب من الله تعالى التوفيق للاهتمام بشؤون الصلاة، ومن جملتها أوقات الصلاة، حيث يقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه، وَقِفْنَا فِيْهِ عَلَى مَوَاقِيْتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْس بِحُدُودِهَا الَّتِي حَدَّدْتَ، وَفُرُوضِهَا الَّتِي فَرَضْتَ**».

لعلّ الإمام عليه السلام في هذه الفقرة يشير تلويحًا إلى آيات من القرآن الكريم جاء فيها التأكيد على المحافظة على أوقات الصلاة: ﴿حَـٰفِظُواْ

عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[١]؛ ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾[٢].

لعلّ هذه التأكيدات والتصريحات لأنّ مراعاة أوقات الصلاة بشكل دقيق يحظى بأهمّية كبيرة في البرامج التربويّة والتمرينيّة. وبسبب هذه التأكيدات الواردة في آيات القرآن وروايات المعصومين عليهم السلام، يعتقد العظماء من علماء الأخلاق وأصحاب الكرامات والمكاشفات بأنّ لمراعاة أوقات الصلاة قيمةً كبيرة، وقد نقلوا آثارًا عجيبةً مترتّبةً على مراعاة هذا الأمر في الصلاة. صحيحٌ أنّ بعض هذه الأمور العجيبة أعمق من الأحكام الفقهية، ولكن من مجموع هذه التأكيدات والآثار العجيبة يمكننا أن نستنتج أنّ ثمّة في هذا الأمر المهمّ أسرارًا كامنةً لا نعرفها.

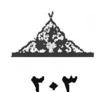
هذا، وقد نُقلت عن علماء الشيعة العظام وعن الأولياء الإلهيّين عبارات مختلفة وتعابير عجيبة حول مراعاة أوقات الصلاة، وبخاصّة إقامة الصلاة في أوّل الوقت أو وقت الفضيلة. وأحد أبسط تلك التعابير ما نقله أحد العلماء المعاصرين الكبار[٣]، حيث يقول: «من يراعي وقت الصلاة ويؤدّيها في أوّل وقتها ويعاهد الله على أن يصلّي الصلاة في أوّل وقتها؛ فأنا أضمن له الوصول إلى المقامات الرفيعة».

هذا العالم الجليل، وفي مقام تأكيده على المضامين الرفيعة في هذه الآية، كان يوصي تلامذته، أمثال العلّامة الطباطبائي رحمه الله وبعض

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٣٨.

(٢) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ - ٩.

(٣) لعلّ سماحة الأستاذ يقصد حضرة آية الله السيد علي القاضي الطباطبائي رحمه الله.





الأجلّاء الآخرين، كان يوصيهم بالتعهّد بإقامة الصلاة في أوّل الوقت في مقابل تعهّده [لهم] بالوصول إلى أعلى المقامات المعنويّة.

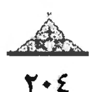
إن لمراعاة وقت الصلاة أهمّيةً كبيرةً إلى حدٍّ لا يمكن معه مقارنتها مع سائر العبادات والرياضات. وليس هذا فحسب؛ بل حتى أعلى وأفضل. طبعًا فهذه المقامات المعنويّة الرفيعة، والأسرار الكامنة في هذه العبادات وفي مراعاة موازينها، هي حقائق ينبغي أن يصل إليها الإنسان من خلال العمل بها، كما أنّ إدراكها وفهمها صعبٌ على الآخرين، بل هو غير ممكن حتى، ولهذا السبب كان أحد الأساتذة الكبار[1] يقول: «إذا لم يراعِ الإنسان بنفسه هذه المسألة ولم يتقيّد بالصلاة في أوّل وقتها، فلن يعلم ما هو تأثير تعالي روح الإنسان والتقرّب إلى الله تعالى، ولن يفهم سرّ هذه الحقيقة».

وفي هذا الدعاء مطلبٌ آخر يطلبه الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى؛ وهو التوفيق لإقامة الصلاة بالطريقة المطابقة لسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم، بحيث لا يكون في هذه الصلاة ـ بأيّ وجهٍ من الوجوه ـ مغايرة في شروطها وأجزائها وأركانها؛ وباختصار: في كمّها وكيفها. لقد أشار الفقهاء العظام في كتاب الصلاة إلى بعض هذه الأمور، وذكروا أنّه حتى لو قُرئ ذكرٌ في الصلاة بنيّة وروده في الصلاة والحال أنّه لم يرد، فهذا بدعةٌ وحرام، وسيكون معصيةً بدلًا من أن يكون عبادة.

صحيحٌ أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان لديه، قبل حادثة المعراج العجيبة، حالاتٌ تفوق الوصف من العبادات والخضوع والخشوع بين يدَي الله؛

---

(١) هنا أيضًا يُحتمل أن يكون مقصود سماحته حضرة آية الله السيد علي القاضي الطباطبائي رحمه الله.



ولكنّ تشريع الصلاة بالكيفيّة التي أوصى وأمر بها[١] إنّما كان بحسب ما عُلّم في حادثة المعراج[٢]؛ وهذه الحادثة تُظهِر أهمّيّة مكانة الصلاة عند الله تعالى؛ فمشرّعها هو الله، وأفضل مقيم لها هو النبيﷺ، وأفضل محلّ تشريعٍ لها هو المعراج. ويمكننا أن ندّعي بكلّ يقين أنّ الطريقة التي أوصى بها رسول اللهﷺ لتأدية الصلاة هي أفضل طريقة ممكنة، وإلا لما كان الله علّمها لرسوله. وعلى أيّ حال، فإنّ تقيّد النبيّﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام والأولياء الإلهيّين بإقامة الصلاة مع مراعاة تمام الحدود والشروط ومع مراعاة الأوقات الخاصّة، إنّما يعبّر عن الأهمّية الفائقة للصلاة.

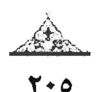
وبناءً عليه، فلا يمكن التعامل مع هذه المسألة فائقة الأهمّيّة بهذه البساطة، ولا يمكن الزيادة فيها أو الإنقاص منها من تلقاء الذات أو بحسب الذوق والاستحسان؛ فعلى سبيل المثال، لا يمكن أن يقال - بدون دليلٍ ومستند - إنّ الصلاة مع حالة التكتّف يجعلها أكثر أدبًا! أوَهَل نعلم منهاج الأدب في العبادة أكثر من الله؟![٣] وبناءً عليه، فإذا قام شخصٌ في الصلاة بهذا التكتّف و«التكفير» بقصد التشريع والورود، فيكون قد ارتكب معصيةً كبرى، وفي بعض الروايات اعتُبرت

---

(١) قالﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُوني أُصَلِّي» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٨٢، ص ٢٧٩).

(٢) راجع: المصدر نفسه، ج ٢٥، الباب ٣، ص ٩٨.

(٣) لو تُرِك المجال للتعامل مع الصلاة وفق الاستحسان، لكان ممكنًا أن يقول أحدهم أيضًا إنّ حالة السجود، وطبقًا للروايات، هي أفضل حالة تقرّب الإنسان من ربّه وتستوجب رضاه؛ وبالتالي فلنؤدّ تمام الصلاة وأذكارها وأورادها ونحن في حال السجود، وبعدها فلا لزوم للقيام، والقعود، والركوع وسائر الأفعال! أو في شهر رمضان الذي هو ربيع القرآن فلنشغل تمام صلاتنا بقراءة القرآن فقط! أو فلنضف إلى الصلاة بعض الأشعار العرفانية!



هذه البدعة مساويةً للكفر والشرك[١]. على أنّ هذه المسألة تشمل المبتدعين وبعض العلماء المسلمين، ولا تشمل عامّة الناس الذين يقومون بالتكتّف في الصلاة بتصوّر كونه من السنّة ودون التفات إلى أنّه بدعة.

ولمّا كانت هذه الأمور حسّاسةً في الصلاة، فقد طلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى أن يوفّقه لإقامة الصلاة بالطريقة التي شرّعها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وطبقًا لسنّته المباركة. في هذا الدعاء نجد أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام يطلب، مضافًا إلى المداومة على أصل الصلاة، يطلب مراعاة السنّة النبويّة في جميع أجزاء الصلاة وشروطها؛ من قبيل الركوع، السجود، الأذكار، القراءات، الأركان، وسائر الأمور. وفي الختام يريد عليه السلام من الله تعالى أن يقيم الصلاة بخشوعٍ وخضوعٍ تامَّين. جميع هذه الأمور تقريبًا، سواء كانت أصل إقامة الصلاة أو الأمور والتفاصيل المرتبطة بها، جميعها قد ورد في القرآن أيضًا وقد أُكّد على مراعاته.

فبخصوص مراعاة أصل الصلاة والمواظبة عليها يقول: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٢].

---

(١) راجع: محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٢، ص ٣٠٣، الرواية ٣٩.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٣٨.

وبخصوص الخشوع والخضوع في الصلاة يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ ... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩﴾[1].

وأمّا حول نوع العلاقة التي تربط أصحاب القلوب الخاشعة بالصلاة فيقول: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[2].

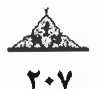
آثار الخشوع القلبي في السلوك

الخشوع أمرٌ قلبي، وبطبيعة الحال فإنّ أثره يتجلّى في الظاهر، وهو ما يعبّرون عنه بـ«الخضوع». على أنّ آثار القلب الخاشع تشبه بعض السلوكيّات الأخرى التي لها أساسٌ وجذور هي غير الخشوع، وبالتالي فهي ليست منبعثة من الخشوع القلبي. وبحسب تعبير بعض علماء الأخلاق، فالاختلاف بين هذَين السلوكَين الظاهريَّين مثل الاختلاف بين البكاء والعويل من أمٍّ فقدت ولدها بالحقيقة واحترقت بلوعة الفراق، وامرأةٍ لم تفقد ولدًا بالحقيقة وإنّما تقوم بالنَّوح من أجل شخصٍ آخر، أو بحسب التعبير المتعارف: تلعب هذا الدور وتقوم بالتمثيل. الاختلاف بين هذَين البكاءَين والتأوّهَين كبيرٌ جدًّا: فأحدهما ليس إلا تمثيلًا، فيما الآخر يصدر من شخصٍ يحترق حقيقةً في صميم قلبه ويبكي من وجعه وعميق حزنه.

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآيات ١ - ٩.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٤٥.



والأمر هكذا في الصلاة أيضًا؛ فالشخص الذي يملك في الحقيقة قلبًا خاشعًا تكون صلاته خاضعةً أيضًا، وذلك الخضوع يقلب روح الإنسان ونفسه ويكسر قلبه إلى حدّ أنّه يترك تأثيره أيضًا، وبشكلٍ تلقائي، في ظاهره وسلوكه، فيؤدّي إلى تغييره.

إذا استطاع الإنسان أن يدرك في آثاره الظاهريّة ومظاهره الخارجيّة، وضمن حدوده وإمكاناته، عظمة الله تعالى، وأن يفهم [في المقابل] فقره وأنّه ليس بشيء؛ فستحصل عنده حالة من الانكسار التي ستترسّخ وتتجلّى عنده في تمام وجوده. وفي هذه الحالة، فإنّ لونه وتعابير وجهه، لغته وبيانه، نظراته، قدرته على البصر والسمع، مشيه في الطريق وقيامه وقعوده و... ذلك كلّه سيقع تحت تأثير ذلك. والقرآن الكريم يصف حالات الإنسان يوم القيامة، حينما تُكشَف له حقيقة المسائل ويرى ضعفه وعجزه أمام قدرة الله الواحد وقيّوميّته المطلقة، فيقول: ﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُۥۖ وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾[1].

ويقول حول حالات الإنسان يوم القيامة وبعث الناس من القبور: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾[2].

في هذه التعابير القرآنيّة نجد أنّ الخشوع في مقابل العظمة الإلهيّة قد وُصّف بنحو أنّه يستحوذ على تمام وجود الإنسان.

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٠٨.

(٢) سورة **القمر**، الآية ٧.

مفهوم العظمة الإلهيّة ليس واضحًا عند كثيرٍ من الناس، وأذهانهم لا يمكنها أن تدركه وتفهمه. ومن هنا، يمكن الاستفادة من التأمّل في عظمة الخلق من أجل تهيئة الذهن لإدراك هذا المفهوم. عظمة بعض الكواكب والمجرّات إلى حدّ أنّ المسافات بينها تصل أحيانًا إلى مليارات السنوات الضوئية بحسب ما تمّ تقديره. وفي هذا الفضاء اللامتناهي ثمّة شيءٌ اسمه «الكرة الأرضيّة» لا يساوي في مقابل تلك الأجرام السماويّة أكثر من حبّة جوز أو حتى فصّ خاتم. ثمّ تصوّروا معي أنّ هذه الجوزة الصغيرة الحقيرة يعيش عليها ستة مليارات إنسان مع ما يتوفّر لديهم من إمكانات. وفي زاوية صغيرة من هذه الجوزة بلدٌ، وفي زاويةٍ منه مدينة، ونحن إنّما نعيش في نقطةٍ صغيرة منها. ثمّ الله تعالى قد خلق مجموعةً من عوالم الوجود وهذا العالم الوسيع والعظيم ليس إلّا زاويةً صغيرة من تلك العوالم. والآن فلنتساءل: ما هي عظمة هذا العالم في مقابل هذا الإله الذي خلق الأكوان بمجرّد أن أراد خلقها، وهو قادرٌ على أن يفنيها بإرادته لذلك أيضًا؟ وأنا ماذا أكون؟ كيف يتجرّأ الإنسان مع هذه الحقارة على أن يقول لله: أنت تقول وأنا أقول! أنت قلت وأنا لن أفعل! هذه غاية الجهالة والحماقة والوقاحة من إنسانٍ جميع ممتلكاته، ولسانه، وعينه، وأذنه، ونفسه الذي يتنفّسه، وتفكيره الذي يفكّره، وإرادته التي يريدها، ولذّته التي يلتذّ بها، وماضيه ومستقبله...؛ جميع ذلك منه ﷻ.

إنّ تصوّر هذه الأمـور والالتفات إليها يكسر كلّ إنسان عاقل ويوجد عنده حالةً من الخشوع القلبي، ومن الطبيعيّ أنّ الإنسان في هذه الحالة، وبحسب ما ذكره القرآن، سيكون له أبصار شاخصة، ونغمة صوتٍ منكسرة، ولا يكون لديه أدنى التفاتةٍ إلى نفسه!

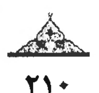


إنّ السبب الأساس للتأكيد الكبير على الاهتمام بالعبادات والمحافظة على حدودها وضوابطها هو هذه التأثيرات العميقة التي تتركها شيئًا فشيئًا في روح الإنسان ونفسه، ومن ثمّ في سلوكه وأعماله، وبخاصّة مسألة مراعاة الوقت في موضوع الصلاة، حيث إنّ لها آثارًا تربويّة كثيرة. وللأسف فنحن غافلون عن واقع أنّ الله تعالى قد منّ علينا نحن المسلمين بتشريع الصلاة وأوقاتها، ويا لها من منّة عظيمة! إنّ مراعاة هذه الأوقات تجعل الإنسان منظّمًا ومنضبطًا في جميع الأعمال، وهذا بذاته من خواصّ التربية الدينيّة وميزاتها. ولهذا السبب، نجد أن الإمام السجّادعليه السلام في هذه الفقرة القصيرة يطلب من الله تعالى مرّتَين أن يوفّقه لمراعاة أوقات الصلاة والمحافظة عليها: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَقِفْنَا فِيْهِ عَلَى مَوَاقِيْتِ الصَّلَوَاتِ الْخَمْس بِحُدُودِهَا الَّتِي حَدَّدْتَ، وَفُرُوضِهَا الَّتِي فَرَضْتَ وَوَظَائِفِهَا الَّتِي وَظَّفْتَ، وَأَوْقَاتِهَا الَّتِي وَقَّتَّ**».

إدراك مقام المصلّين

في الفقرة اللاحقة من الدعاء، يطلب الإمامعليه السلام من الله أن يجعلنا في مقام ومنزلة المصلّين الذين يدركون جيّدًا منازل الصلاة ومراتبها: «**وَأَنْزِلْنَا فِيهَا مَنْزِلَةَ الْمُصِيْبِينَ لِمَنَازِلِهَا الْحَافِظِينَ لِأَرْكَانِهَا**».

قد يُتصوّر أنّ كلام الإمامعليه السلام فيه إيهامٌ بالتكرار المخلّ بالفصاحة، ولكن مع تدقيقٍ أكثر يتّضح أنّ هذه التعابير الحكيمة قد اعتُمد فيها على صناعات أدبيّة متعدّدة، والالتفات إلى الوجوه البلاغيّة وكذلك التسلّط على معنى الكلام ومفهومه والاطّلاع عليه بشكلٍ كافٍ؛ كفيلٌ بأن يوضح أكثر جمال ذلك الكلام.



ومن هذه التعابير الجميلة يتّضح أنّ للصلاة مراتبَ ومنازل، وليست جميع الصلوات في رتبةٍ ومقامٍ واحـد، وإن كان كمّ هذه المنازل والمراتب وكيفها خارجًا عن حدّ فهمنا. فصلواتنا الملأى بالعيوب والنقائص، والصلاة التي يرجُح تكبيرها على عبادة الثقلَين، كلاهما صلاة، ولكنّ التفاوت بينهما ما بين الثرى إلى الثريّا! من صلاتنا التي ينبغي لنا أن نسعى بكلّ جدّ لمراعاة أحكامها وحدودها الفقهيّة، إلى صلاة إمامنا مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام التي يُعدّ تكبيرها فقط أفضل من عبادة الجنّ والإنس، هذه الصلاة التي لم يستطيعوا إلا فيها أن ينتزعوا السهم من رجله المباركة؛ كلاهما صلاة؛ ولكن أين هذه من تلك؟! نعم؛ فقد ذَكر عليه السلام في كتابه المعروف إلى عثمان بن حنيف أنّنا لا نقدر على ذلك، ولكن طلب أن نعينه بالتقوى عن الرذائل والمحرّمات وبالجدّ والاجتهاد... «أَلَا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ»[1]. وهذا يعني أنّنا إذا اجتهدنا وسعينا بمقدارٍ معيّن فيمكننا أن نرتقي بأنفسنا إلى أعلى ممّا هي فيه، وحينها سنجد في صلواتنا شبهًا قليلًا بصلاة مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام، وبحسب تعبير الإمام السجّاد عليه السلام في تتمّة هذه الفقرات من الدعاء، فسنطوي كذلك منزلةً من منازل الصلاة ومرتبةً من مراتبها لنصير من الحافظين لأركانها: «**الْحَافِظِينَ لِأَرْكَانِهَا**».

الركن في كلّ شيء هو أساسه؛ فركن البناء هو أساسه وعموده الرئيسي والمحافظ عليه، وانهيار المبنى وخرابه إنّما يقع عندما

---

(١) «أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَأْمُومٍ إِمَامًا يَقْتَدِي بِهِ وَيَسْتَضِيءُ بِنُورِ عِلْمِهِ. أَلَا وَإِنَّ إِمَامَكُمْ قَدِ اكْتَفَى مِنْ دُنْيَاهُ بِطِمْرَيْهِ وَمِنْ طُعْمِهِ بِقُرْصَيْهِ. أَلَا وَإِنَّكُمْ لا تَقْدِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَلَكِنْ أَعِينُونِي بِوَرَعٍ وَاجْتِهَادٍ وَعِفَّةٍ وَسَدَادٍ» (**نهج البلاغة**، الكتاب ٤٥).



يُضرب أساسه وركنه ويتضعضع. وفي هذه الفقرة ليس مقصود الإمام السجّادعليه السلام هذه الأركان الأربعة أو الخمسة التي حدّدها الفقهاء العظام للصلاة في كتب الفقه؛ القضيّة أعمق وأبعد منها، فمقصودهعليه السلام من الركن هو كلّ أمر تبقى الصلاة قائمةً بالمحافظة عليه.

بعد ذلك يؤكّد الإمام السجّادعليه السلام مجدّدًا على مراعاة وقت الصلاة، فيقول: «**الْمُؤَدِّينَ لَهَا فِي أَوْقَاتِهَا**». ولا بدّ لنا من أن نتتبّع الأهمّية الفائقة لمراعاة وقت الصلاة من هذه الإشارات والتكرارات والتأكيدات، والتي صدرت من إنسانٍ حكيم كالإمام السجّادعليه السلام.

المسألة الثانية التي يشير إليها الإمام السجّادعليه السلام حول الصلاة: طلب التوفيق من الله تعالى في التوجّه إلى أبعاد الصلاة الأخرى، حيث يقولعليه السلام: «**الْمُؤَدِّينَ لَهَا فِي أَوْقَاتِهَا عَلَى مَا سَنَّهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ صَلَوَاتُكَ عَلَيْهِ وَآلِهِ فِي رُكُوعِهَا وَسُجُودِهَا وَجَمِيعِ فَوَاضِلِهَا عَلَى أَتَمِّ الطَّهُورِ وَأَسْبَغِهِ، وَأَبْيَنِ الْخُشُوعِ وَأَبْلَغِهِ**».

يشيرعليه السلام هنا إلى مسألة مهمّة، هي أنّ مراعاة الصلاة بجميع شروطها وأجزائها يستوجب أن تكون الصلاة بعيدةً عن أيّ نحوٍ من أنحاء البدع والنقيصة أو الزيادة، ومطابقةً تمامًا لسنّة نبيّ الإسلام الأعظمصلى الله عليه وآله: «**عَلَى مَا سَنَّهُ عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ**».

الإسباغ في الطهارة، وبخاصّة الإسباغ في الوضوء، هو من العبادات التي تمّ التأكيد عليها بشكلٍ كبير. والمقصود من الإسباغ في الوضوء هو أداء الوضوء باستيعاب الماء؛ بحيث تُغسَل جميع أعضاء الوضوء بشكلٍ كامل. وقد ورد في بعض الروايات أنّ النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله عَدّ

الإسباغ في الوضوء، وبخاصّة الإسباغ في الجوّ البارد، ممّا يستوجب تحصيل الإنسان للدرجات المعنويّة واستكماله حقيقة الإيمان، ويؤدّي به للدخول إلى الجنّة[١]. ولمّا كان للإسباغ في الوضوء هذه الآثار والبركات التي قد ذُكرت في الروايات، فقد عُدّ هذا العمل من المستحبّات، ولذا سأل الإمامعليه السلام ربَّه في هذا الدعاء أن يوفّقه للإسباغ في الوضوء للصلاة.

وأمّا المسألة الأخيرة التي طلبها الإمام السجّادعليه السلام من الله تعالى في هذه الفقرة من الدعاء؛ فهي الخشوع الخاصّ في الصلاة: «**عَلَى... أَبْيَنِ الْخُشُوعِ وَأَبْلَغِهِ**».

(١) محمد بن علي بن الحسين بإسناده عن حماد بن عمرو، وأنس بن محمد، عن أبيه، عن جعفر بن محمد، عن آبائهعليهم السلام في وصيّة النبيّصلى الله عليه وآله لعليّعليه السلام، قال: «يا علي ثلاثٌ درجات ـ إلى أن قال ـ إسباغ الوضوء في السبرات، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والمشي بالليل والنهار إلى الجماعات. يا علي سبعة من كُنَّ فيه فقد استكمل حقيقة الإيمان وأبواب الجنّة مُفتّحة له؛ من أسبغ وضوءه، وأحسن صلاته، وأدّى زكاة ماله، وكفَّ غضبه، وسجن لسانه، واستغفر لذنبه، وأدّى النصيحة لأهل بيت نبيّه» (محمّد بن الحسن الحرّ العاملي. **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١، ص ٤٨٧).



الجلسة الثانية عشرة:

اهتمام الإسلام بالإنفاق والمسائل الماليّة



«وَوَفِّقْنَا فِيهِ لأَنْ نَصِلَ أَرْحَامَنَا بِالبِرِّ وَالصِّلَةِ وَأَنْ نَتَعَاهَدَ جِيرَانَنَا بِالإِفْضَالِ وَالْعَطِيَّةِ وَأَنْ نُخَلِّصَ أَمْوَالَنَا مِنَ التَّبِعَاتِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا بِإِخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ»

اهتمام الإسلام بالإنفاق والمسائل الماليّة

عرض الإمام زين العابدينعليه السلام في الفقرات السابقة [ما مضمونه]: «إلهي، وفّقنا في هذا الشهر المبارك حتى نصوم بنحوٍ نستعمل فيه جميع أعضائنا وجوارحنا في طريق رضاك، ونمسك ونترك ما لا تحبّه ولا ترتضيه». ومن ثمّ طرحعليه السلام، في مقام تفصيله لهذه الأمور، بحْثَ الصلاة الهام ومراعاة أوقاتها الخاصّة وحدودها وضوابطها طبقًا للسنّة النبويّة والخشوع والخضوع في الصلاة. وفي تتمّة هذا البحث يشيرعليه السلام إلى الواجبات الماليّة. بمزيدٍ من الاهتمام والتدقيق في عبارات الإمام السجّادعليه السلام الحكيمة، يتّضح أنّه طرح في القسم الأوّل مباحث حول علاقة الإنسان مع الله تعالى، ثمّ بيّن في الفقرات اللاحقة الواجبات التي فرضها الله تعالى على الإنسان تجاه عباد الله.

من أهمّ الواجبات التي فرضها الله على الإنسان تجاه عباد الله: مراعاة الواجبات والتكاليف الماليّة؛ من قبيل الحقوق الماليّة، ردّ



المظالم، أداء الزكاة، ومساعدة الأرحام والأقارب والجيران. هذه الأمور من جملة الواجبات الأخلاقية التي أكّد عليها القرآن الكريم أيضًا بأشكال مختلفة.

ثمّ إنّ من ميزات القرآن الكريم أنّه يبيّن الأعمال الحسنة ضمن مراتب، من حدّ الوجوب إلى مراتب الاستحباب، بحيث يُوفَّق كلّ شخصٍ لأدائها ضمن حدود استطاعته، وإذا لم يستطع أحدٌ أن ينجزها جميعًا، فيكتفي بالحدّ الأدنى منها وبمقدار الواجب. فعلى سبيل المثال؛ الأمر بالصلاة ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يشكّل مسألةً ممتدّةً وواسعة النطاق لا تنحصر بالصلوات الواجبة. وكذلك في مقام التوصية بالإنفاق يقول: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾[1]؛ وهي توصية عامّة ولا تنحصر بالزكاة الواجبة. ولا تشكّل الصلاة والزكاة الواجبة إلا مرتبةً من هذه الأحكام والتوصيات، فيما أوكَل الله تعالى مراتبها الأخرى إلى همّة المكلّفين وقدراتهم. وبناءً عليه، فالأهمّ في هذا المجال هو بيان أهمّية هذه الأمور وترغيب عباد الله بأدائها مع المحافظة على مراتبها المختلفة.

بعد أن سأل اللهَ مجموعةً من المسائل حول الصلاة، يطرح الإمام السجّاد عليه السلام مسألة الإنفاقات الماليّة والزكاة بما يكشف عن أنّ هذه الأمور تستحوذ على مكانةٍ خاصّة في تبليغ الأنبياء الإلهيّين، حيث إنّ من جملة التوصيات الإلهيّة المؤكّدة لجميع الأنبياء والأولياء، ولجميع الأقوام والملل وأصحاب الأديان؛ الصلاة أولًا، ثمّ الزكاة. إنّ أهمية هذَين الحكمَين الإلهيَّين كبيرةٌ إلى درجة أنّ الله تعالى قد ألهم نبيّه

(١) سورة **البقرة**، الآية ٣.



عيسى عليه السلام وهو في المهد أن يكلّم الناس ويعرّف نفسه لهم بهذه العبارات: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[١].

هذا الطفل الذي لم يمضِ من عمره العزيز بعدُ أكثر من عدّة أيّـام، يتكلّم في المهد بحكمة الله وإرادتـه، ويبلّغ الشاهدين أوّل وصيّتَين إلهيّتَين له؛ أي الصلاة والزكاة. وقد جاء التعبير القرآني بنحوٍ يكشف عن أنّ هذَين الأمرَين يكمّل أحدهما الآخر، وليسا أمرَين مستقلَّين ومنفصلَين، وهذا التعبير يبيّن لنا وجهة نظر القرآن الكريم في أنّه لا يوجد بعد الصلاة شيءٌ أهمّ من أداء الواجبات الماليّة. اللهم لا بدّ لنا من التوجّه إلى أنّ الزكاة في المصطلح القرآني غير الزكاة في المصطلح الفقهي الرائج في الكتب الفقهيّة والرسائل العمليّة[٢]؛ ففي الاستعمال القرآني جاءت الزكاة مطابقةً للمعنى اللغوي؛ أي

---

(١) سورة **مريم**، الآيتان ٣٠ - ٣١.

(٢) في الكتب الفقهيّة والرسائل العمليّة، عُدَت الصلاة والزكاة من فروع الدين العشرة (١. الصلاة، ٢. الصيام، ٣. الخمس، ٤. الزكاة، ٥. الحج، ٦. الجهاد، ٧. الأمر بالمعروف، ٨. النهي عن المنكر، ٩. التولّي، ١٠. التبرّي)، وفي بيان هذه الفروع فُرّق بين الخمس والزكاة. صحيح أنّ الخمس والزكاة كلاهما من الزكاة بالمعنى العام ومن الواجبات الماليّة، ولكنّ الفقهاء العظام، حتى يكون لديهم اصطلاحٌ خاصٌّ يمكن إفهامه وتعليمه للآخرين بشكلٍ أفضل، خصّصوا مصطلح الزكاة بالزكاة الواجبة المعروفة التي تتعلّق حسب الفتوى المشهورة بتسعة أشياء (الأنعام الثلاثة، والغلات الأربع، والنقدَين)، وهي محرّمة على ذرّيّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله. وفي المقابل، أسموا القسم الآخر من الواجبات الماليّة، والذي جُعل للسادات ولسائر المصارف الحكوميّة؛ أسموه «الخمس». أمّا في الاستعمال القرآني، فالزكاة إنّما جاءت مطابقةً للمعنى اللغوي ﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾ (سورة **الليل**، الآية ١٨)، وهي تشمل جميع أنواع الواجبات الماليّة.





﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ﴾[1]، وبهذا المعنى فهي تشمل الزكاة الواجبة، والخمس، وسائر الواجبات الماليّة أيضًا.

أغلب الاستعمالات القرآنية جاءت مطابقةً للمعاني اللغويّة ولاستعمالات العرف وأهل اللغة، ولكنّ العلماء في مختلف العلوم أنشؤوا في ما بعد، ولأسباب متعدّدة، مصطلحاتٍ خاصّة، واستعمال الزكاة والخمس في الفقه من جملة تلك المصطلحات. أحيانًا نجد في الإطلاقات القرآنيّة، وحتى في كلمات رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام، إطلاقاتٍ ومصطلحات مغايرةً للاستعمالات المعاصرة وهي غير مأنوسةٍ عندنا. فقد تبدّل مثلًا محلّ استعمال العامّ والخاصّ أو المطلق والمقيّد.

وعلى سبيل المثال، فكلمة «التقيّة» في اللغة بمعنى التقوى، وفي **نهج البلاغة** استعمل أمير المؤمنين الإمـام عليّ عليه السلام التقيّة بمعنى التقوى. «التقوى» و«التقيّة» في المعنى اللغوي نوعٌ من الخوف والرعب والحذر من خطرٍ كامن، على أنّ موارد الخوف والرعب مختلفة؛ فأحيانًا يكون مورد الخوف هو الله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾[2] وأحيانًا يكون العدوّ ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[3]. في هاتَين الآيتَين وكذلك في الموارد الأخـرى التي يُستعمل فيها هذا المصطلح يكون ثمّة إحساسٌ بالخطر وحالةٌ من التحفّظ. في المورد الأوّل يشمل الأمر الإلهي المعنى المأنوس نفسه من التقوى والخوف والخشية من الله، وهو قريبٌ جدًّا من المعنى اللغوي.

---

(١) سورة **الليل**، الآية ١٨.

(٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ١٠٢).

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ٢٨.

وفي الآية الثانية كذلك نجد أنّ الأمر الإلهي يشمل الخوف والتحفّظ من المشركين، وحفظ النفس من أذيّتهم؛ أي أظهِروا أنفسكم أمام المشركين والكفّار بمظهر يحفظ أنفسكم وأرواحكم، وهذا الاستعمال أيضًا قريبٌ جدًّا من المعنى اللغوي. وأساسًا مع بداية البعثة، كان المعنى اللغوي لكلمتي «تقوى» و«تقيّة» هو المراد في آيات القرآن وكذلك في الروايات التي صدرت في صدر الإسلام. أمّا لاحقًا، فقد بات، شيئًا فشيئًا، مصطلحًا خاصًّا في لسان المتكلّمين، والفقهاء، وسائر العلماء المسلمين، بحيث لم يعد أحدٌ اليوم يستعمل «التقيّة» بمعناها اللغوي، وإنّما يستعملها بمعناها الاصطلاحي فقط.

الاستعمال القرآني لمفردة «زكاة» حاله كحال مفردة «تقيّة»؛ ولذا فأكثر موارده [في القرآن] جاء مطابقًا للمعنى اللغوي لا للمعنى والاصطلاح الفقهي الخاصّ الرائج في أيّامنا. المعنى الأوّل والقرآني للزكاة يشمل جميع الأموال التي يصرفها المرء في سبيل الله، بما في ذلك الصدقات المستحبّة. كلمة «صدقة» أيضًا أمرها بهذا النحو؛ فالاستعمال القرآني للصدقة يترادف تمامًا مع معنى الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ...﴾[1]. في هذه الآية الشريفة، المقصود من الصدقات هو الزكاة، والآية جاءت لتعيّن مصارف الزكاة.

كثيرٌ من الآيات القرآنية الشريفة نظير هذه الآية وكذلك روايات أهل البيت عليهم السلام تشهد على أنّ الكلمات المستعملة فيها ليست عينها المصطلحات المعروفة والمشهورة في علومٍ مثل علم الفقه، بل أغلب هذه الكلمات تدلّ على معنًى غير المعاني الاصطلاحية في

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٦٠.

هذه العلوم، ومن أجل إدراك آيات القرآن الكريم وروايـات الأئمّة المعصومين عليهم السلام بشكلٍ صحيح، لا بدّ من جهدٍ إضافي للوصول إلى المعاني الأساسية والصحيحة.

الدعوة إلى جميع مراتب الكمال

الواجبات الماليّة كثيرة، وموارد صرفها كثيرةٌ أيضًا، ولكنّ بعض موارد صرف الأموال أهمّ من غيرها، وهم الأقارب والأرحام. وكذلك من بين الأقارب كلّما كان لأحدهم قربٌ أكثر من الإنسان، كان له الأولويّة على غيره. وبناءً عليه، فالأب والأمّ بدايةً، ثمّ الأخ والأخت، أقرب من غيرهم وهم أولى منهم. وفي المقابل كلّما كانت القرابة بعيدة كان لأصحابها أولويّة أقل بالمقارنة معهم وكان الواجب تجاههم أقلّ وأضعف. ومن هنا نجد أنّ القرآن الكريم في بيان موارد صرف الزكاة والصدقات المالية يقدّم الأب والأمّ وذوي القربى، ومن بعدهم يذكر سائر المحتاجين من المراتب اللاحقة: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[1].

في شريعة الإسلام المقدّسة، لا تنحصر الدعوة إلى الحقّ بحدّ خاصٍّ من الكمال، وأغلب القيم التي طُرحت في الإسلام لها مراتب. صحيحٌ أنّنا أحيانًا، ولأجل تسهيل فهم المطالب ونقلها إلى الآخرين، نقوم بتقسيمها، نوعًا ما، ضمن قوالب معيّنة ومحدودة؛ ولكنّ الواقع

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٣٦.



هو أنّ مراتب الكمالات والقيم كثيرة، والمسافة بين المراتب السُفلى والمراتب العالية والأعلى كبيرة جدًّا. هناك نكاتٌ اعتقاديّة، وأخلاقيّة، وتربويّة، وفقهيّة، دقيقةٌ جديدة وكامنةٌ في آيات القرآن الكريم، ولا يمكن اكتشافها بنظرة بَدْويّة وسطحيّة؛ ومن ذلك مثلًا الآية الشريفة التي أشرنا إليها؛ فهي من جهةٍ تُحدّد جهات صرف الواجبات الماليّة، وتعطي للأب والأمّ والأقارب الأولويّة على من سواهم، ومن جهةٍ أخرى تأمر بعبادة الله تعالى وتنهى عن الشرك وعبادة الأصنام، وفي كلٍّ من الموارد الثلاثة (الأمر بعبادة الله، والنهي عن الشرك، وبيان موارد صرف الزكاة) لا ينحصر البحث بالحالات الواجبة؛ فعبادة الله لا تنحصر بالعبادات الواجبة، بل كلّ عملٍ عباديٍّ هو عبادة لله.

هذا النوع من الأوامر والتوصيات الترغيبية يشمل جميع أعمال الخير التي تقع تحت عنوان عبادة الله. وكذلك النهي عن الشرك لا يشمل فقط عبادة الأصنام عند فئةٍ خاصّةٍ مثل مشركي مكّة أو الأصنام الحجرية والخشبيّة، بل كلّ نوعٍ من أنواع الشرك مذمومٌ ومنهيٌّ عنه، بما في ذلك حالات الشرك الخفيّ مثل الرياء والسمعة وأمثال ذلك. بل هذا النهي يشمل حتى بعض موارد الشرك الخفيّ والأخفى، من قبيل الثقة والأمل بغير الله تعالى. ومن هنا يَجهد الأولياء الإلهيّون في اجتناب هذا النوع من الشرك أيضًا، مع أنّه قد لا يُعدّ في نظر أمثالنا نحن من الشرك أساسًا.

النموذج الآخر هو الإيمان والكفر، حيث إنّ لهما مراتب ودرجاتٍ كثيرة. في بعض الروايات ورد أنّ للإيمان سبعة أقسام، كما في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام الذي يقسّم الإيمان إلى سبعة أسهم: «عَنْ عَمَّارِ بْنِ أَبِي الْأَحْوَصِ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ





وَجَلَّ وَضَعَ الْإِيمَانَ عَلَى سَبْعَةِ أَسْهُمٍ؛ عَلَى الْبِرِّ وَالصِّدْقِ وَالْيَقِينِ وَالرِّضَا وَالْوَفَاءِ وَالْعِلْمِ وَالْحِلْمِ»»[١]، بعدها يضيف الإمامعليه السلام فيقول: «ثُمَّ قَسَمَ ذَلِكَ بَيْنَ النَّاسِ؛ فَمَنْ جَعَلَ فِيهِ هَذِهِ السَّبْعَةَ الْأَسْهُم فَهُوَ كَامِلٌ مُحْتَمِلٌ، وَقَسَمَ لِبَعْضِ النَّاسِ السَّهْمَ، وَلِبَعْضٍ السَّهْمَيْنِ، وَلِبَعْضٍ الثَّلَاثَةَ، حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى السَّبْعَةِ»، ثُمَّ قَالَ: «لَا تَحْمِلُوا عَلَى صَاحِبِ السَّهْمِ سَهْمَيْنِ وَلَا عَلَى صَاحِبِ السَّهْمَيْنِ ثَلَاثَةً فَتَبْهَضُوهُمْ» ثُمَّ قَالَ: «كَذَلِكَ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى السَّبْعَةِ»[٢].

هذه التوصية من الإمام الصادقعليه السلام إنّما هي لأجل أن تبيّن أنّ كلّ شخصٍ لديه درجة من الإيمان وقدرات خاصّة وحدود معيّنة للتحمّل. ليس إيمان جميع المؤمنين مثل إيمان سلمان وأبي ذر (رضوان الله عليهما)، كما أنّ إيمان هذَين العظيمَين ليس في مرتبة واحدةٍ أيضًا. وبناءً عليه، ينبغي للمربّين والمعلّمين، في مقام التربية والتوجيه والإرشاد، أن يلتفتوا إلى هذه المسألة المهمّة؛ أي الفروق الفرديّة ومراتب إيمان الأفراد، وأن يأخذوا بعين الاعتبار قدرة تحمّلهم واستعدادهم وإمكان نموّهم وتطوّرهم.

لقد كان سلمان وأبو ذرّ (رضوان الله عليهما) أكثر أصحاب النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله إيمانًا، وبحسب ما يُستفاد من الروايات، لم يكن يعادل هذَين العظيمَين أيُّ شخصٍ آخر، وقد أجرى رسول اللهصلى الله عليه وآله بينهما عقد الأخوّة كما في الحديث: «لَقَدْ آخَى رَسُولُ اللهِ بَيْنَهُمَا»[٣].

---

(١) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٤٢؛ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١٦، ص ١٥٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ١، ص ٤٠١.



هذا، ومن المعروف أنّ سلمان لديه الدرجة العُليا من الإيمان، وأنّ أبا ذرّ أقلّ منه بدرجة واحدة. ومع ذلك فقد كان هذا المقدار من الاختلاف بدرجة واحدة كبيرًا إلى حدّ أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام قالوا: «وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلْبِ سَلْمَانَ لَقَتَلَهُ...»[1].

على الرغم من أنّهما كانا متقاربين جدًّا ولم يكن بينهما فارقٌ إلا بدرجة واحدة من الإيمان، فقد كان استعداد كلٍّ منهما مختلفًا إلى حدّ أنّ أبا ذر لم يكن ليتحمّل إيمان سلمان، بل كان ليعتبر بعض المطالب التي أدركها سلمان كفرًا. وكذلك سائر القيم الإسلاميّة هي أيضًا مثل الإيمان لديها مراتب مختلفة، على الرغم من أنّ عقلنا وفهمنا لا يصل إلى تلك الدرجات والمراتب حتى يكون لديه إدراكٌ صحيح لها. وما دمنا لا نستطيع أن ندرك إيمان أبي ذرٍّ وسلمان، كيف سيمكننا أن ندرك بشكلٍ صحيح إيمان الأنبياء العظام، وبخاصّة نبيّ الإسلام المكرّم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام؟ هذا في حين أنّه عندما نتكلّم على مراتب الإيمان ودرجاته، فهذا يشمل حتى تلك المراتب العالية والتي لا يمكن إدراكها.

وفقًا لهذا الأصل الأساس الحاكم على القيم الإسلامية، فالإحسان والبرّ تجاه الآخرين هو أيضًا يحتوي على مراتب كثيرة تمتدّ على نطاقٍ

---

(١) «عَنْ مَسْعَدَةَ بْنِ صَدَقَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: ذُكِرَتِ التَّقِيَّةُ يَوْمًا عِنْدَ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ عليه السلام، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لَوْ عَلِمَ أَبُو ذَرٍّ مَا فِي قَلْبِ سَلْمَانَ لَقَتَلَهُ، وَلَقَدْ آخَى رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله بَيْنَهُمَا، فَمَا ظَنُّكُمْ بِسَائِرِ الْخَلْقِ؟ إِنَّ عِلْمَ الْعُلَمَاءِ صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لا يَحْتَمِلُهُ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أَوْ عَبْدٌ مُؤْمِنٌ امْتَحَنَ اللَّهُ قَلْبَهُ لِلإِيمَانِ». فَقَالَ عليه السلام: «وَ إِنَّمَا صَارَ سَلْمَانُ مِنَ الْعُلَمَاءِ لِأَنَّهُ امْرُؤٌ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ فَلِذَلِكَ نَسَبْتُهُ إِلَى الْعُلَمَاءِ»» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ١، ص ٤٠١).

واسع؛ من الأب والأمّ والأقارب إلى ذلك الشخص الذي لم يكن معنا إلا لساعةٍ محدودة أو رافقنا في سفرٍ قصير. على أنّ الدرجات الأعلى من القيمة والثواب إنّما ترتبط بالبرّ والإحسان للوالدين؛ فالإحسان إلى الوالدين له هذه الأهمّية الفائقة إلى حدّ أنّ الله تعالى قد أكّد عليه في أكثر من موضعٍ من القرآن الكريم، ومباشرةً بعد الأمر بالإيمان بالله وعبادته والنهي عن الشرك به. ولا ننسى أنّ أهمّيّة عبادة الله تعالى إلى حدّ أنّه قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١].

نعم؛ يذكر الله تعالى الإحسان والبرّ بالوالدين، ثمّ يذكر الأقارب ويذكر الأفراد الآخرين في المراتب اللاحقة، حيث يقول: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٢].

---

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٣٦. هذا وقد ورد التوصية والأمر بهذه المسألة على هذا النحو، ومع تأكيدات كثيرة إلى جانب الأمر بالعبودية والنهي عن الشرك والكفر؛ في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٨٣)، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ١٥١)، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ (سورة **الإسراء**، الآية ٢٣).



إنّ دقّة القرآن الكريم ولطافته إلى حدّ أنّه أوصى حتّى بمراعاة حال الأشخاص الذين رافقونا لمدّة قصيرة من الزمن بحيث يُعدّون أصحابًا ومرافقين مؤقّتين لنا، مع ذلك جعل مراعاتهم في الصفّ نفسه مع عبادة الله ونفي الشرك.

في كتاب **الكافي** بابٌ مستقلٌّ تحت عنوان «حقّ المؤمن على أخيه»، وقد أُوردت فيه روايات كثيرة حول حقوق الإخوان المؤمنين بعضهم على بعض. ومن جملة الروايات الرائعة في هذا الباب روايةٌ جميلة تضمّنت أنّ المعلّى بن خُنيس، وهو من أصحاب الإمام جعفر الصادقعليه السلام، تشرّف بالحضور في محضره المبارك وسأله: «ما حقّ المسلم على المسلم»، فأجابه الإمامعليه السلام بدايةً بجوابٍ كلّيٍّ وعام وأوصاه بالتقوى وطاعة الله بشكل عام. لم يقنع المعلّى بهذا الجواب، وحتى يستفيد أكثر من محضر الإمامعليه السلام أصرّ عليه أن يبيّن له بالتفصيل حقوق الإخوة الإيمانيّين، فقالعليه السلام: «يَا مُعَلَّى إِنِّي عَلَيْكَ شَفِيقٌ! أَخَافُ أَنْ تُضَيِّعَ وَلَا تَحْفَظَ وَتَعْلَمَ وَلاَ تَعْمَلَ»، فقال مُعلّى: «لَا قُوَّةَ إِلّا بِاللّٰهِ»، فقالعليه السلام:

«أَيْسَرُ حَقٍّ مِنْهَا أَنْ تُحِبَّ لَهُ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَتَكْرَهَ لَهُ مَا تَكْرَهُ لِنَفْسِكَ. وَاَلْحَقُّ اَلثَّانِي أَنْ تَجْتَنِبَ سَخَطَهُ وَتَتَّبِعَ مَرْضَاتَهُ وَتُطِيعَ أَمْرَهُ، وَاَلْحَقُّ اَلثَّالِثُ أَنْ تُعِينَهُ بِنَفْسِكَ وَمَالِكَ وَلِسَانِكَ وَيَدِكَ وَرِجْلِكَ. وَاَلْحَقُّ اَلرَّابِعُ أَنْ تَكُونَ عَيْنَهُ وَدَلِيلَهُ وَمِرْآتَهُ. وَاَلْحَقُّ اَلْخَامِسُ أَنْ لا تَشْبَعَ وَ يَجُوعُ وَلَا تَرْوَى وَيَظْمَأُ وَلاَ تَلْبَسَ وَيَعْرَى. وَاَلْحَقُّ اَلسَّادِسُ أَنْ يَكُونَ لَكَ خَادِمٌ وَلَيْسَ لِأَخِيكَ خَادِمٌ فَوَاجِبٌ أَنْ تَبْعَثَ خَادِمَكَ فَيَغْسِلَ ثِيَابَهُ وَيَصْنَعَ طَعَامَهُ وَيَمْهَدَ فِرَاشَهُ. وَاَلْحَقُّ اَلسَّابِعُ أَنْ تُبِرَّ قَسَمَهُ وَتُجِيبَ دَعْوَتَهُ وَتَعُودَ مَرِيضَهُ وَتَشْهَدَ جَنَازَتَهُ. وَإِذَا عَلِمْتَ أَنَّ لَهُ حَاجَةً تُبَادِرُهُ



إِلَى قَضَائِهَا وَلَا تُلْجِئُهُ أَنْ يَسْأَلَكَهَا، وَلَكِنْ تُبَادِرُهُ مُبَادَرَةً، فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ وَصَلْتَ وَلَايَتَكَ بِوَلَايَتِهِ وَوَلَايَتَهُ بِوَلَايَتِكَ»[1].

مع التدقيق في فقرات هذا الكلام النوراني يتّضح أنّ ما يريده الله تعالى من المسلمين هو الأُلفة والاتّحاد، وتجنّب أيّ نوعٍ من التفرّق والأنانيّة. يريد تلك الأُلفة والاتّحاد اللذَين يجعلان المسلم يعتبر أخاه نفسه، ويبذل كلّ ما باستطاعته حتى لا يقصّر في حقّ أخيه المؤمن. هل المسلمون في الوقت الحاضر على هذا النحو في علاقتهم بعضهم مع بعض؟ على سبيل المثال، المساعدة بالمال والقرض الحسن، أوصى بهما القرآن والروايات بكثرة، كما جُعل لهما أيضًا آثارٌ وبركاتٌ كبيرةٌ جدًّا. إذا كان مع أحدنا مالٌ إضافيّ، هل يختار قضاء حاجة أخيه المؤمن به ويرجّحه على وضعه في المصرف واستلام الفوائد؟ وهل يتجاهل ويغضّ النظر عن حاجته في مقابل التفاته إلى حاجة أخيه المسلم؟

بحسب بيان الإمام الصادق عليه السلام في روايـةٍ أخرى، فإنّ ترجيح حاجات الأخ المسلم على حاجات النفس من الزكاة الباطنة:

«عن المفضّل قال: كنتُ عندَ أبي عبد اللّهِ عليه السلام فسألَه رَجُلٌ: في كَم تَجِبُ الزَّكاةُ مِنَ المالِ؟ فقالَ لهُ: الزَّكاةَ الظّاهِرَةَ أم الباطِنَةَ تُرِيدُ؟ فقالَ: أُرِيدُهُما جَميعًا. فقال: أمّا الظاهِرَةُ فَفِي كُلِّ ألفٍ خَمسَةٌ وعِشرُونَ، وأمّا الباطِنَةُ فلا تَستَأثِرْ على أخِيكَ بِما هو أحْـوَجُ إلَيهِ مِنكَ»[2].

---

(١) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ١٦٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٣، ص ٥٠٠.



كلا الزكاتَين هنا واجبة بمعنًى واحد. أمّا مقصوده عليه السلام من الزكاة الظاهرة، فهو عينها الزكاة الواجبة في الفقه، والتي تقع مسؤولية استلامها وإيصالها إلى محلّ صرفها على عاتق الحكومة الإسلاميّة. هذه الزكاة قد فُرضت وأُوجبت على الإنسان، وإذا لم يدفعها يكون في عداد الكفّار والمشركين: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[1].

وأمّا الزكاة الباطنة فوجوبها أخلاقيّ، ولها آثارٌ وبركاتٌ كثيرة. وبعبارةٍ أخرى: فالله تعالى قد فتح لنا من خلال هذه التكاليف، وبإرجاعه احتياج عباده إلينا، طريقًا لوصولنا إلى الثواب. وفي الواقع، فعندما نُقدم على مثل هذه الخطوة، نكون قد رفعنا حاجة إنسانٍ مؤمن، وفي الوقت نفسه نستفيد من بركات ذلك. ولو أنّ نسبةً من هذه الأحكام الفقهيّة والأخلاقيّة، ومقدارًا قليلًا من هذه التعاليم الراقية الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تُطبَّق، لكان المجتمع الإسلامي مجتمعًا نموذجيًّا وجنّتيًّا، حيويًّا وفعّالًا، ومليئًا بأجواء الصفاء والأُلفة والمحبّة.

بحسب تعبير الإمام الصادق عليه السلام، ففي مثل هذا المجتمع النموذجيّ، لا يُمهَل المحتاج حتى يبيّن حاجته وبالتالي يتصبّب وجهه بعرق الحياء والخجل، وإنّما يُتأَسّى بسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته عليهم السلام، فتؤمَّن حاجاته المادّيّة والمعنويّة، بشكلٍ مخفيٍّ وغير معروف. هذا ما يريده الدين الإسلاميّ المقدّس ويريده الأولياء العظام أيضًا، حتى يعيش المؤمنون بعضهم إلى جنب بعض وبكلّ عزّة

(١) سورة **فصّلت**، الآيتان ٦ - ٧.

وكرامة. فقط في هذه الحالة سنكون محلّ توجّه الله تعالى وحضرة وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف، لا أن تكون علاقاتنا محكومة لشريعة الغاب، فتلك العلاقة خاصّةٌ بالحيوانات، وهي، بحسب تعبير القرآن، من صفات الكفّار والمشركين. لقد كشف القرآن الكريم في بداية نزوله، حينما كان مخاطبه هم الكفّار والمشركون، كشف عن صفاتهم المذمومة، وذكّرهم بأنّ جميع ذلك إنّما هو نتيجة لأعمالكم. ولذا يقول تعالى في مقام ذمّه لهؤلاء الكفّار والمشركين:

﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَـٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَـٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَـٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[1].

إنّ سبب المشكلات والأزمات الاقتصاديّة والضيق في المعيشة وغلاء الأسعار هو عدم الالتفات إلى أمور المحتاجين في المجتمع. وفي القرآن، تستحوذ مسألة التفات المؤمنين إلى الأمور الاقتصاديّة عند إخوانهم على أهمّيّة كبيرة، وهذا ما أكّدته آيات قرآنية كثيرة. ومن ذلك أنّ الله تعالى يتحدّث في سورة البلد عن أولئك الذين لا يستطيعون اجتياز العقبات الصعبة ويتورّطون بالعذاب الإلهي، فيقول:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[2].

---

(١) سورة **الفجر**، الآيات ١٥ - ١٨.

(٢) سورة **البلد**، الآيات ١١ - ١٦.



هذا النوع من البيان أسلوبٌ تربويٌّ راقٍ جدًّا في القرآن؛ فالقرآن في مسيرة تربية الإنسان، لا يتطرّق في المرتبة الأولى إلى بيان مراتب التوحيد؛ وإنّما يعرّفه من خلال مجموعة من الأخلاقيّات الفرديّة، والأسريّة، والاجتماعيّة التي تتطابق مع فطرة الإنسان، والتي هي الوجه المشترك بين جميع الأديان، ومن ثمّ يدعو الناس إلى الالتفات إلى هذه الأمور. ينبّههم أنّكم إذا كنتم تبحثون عن طريق الخلاص من الصعوبات والشدائد في حياتكم الفرديّة والاجتماعيّة، فاعلموا أنّ الطريق التي اخترتموها في الحياة طريقٌ خاطئة بشهادة فطرتكم، وعقلكم، ووجدانكم، وعواطفكم وقيمكم الإنسانيّة؛ فعقلكم وفطرتكم ووجدانكم يحكمون بلزوم الالتفات إلى الأمور الفرديّة والاجتماعيّة؛ مثل حاجات الفقراء والمساكين، والتفكير بها [على الدوام]، بحيث إنّ عافيتنا وراحتنا في المجتمع مرتبطةٌ بعافيتهم وراحتهم.

وبناءً عليه، فسرّ عبادة الله والتقرّب إلى الله يكمن في أن يُدرك الإنسان جيّدًا فقره المطلق أمام الله تعالى، حتى يستطيع إشراك الآخرين أيضًا في ماله الذي هو ليس ملكه المطلق؛ وإنّما هو ملك الله وضعه بين يدَيه لأيّام معدودة. صحيحٌ أنّنا قد بذلنا جهودًا في تحصيل بعض هذه الأمور، ولكنّها مع ذلك ليست منّا نحن، وإنّما هي أمانة إلهيّة في أيدينا، وحتى تلك الجهود التي بذلناها إنّما كانت بما أعطانا الله من قدرة التفكير والتدبير والعضلات والصحّة والطاقة. فما وصل إلينا في هذه الأحوال ليس منّا، وادّعاء المالكيّة لا يتناسب مع العبوديّة لله تعالى، وكذلك من الطبيعيّ أنّ الحرص على الجمع والبُخل في الإنفاق ليسا معقولَين ولا يتناسبان مع العبوديّة أيضًا. ولذا نجد القرآن الكريم يمدح الأنصار الذين كانوا من أهل المدينة





المؤمنين والمضحّين، وكانوا في صدر الإسلام بعيدين عن هذه الصفات الذميمة، فاستقبلوا المهاجرين إلى المدينة بكلّ كرمٍ وسخاء، وأشركوهم في حياتهم، وأعطوهم من أموالهم على الرغم من حاجتهم إليها.. هؤلاء يمدحهم القرآن فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[1].

هذا هو مقام الفلاح والنجاح.

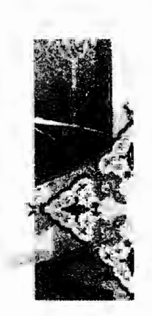
---

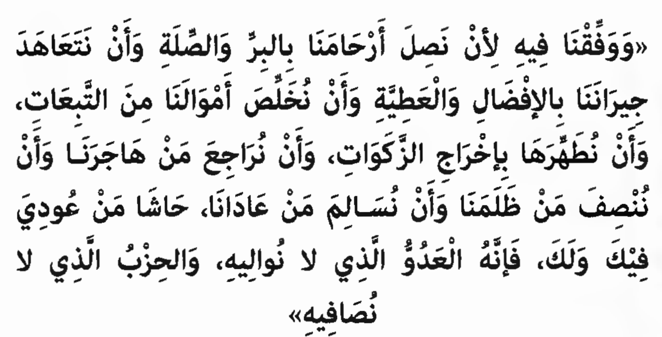
(١) سورة الحشر، الآية ٩.



الجلسة الثالثة عشرة:

القرآن كتاب هداية وليس رسالة عمليّة




«وَوَفِّقْنَا فِيهِ لِأَنْ نَصِلَ أَرْحَامَنَا بِالبِرِّ وَالصِّلَةِ وَأَنْ نَتَعَاهَدَ جِيرَانَنَا بِالإِفْضَالِ وَالْعَطِيَّةِ وَأَنْ نُخَلِّصَ أَمْوَالَنَا مِنَ التَّبِعَاتِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا بِإِخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ، وَأَنْ نُرَاجِعَ مَنْ هَاجَرَنَا وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنَا وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا، حَاشَا مَنْ عُودِيَ فِيْكَ وَلَكَ، فَإِنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذِي لا نُوالِيهِ، وَالحِزْبُ الَّذِي لا نُصَافِيهِ»

القرآن كتاب الهداية وليس رسالةً عمليّة

في تتمّة الفقرات السابقة من الدعاء، يشير الإمام السجّاد عليه السلام إلى مباحث حول كيفية العلاقة مع الأقارب والأرحام والأصدقاء والأعداء، وإلى مسائل مرتبطة بـأداء الزكاة والإنفاقات والصدقات الواجبة والمستحبّة، وكذلك إلى التأثير الـذي يتركه أداء هذا النوع من الإنفاقات في بناء الإنسان لذاته وتقرّبه من الله. ويمكننا أن نسترشد من عباراته ما يستحوذه أداء الحقوق والواجبات الماليّة من أهمّية فائقة في الشريعة المقدّسة، وكذلك دوره في تزكية الإنسان. وقد أكّد الإسلام، وبخاصّة في القرآن الكريم، على هذه المسائل بشكلٍ كبير.



القرآن كتاب التربية والهداية، والله تعالى في هذا الكتاب السماويّ القيّم يوصي أو يأمر بمجموعةٍ من السلوكيّات أو الخُلقيّات، على أنّ لكلّ واحدةٍ من هذه الأمور مستويات ومراتب مختلفة، ومن هنا فقد حكم الفقهاء العظام، على أساس هذه الأوامر الإلهيّة في القرآن، بالوجوب أحيانًا، وبالاستحباب أحيانًا أخرى. النواهي الإلهيّة في القرآن على هذا النحو أيضًا، فليس كلّ أمرٍ قرآنيّ يكون بنظر الفقيه واجبًا، ولا كلّ نهيٍ قرآنيٍّ يدلّ على الحرمة. مضافًا إلى ذلك، أحيانًا يكون لبعض العناوين المذكورة في القرآن مصاديق متعدّدة؛ بعضها واجبٌ وبعضها الآخر مستحبّ.

الروايات على هذا النحو أيضًا، فلفظ الواجب في الروايات أعمّ من الواجب المصطلح عليه في الفقه. وما أكثر الروايات التي صُرّح فيها بوجوب أمور، أو يكون تعبير الإمام عليه السلام عنها بنحوٍ يُفهم منه وجوبها، في حين أنّنا نقطع في بعض الموارد أنّها ليست واجبةً وجوبًا فقهيًّا، أو تكون في موارد أخرى محل اختلافٍ في الجملة. من ذلك على سبيل المثال: غسل الجمعة، حيث اختُلف في وجوبه؛ فمعظم الفقهاء القدماء والمعاصرين لم يحكموا بوجوبه، على الرغم من أنّ الروايات تضمّنت تأكيداتٍ كثيرة على ضرورة أدائه، وذكرت له آثارًا وبركاتٍ كثيرة. فيما آثرت فئةٌ قليلةٌ من الفقهاء الشيعة العظام أن تفتي بالاحتياط في هذه المسألة. أو ما أُمر به أكثر من غيره؛ وهو ذكر الصلوات على محمّدٍ وأهل بيته عليهم السلام، إلى درجة أنّ بعض الروايات عَدّت ذكر الصلوات عند سماع الاسم المبارك للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم واجبًا. بعض الروايات أكّدت أيضًا أنّ الذي يسمع اسمه صلى الله عليه وآله وسلم ولا يصلّي فقد ابتلي بعقوق أهل البيت عليهم السلام.





في جميع هذه الموارد، يُفهَم من هذه التعابير، بحسب الظاهر، اللزوم والوجوب، ولكنّها لم تكن أبدًا بمعنى الوجوب الفقهي. التعابير والكلمات القرآنية مصطلحات أعمّ، فالقرآن كتاب جامعٌ، على الرغم من تضمّنه لكثيرٍ من المسائل المرتبطة بهداية الإنسان وتربيته؛ إلا أنّه ليس مثل رسالة عملية أو مثل كتابٍ في الحقوق حتى يبيّن أحكام جميع المسائل بشكلٍ تفصيلي. اللهمّ نعم، هذه الأحكام والمسائل يمكن استخراجها أيضًا من طيّات الآيات القرآنية، ومن هنا فإنّ منهج القرآن التربويّ والإرشادي يقوم على أنّه، إلى جانب الحكم الفقهي والحقوقي، يبيّن كذلك الأمر الأخلاقي، التوصية بالتقوى، التحذير الأخلاقي، الإنذار أو البشارة، الموعظة والنصيحة. هذه الرؤية والأسلوب التربوي قد اعتُمد في روايات أهل البيت عليهم السلام أيضًا، فالخالق جلّ وعلا أعلم كيف يتكلّم مع مخلوقه وأيّ طريقة تربويّة وإرشاديّة هي الأكثر تأثيرًا.

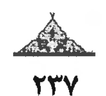
نعم، لمّا لم يكن جميع عباد الله عارفين بتفاصيل الأحكام الإلهيّة، فقد جاء دور جهود العلماء المسلمين، وبخاصّة الفقهاء العظام، ليساعدوا الناس ويستنبطوا الأحكام الإلهية من المصادر الدينية، وبخاصّة كتاب الله وروايات أهل البيت عليهم السلام، ويضعوا تلك الأحكام بين يدي مخلوقات الله. لو لم تكن هذه الجهود والمساعي من الفقهاء، فما أكثر الأفراد الذين لا يميّزون أبدًا بين يمناهم ويُسراهم، ويقعون في الضلال والانحراف. ومن هنا، فالرسائل العمليّة للفقهاء العظام هي كتبٌ منضبطة لبيان الأحكام الإلهيّة بما يسهّل على المكلّفين قيامهم بالأعمال. ومع هذا، فإنّ أيًّا من هذه الرسائل ليس كتابًا للإرشادات الأخلاقيّة والتربويّة.



هذه ميزة حصريّة بالقرآن؛ وهي أنّه يبيّن جميع هذه المسائل مع بعضها؛ فهذه الآية السادسة والثلاثين من سورة النساء المباركة، والتي أشرنا إليها من قبل، تذكر من أوّلها إلى آخرها توصيات أخلاقيّة وتربويّة، ومع هذا، فهي تتضمّن بعض الأحكام من الوجوب والحرمة الفقهيّة، وبعض الأحكام غير الفقهيّة؛ مثل صاحب السفر الذي رافقنا لأيّام قليلة، فإنّ له علينا حقوقًا لا بدّ لنا من أن نتحمّل مسؤوليّتنا في أدائها له، ولكنّ هذه الحقوق والواجبات والتكاليف لا ترقى بأيّ وجهٍ من الوجوه إلى حقّ الوالدين وواجباتنا تجاههما. الإحسان إلى الوالدين واجبٌ في عرض عبادة الله وترك الشرك. وكذلك الأرحام والأقـارب والجيران والأصدقاء والرفاق، كلٌّ من هؤلاء الذين لديهم علاقات معنا بنوعٍ أو بآخر، وبحسب نظام الإسلام الفقهي، والحقوقي، والتربوي والأخلاقي، فقد حُدّدت لهم حقوق وفُرضت علينا في المقابل واجبات تجاههم، مع أنّ حقوقهم لا تتساوى أبدًا، وواجباتنا تجاههم ليست هي نفسها. على أنّ طريقة القرآن وكثيرٍ من الروايات ونصوص أهل البيت عليهم السلام تقوم على بيان جميع هذه الأمور إلى جنب بعضها، وهذه الطريقة ليست معتمدة في سائر الكتب كالرسالة العمليّة؛ إذ لا يوجد أيّ رسالة عملية لفقيهٍ من الفقهاء قد تحدّثت حول التوصيات والتكاليف الأخلاقية والإرشادات التربويّة.

لزوم امتلاك التخصّص في الرجوع إلى الروايات

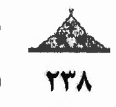
لمّا كان في القرآن الكريم وفي روايـات المعصومين عليهم السلام مباحث مختلفة قد طُرحت بعضها إلى جنب بعض، كان لا بدّ للأشخاص الذين يُسمَح لهم بالرجوع إلى الآيات القرآنية الكريمة والروايات والاقتباس



منها أن يكونوا من أهل ذلك، ويكون لديهم التخصّص الذي يُحتاج إليه في ذلك. روايات المعصومينعليهم السلام، حالها كحال القرآن الكريم؛ فيها المحكم والمتشابه، المطلق والمقيّد، العام والخاص، والتضاد والتعارض الظاهري في مواضع كثيرة. تمييز هذه الموارد بعضها عن بعض، والاستفادة الصحيحة من كلٍّ منها ليس من عمل أيٍّ كان؛ ومن هنا فإذا أراد شخصٌ لا يمتلك التخصّص والعلم المطلوب والكافي أن يبحث في آيات القرآن والروايات؛ فلن تكون نتيجته سوى الضلال والضياع. كثيرٌ من الإشكالات التي أوردها بعض الجهّال على الدين الإسلامي، وأحيانًا على بعض آيات القرآن الكريم، أو على نصوص المعصومينعليهم السلام وسيرتهم المباركة؛ إنّما كانت بسبب الجهل بهذه الأمور.

على سبيل المثال، افرضوا شخصًا يبحث في الآيات القرآنية والروايات حول حقوق المرأة والرجل وواجباتهما. فسيواجه من جهةٍ مطالب تدلّ على حاكميّة الرجل في البيت، بل على لزوم إطاعة المرأة للرجل، ومسائل أخرى من هذا القبيل؛ بحيث يُفهَم أنّه يكفي للرجل أن يأمر وعلى المرأة أن تطيع، وأن للرجل أن يرغب وعلى المرأة تبادر إلى التمكين، وبالإجمال أن على المرأة أن تُبقي الرجل راضيًا حتى يرضى الله عنها ويُسرّ منها؛ هذا من جهة. ومن جهةٍ أخرى سيجد مطالب تفيد عدم جواز تحميل الرجل زوجتَه كثيرًا من هذه الأمور، فلا يمكن للرجل مثلًا أن يُجبر زوجته على إرضاع ولده، كما أنّ المرأة ليست مجبورةً على القيام بالأعمال المنزليّة.

هذان الوجهان من الأوامر والنواهي كلاهما أحكامٌ إلهيّة، والشخص الفاقد للتخصّص لن يكون مطّلعًا على الزوايا اللطيفة والدقيقة الموجودة في الآيات والروايات، ولا على ضوابط الاستفادة



من المصادر الإلهيّة العالية، وبالتالي فسيجد بين هذه الأمور تعارضًا وتضادًّا كبيرَين، أو سيقوم في مرحلة العمل، وبعد مواجهة هذه المسائل، باختيار قسمٍ منها فقط طبقًا لميله وهوى نفسه، أو يعرض التفسير الذي يتطابق مع ميله.

كثيرٌ من العوائل، والأزواج، والأولاد، والمسؤولين والمتصدّين لأمر التربية والتعليم وتثقيف المجتمع؛ من معلّمين، ومربّين، وقادة ومرشدين فكريّين في المجتمع، ومؤلّفين ومدرّسين؛ كثيرٌ من هؤلاء ليسوا مطّلعين على واجباتهم الدينيّة العاديّة، بل حتى على أبسطها. ونتيجةً لذلك، سينتهي بهم الأمر في مرحلة العمل إلى التوقّف، أو الضلال والانحراف عن الطريق. في مثل هذه الأوضاع، علاوةً على أنّ المشكلة لن تُحلّ، قد يصبح الوضع أحيانًا أشدّ سوءًا، وقد تظهر بدعٌ وضلالات بسبب المواقف الإفراطيّة والتفريطيّة والاختلاط بالثقافات الأجنبيّة المنحرفة والخاطئة. ثمّ قد يتطوّر هذا الوضع إلى حدّ أن تتغيّر نظرة كثيرٍ من المتديّنين، وبخاصّة الشباب منهم، إلى أحكام الدين، وقد وصلوا إلى النتيجة الخاطئة القائلة إنّه لا إمكانيّة لتطبيق الدين وأحكامه في مجتمعنا المعاصر، وإنّه لا بدّ من اللجوء إلى الثقافات والقيم الغربيّة والأكثر حداثة.

لقد كانت جهود العلماء المسلمين والمفكّرين منصبّةً، من خلال الابتعاد عن الإفراط والتفريط وتجنّب البدع، على استخراج الإسلام الأصيل من مصادره الدينية الأصيلة وعرضه على المحتاجين. وقد تحمّل هؤلاء الأعزّاء مشقّاتٍ وصعوبات فائقة في هذا الطريق؛ أي فهم المضمون الديني بالشكل الصحيح ونقله بأمانة إلى المؤمنين وإلى المجتمع المتعطّش للمعارف الدينيّة الأصيلة. لو لم تكن تلك الجهود





من هؤلاء العظماء، لبقي جيل اليوم محرومًا من هذه المصادر الإلهيّة العظيمة.

هناك كثيرٌ من المشاكل والمعضلات التي تواجه المسلمين وعائلاتهم بل وكلّ المجتمع الإسلامي هذه الأيّـام. هذه المشاكل ضاعفت الحاجة إلى الأبحاث العلمية، وإلى التفكير العميق في المسائل والقيم الدينية، والكشف عن تعاليم الدين الإسلامي المقدّس وأحكامه من مصادره الإسلاميّة الأصيلة؛ أي القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام وسيرتهم المباركة، وذلك على يد العلماء والباحثين المتخصّصين وأهل الفنّ.

ضرورة الاهتمام الفائق بالوالدين والأقارب

سبق أن أشير إلى إحدى المسائل المهمّة التي باتت محلّ اهتمام في الفقه والأخلاق وسائر العلوم الإنسانية، وتم التأكيد عليها كثيرًا في القرآن الكريم والروايات؛ وهي مسألة البرّ والإحسان إلى الوالدين. تُعدّ هذه المسألة في الإسلام من أهمّ المسائل، أو بتعبير الفقهاء: هي من أوجب الواجبات. ودرجة أهمّيّة هذه المسألة هي إلى حدّ أنّ الآيات القرآنية الكريمة قد أمرت بالإحسان والبرّ بالوالدين مباشرةً بعد الأمر بعبادة الله وتوحيده والنهي عن الشرك به[1]. وكذلك فقد ورد في كلمات النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والمعصومين عليهم السلام أنّ الله تعالى قد جعل

---

(١) ﴿لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ ٱللَّهَ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٨٣)؛ ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ (سورة **النساء**، الآية ٣٦)؛ ﴿أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۖ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ١٥١)؛ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾ (سورة **الإسراء**، الآية ٢٣).

عذابًا أليمًا للذين يقعون في عقوق الوالدين، وأنّهم يستحقّون اللعن نتيجة عصيانهم للأب والأم وعدم مراعاة حقوقهما[١].

الموضوع الآخر الذي اهتُمّ به كثيرًا في الإسلام هو صلة الرحم والمحافظة على التواصل مع الأقارب والإحسان إليهم. هذه المسألة أيضًا قد ورد التأكيد عليها في الآيات والروايات إلى حدّ التعبير بأنّ الرحم متّصلة بالعرش الإلهيّ[٢].

(١) «عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ فُرَاتٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ﷣ قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِﷺ فِي كَلَامٍ لَهُ: إِيَّاكُمْ وَعُقُوقَ الْوَالِدَيْنِ، فَإِنَّ رِيحَ الْجَنَّةِ تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَلْفِ عَامٍ وَلَا يَجِدُهَا عَاقٌّ وَلَا قَاطِعُ رَحِمٍ وَلَا شَيْخٌ زَانٍ وَلَا جَارٌّ إِزَارَهِ خُيَلَاءَ؛ إِنَّمَا الْكِبْرِيَاءُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٣٤٩).

وورد في رواية أخرى: «عن ابن عبّاس قال: قال رسول اللهﷺ: «... فإذا كانت ليلةُ القدرِ يأمرُ اللّهُ عزَّ وجلَّ جبريلَ﷣ فيَهْبطُ في كَبكبةٍ من الملائكة، معه لواءٌ أخضرُ، فيركُزُ اللّواءَ على ظَهْرِ الكعبةِ ولَهُ ستُّمائةِ جَناحٍ، منها جَناحانِ لا ينشرُهُما إلا في ليلةِ القدرِ، فينشرُهُما تلكَ اللّيلةَ فيجاوِزانِ المشرقَ والمغربَ». قالَ: «ويبثُّ جبريلُ الملائِكَةَ في هذِهِ الأمّةِ، فيسلّمونَ على كلِّ قائمٍ وقاعدٍ ومصلٍّ وذاكرٍ ويصافِحونَهُم ويؤمِّنونَ على دعائِهم حتّى يطلُعَ الفجرُ، فإذا طلَعَ الفجرُ نادى جبريلُ: يا معشرَ الملائِكَةِ، الرَّحيلَ الرَّحيلَ. فيقولونَ: يا جبريلُ ما صنعَ اللّهُ في حوائجِ المؤمنينَ من أمّةِ محمّدٍﷺ؟، فيقولُ: إنَّ اللّهَ عزَّ وجلَّ نظرَ إليهم في هذِهِ اللّيلةِ فعفا عنهم وغفرَ لَهُم إلا أربعةً». فقالَ رسولُ اللّهِﷺ: «وَهَؤلاءِ الأربعةُ رجلٌ مدمنُ خمرٍ وعاقٌّ لوالديهِ وقاطعُ رحمٍ ومشاحنٌ»» (الشيخ المفيد، **الأمالي**، ص ٢٢٩؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٣، ص ٣٣٧؛ الميرزا حسين بن محمّد تقي النوري الطبرسي، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ج ٧، ص ٤٢٩ و٤٥٩؛ أبو محمّد الحسن الديلمي، **إرشاد القلوب إلى الصواب**، ترجمة عباس طباطبائي، ج ١، ص ١٩٦).

(٢) «عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ﷣ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّحِمَ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَقُولُ: اللَّهُمَّ صِلْ مَنْ وَصَلَنِي وَاقْطَعْ مَنْ قَطَعَنِي، وَهِيَ رَحِمُ آلِ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿الَّذِينَ يَصِلُونَ ما أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ وَرَحِمُ كُلِّ ذِي رَحِمٍ»» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ١٥١).



والآن السؤال الذي يُطرَح هو: ماذا على الأولاد أن يفعلوا حتى يكونوا من المحسنين والبارّين بأرحامهم وأقاربهم، وبخاصّة أبيهم وأمّهم؟ ما هي الأمور التي ينبغي تجنّبها حتى لا ينالوا العقاب الأليم الذي أُعدّ لعاقّ الوالدين؟ كيف ينبغي مراعاة هذه المسألة المهمّة: صلة الرحم؟ وما هي مصاديقها؟ مع الأسف، فالبحوث المعمّقة التي أُنجزت في هذا المجال أقلّ من المطلوب.

على سبيل المثال: مسألة حرمة أذيّة الوالدَين في الإسلام، حيث يحرم أيّ فعلٍ يقوم به الولد ويتسبّب من خلاله بأذيّة الأب والأم وإزعاجهما. هذه المسألة تشغل بال أغلب شبابنا وتجول في أذهانهم أسئلة حول العلاقة بين الولد ووالدَيه في ظلّ اختلاف الأجيال، الاختلاف الاعتقادي والقيمي، اختلاف الأذواق الموجودة بين الوالدَين وأولادهم، الاختلاف في مستوى العلم والوعي وعدم إحاطة الوالدَين أحيانًا ببعض المسائل الجديدة والأمور المعاصرة، وما يحمله الوالدان من توقّعات كبيرة ـ ومبالغٍ بها أحيانًا ـ من أولادهم... هذه أمور كلّها تؤدّي في كثيرٍ من الموارد إلى وقوع الاختلاف والشجار بين الأولاد ووالدَيهم؛ فمراعاة جميع هذه الأمور التي يتوقّعها الوالدان من الأولاد ليست بالأمر السهل، وهذا ما يجعلهم في مأزق في الواقع. في مثل هذه الحالات والظروف ما الذي ينبغي فعله؟ حتى الشباب الذين يؤمنون بأحكام الإسلام الحقوقيّة والأخلاقيّة بحقّ الأب والأم ويبادرون إلى الالتزام بها، لديهم هذا التساؤل: ما الذي ينبغي أن نفعله لكي نراعي من جهتنا حقوق الوالدَين واحترامهما وفي الوقت نفسه لا نقع في الحرج والمشقّة؟



نعم، على الشباب هنا أن يفكّروا بطريقةٍ ما لرفع هذه المشكلة وأن يهيّئوا الأرضيّة بحيث لا يصدر من الوالدَين توقّع وتأمّل أكثر من الحدّ وبما يفوق قدراتهم. على سبيل المثال، يمكن لهؤلاء الشباب، من خلال التمهيد الصحيح المقرون بحفظ الإكرام والاحترام اللازمَين، أن يُفهموا الوالدَين أنّهم غير قادرين على أداء جميع تلك الأمور، أو يجتنبوا طرح بعض الأمور التي من شأنها أن توجد عند الوالدَين مثل تلك التوقّعات، ولا يعدوهما بالأمور التي تتسبّب بانزعاجهما في حال مخالفتها أو عدم الوفاء بها. صحيحٌ أنّ أذيّة الوالدَين حرام بلا خلاف، ولكنّ إطاعة الوالدَين في كلّ أمرٍ ليست واجبةً؛ وبلا خلافٍ أيضًا. على أنّ بعض الفقهاء قد أفتى، بناءً على تأكيدات الآيات القرآنية والروايات على مراعاة الأدب في التعامل مع الوالدَين، بأنّ الولد إن كان يصلّي صلاةً مستحبّةً وناداه أبوه وأمّه يريدان منه حاجةً، فعليه أن يقطع صلاته وبعد أن يقضي لهما حاجتهما يعود إلى صلاته المستحبّة. اللهمّ في حال كان بقاؤه في الصلاة وعدم قطعه لها لا يتنافى مع احترام والدَيه ومراعاة حالهما ولا يسبّب لهما أذيّةً بذلك، فلا لزوم حينها لقطع الصلاة. وبناءً عليه، فمجرّد أن يمتنع الولد عن أذيّة والدَيه، سواء بالتمهيد السابق أو بالاعتذار والتعويض اللاحق، فهذا كافٍ في حدّ ذاته مع اقترانه بأدائه لواجباته تجاههما بما يتعلّق بالاحترام والإحسان إليهما. أمّا إذا لم يكن الأمر كذلك، أو كان ثمّة نهيٌ صريحٌ من الأب والأم عن فعلٍ ما، أو كان الولد يعلم بأنّ هذا الفعل سيتسبّب لاحقًا بعدم رضاهما، فيجب على الولد أن يجتنّب أذيّتهما في هذه الموارد.

النكتة الأخرى هي أنّ الإحسان إلى الوالدين قد لا يكون بالضرورة مساعدتهم بالمال. وإنْ كانت المساعدة المالية للوالدين، وبخاصّة إذا



كانا محتاجَين، هي بالتأكيد من أفضل المستحبّات، وفي الموارد التي يكونان محتاجَين فيها ويكون الولد قادرًا فتصبح المساعدة واجبةً على الولد، ففي مثل هذه الموارد يكون الوالدان واجبَي النفقة، ويجب على الولد أن يكفي أباه وأمّه من ماله.

ما يشبه هذه المسائل قد طُرح كذلك بما يخصّ الرحم والأقارب، فقد فَرض الإسلام على المسلمين أن لا يقطعوا علاقتهم مع الأقارب، وأنّ على الأقارب والأرحام أن يسعوا في ما بينهم إلى مزيدٍ من الاتّصال والتواصل. هذا، وجميع الفقهاء يقولون بحرمة قطع الرحم ـ بمعنى أن يقوم الإنسان بما يستلزم قطع التواصل مع أقاربه ـ. طبعًا فكلّما كانت القرابة أقرب من المرء، كانت مسؤوليّته تجاهها أكبر، ومن هنا يقع الوالدان على رأس الهرم، ومن بعدهما الأخ والأخت، وفي المرتبة التالية الأرحام والأقارب. وحتى لا يكون الإنسان قاطعًا للرحم، عليه أن يقوم بما يصدق عليه عرفًا أنّه لم يقطع رحمه وأنّه محافظٌ على تواصله معهم.

أمّا كيف ينبغي أن يتحقّق ذلك وما هي الأفعال التي ينبغي على الإنسان فعلها في هذا المجال، فهذا يختلف بحسب الأوضاع والظروف المختلفة، وفي كلّ إقليم وكلّ ثقافة تنتشر أنواعٌ متعدّدة ومتنوّعة من مصاديق التواصل بين الناس؛ من السلام البسيط وردّ السلام، أو حتى الاتّصال الهاتفي أو إرسالة رسالة عبر الهاتف، إلى الزيارات العائليّة والعلاقات المتينة جدًّا؛ طيفٌ واسع من أنواع التواصل الإنساني والعائلي.



المساعدات المالية قد تكون أحد هذه الأنواع المختلفة، وبخاصّة إذا كان رحم الإنسان محتاجًا، فإنّ ضرورتها تصبح أشدّ واحتمال وجوبها يكون أقوى. وإذا امتنع الإنسان عن جميع هذه الأنواع المختلفة وقصّر فيها بحيث يعدّ عرفًا قاطعًا لرحمه، فيكون قد ارتكب معصيةً وفعل حرامًا.

النكتة الأخـرى التي قد تُعدّ اليوم محلّ سـؤالٍ عند كثيرٍ من العائلات والأفراد المتديّنين، هي عن التواصل والتلاقي مع الأقارب الذين لا يراعون المسائل الشرعيّة، فهل يجب التواصل مع مثل هؤلاء الأفراد بسبب الرحم والقرابة؟ كأن يكونوا مثلًا من الذين لا يراعون الحجاب وضوابط الاختلاط، أو يستمعون إلى الغناء والموسيقى المحرّمة والمبتذلة، أو لا يتورّعون عن مشاهدة الأفلام المحرّمة، فما الذي ينبغي فعله في هذه الحالات؟

لعلّ إحدى الطرق لتجنّب الحرام مع المحافظة على التواصل مع مثل هؤلاء الأقارب، أن يكون التواصل معهم محدودًا؛ كأن يُنجَز في وقتٍ قصير، ولا يكون لشباب العائلة جلساتٌ وسهرات مع مثل هؤلاء الأفراد والعوائل، أو أن يتمّ تواصلهم معهم بشكلٍ محدودٍ ومضبوطٍ جدًّا. وإذا لم تكن هذه التدابير متيسّرة، فلتُترك اللقاءات الحضوريّة وليُكتَفى بالاتّصالات الهاتفيّة والرسائل وإرسال الهدايا.

في جميع الأحوال، لا بدّ للتواصل من أن يكون بنحوٍ لا يتسبّب بتلوّث الإنسان بالمعصية؛ فإذا لم يؤدِّ تبادل الزيارات مع هؤلاء الأفراد والعوائل الذين هم من أهل الفسق والمعصية إلى الإضرار في إيمان الإنسان ولم يلوّثه بالمعصية، وإذا لم تُعدّ هذه الزيارات تأييدًا وإمضاءً



لانحرافهم وخطئهم، فليس فيها أيّ إشكال. وما أكثر ما نجد أنّ مبادرة المؤمنين إلى صلة الرحم وتبادل الزيارات مع هؤلاء الأفراد والعوائل، وأحيانًا بيان مسائل ونصائح وإظهار حسن النيّة وإرادة الخير، أو مشاهدة السلوك السليم والحسن من المؤمنين؛ تترك بشكلٍ تدريجي تأثيرها الإيجابي فيهم بحيث تجعلهم شيئًا فشيئًا محترمين للأحكام الإلهيّة، وترغّبهم في مراعاة الأحكام الشرعيّة.

في هذه الحالة، مضافًا إلى أنّ صلة الرحم مع مثل هؤلاء الأفراد والعوائل لا يكون عيبًا، فإنّ وجوبه يكون مضاعفًا حتى؛ وذلك لأنّه صلة للرحم وفي الوقت نفسه نوعٌ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. أمّا إذا لم يكن الأمر كذلك، بل كانت هذه الزيارات تهيّئ الأرضيّة لدى الإنسان، وبخاصّة عند الشباب، للتلوّث بالمعصية، أو تشجّعهم وتؤيّدهم في أفعالهم الذميمة، فلا بدّ من قطع التواصل معهم [بهذا الشكل].





الجلسة الرابعة عشرة:

الاهتمام بالجيران





«وَوَفِّقْنَا فِيهِ لأنْ نَصِلَ أَرْحَامَنَا بِالبِرِّ وَالصِّلَةِ وَأَنْ نَتَعَاهَدَ جِيرَانَنَا بِالافْضَالِ وَالْعَطِيَّةِ وَأَنْ نُخَلِّصَ أَمْوَالَنَا مِنَ التَّبِعَاتِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا بِإخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ، وَأَنْ نُرَاجِعَ مَنْ هَاجَرَنَا وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنَا وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا حَاشَى مَنْ عُودِيَ فِيْكَ وَلَكَ، فَإنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذِي لاَ نُوالِيهِ، وَالحِزْبُ الَّذِي لاَ نُصَافِيهِ»

الاهتمام بالجيران

في هذه الفقرة من الدعاء، يطلب الإمام زين العابدين عليه السلام من الله تعالى أن يعيننا في صلة الرحم ومساعدة الجيران، وفي تنقية الأموال وتطهيرها.

من جملة المسائل التي جاءت محلّ اهتمام في القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام: مراعاة الأمور المرتبطة بالجيران. في الآية الشريفة التي سبقت الإشارة إليها، جاءت التوصية، بعد بيان الحقوق والواجبات المرتبطة بالوالدين وبسائر الأرحام، بمراعاة حقوق الجيران أيضًا: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ

بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا﴾[1].

في هذه الآية الكريمة يعتبر الله تعالى مراعاة أمور الجيران، سواءٌ أكانوا من الأقارب أم من الأجانب، ومن الجيران البعيدين أم القريبين؛ أمرًا لازمًا. طبعًا فالآية لم توضح إن كان هذا الواجب واجبًا شرعيًّا وفقهيًّا أم من الواجبات الأخلاقيّة، ولذا فهذا المورد أيضًا يُعدّ من التعابير التربويّة للقرآن وأهل البيت عليهم السلام التي لم يُفكَّك فيها بين هذين الواجبَين. ولعلّ هذا الأمر لأجل أن نتوجّه نحن في مقام العمل إلى أنّ هذه المسألة هي بذاتها من الأوامر والتوصيات الإلهيّة فنعمل بها، بدلًا من أن نشتغل بتلك التفكيكات وبالتفكير بالعمل بالواجبات الفقهيّة [دون سواها]. وكذلك فقد كانت المدرسة التربوية والسيرة الطاهرة للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام قائمةً على التعبير عن كثيرٍ من المستحبّات بالوجوب واللزوم؛ وذلك حتى يشجّعوا الناس على العمل بها.

إنّ قرابة الجيران بعضهم من بعض تشكّل فرصةً لهم كما يمكنهم أن يستفيدوا منها ليقدّموا العون الكبير بعضهم لبعض، كذلك فإنّ أدنى تصادم أحيانًا قد يؤدّي إلى الأذيّة والإساءة في ما بينهم. وبهذا فالجيران أقرب إلى المرء حتى من أرحامه، وهم إلى جانبه في أفراحه وأتراحه. ومن هنا، فقد أمر القرآن الكريم وأهل البيت عليهم السلام بأن يكون التعامل مع الجيران، كما التعامل مع الوالدين والأرحام، بنحوٍ لا يتسبّب بإيذائهم، مزاحمتهم، قلقهم، إزعاجهم والإساءة إليهم؛ بما

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٣٦.



قد ينقلب بالنهاية إلى عداوتهم. ولأجل بيان أهمّية الالتفات إلى أمور الجيران ومراعاة حقوقهم، ينقل أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه قال: «ما زَالَ جبرئيلُ يوصِينِي بالجَارِ حتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ»[١].

هذا التعبير الحكيم يمكننا أن نستنتج منه أنّ الجار في غاية القرب من الإنسان، وأنّ له في عنق الإنسان حقوقًا قريبةً من حقوق الأرحام. نظام الإسلام التربويّ والأخلاقيّ لا يقتصر في توصيته بهذه الأمور والتنبيه إليها على الأحكام الفقهيّة والحقوقيّة فقط؛ وإنّما تحظى التوصيات الأخلاقيّة في العلاقات الاجتماعيّة بمكانة بالغة في هذا النظام المترقّي والكامل، والمتربّون المتخرّجون من هذه المدرسة يرون أنّ من واجباتهم الدينيّة والإنسانيّة أن يطّلعوا على أوضاع الجيران وأحوالهم وأن يتفقّدوا أمورهم.

كان المرحوم السيّد جواد العاملي رحمه الله - صاحب كتاب **مفتاح الكرامة** الشريف، والذي يجمع فيه أقوال الفقهاء في مراحل مختلفة - من أهل جبل عامل في لبنان، وهو من العلماء البارزين في النجف ومن تلامذة السيّد بحر العلوم رحمه الله الذي كان له مقاماتٌ علميّة ومعنويّة عالية جدًّا، ومن المعروف أنّه قد تشرّف بلقاء الوجود المقدّس لوليّ العصر عجّل الله تعالى فرجه الشريف. ومن هنا، فقد كان المرحوم السيّد جواد العاملي يحترم أستاذه احترامًا فائقًا. في يوم من الأيّام، طلبه أستاذه ثمّ قال له معاتبًا: «سمعت أنّ جارك ليس في وضعٍ جيّد، أولم تتفقّد أموره وأحواله؟».

---

(١) أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٤، ص ١٣، باب «ذكر جمل من مناهي النبيّ صلى الله عليه وآله».

عندما سمع لحن كلام أستاذه بهذا النحو، أجابه بحزنٍ واضطراب: «واللّه ما لي علم بحاله»، فقال السيّد: «لو علمت بحاله وتعشّيت ولم تلتفت إليه لكنت يهوديًّا أو كافرًا، وإنّما أغضبني عليك عدم تجسّسك (تفقّدك) عن إخوانك وعدم علمك بأحوالهم، فخذ هذه الصينيّة يحملها لك خادمي يسلّمها إليك عند باب داره، و قل له: «قد أحببت أن أتعشّى معك الليلة»، وضعْ هذه الصرّة تحت فراشه أو بوريائه أو حصيره، وأبقِ له الصينيّة فلا ترجعها». لبّى السيّد جواد أمر المرحوم بحر العلوم رحمه الله وقام بما طلبه منه وجلس عند جاره حتى تناول طعامه.

هذا التعبير من السيّد بحر العلوم للمرحوم السيّد جواد رحمهما الله إذ قال: «لو علمت بحاله ولم تلتفت إليه لكنت كافرًا»، إنّما يعبّر عن عمق توجّه النظام الأخلاقي في الإسلام إلى أمور الآخرين، وبخاصّة الجيران، إلى حدّ أنّ عدم الاهتمام بالجيران المحتاجين إلى المعونة والمساعدة يعتبر في حدّ الكفر. هذا النظام التربوي والأخلاقيّ القيّم ينتج علماء عظام من أمثال السيّد بحر العلوم رحمه الله الذي، على الرغم من مقامه العلمية وكثرة انشغاله، يطّلع بمختلف الطرق على أوضاع وأحوال الناس في مجتمعه، ويرى نفسه مكلّفًا بتفقّد أمورهم كما كان حال أجداده الأطهار عليهم السلام.

مشاركة الفقراء في أموال الأغنياء

إنّ الاهتمام بهذه الأمور، التي هي بحسب الظاهر عادية أو مستحبّة؛ إنّما يكشف عن حياة [واستمرار] السنّة النبويّة وسيرة أهل البيت عليهم السلام، فالإنسان المسلم والمؤمن ينبغي له أن لا يقتصر في العمل على حدود الواجبات الفقهيّة؛ وإلا فسيتخلّف عن أكبر التكاليف الفرديّة



والاجتماعيّة؛ من قبيل الصلاة في أوّل الوقت، المشاركة في صلوات الجماعة والجمعة، مراعاة مستحبّات صلاة الجماعة وفضائلها، صلة الرحم، الاهتمام بالمحتاجين، والاهتمام بأمور الجيران؛ وبالنتيجة فسيبقى محرومًا من بركات تلك الأعمال.

مضافًا إلى ذلك، فلدينا كثيرٌ من التكاليف الواجبة التي لم تُبيّن في الفقه، ولكنّنا غافلون عنها. وحول هذا النوع من الواجبات نُقل: «عَنْ أَبِي بَصِيرٍ، قَالَ: كُنَّا عِنْد أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام وَمَعَنَا بَعْضُ أَصْحَابِ الْأَمْـوَالِ. فَذَكَرُوا الزَّكَاةَ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام: إِنَّ الزَّكَاةَ لَيسَ يحْمَدُ بِهَا صَاحِبُهَا، وَإِنَّمَا هُوَ شَيءٌ ظَاهِرٌ إِنَّمَا حَقَنَ بِهَا دَمَهُ وَسُمِّي بِهَا مُسْلِمًا، وَلَوْ لَمْ يؤَدِّهَا لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صلاة، وَإِنَّ عَلَيكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ غَيرَ الزَّكَاةِ. فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ! وَمَا عَلَينَا فِي أَمْوَالِنَا غَيرُ الزَّكَاةِ؟ فَقَالَ عليه السلام: «سُبْحَانَ اللَّهِ! أَمَا تَسْمَعُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يقُولُ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾؟» قَالَ: قُلْتُ: مَا ذَا الْحَقُّ الْمَعْلُومُ الَّذِي عَلَينَا؟ قَالَ عليه السلام: هُوَ الشَّيءُ يعْمَلُهُ الرَّجُلُ فِي مَالِهِ يعْطِيهِ فِي الْيوْمِ أَوْ فِي الْجُمْعَةِ أَوْ فِي الشَّهْرِ قَلَّ أَوْ كَثُرَ. غيرَ أَنَّهُ يدُومُ عَلَيهِ. وَقَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيَمۡنَعُونَ ٱلۡمَاعُونَ﴾. قَالَ عليه السلام: هُوَ الْقَرْضُ يقْرِضُهُ وَالْمَعْرُوفُ يصْطَنِعُهُ وَمَتَاعُ الْبَيتِ يعِيرُهُ وَمِنْهُ الزَّكَاةُ. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ لَنَا جِيرَانًا إِذَا أَعَرْنَاهُمْ مَتَاعًا كَسَرُوهُ وَأَفْسَدُوهُ فَعَلَينَا جُنَاحٌ أَنْ نَمْنَعَهُمْ؟ فَقَالَ عليه السلام: لَا، لَيسَ عَلَيكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَمْنَعُوهُمْ إِذَا كَانُوا كَذَلِكَ». قَالَ: قُلْتُ لَهُ: ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا﴾. قَالَ عليه السلام: لَيسَ مِنَ الزَّكَاةِ. قُلْتُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ﴾. قَالَ عليه السلام: «لَيسَ مِنَ الزَّكَاةِ. قَالَ: فَقُلْتُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِن تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن

تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾. قَالَ عليه السلام: لَيسَ مِنَ الزَّكَاةِ، وَصِلَتُكَ قَرَابَتَكَ لَيسَ مِنَ الزَّكَاةِ»[1].

إنّ مقصود الإمـام الصادق عليه السلام في استناده إلى آيات القرآن الشريفة هو أنّ الله تعالى قد جعل في أموال الأغنياء والميسورين حقوقًا للفقراء والمحتاجين علاوةً على الواجبات المالية مثل الزكاة. وبناءً عليه، فعلى المؤمنين أن يعملوا في مراعاة حال المحرومين والمساكين بحيث لا يضطرّ هؤلاء للسؤال والطلب فيقعوا بالحرج والحياء من ذلّ السؤال.

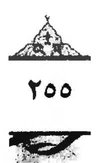
كذلك فقد أشار الإمام الصادق عليه السلام في هذه العبارات إلى آياتٍ من سورة الماعون التي يذمّ الله تعالى فيها بعض المصلّين؛ وهم أولئك المصلّون الذين يستخفّون في أمر الصلاة ويتمنّعون من إعطاء «الماعون»؛ أي لا يهتمّون بالمحتاجين إلى قرضٍ ما أو لاستعارة شيءٍ من أغـراض المنزل أو الحاجات الضروريّة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[2].

وكأنّ الله تعالى في هذه الآيات يعتبر أنّ الواجبات لا تنحصر في الواجبات المكتوبة في الفقه والرسائل العملية؛ وإنّما قد أوجب علينا أيضًا أن نُقرض المال لمن يحتاجه، وأن نعير ما نملكه من أدوات وأغراض منزليّة أو أيّ شيءٍ آخر لمن يحتاج إليه.

---

(١) أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٣، ص ٤٩٩.

(٢) سورة **الماعون**، الآيات ٤ - ٧.



إنّ مراعاة أحوال الأقارب، الجيران، والمحتاجين؛ من إقراضهم المال أو إعارتهم الأدوات المنزليّة، أو حتى الاقتراض والاستعارة منهم، ومن مساعدتهم أو طلب المساعدة منهم؛ إنّما هي معاملة وسُنّة حسنة رائجة عند العقلاء، ولا سيّما المسلمين، وهي محلّ تأييد الشرع الإسلامي المقدّس، وتنسجم مع الروح الحاكمة على النظام الأخلاقي والتربوي في الإسلام. وبحسب تعبير القرآن وكلمات أهل البيت عليهم السلام، فإنّ للمسلمين حقوقًا في ذمّة بعضهم لبعض، والله تعالى قد فرض في أموال الأغنياء حقوقًا، ولا سيّما للفقراء والمحرومين. وقد جُمعت هذه التعابير في كثيرٍ من من الكتب الروائيّة والمصادر الحديثيّة، ومن جملتها كتاب **وسائل الشيعة** الشريف، حيث عقد بابًا مستقلًّا بعنوان: «باب تحريم منع المؤمن شيئًا من عنده أو عند غيره عند ضرورته»، وجمع في هذا الباب هذا النوع من الروايات[1].

---

(١) وهذه الروايات كثيرة نكتفي في هذا المجال المختصر بالإشارة إلى نماذج منها في ما يلي:
١- عَنْ فُرَاتِ بن أَحْنَفَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «أَيما مُؤْمِنٍ مَنَعَ مُؤْمِنًا شَيئًا مِمَّا يحْتَاجُ إِلَيهِ وَهُوَ يقْدِرُ عَلَيهِ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ مِنْ عِنْدِ غَيرِهِ أَقَامَهُ اللَّهُ يوْمَ الْقِيامَةِ مُسْوَدًّا وَجْهُهُ مُزْرَقَّةً عَينَاهُ مَغْلُولَةً يدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ، فَيقَالُ: هَذَا الْخَائِنُ الَّذِي خَانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. ثُمَّ يؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ». (محمد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١٦، ص ٣٨٨).
٢- الصَّدُوق فِي الهداية، سُئِلَ الصَّادِقُ عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ۝٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾. قَالَ عليه السلام: «هَذَا شَيءٌ سِوَى الزَّكَاةِ، وَهُوَ شَيءٌ يجِبُ أَنْ يفْرِضَهُ عَلَى نَفْسِهِ كُلَّ يوْمٍ أَوْ كُلَّ جُمْعَةٍ أَوْ كُلَّ شَهْرٍ أَوْ كُلَّ سَنَةٍ». (الميرزا حسين بن محمد تقيّ النوريّ الطبرسيّ، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، ج ٧، ص ٣٦).
٣- وَعَنْهُ [الإمام الصادق عليه السلام] أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾، قَالَ عليه السلام: «الْقَرْضُ تُقْرِضُهُ وَالْمَعْرُوفُ تَصْنَعُهُ وَمَتَاعُ الْبَيتِ تُعِيرُهُ (المصدر نفسه).
٤- عَنْ مُحَمَّدِ بن مَرْوَانَ عَنْ جَعْفَرِ بن مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عليه السلام أَنَّهُ سَأَلَهُ رَجُلٌ فِي الْحِجْرِ عَنْ أَشْيَاءَ إِلَى أَنْ قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِهِ ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾؟ مَا هَذَا الْحَقُّ الْمَعْلُومُ؟ قَالَ عليه السلام: «هُوَ الشَّيءُ يخْرِجُهُ الرَّجُلُ مِنْ مَالِهِ لَيسَ مِنَ الزَّكَاةِ فَيكُونُ لِلنَّائِبَةِ وَالصلة». قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ عليه السلام: «فَعَجِبَ

ولهذا السبب، فقد ذمّ الله تعالى في هذه الآيـات الشريفة أولئك الذين لا يهتمّون لحاجات المؤمنين المحتاجين -تلك الحاجات التي قد تبدو بظاهرها بسيطة- ويتجاهلون سنّة المسلمين وسيرتهم في الاهتمام بالمحتاجين والجيران، حيث قال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[1].

مع الأسف، فإنّ ارتباط المجتمعات الإسلاميّة وتقرّبها من البلدان الغربيّة، وتأثّرها بالثقافة المنحطّة الحاكمة على تلك الديار؛ قد تسبّب في أن تزول هذه السنّة المباركة من بين المسلمين بشكلٍ تدريجي. وبالنتيجة، فقد استُبدل السخاء، الاهتمام بالآخرين، التعاون والتعاضد بين المسلمين؛ بالأنانيّة، البخل، الحسد، وسائر الرذائل الفرديّة والاجتماعيّة.

أَبِي مِنْ قَوْلِهِ: صَدَقْتَ». قَالَ‎ﷺ: «ثُمَّ قَامَ الرَّجُلُ، فَقَالَ أَبِي‎ﷺ: «عَلَيَّ بِالرَّجُلِ». قَالَ‎ﷺ: فَطَلَبْتُهُ فَلَمْ أَجِدْهُ». (المصدر نفسه)؛

٥- عَنْ سَمَاعَةَ قَالَ: قَالَ‎ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ فَرِيضَةً لا يحْمَدُونَ بِأَدَائِهَا وَبِهَا حَقَنُوا دِمَاءَهُمْ وَبِهَا سُمُّوا مُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فِي الْأَمْوَالِ حُقُوقًا غَيرَ الزَّكَاةِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٣، ص ١٠٣؛ الميرزا حسين بن محمّد تقيّ النوريّ الطبرسيّ، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، مصدر سابق).

٦- عَنْ سمَاعَةَ قَالَ‎ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ فَرَضَ لِلْفُقَرَاءِ فِي أَمْوَالِ الْأَغْنِيَاءِ فَرِيضَةً لا يحْمَدُونَ بِأَدَائِهَا وَهِيَ الزَّكَاةُ بِهَا حَقَنُوا دِمَاءَهُمْ وَبِهَا سُمُّوا مُسْلِمِينَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ فَرَضَ فِي الْأَمْوَالِ حُقُوقًا غَيرَ الزَّكَاةِ، وَمِمَّا فَرَضَ فِي الْمَالِ غَيرَ الزَّكَاةِ قَوْلُه: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾، وَمَنْ أَدَّى مَا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيهِ فَقَدْ قَضَى مَا عَلَيهِ، وَأَدَّى شُكْرَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ مِنْ مَالِهِ إِذَا هُوَ حَمِدَهُ عَلَى مَا أَنْعَمَ عَلَيهِ بِمَا فَضَّلَهُ بِهِ مِنَ السَّعَةِ عَلَى غَيرِهِ، وَلِمَا وَفَّقَهُ لِأَدَاءِ مَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيهِ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٣، ص ١٠).

(١) سورة **الماعون**، الآيات ٤ - ٧.



مضافًا إلى ما ذُكر، فإنّ ثمّة حقوقًا أخرى في ذمّة الإنسان أغلب الأفراد لا يلتفتون إليها أو لا يعلمون بها؛ ومن ذلك مثلًا الضرر المالي الذي قد يتسبّب به الأفراد أو الجماعات؛ من قبيل الضرر المالي الذي قد يلحقه الجار بجاره، والضيف بمضيفه، والمستأجر بصاحب المنزل، والمسافر بصاحب مركب السفر، وتلاميذ المدارس وطلاب الجامعات بالمدارس والجامعات، والعابرون بالباعة، وسكّان المدينة أو القرية بالممتلكات العامّة، والموظّفون والعمّال بالمؤسّسات والمعامل؛ هذه جميعها موارد موجبة للضمان، والذي يتسبّب بالضرر فيها ضامن ومدين للأشخاص، أو المجموعات، أو المؤسّسات، أو الإدارات، أو عموم الناس. هذه الديون معروفةٌ في الاصطلاح الفقهي والأخلاقي بـ«المظلمة». ولهذا السبب، فالأفراد المؤمنون الذين يلتزمون بالشرع المقدّس يقومون، حين احتساب أموالهم وتنقيتها، ومضافًا إلى المبالغ المعلومة بعنوان الخمس أو الزكاة؛ يقومون بإخراج مبلغٍ آخر أيضًا بعنوان ردّ المظالم، ويدفعون هذا المبلغ حتى يكونوا بريئي الذمّة في حال بقي شيءٌ في ذمّتهم من تلك الأضرار الماليّة.

ولأهمّيّة هذه المسائل المذكورة، نجد الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرات من الدعاء يطلب من الله تعالى أن يوفّقه لأداء هذه الحقوق إلى أصحابها، فتقريبًا جميع ما طلبه الإمام عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء هو من المسائل والواجبات الماليّة التي يطلب من الله التوفيق لأدائها: «**وَوَفِّقْنَا فِيهِ لأَنْ نَصِلَ أَرْحَامَنَا بِالبِرِّ وَالصِّلَةِ وَأَنْ نَتَعَاهَدَ جِيرَانَنَا بِالإِفْضَالِ وَالْعَطِيَّةِ وَأَنْ نُخَلِّصَ أَمْوَالَنَا مِنَ التَّبِعَاتِ، وَأَنْ نُطَهِّرَهَا بِإِخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ**».

في كلام الإمام السجّادعليه السلام هنا جاء التعبير بـ«الزكوات» بصيغة الجمع. ولعلّ هذا لأنّ استعمال الزكاة بالمعنى اللغوي لا يختصّ بالزكاة المصطلح عليها في الفقه؛ وإنّما يشمل الخمس وسائر الصدقات الواجبة والكفّارات أيضًا[1].

الطريقة الفُضلى لرفع الاحتياجات من المجتمع

في كل مجتمع يعيش أناسٌ محرومون لا عمل لديهم، أو حتى عاجزون لمختلف الأسباب. ليس لديهم لسانٌ ذلق ولا ساعدٌ قويّ، وأحيانًا ليس لديهم مكانة اجتماعيّة مرموقة بحسب الظاهر، لتمرير أمور المعاش، وإنّما يعتمدون في تأمين معيشتهم على مساعدة الآخرين ومعونتهم. بعض الناس كذلك على الرغم من أنّهم كانوا ميسورين وأغنياء، ولكنّ ابتلاءهم بالحوادث والكوارث الأليمة، مثل الفيضانات، والـزلازل، والقرارات والخيارات الخاطئة... قد تسبّب في أن يخسروا رأسمالهم، ممتلكاتهم، وقدراتهم الجسميّة أو الروحيّة، ليدخلوا في عداد العاجزين والمحرومين في المجتمع.

ما هي الطريقة الفُضلى لرفع حاجات هؤلاء المحتاجين؟ ما هي طرق الدين الإسلامي وسُبله لإغاثة المحرومين في المجتمع ولتقديم الخدمات العامّة التي تصبّ في مصلحة الجميع؟ وأساسًا ما هي الأشكال المتصوّرة لتقديم هذه الخدمات العامّة وإغاثة المحرومين في المجتمع، وما هو الشكل الذي يرجّحه الإسلام ويوصي به؟

---

(١) على أنّه قد يكون مقصودهعليه السلام هو الزكاة بالمعنى الاصطلاحي، وإنّما جاء بصيغة الجمع باعتبار موارد الزكاة المتعدّدة التي تشمل الغلّات الأربع (الحنطة، الشعير، التمر، والزبيب) والأنعام الثلاثة (البقر، والغنم، والإبل)، والنقدين (الذهب والفضّة).





بشكلٍ مختصر، فإنّ رفع هذه الاحتياجات يمكن تصوّره ضمن ثلاثة أشكال عامّة:

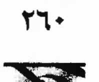
الشكل الأوّل: أن يُلقَى هذا النوع من الواجبات على عُهدة الأفراد في المجتمع، حتى يبادروا إلى مساعدة الآخرين بشكلٍ تطوّعي؛ فإذا قام كلّ شخصٍ بمساعدة المحتاجين من أقاربه، أصدقائه، وجيرانه، أو مساعدة أيّ محتاجٍ ومحرومٍ آخر في مجتمعه، فسترتفع جميع الاحتياجات في المجتمع وسيصبح جميع المحرومين تحت الرعاية.

الشكل الثاني: أن تتولّى وتتكفّل هذه الأمور أجهزة ومؤسّسات معيّنة وخاصّة يكلّفها المسؤولون والحكومة للقيام بذلك بشكلٍ مركزي وشامل؛ أي إنّ الحكومة المركزيّة، وفي سبيل رفع هذه الاحتياجات، تقوم في البداية برصد هذه الاحتياجات واستقرائها عن طريق تلك المؤسّسات، ثمّ تبادر إلى العمل من خلال التخطيط الدقيق وتحديد التكاليف واستلام الميزانيّة اللازمة، وتلبّي بعدها جميع احتياجات المحرومين في المجتمع باستخدام الطاقات والأدوات اللازمة والكافية.

بنظرةٍ أولـى، من الواضح ـ حسب الظاهر ـ أنّ أيًّا من هذين الشكلين ليس مقبولاً في الإسلام بشكلٍ مطلق. ومع مزيدٍ من التدقيق يتّضح أنّ روح الإسـلام إنّما تنسجم مع كلا الشكلين ولكن بشكلٍ مدروس ودقيق، ومع اعتماد كلٍّ منهما في مكانه المناسب، والأخذ بعين الاعتبار نسبة مساهمة كلٍّ منهما بالمقدار اللازم. لماذا؟

إنّ الأصل في جميع الأحكام الإسلاميّة وتطبيقها هو أن لا يُنسى فيها المسؤوليّة الفرديّة لكلّ إنسان في مقابل مجتمعه، ولا واجباته الاجتماعيّة في هذا المجال، بل تكون بارزةً وحاضرةً؛ وذلك لأنّ الرشد





الروحي وتكامل الإنسان إلى مراتبه الإنسانيّة العليا، إنّما يُتاح من خلال سلوكيّاته الفرديّة فقط. وبمعنى آخر: فإنّ إغاثة المحرومين في المجتمع هو أحد وجهي المسألة. أمّا الوجه الآخر فهو رشد الإنسان وتكامله الذي ينبغي أن يتحقّق في المجتمع في ظلّ هذه الأمور. هذا النوع من النشاطات الاجتماعيّة هو حلبة سباقٍ للتكامل الروحي عند الأفراد. إذا جعلنا الأعمال بتمامها على عهدة الدولة أو المؤسّسات المتصدّية والقادرة، فنكون من الناحية العمليّة قد حرمنا كثيرًا من أبناء المجتمع من هذه المائدة الإلهيّة الممدودة، وسيُسلَب منهم ميدان العمل والنشاط والرشد والتكامل.

وبناءً عليه، ففي الوقت نفسه الذي يجب فيه إيصال المساعدات لتأمين حاجات المحتاجين وكفايتهم، من المناسب أيضًا أن يستفيد جميع الناس من الفرص الموجودة في المجتمع، فما الذي يفرض أن تتحقّق جميع هذه الأعمال المطلوبة من قناةٍ خاصّة فقط؟ لا بدّ للأفراد أيضًا أن يكونوا شركاء في هذا الأمر المهمّ. طبعًا قد يقال إنّه حتى حينما توكَل هذه الأمور إلى الحكومة والمؤسّسات، فإنّ جميع أفراد المجتمع يكونون شركاء أيضًا في هذه الأمور بشكلٍ غير مباشر؛ وذلك عن طريق دفعهم للضرائب والرسوم وسائر المساعدات القانونيّة والإلزاميّة؛ ولكنّ الضرائب وسائر المدفوعات الإلزاميّة، التي تؤخذ من الناس دون طيب خاطر في أغلب الحالات، لا يمكنها أن تكون أبدًا بديلًا عن النشاطات التطوّعيّة الاختياريّة التي تقام بنيّة التقرّب إلى الله، كما أنّ مثل تلك البرامج ليس لها ذلك التأثير الذي يعتدّ به في بناء الذات والتكامل الروحي عند الإنسان.





ومع الالتفات إلى الأسس العَقَدِيّة الإسلاميّة، فقد يمكننا أن ندّعي أنّ الله تعالى قد جعل كثيرًا من حالات هذا العوز والحرمان، التي هي بالطبع نتيجة أعمال البشر الخاطئة؛ قد جعلها وسيلةً لابتلاء البشر وامتحانهم، حتى يُمتَحن المرء على أثر هذه المشكلات ويصل إلى الكمال في عمليّة سَيره[١]. إنّ هدف الإسلام المقدّس من هذه العمليّة هو بناء الذات وصقلها وتكامل الروحيّة الفرديّة عند كلّ إنسان؛ فكلّ شخصٍ مسؤولٌ عن أعماله، وكل شخصٍ إنّما ينتفع من أعماله بقدر ما عمل[٢]، ولا أحد يتحمّل مسؤوليّة عمل الآخر[٣]، وهذه الأعمال التي يقوم بها الفرد تلبّي يوم القيامة استغاثة صاحبها وتنجيه[٤].

---

(١) لقد هيّأ الخالق المتعال أرضيّاتٍ وفرصًا كثيرة لامتحان البشر؛ من الأولياء الإلهيّين والمؤمنين، إلى أحقر الناس؛ أي الكفّار والمشركين والمنافقين. وكثيرٌ من هذه الميادين والفرص قد بُيّنت في القرآن الكريم جيّدًا وبأشكال متعدّدة. وفي ما يلي نماذج من آيات القرآن الكريم التي تشير إلى هذه الميادين لامتحان الإنسان:
﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ (سورة **الأنبياء**، الآية ٣٥)؛ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ١٦٥)؛ ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ... وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ (سورة **المدثّر**، الآية ٣١)؛ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ (سورة **الأنفال**، الآية ٢٨)؛ ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة **الزمر**، الآية ٤٩)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ (سورة **المائدة**، الآية ٩٤)؛ ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ (سورة **الفرقان**، الآية ٢٠). وكذلك راجع: سورة **المائدة**، الآية ٤٨؛ سورة **البقرة**، الآية ١٢٤؛ سورة **محمّد**، الآية ٤؛ سورة **الفجر**، الآية ١٥؛ سورة **الأحزاب**، الآية ١١؛ سورة **الأنفال**، الآية ١٧؛ سورة **البقرة**، الآية ٤٩؛ سورة **الأعراف**، الآية ١٤١؛ سورة **النحل**، الآية ٩٢، وآيات أخرى...

(٢) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ (سورة **النجم**، الآية ٣٩).

(٣) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ١٦٤).

(٤) ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾ (سورة **مريم**، الآية ٩٥).

ومن جهةٍ أخرى، فالإسلام العزيز لم يتجاهل الواقع، ولم يوكِل أمور الناس فقط إلى بعض الأفعال والمبادرات الفرديّة التي تتحرّك أملًا بالأجر والثواب الأخروي؛ بل أخذ بعين الاعتبار مجموعةً من هذه الطرق مستعملًا كلًّا منها في مكانها المناسب.

لقد اعتمد دين الإسلام المقدّس ما يشبه هذه المسألة في تعامله مع بعض المعاصي والخطايا الكبيرة؛ ومن ذلك مثلًا تعامله مع الفعل المنافي للعفّة، فإلى جانب الإنذارات والتهديدات والتخويف بعذاب جهنّم الأليم، فقد شرّع الإسلام أيضًا أحكامًا فقهيّة وجزائيّة محدّدة حتى تُجرى في مكانها مع مراعاة الشؤون والضوابط الخاصّة بها؛ أي إنّ الإسلام ينبّه إلى قبح هذا الفعل وشناعته، ويخوّف من العذاب الأخروي، وكذلك ففي حال كان ثمّة شهودٌ بما يكفي أو قام المذنب بالإقرار بذنبه، فهو لا ينتظر العذاب الأخروي وإنّما يُجري عليه حكمه في هذه الدنيا ويوصله إلى المجازاة والعقوبة المناسبة. وحتى في مجال إجراء الأحكام وتطبيق الحدود كذلك أمر بأن تكون في الملأ العام وأمام أعين الناس حتى يعتبر الآخرون، وأوصى أيضًا بأن لا تمنع الرأفة والرحمة من إجراء الحكم: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾[1].

وبناءً عليه، فدين الإسلام المقدّس، وعلى أساس هدفه الأعلى بهداية الإنسان وتربيته وإيصاله إلى الكمال؛ قد أخذ بعين الاعتبار جانب الموعظة والأخلاق والتربية ومراعاة المسائل المعنويّة، وأخذ كذلك البُعد السياسي وإدارة أمور المجتمع بوصفها نتيجةٍ لتشريع

---

(١) سورة **النور**، الآية ٢.



القوانين الجزائيّة والحدود والقصاص، وأمر بإجرائها في مقام العمل. ولهذا الغرض شُرّعت مجموعة من الأحكام في باب الحدود والقصاص والديات، فالإسلام بدايةً يريد للأفراد أن يتركوا المعصية بإرادتهم، ثمّ يقوم الدين بتشجيعهم، وإنذارهم، وتبشيرهم، وغير ذلك من الخطوات، حتى يختاروا الطريق الصحيح ويتجنّبوا الطريق القبيح. وفي الوقت نفسه، فمن المعلوم أنّ جميع الناس لا يطيعون في مقام العمل، بل تقع منهم المعاصي والمحرّمات التي لا يكون عددها قليلًا في بعض الأحيان. في هذه الحالات، لا بدّ من إقرار خطواتٍ رادعة حتى تمنع هذه المجموعة وغيرهم، وهذه هي غاية تشريع الحدود.

هذان القسمان من الإسلام؛ أي التربية الفرديّة والقوانين الاجتماعيّة، يكمّل أحدهما الآخر؛ إذ لو لم يكن القسم الثاني، فسينتشر الفساد بعد مدّةٍ في المجتمع بما لا يُبقي أيّ مجالٍ بعدُ للأعمال الفرديّة والتطوّعية، وفي مجتمعٍ كهذا لن يكون ثمّة أملٌ في رشد الفضائل الإنسانيّة، ولا في النوايا الخيّرة والمسائل المعنويّة والتربويّة. مع انطفاء نور الفضائل الإنسانيّة، تتلوّث العائلات شيئًا فشيئًا، فينتجون أولادًا ملوّثين[1]. إنّ إجراء القوانين والحدود الإلهيّة يُعدّ من أكبر النعم الإلهيّة، وهو مليءٌ بالبركات الكثيرة للأفراد وللمجتمع بتمامه. ينقل الإمام الصادقعليه السلام عن جدّه المعظّم النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله روايةً يقول فيها: «إقامة حَدٍّ خَيْرٌ مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا»[2].

---

(١) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ۞ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ (سورة **نوح**، الآيتان ٢٦ - ٢٧).

(٢) عَلِيُّ بن إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّوْفَلِي عَنِ السَّكُونِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِعليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِصلى الله عليه وآله:





السرّ في ذلك هو أنّ إجراء الحدود أمام أنظار الناس، يردعهم عن ارتكاب المفاسد، وهذا ما يؤدّي بالتدريج إلى انتشار السكينة والهناء في المجتمع. ولهذا السبب، فالأشخاص الذين يمنعون إجراء الحدود الإلهيّة في المجتمع ويعتبرونها مضرّة بحال المجتمع الإنساني عاجزون عن إدراك هذه المسائل وفهمها من الأساس. الإسلام لا يقتصر على إجراء الحدود والقصاص حتى يمكن اتّهامه بأنّه أحاديّ النظر وأحاديّ البُعد؛ لقد أمر الإسلام العزيز بدايةً ببناء الذات على الصعيد الاجتماعي، وبمختلف الطرق، وفي حال ظهر التخلّف الاجتماعي فقد أمر بمقاومة ذلك التخلّف وبمواجهة المجرمين.

رأي الإسـلام حول إغاثة الناس المحرومين والمحتاجين في المجتمع هي على هذا النحو أيضًا؛ فالرشد المعنوي لأبناء المجتمع إنّما يكون على أثر إغاثة المحرومين، ولعلّ هذا الأمر من أكثر الأعمال قيمةً في الإسلام، فالاهتمام بالمحرومين والمحتاجين في المجتمع وإغاثتهم له تلك القيمة العالية إلى حدّ أنّ الله تعالى يمدح في القرآن هذا العمل والذين يبادرون إلى القيام به، حيث يقول: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾[1]، فمع أنّهم كانوا جائعين ومحتاجين إلى الطعام، إلا أنّهم آثروا؛ أي قدّموا الآخرين على أنفسهم. كما قال أيضًا: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[2].

«إقامة حَدٍّ خَيْرٌ مِنْ مَطَرِ أَرْبَعِينَ صَبَاحًا» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٧، ص ١٧٤).

(١) سورة **الحشر**، الآية ٩.

(٢) سورة **الإنسان**، الآيتان ٨ - ٩.

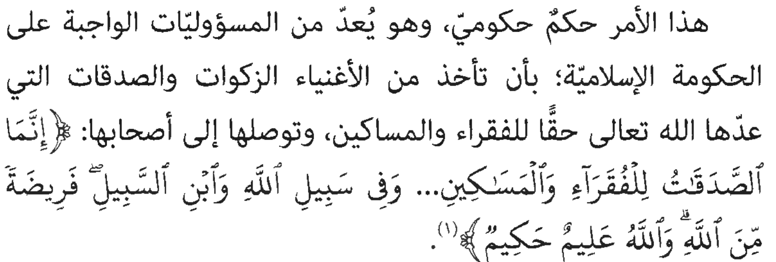


هذه الآية الشريفة قد نزلت في أهل البيت عليهم السلام، فحينما صام هؤلاء العظام لثلاثة أيام، بعد شفاء ولديهما من مرضهما، قدّموا في كلّ يوم من الأيّام الثلاثة، وعند موعد الإفطار تمامًا، طعامَهم القليل الذي كانوا قد أعدّوه للإفطار؛ قدّموه للمحتاجين الجائعين الذين كانوا قد التجأوا إليهم. إذا كان الإنسان مراقبًا لنفسه، فيمكنه أن يستفيد من هذه المائدة التي بسطها الله له ليترقّى من خلال مساعدة المحتاجين إلى هذه المرتبة، ويصل إلى هذا الحدّ الذي يمدحه الله عليه في القرآن.

مع الأسف، ففي أيّامنا هذه نجد المحتاجين لا في بعض النواحي والأمكنة النائية؛ بل نجد في قلب مجتمعنا الإنساني ملايين البشر الذين يتضوّرون جوعًا وحياتهم في معرض الخطر، وفي المقابل نجد الأغنياء الذين قد ضيّعوا حقوقهم ويتحمّلون المسؤوليّة المباشرة عن جوعهم؛ نجدهم لا يعيرونهم أدنى اهتمام! في مثل هذا الجوّ، تُوجّه مدرسة الإسلام المفعمة بالحياة أمرها إلى المسؤولين في المجتمع الإسلامي والمتولّين لأموره، حتى يأخذوا من الأغنياء والطبقات الميسورة، وليعطوا لتلك الفئة من المحرومين والمحتاجين في المجتمع، وبهذا يشبع الجائعون وترتفع حاجات المحتاجين، وفي الوقت نفسه تتطهّر أجسام أصحاب الأموال وأرواحهم بدفعهم للصدقة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ١٠٣.



هذا الأمر حكمٌ حكوميّ، وهو يُعدّ من المسؤوليّات الواجبة على الحكومة الإسلاميّة؛ بأن تأخذ من الأغنياء الزكوات والصدقات التي عدّها الله تعالى حقًّا للفقراء والمساكين، وتوصلها إلى أصحابها: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ... وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾[1].

وفي الوقت نفسه، فالأصل هو أن يبادر الأفراد إلى أفعال الخير بشكلٍ تطوّعي ليحظوا بآثارها وبركاتها المعنويّة، مضافًا إلى آثارها وبركاتها الاجتماعيّة.

هذه هي حالة التوازن التي تؤدّي إلى النظم والانتظام الاجتماعي، إلى جانب الرشد والارتقاء المعنوي، والمجتمع الإنساني المثالي الذي يسعى الإسلام إلى تحقّقه، والذي يذكر القرآن أنّه سيُشاد على يدي حضرة إمامنا وليّ العصر عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ مجتمع متوازن: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ﴾[2].

هذا المجتمع المترقّي والفاضل الذي يقع تحت حكم الصالحين، لا يُتوقّع منه إلا الاعتقاد بوحدانيّة الله والبعد عن الخوف والاضطراب واستبدال الأمن والطمأنينة بهما. هذا المجتمع يبتني على تربية الإنسان بشكلٍ صحيح، والتربية الصحيحة لا بدّ لها من أرضيّة خاصّة؛ وهي الهدوء وراحة البال عند أفراد المجتمع. ولهذا السبب، فالمجتمع

---

(١) سورة **التوبة**، الآية ٦٠.

(٢) سورة **النور**، الآية ٥٥.





الذي تُدار فيه جميع الأبعاد على أساس التعاليم والقيم الإسلاميّة، تتهيّأ فيه البيئة المناسبة لتفتّح جميع أبعاد الإنسان الكماليّة.

وقد ذُكر أنّ الإسلام يرى أنّه، مضافًا إلى المشاريع والبرامج العامّة الحكوميّة، لا بدّ للأفراد كذلك من أن يكونوا فاعلين حتى يصلوا إلى الرشد والكمال اللازم، وأنّ وجود أيّ شخصٍ لا ينبغي أن يكون ذريعةً لعدم حضور الآخر.

النوع الثالث من النشاطات الاجتماعية التي يمكن تصوّرها، والتي تُنفّذ ـ بحمد الله ـ في مجتمعاتنا الدينيّة منذ سنواتٍ أيضًا؛ هي أنّ بعض أبناء المجتمع يتجمّعون ضمن جمعياتٍ ومنظّماتٍ غير حكوميّة ويقومون بمجموعةٍ من الخطوات الاجتماعيّة من أجل إغاثة المحرومين في المجتمع؛ من قبيل الأيتام، والفقراء، والعوائل التي لا معيل لها، والشباب المقبلين على الزواج، والتلاميذ والطلبة الجامعيّين المشغولين بالتحصيل الدراسي...[١] هذا النوع من الإعانات يشكّل بدوره قسمًا من النشاطات والخطوات التي يريدها الإسلام إلى جانب النوعين المذكورين سابقًا.

لقد كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام على هذا النحو أيضًا، فهؤلاء العظام حتّى في زمان بسط يدهم وتصدّيهم الفعلي للأمور الحكوميّة، ومع أنّهم كانوا يعتقدون بأنّ إحدى واجباتهم

---

(١) هذه التشكيلات غير الحكوميّة، من قبيل الهيئات الدينيّة والجمعيّات الخيريّة ولجان المساعدات؛ لها ما يشبهها في تاريخ العالم الإسلامي، وبخاصّة إيران، حيث كان هذا الأمر رائجًا ومتداولًا بين المتديّنين. وقد أسّس آية الله الشيخ مرتضى الحائري رحمه الله تشكيلاتٍ لمساعدة الأيتام والشباب الباحثين عن العمل أو المقبلين على الزواج، وسائر المحتاجين في المجتمع.

الحكوميّة هي إغاثة المحرومين في المجتمع وتأمين احتياجاتهم وكانوا يعملون على هذا الأســاس؛ مع ذلك كانوا لا يتخلّون عن مبادراتهم إلى إغاثة المحرومين في المجتمع وإيصال مساعداتهم الشخصيّة لهم؛ بل كانوا يشجّعون على ذلك الأمر أيضًا[١].

ثمّ يذكر الإمام زين العابدين عليه السلام العبارة التالية: «**نُطَهِّرَهَا بِإِخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ...**»؛ أي وفّقنا لكي نطهّر أموالنا من خلال أداء واجباتنا الماليّة واعانة المحتاجين. لقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم مرتبةً أعلى من هذه؛ فقد أمر تعالى نبيّه الكريم بأن يطهّر أرواح الناس بإخراج الأموال ومساعدة الفقراء والمحتاجين؛ أي إنّ أرواحنا وأموالنا ملوّثة قبل دفع الحقوق الواجبة التي تعلّقت بأموالنا: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[٢].

---

(١) في الحياة الشريفة لرسول الله صلى الله عليه وآله حتى قبل بعثته المباركة، وفي سيرة أهل البيت عليهم السلام شواهد صريحة على هذا المدّعى؛ فعندما تسلّم أمير المؤمنين عليه السلام في الكوفة أمر ولاية الأمّة وقيادتها، وحمل مسؤوليّة الأمّة الإسلاميّة على عاتقه، كان مضافًا إلى قراراته الحكوميّة التي تخدم المحرومين التي كان ينفّذها بيده مباشرةً أو عبر عمّاله في جسم الدولة؛ كان عليه السلام مشغولًا في الليل والنهار بالتفكير بالمحرومين، وكان يعينهم دون أن يعرفوه أو مع معرفتهم به أحيانًا. وقد نُقل في العديد من الكتب التاريخيّة أنّ أبناء الأئمّة المعصومين عليهم السلام وأصحابهم وأنصارهم، كانوا يشاهدون بعد شهادة الأئمّة وحين تكفينهم ودفنهم علامات على أكتافهم وحول أعناقهم، وعندما يسألون الإمام عليه السلام عن سبب ذلك كان يجيبهم بأنّ هذه العلامات من أثر جراب الخبز والطعام التي كان يحملها أبي للمحتاجين في جوف الليالي. وقد نُقل حول بعض المعصومين عليهم السلام أنّهم قاموا، ولمرّات عدّة على امتداد عمرهم، بتقسيم جميع أموالهم بين الفقراء. هذه الخطوات بهذا الشكل تُعدّ من نوع المبادرات الفرديّة التي كان هؤلاء المعصومون العظام عليهم السلام يقومون بها لإرضاء الله تعالى والتقرّب منه عزّ وجلّ، وهذا ما كانوا يوصون الآخرين به أيضًا.

(٢) سورة **التوبة**، الآية ١٠٣.



إنّ السبيل لتطهيرنا ونجاتنا نحن وأموالنا من هذا التلوّث؛ إنّما هو أداء هذه الواجبات الماليّة ودفع الحقوق إلى المستحقّين الذين جعل الله لهم حقوقًا في أموالنا؛ وبتعبيرٍ آخر: فالإنسان لن يجد طريقًا للبرّ والإحسان ولن يصير إنسانًا صالحًا حتى ينفق لغيره ما تعلّق به قلبه وأحبّه: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[1].

أحكام الإسلام المبين ليست من أجل تجنّب النقمة الاجتماعيّة على الحكّام أو تمضية الحياة الدنيويّة بشكلٍ أفضل فقط؛ وإنّما الرشد المعنوي والروحي لأفراد المجتمع هو الذي يحتلّ في الإسلام أهمّيةً أكبر من سائر الأمــور. إذا تحقّق هذا الهدف المتعالي، فستُحلّ المشاكل الاجتماعيّة وتنتظم الأحوال وتتأمّن حقوق الفقراء والمحتاجين، كما سيعمّ الطمأنينة والرضا على جميع الأفراد، والعوائل، والمجتمع بشكلٍ عام. وفي ظلّ هذه الأجواء من السكينة والطمأنينة يحكم الحكّام أيضًا بشكلٍ أفضل دون أن يواجهوا اضطرابات ومشاكل. جميع هذه الأمور تحتلّ الدرجة الثانية بالنسبة إلى الإسلام؛ وذلك لأنّ ما له الأصالة في الإسلام وما يتّصف بأهمّية تفوق أهمّية سائر الأمور؛ إنّما هو روح الإنسان وحياته الأخرويّة. وبناءً عليه، فإنّ جميع جهود الأفراد والجهود الحكوميّة في المجتمع الإسلامي، هي لتهيئة الأرضيّة المناسبة لكي يعمل الأفراد بواجباتهم الإسلاميّة.

الدولة والحكومة الناجحة في نظر الإسلام هي الحكومة التي لها ميزتان مهمّتان: الأولى أن تكون حاملةً لهمّ الدين، والثانية أن تكون من الناس وتحمل همّ الناس. نحن المسلمين جميعًا مكلّفون بإقامة

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ٩٢.



حكومة كهذه، وطبعًا فإلى جانب هذه الحكومة، على المسلمين أن يعملوا بواجباتهم الفرديّة تجاه المحرومين في المجتمع، وأن يساعدوهم قربةً إلى الله تعالى وفي سبيل رشدهم المعنويّ والروحيّ.



الجلسة الخامسة عشرة:

أخلاق المعاشرة الاجتماعيّة في الإسلام





«وَأَنْ نُرَاجِعَ مَنْ هَاجَرَنَا، وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنَا، وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا حَاشَى مَنْ عُودِيَ فِيكَ وَلَكَ، فَإِنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذِي لا نُوَالِيهِ، وَالْحِزبُ[1] الَّذِي لا نُصَافِيه»

أخلاق المعاشرة الاجتماعيّة في الإسلام

في تتمّة طلباته من الله تعالى، نجد الإمام زين العابدين عليه السلام في هذا القسم من الدعاء يطلب من الله تعالى أن يوفّقه للمعاشرة الحسنة والمعاملة الجميلة مع سائر أفراد المجتمع. معاشرة الناس في المجتمع مسألة في غاية الأهمّية، وقد أولاها الدين الإسلامي أهمّية كبيرة، كما أنّ عددًا كبيرًا من آيات القرآن الكريم، وقسمًا أكبر من روايات الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام يختصّ بهذه المسألة، وقد ذُكر فيها طرقٌ مناسبة ولطيفة في معاشرة الناس. هذا، وقد خصّصت المصادر الروائيّة عند الشيعة، قسمًا مستقلًّا تحت

(١) هكذا وردت في نسخ الصحيفة السجّاديّة، ولكن قد يكون الصحيح هو «الحَرْب»؛ أي العدوّ الحربي.





عنوان «كتاب العشرة»، كما أُلّفت مجلّدات متعدّدة حول هذا الأمر الهامّ في بعض المصادر الأخرى[١].

بدوره يشير الإمام السجّادعليه السلام إلى هذه الأمور في كتابه الشريف والقيّم **الصحيفة السجّاديّة**، حيث يورد في طيّات الدعاء والمناجاة عباراتٍ جميلة ملؤها الحكمة؛ ومن جملة تلك العبارات قولهعليه السلام في المحضر الإلهي: «**وَأَنْ نُرَاجِعَ مَنْ هَاجَرَنَا، وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنَا، وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا حَاشَى مَنْ عُودِيَ فِيكَ وَلَكَ، فَإِنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذِي لا نُوَالِيهِ، وَالْحِزبُ الَّذِي لا نُصَافِيه**».

جميعنا يعلم جيّدًا أنّ السلوك اللطيف مع الآخرين، حُسن الخلق، وحُسن المعاملة، وخدمة الناس ومحبّتهم؛ هي من جملة أفعال الخير والأعمال الصالحة التي هي مطلوبةٌ ومرضيّةٌ عند الله تعالى. والأحسن من ذلك هو أن يشتغل الجميع بتلك الأمور في جميع الأحوال وعلى امتداد العام، وبخاصّة في شهر رمضان المبارك. الوجه الآخر للمسألة هو عندما نواجه سلوكًا سلبيًّا من أحد الأشخاص، فكيف تكون ردّة فعلنا تجاه ذلك، وكيف ينبغي أن نتعامل معه في مثل هذه الحالة؟

يذكر الإمام السجّادعليه السلام هنا نماذج من أفضل طرق التعامل مع مثل هذه الحالات، ويطلب من الله تعالى التوفيق للقيام بها. ومن بين أهمّ الأمور وأهمّ واجبات الإنسان الاجتماعيّة التي ورد التأكيد

---

(١) هذه المباحث الأخلاقيّة والتربوية يُعثَر عليها بشكلٍ وافر في المصادر الروائيّة المعتبرة عند الشيعة: من قبيل كتاب **الكافي** الشريف للمرحوم محمّد بن يعقوب الكلينيرحمه الله، الجزء الثاني، كتاب العِشرة وكتاب زيارة الإخوان، وكتاب **بحار الأنوار** الشريف للمرحوم محمّد باقر المجلسيرحمه الله، الجزء ٧١، كتاب العِشرة، والجزء ٧١ من كتاب «الآداب والسنن»، وفي سائر الكتب الروائيّة مثل **تحف العقول** و**مكارم الأخلاق** و**نهج البلاغة**...



عليها في نظام القيم في الإسلام وفي الأحكام الفقهيّة: إقامة العلاقات الأخويّة بين المؤمنين. وبطبيعة الحال فالمؤمنون الذين يكون بينهم تواصل أكثر، لأيّ سببٍ من الأسباب؛ معنيّون أكثر من غيرهم بهذه التأكيدات الأخلاقيّة والقيم والأحكام الفقهيّة؛ تلك التأكيدات والتوصيات الكثيرة من قبيل إلقاء السلام، وردّ السلام، والمصافحة، والمعانقة، ونداء الآخرين بالألقاب والكنى، وتبادل الزيارات واللقاءات، وبذل المحبّة للآخرين؛ هذه الموارد لها قيمتها الأخلاقيّة، وبعضها، من قبيل ردّ السلام، قد ذُكر له أحكامٌ فقهيّة أيضًا. ففي الرواية عَنْ إِسْحَاقَ بن عَمَّارٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام ـ في حَدِيثٍ ـ أَنَّهُ قَالَ لَهُ: «لَا تَمَلَّ مِنْ زِيَارَةِ إِخْوَانِكَ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا لَقِيَ أَخَاهُ فَقَالَ لَهُ مَرْحَبًا كُتِبَ لَهُ مَرْحَبًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِذَا صَافَحَهُ أَنْزَلَ اللَّهُ فِيمَا بَيْنَ إِبْهَامِهِمَا مِائَةَ رَحْمَةٍ؛ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ مِنْهَا لِأَشَدِّهِمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ، ثُمَّ أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا بِوَجْهِهِ فَكَانَ عَلَى أَشَدِّهِمَا حُبًّا لِصَاحِبِهِ أَشَدَّ إِقْبَالًا، فَإِذَا تَعَانَقَا غَمَرَتْهُمَا الرَّحْمَةُ»[1].

---

(١) محمد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١٢، ص ٢٣٢. وقد نُقل في المصادر الروائيّة الشيعيّة رواياتٌ كثيرٌ بهذه المضامين مرويّة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام، من قبيل الرواية التالية: «قال أبو عبد الله عليه السلام: إنّ المؤمنَين يلتقيان فيتصافحان فلا يزال الله تعالى مقبلًا عليهما والذنوب تتحاتّ عنهما حتى يفترقا وينزل الله عليهما مائة رحمة؛ تسعٌ وتسعون لأشدّهما حبًّا لصاحبه، وافترقا من غير ذنب» (أبو محمّد الحسن الديلمي، **أعلام الدين**، ص ٤٣٩). وعَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ قَالَ: «كُنْتُ زَمِيلَ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام، وَكُنْتُ أَبْدَأُ بِالرُّكُوبِ ثُمَّ يَرْكَبُ هُوَ عليه السلام. فَإِذَا اسْتَوَيْنَا سَلَّمَ عليه السلام وَسَاءَلَ مُسَاءَلَةَ رَجُلٍ لَا عَهْدَ لَهُ بِصَاحِبِهِ وَصَافَحَ. قَالَ: وَكَانَ عليه السلام إِذَا نَزَلَ نَزَلَ قَبْلِي فَإِذَا اسْتَوَيْتُ أَنَا وَهُوَ عَلَى الْأَرْضِ سَلَّمَ وَسَاءَلَ مُسَاءَلَةَ مَنْ لَا عَهْدَ لَهُ بِصَاحِبِهِ. فَقُلْتُ: يَا ابن رَسُولِ اللَّهِ! إِنَّكَ لَتَفْعَلُ شَيْئًا مَا يَفْعَلُهُ أَحَدٌ مِنْ قِبَلِنَا، وَإِنْ فَعَلَ مَرَّةً فَكَثِيرٌ؟ فَقَالَ عليه السلام: أَمَا عَلِمْتَ مَا فِي الْمُصفاحة؟ إِنَّ الْمُؤْمِنَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيُصَافِحُ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَلَا تَزَالُ الذُّنُوبُ تَتَحَاتُّ عَنْهُمَا كَمَا يَتَحَاتُّ الْوَرَقُ عَنِ الشَّجَرِ وَاللَّهُ يَنْظُرُ إِلَيْهِمَا حَتَّى يَفْتَرِقَا» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق





طبعًا فمقصود الإمام الصادق عليه السلام هو الصحبة التي تكون لرضا الله عزّ وجلّ، لا الصحبة التي تكون لمجرّد أغراضٍ دنيويّةٍ ومادّيّةٍ. هذه العبارات، التي لها نماذج كثيرة في الروايات، تُعدّ أفضل بشارة وأكثر طريقةٍ مؤثّرةٍ في تحفيز الأفراد لإقامة العلاقات الطيّبة مع سائر أفراد المجتمع الإنساني.

وفي روايةٍ أخرى عن ذلك الإمام العظيم حول زيارة إخوة الإيمان يُنقل ما يلي: «عَنْ جَابِرٍ عَن أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قَالَ: إِنَّ مَلَكًا مَرَّ بِرَجُلٍ عَلَى بَابٍ فَقَالَ لَهُ: مَا يُقِيمُكَ عَلَى بَابِ هَذِهِ الدَّارِ؟ فَقَالَ: أَخٌ لِي فِيهَا أَرَدْتُ أَنْ أُسَلِّمَ عَلَيْهِ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ أَوْ نَزَعَتْكَ إِلَيْهِ حَاجَةٌ؟ فَقَالَ: لَا، مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ قَرَابَةٌ وَلَا نَزَعَتْنِي إِلَيْهِ حَاجَةٌ إِلَّا أُخُوَّةُ الْإِسْلَامِ وَحُرْمَتُهُ، فَأَنَا أُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَأَتَعَهَّدُهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. فَقَالَ لَهُ الْمَلَكُ: أَنَا رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ وَهُوَ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكَ: إِيَّايَ زُرْتَ وَلِي تَعَاهَدْتَ، وَقَدْ أَوْجَبْتُ لَكَ الْجَنَّةَ وَأَعْفَيْتُكَ مِنْ غَضَبِي وَأَجَرْتُكَ مِنَ النَّارِ»[1].

وفي تعبيرٍ آخر منقول عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أنّ ضيف المؤمن وزائره هو ضيف الله وزائره، وأنّ أجره وثوابه في عهدته أيضًا: عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: «مَنْ زَارَ أَخَاهُ فِي بَيْتِهِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ: أَنْتَ ضَيْفِي وَزَائِرِي، عَلَيَّ قِرَاكَ وَقَدْ أَوْجَبْتُ لَكَ الْجَنَّةَ بِحُبِّكَ إِيَّاهُ»[2].

الكليني الرازي، **أصول الكافي**، ج ٢، ص ١٧٩).

(١) محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١٢، ص ٥٧.

(٢) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **أصول الكافي**، ج ٢، ص ١٧٦.



هذه القيم المذكورة في هذه التعابير الحكيمة، والتي قد نُقلت عن قول هؤلاء المعصومين: الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام: جميعها تتمحور حول الحبّ والبغض الإلهي؛ أي إذا كان اختيار الصديق والأخ وتبادل الزيارات واللقاءات معه ضمن إطار رضا الله تعالى، فسيكون له ذلك الأجر الكبير وتلك المرتبة الرفيعة، وسيكون له بالغ التأثير في تكامل الإنسان ورشده الروحي، إذ إنّ القيام والقعود والتواصل مع مثل هذا الإنسان المؤمن يوصل الإنسان إلى ذكر الله ويؤدّي إلى رشده الروحي وقربه من الباري عزّ وجلّ، والله تعالى يتمّم هذا العمل ويقبله ويمنح صاحبه الأجر الأعظم. أمّا في غير هذه الحالة فلن يكون لذلك قيمة عند الله تعالى، كما لن يكون له تأثيره الإيجابي عند الإنسان.

ومن جهةٍ أخرى، فالأفراد في المجتمع يمتلكون خصالًا وسلوكيّاتٍ مختلفة ومتنوّعة، وليسوا جميعًا أناسًا صالحين وذوي فضيلة وتربية حسنة. حتى المتربّون بالتربية الحسنة قد يخطئون أحيانًا وتؤثّر فيهم الوساوس الشيطانيّة المقرونة بالأهواء النفسانيّة، فتصدر منهم بعض الخطايا ويُقدمون على أعمالٍ غير مناسبة، قد يتسبّب بعضها بإيجاد أجواءٍ من الضغينة والبغضاء بين الأفراد.

كثيرٌ من الإرشادات والتوصيات الأخلاقيّة في الإسلام إنّما هي لأجل تجنّب الخلافات العميقة والضغائن بين الناس. ينقل الإمام الصادق عليه السلام عن آبائه وأجداده الطاهرين عليهم السلام الذين نقلوا بدورهم عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم في ما يُعرَف بحديث المناهي قوله: «وَنَهَى عَنِ





الْهِجْرَانِ. فَمَنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلًا، فَلَا يهْجُرُ أَخَاهُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيامٍ. فَمَنْ كَانَ هَاجِرًا لِأَخِيهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ»[1].

عندما يقع الاختلاف بين شخصين، فمن الطبيعي أنّ كلًّا منهما يدّعي أنّه على حقّ وأنّ الآخر هو المخطئ، وهذا النوع من الاختلافات ينجرّ أحيانًا إلى البغضاء والنفور ويتسبّب بالزعل وبابتعاد كلٍّ منهما عن الآخر. في هذه العبارة الحكيمة والتربويّة، يشجّع الرسول الأكرمﷺ المؤمنين على ترك هذا الفعل، وحتى في الحالات التي لا بدّ فيها من ذلك، فقد طرحﷺ حلًّا مناسبًا وذمّ المتجاوز عن هذا السبيل، واعتبر أنّ نار جهنّم أولى به. وحتى قد ذُكر أنّ الطرف الذي يسبق الآخر في الصلح وحلّ المشكلة، فسيعطيه الله تعالى أجرًا معنويًّا أكبر من أجر صاحبه. هذه الإرشادات، وهذا التشجيع والحثّ المقرون بالتوعّد بالعذاب الإلهي على من يخالفه، يدفع المؤمنين إلى أن يبحثوا عن حلولٍ لمشاكلهم؛ تلك الحلول من قبيل التحاكم إلى شخصٍ من أهل الحلّ والعقد، التصالح والعفو، أو الترافع ـ في حال اللزوم ـ إلى المحكمة أو الجهات التي لها الصلاحيّة.

نماذج كثيرة من سيرة الأئمّة المعصومينعليهم السلام قد نُقلت إلينا حول تشجيع المؤمنين وحثّهم على الصداقة والأخوّة في ما بينهم، وعلى

---

(١) عَنِ الْحُسَيْنِ بن زَيْد عَنِ الصَّادِقِ عَنْ آبَائِه عليهم السلام عَنْ رَسُولِ اللهﷺ فِي حَدِيثِ الْمَنَاهِي، قَالَ: «وَنَهَى عَنِ الْهِجْرَانِ. فَمَنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلًا، فَلَا يهْجُرُ أَخَاهُ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثَةِ أَيامٍ. فَمَنْ كَانَ هَاجِرًا لِأَخِيهِ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كَانَتِ النَّارُ أَوْلَى بِهِ» (أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٤، ص ١١؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٧، ص ١٨٨؛ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١٢، ص ٢٦٢).



إصلاح الاختلافات ورفع الضغائن بينهم. ينقل المفضّل بن عمر أحد أصحاب الإمام الصادقعليه السلام أنّ الإمام قال له: «إذا رأيت بين اثنين من شيعتنا منازعة فافتدها من مالي»، كما ينقل ابن سنان، عن سعيد بن بيان قال: «مرّ بنا المفضّل وأنا وختني[١] نتشاجر في ميراث، فوقف علينا ساعة، ثمّ قال لنا: «تعالوا إلى المنزل»، فأتيناه فأصلح بيننا بأربعمائة درهم فدفعها إلينا من عنده، حتى إذا استوثق كلّ واحد منّا من صاحبه، قال: «أما إنّها ليست من مالي ولكنْ أبو عبد اللهعليه السلام أمرني إذا تنازع رجلان من أصحابنا في شيء أن أصلح بينهما وأفتديها من ماله، فهذا من مال أبي عبد اللهعليه السلام»[٢].

على المسؤولين ومن يعنيهم أمر المجتمع أن يفكّروا بتدابير يعملون بها في مثل هذه الحالات، وأن يرشدوا ويساعدوا مثل هؤلاء الأفراد. وهذا التدبير الذي وضعه الإمام الصادقعليه السلام لمثل هذه الحالات، أي الإنفاق من المال العام لرفع الخصومات والاختلافات، وصرف التكاليف الماليّة والماديّة لتقوية الأبعاد المعنويّة، الأخلاقيّة، والتربويّة في المجتمع؛ يُعدّ من أفضل طرق إدارة المجتمع.

أحيانًا قد يصل الاختلاف بين الأفراد والجماعات إلى أكثر من هذا، وكما يقال: يتطوّر الاختلاف إلى حدّ يصبح الحلّ معه في غاية الصعوبة، كأن يأخذوا مال أحدٍ ما ـ على سبيل المثال ـ أو يوجّهوا له الإهانة بما يؤدّي في النهاية إلى ضرب الآخرين وجرحهم وظلمهم. في مثل هذه الحالات التي لا يقتصر الاختلاف فيها على سوء التفاهم

---

(١) الختن: زوج بنت الرجل وزوج أخته، أو كلّ من كان من قبل المرأة.

(٢) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، أصول الكافي، ج٢، ص٢٠٩.

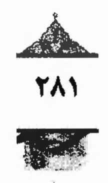


والاختلاف اللفظي وما شابه، ما الذي ينبغي فعله؟ صحيحٌ أنّ العفو والتسامح مطلوبٌ ومستحسنٌ جدًّا، ولكن هل ينبغي العمل به في جميع الحالات؟ كما يُنقل عن النبي عيسى عليه السلام ـ مع أنّنا لا نعلم صحّة هذه النسبة من بطلانها ـ أنّه قال لحوارييه وأنصاره: «من ضربك على خدّك الأيمن فأدِرْ له الأيسر».

أو من جهةٍ أخرى، في الحالات التي يُظلَم فيها شخصٌ ما ظلمًا جسمانيًّا أو ماليًّا أو معنويًّا، هل ينبغي أن يُطبَّق حكم القصاص دائمًا؟ نعم؛ الحكم الفقهي والقانوني في هذه الحالات واضح، ولكنّ السؤال عن حكم الإسلام الأخلاقي والتربوي في هذه الحالات ما هو؟

هذه الحالات تُعدّ من المجالات التي قليلًا ما التفت إليها الباحثون والعلماء المسلمون وكشفوا عن الجوانب المستورة فيها، ولذا فما زلنا نجد فيها تعقيداتٍ كثيرة. فحقيقةً نسأل، ما هي الحالات التي ينبغي فيها للمرء أن يعفو ويتجاوز عن حقّه، وما هي الحالات التي لا يكون العفو فيها مستحسنًا؟ من هم الذين يستحقّون الرأفة والرحمة، ومن هم الأفراد والجماعات الذين ينبغي أن يُتعامل معهم بالشدّة؟ هذه الحالات ومئات الحالات الأخرى المشابهة تُعدّ مواضيع خام لم تُبحث بعد، وهي تتطلّب تركيز الباحثين والمحقّقين على هذه المجالات أكثر من أيّ وقتٍ مضى.

على أنّ ثمّة بعض الحالات التي قد حُدّد لها أحكامها القانونيّة والفقهيّة، بل الأخلاقيّة، ومن ذلك مثلًا أنّهم قالوا إنّ الذي يقع عليه الظلم له الحقّ في الجهر وإعلان الظلم والتظلّم والشكوى: ﴿لَّا يُحِبُّ



ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ﴾[١]، أو كما قال تعالى: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٢]، وكذلك قال ﷺ: «مَنْ قُتِلَ دُونَ مَظْلِمَتِهِ فَهُوَ شَهِيد»[٣].

والملفت أنّه ﷺ لم يقل إنّ الذي يُقتل في سبيل الدفاع عن حقّه (أرضه أو ماله أو عرضه) له أجر الشهيد؛ بل قال «هو شهيد».

وفي الجملة يمكن الاستفادة من بعض الإطلاقات الواردة في الآيات والروايات؛ من قبيل قوله تعالى: ﴿لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾[٤]، يمكن استفادة جواز مثل هذا التظلّم والترافع واستحسانه؛ وذلك لأنّ دين الإسلام لا يرضى بوقوع المسلمين تحت الظلم، وإنّما يرضى بالتظلّم والانتقام والقصاص، ويعتبر ذلك حقًّا لصاحب الحقّ.

يعتبر الإسلام أنّ السكوت عن الظلم غير جائز، وبخاصّة إذا كان لهذا الظلم جانبًا اجتماعيًّا ودينيًّا، فحينها يكون الدفاع والوقوف بوجهه بشدّة وقوّة أوجب وآكد، ولا معنى للعفو والتسامح في هذه الموارد من الأساس.

ومضافًا إلى ذلك كلّه، فالشدّة والحدّة الموجودة في مثل هذه الأحكام، ومراعاة الحدود وعدم تجاوزها؛ يُعدّان أصلًا مهمًّا في الإسلام

---

(١) سورة **النساء**، الآية ١٤٨.

(٢) سورة **الشورى**، الآية ٤١.

(٣) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٥، باب «من قُتل دون مظلمته»، ص ٥٢.

(٤) سورة **البقرة**، الآية ٢٧٩.



لا يمكن التغاضي عنه. إنّ تخطّي الحدود والضوابط، حتى في مقام المقابلة بالمثل والانتقام من ألدّ الأعـداء، ممنوعٌ في الإسلام، وهو مرفوض من أيّ شخصٍ كان: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ﴾[١].

ثمّ إنّ للحدود، والتعزيرات، والقصاص؛ حدودًا وضوابط مشخّصة ومحدّدة في الإسلام، كما أنّ فلسفة تعيين هذه القوانين والضوابط تكمن في إجراء القسط والعدالة، والحيلولة دون الظلم والتعدّي؛ إذ بعد إجراء هذه القوانين والضوابط لا ينبغي أن يُرتكب الظلم والتعدّي[٢]. إحدى مؤشّرات التديّن والتقوى الإلهيّة تظهر من خلال عمل الإنسان في هذه الحالات، فعندما لا نتجاوز الحقوق التي عيّنها الله تعالى في مقام إجراء القوانين وأخذ الحقوق، وعندما نعمل ضمن حدّ الإسلام تمامًا؛ نكون متّقين ومتديّنين بواقع الأمر، وبخاصّة إذا لم يكن الواحد منّا بحالته العاديّة؛ بل كانت قد استولت عليه حالة من الغضب والانفعال. في مثل هذه الحالات، فإنّ ضبط النفس والالتزام بالعمل ضمن إطار الضوابط الشرعيّة لا يمكن أن يتمّ إلا مع مَن بات التديّن والتقوى ملكةً نفسانيّة عنده، وهذه قصّة أمير المؤمنين عليه السلام المعروفة في ضبطه لغضبه في معركة الخندق بعدما قابل أشدّ أعداء الدين في أشدّ اللحظات حساسيةً ومصيريّة، في ذلك اليوم الذي برز فيه الإسلام والإيمان كلّه إلى الشرك والكفر كلّه، فسيطر عليه السلام على

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٨.

(٢) ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ (سورة **المائدة**، الآية ٤٥).



غضبه وسخطه، وبتقييده للنفس أوجد تلك المفخرة والعزّ الذي قال عنه النبيّ الأكرم ﷺ إنّه أفضل من عبادة جميع الجنّ والإنس من أوّل الخلق إلى يوم القيامة، بل حتى لا يمكن مقارنته به[١].

ولأهمّية هذا الأمر، نجد الإمام السجّاد عليه السلام في هذا الدعاء يسأل الله تعالى أن يوفّقه لإنهاء الخصومات والضغائن ولمصالحة الآخرين. وكذلك يطلب التوفيق للتعامل المقرون بالعفو والتغاضي بدلًا من الانتقام والمقابلة بالمثل لمن ظلمنا: إلهي إنْ كان في قلب أحدٍ ما غلٌّ تجاهنا وكان قد أعرض عنّا لخصومة بيننا وبينه، نتيجةً لسوء تفاهم أو لأيّ سببٍ آخر؛ فوفّقنا لكي نبادره في المقابل بالمصالحة ونقابله بالبِشر والوجه الحسن. وإنْ كان قد ظلَمَنا، فوفّقنا حتى ننصفه في المقابل ونتعامل معه بالعدل.

ليس الذكاء في أن نقابل هـذا النحو من الأفعال الذميمة بأفعالٍ مثلها؛ فهذه الأفعال إنّما تصدر من الإنسان العاجز؛ ولكنّ الذكاء عندما يقتدي الإنسان المؤمن بمثل النبيّ الأكرم ﷺ والأئمّة المعصومين عليهم السلام عندما يتجاوز بكلّ كرمٍ وشهامة عن هذه الأحداث والمنازعات فيجبرها بالصلح وحسن الصلة؛ وكذلك يتناسى المظالم

---

(١) وجاءَ فِي الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ذَلِكَ الْيَوْمَ حِينَ بَرَزَ إِلَيْهِ: «بَرَزَ الْإِيمَانُ كُلُّهُ إِلَى الشِّرْكِ كُلِّهِ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٣٩، ص ٣). وكذلك رُوي أنّ النبيّ ﷺ قال: «لضربة عليٍّ لعمرو بن عبد ودّ أفضل من عمل أمّتي إلى يوم القيامة». وفي حديث آخر: «لضربة عليّ يوم الخندق أفضل من عبادة الثقلين». وكذلك قال النبي ﷺ لما برز مولانا عليٌّ عليه السلام إليه: بَرَز الإسلام كلّه إلى الكفر كلّه (ابن طاووس، **إقبال الأعمال**، ص ٤٦٧).





بالعفو والتغاضي. وإن كان لا بدّ في بعض الحالات من المقابلة بالمثل والانتقام والقصاص، فلا يفعل ذلك إلا بالعدل والإنصاف.

هذا النحو من التعاطي مع الأشخاص الذين ظلمونا أو أعرضوا عنّا، مضافًا إلى أنّه لا يتسبّب بصَغارنا ولا بالانتقاص من شأننا، فهو خَصلة عظيمة عند رجالٍ ونساءٍ ذوي أرواحٍ راقية وسماويّة، أدّى تعاملهم الحسن والمميّز إلى أن تشرق أسماؤهم المباركة على تاريخ البشريّة وتنوّر ظلامه الدامس. هؤلاء الأطهار كانوا دائمًا، وبخاصّة عندما يصير لهم يدٌ على قومٍ أو ملّةٍ ما؛ كانوا يقدّرون هذه النعمة الإلهيّة ويبادرون إلى شكرها بالعفو والتجاوز، كما كان دأبهم على الدوام وبشكلٍ أبرز في تلك الأحوال[1].

في تعبيره الرائع حول كيفيّة التعامل مع العدوّ يوصي أمير المؤمنين عليه السلام فيقول: «إِذَا قَدَرْتَ عَلَى عَدُوِّكَ فَاجْعَلِ الْعَفْوَ عَنْهُ شُكْرًا

---

(١) عندما شاهد رسول الله صلى الله عليه وآله بعد فتح مكّة ألدّ أعدائه في الأسر وعاين ذلّتهم، رأى عددًا من المسلمين الذين شرعوا يهتفون بهذا الشعار: «اليوم يوم الملحمة». فقال صلى الله عليه وآله نافيًا ذلك الشعار: «اليَومَ يومُ المَرخمة». أي إنّنا بهذا الشعار نشكر الله تعالى على هذه النعمة الكبرى. ثمّ أمر بأن يُطلَق جميع أتباع الكفر والشرك فيكونوا أحرارًا في كنف الإسلام القويّ الذي لا نظير له. هذه السيرة المباركة التي تظهر الروح السامية لهذا الرجل العظيم، باتت منشًا لكثيرٍ من الخير والبركة على امتداد تاريخ الإسلام، وبعد الرسول صلى الله عليه وآله كذلك سار على هذه السيرة الطيبة والسُنّة الحسنة أبناءُ الرسول وأهل البيت عليهم السلام وكثيرٌ من أنصارهم وأصحابهم. (راجع: محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٢١، ص ١ و٩؛ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ١٧، ص ٢٧٢).





لِلْقُدْرَةِ عَلَيْه»[١]. وفي عبارةٍ أخرى له عليه السلام يقول: «أَوْلَى النَّاسِ بِالْعَفْوِ أَقْدَرُهُمْ عَلَى الْعُقُوبَة»[٢].

إنّ عدم المبادرة إلى التصالح، مع اختلاق ذرائع من قبيل العلاقة بين الأب وابنه أو بين الأمّ وأولادها، أو ذريعة السنّ، والمرتبة العلمية، والعلاقة بين الأستاذ وتلاميذه، والغنى والفقر، والموقع الاجتماعي... بنيّة التقدّم على الطرف الآخر وحتّى لا يُنقص الشخص من قيمته الشخصيّة؛ فما هذه إلا ذرائع شيطانيّة قد تحرم الإنسان المتّقي والمتديّن من نعمة التوجّه واللطف الإلهي، وتسلبه بركات السبق إلى مثل هذه الأمور الخيّرة. في مثل هذه الحالات لا يقف الشيطان مكتوف الأيدي؛ بل يسعى بلجوئه إلى مثل هذه المسائل؛ يسعى إلى أن يمنع كلًّا من الطرفين من المبادرة والمسابقة إلى حلّ المشكلة. إلا أنّ الله تعالى في هذه الحالات يعين المتّقين ويساعدهم ويخلّصهم من هذه الأفكار الخاوية ومن مخالب مكر الشيطان ووساوسه. المؤمنون العارفون بالله والمهذّبون لأنفسهم في مثل هذه الحالات ينتظرون الفرصة المناسبة حتى يظهروا شجاعتهم ويبادروا عند أوّل فرصة ليعتذروا من الطرف المقابل وينسبوا الاشتباه والخطأ إلى

---

(١) السيّد الرضيّ، **نهج البلاغة**، الحكمة ١١؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٦٨، ص ٤٢٨.

(٢) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٦٨، ص ٤٢٨. وكذلك نُقل عنه عليه السلام في بيان الطريقة الصحيحة للتعامل مع الآخرين والعفو والتجاوز عن أخطاء الآخرين ما يلي: «عَاتِبْ أَخَاكَ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَارْدُدْ شَرَّهُ بِالْإِنْعَامِ عَلَيْهِ». وَكَانَ عليه السلام يَقُولُ: «مَتَى أَشْفِي غَيْظِي إِذَا غَضِبْتُ؟ أَحِينَ أَعْجِزُ عَنِ الِانْتِقَامِ فَيُقَالُ لِي لَوْ صَبَرْتَ؟ أَمْ حِينَ أَقْدِرُ عَلَيْهِ فَيُقَالُ لِي لَوْ غَفَرْتَ؟» (المصدر نفسه).

أنفسهم. خطواتٌ كهذه تُعدّ عملًا كبيرًا جدًّا، وقد يفوق قدرة الإنسان أحيانًا ولا يتيسّر له إلا بلطف وتوفيقٍ إلهيّ خاصّ.

مضافًا إلى ما سبق، فإنّ قبول عذر الآخرين أو عدم توجيه اللوم إليهم في الحالات التي يُحتمل فيها وجود العذر؛ يُعدّ من خصال المؤمنين الحسنة، وقد ورد مدحها في عبارات أهل البيت عليهم السلام. ينقل الإمام الصادق عليه السلام أنّ همّامًا عندما طلب من الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أن يذكر له صفات المتّقين، بادر الإمام عليه السلام إلى ذكر صفة «قبول العذر» ضمن خصال المؤمنين الحسنة[١].

وكذلك في وصايا النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام يذمّ صلى الله عليه وآله الأشخاص الذين إذا اعتذر إليهم الآخرون لا يقبلون أعذارهم، حتى لو كانت تلك الأعذار أعذارًا كاذبة! «يَا عَلِيُّ، مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْعُذْرَ مِنْ مُتَنَصِّلٍ صَادِقًا كَانَ أَوْ كَاذِبًا لَمْ يَنَلْ شَفَاعَتِي»[٢].

وفي مقام بيان صفات أخيه في الإيمان يقول مولى الموحّدين إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام: «وَكَانَ لا يَلُومُ أَحَدًا عَلَى مَا يَجِدُ الْعُذْرَ فِي مِثْلِهِ حَتَّى يَسْمَعَ اعْتِذَارَهُ»[٣].

---

(١) عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن يُونُسَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: «قَامَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ هَمَّامٌ وَكَانَ عَابِدًا نَاسِكًا مُجْتَهِدًا إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام وَهُوَ يَخْطُبُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! صِفْ لَنَا صِفَةَ الْمُؤْمِنِ كَأَنَّنَا نَنْظُرُ إِلَيْهِ». فَقَالَ عليه السلام: يَا هَمَّامُ! الْمُؤْمِنُ هُوَ الْكَيِّسُ الْفَطِنُ بِشْرُهُ فِي وَجْهِهِ وَحُزْنُهُ فِي قَلْبِه ... يَقْبَلُ الْعُذْر...» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢٢، ص ٢٢٦).

(٢) حَمَّادُ بن عَمْرٍو وأَنَسُ بن مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ جَمِيعًا عَنْ جَعْفَرِ بن مُحَمَّدٍ عَن أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ عَنْ عَلِيِّ بن أَبِي طَالِبٍ عليه السلام عَن النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ لَهُ «يَا عَلِيُّ! أُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا فَلَا تَزَالُ بِخَيْرٍ مَا حَفِظْتَ وَصِيَّتِي... يَا عَلِيُّ، مَنْ لَمْ يَقْبَلِ الْعُذْرَ مِنْ مُتَنَصِّلٍ صَادِقًا كَانَ أَوْ كَاذِبًا لَمْ يَنَلْ شَفَاعَتِي» (أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٤، ص ٣٥٢).

(٣) الشيخ الكليني، **الكافي**، ج ٢٢، ص ٢٢٦؛ السيّد الرضيّ، **نهج البلاغة**، الحكمة ٢٨٩.



حتى في مرتبة أعلى، على الإنسان أن يبادر إلى أخيه المؤمن فيعينه على معالجة خطئه، وقد ينسب إلى نفسه بعض ذلك الخطأ كأن يقول مثلًا: لعلّ ما حدث كان لخطأٍ منّي، أو كان عليّ أن أتعامل بشكلٍ أفضل حتى لا تصل الأمور إلى ما وصلت إليه، أو: من المؤكّد أن هدفك كان تقديم الخدمة وفعل الخير ولكن حدث ما حدث وأنت لست بمخطئ... ذكر هذه الكلمات والقيام بهذه الخطوات له قيمة كبيرة جدًّا، ويؤدّي إلى تهدئة الطرف المقابل وإلى ندمه على فعله. والأهمّ من ذلك كلّه أنّه ينزع يد الشيطان عن تلك الأجواء.

المعاملة العادلة والمسالمة مع الأعداء والظالمين

في هذه الفقرة من الدعاء، يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى أن يتفضّل علينا بالتوفيق للمعاملة المسالِمة والمنصفة مع الأعداء ومع الذين ظلمونا في حقوقنا: «**وَأَنْ نُنْصِفَ مَنْ ظَلَمَنَا وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا**».

المسألة الأخرى هي الخطوات التي نقوم بها للوقاية [من الظلم]. أحيانًا يرى الإنسان نفسه، بمختلف الطرق، مُعرَّضًا للظلم والأذيّة والتعدّي من قبل الآخرين، وبالنتيجة، يُفرض عليه أن يُفكّر بحيلةٍ أو سبيلٍ للمواجهة، إمّا وحده أو بمعاضدة من مجموعات أو تشكيلاتٍ معيّنة، فيتجهّز للدفاع ويُقدِم على خطوات للحيلولة دون وقوع الظلم أو للتخفيف من شدّته.

في مثل هذه الحالات، صحيحٌ أنّ هذه الخطوات هي بذاتها تدابير عقلانيّة ومطلوبة، ولكن لا بدّ للمرء فيها من المراقبة لكي يراعي فيها بدقّة حدود الحلال والحرام، وحقوقه ممّا ليس حقًّا له.



وعليه أن يفكّر إمّا بالعفو والتجاوز، وإمّا بالانتقام، فإذا كان لا بدّ من انتقامه فليقتصر فيه على حدود ما ظُلم به وليس أكثر. نعم؛ فبهمّة التربيات الدينيّة ووجود العلماء والأدباء والشعراء المتخرّجين من مدرسة الإسلام وأهل البيت عليهم السلام؛ فقد باتت ثقافة العفو والتسامح ثقافةً رائجة ومقبولةً في مجتمعاتنا. ومع هذا، فطبقًا لتلك الأسس التربويّة، لا بدّ للعفو والتسامح من أن يكون بنحوٍ لا يؤدّي إلى الرضوخ للظلم والوقوع تحته، وليس فيه هتك للأعراض ولا تراخٍ ولا جبنٌ وانعدامٌ للشجاعة.

إنّ التعامل بانفعال له كثيرٌ من الآثار التربويّة المخرّبة للمجتمع: فهو يجعل الظالمين والمعتدين أكثر جرأةً في التعدّي على حقوق الآخرين، ويعرّض أمن الأفراد والمجتمع للخطر من مختلف الجهات؛ على مستوى الأعراض والأموال والأرواح. وفوق ذلك كلّه، فهو يتسبّب في انتشار ثقافةٍ خاطئة في المجتمع، وهي الرضوخ للظلم.

وبناءً عليه، فإنّ تشخيص الحالات التي تتطلّب العفو والتسامح من الحالات التي لا بدّ فيها من الانتقام والدفاع؛ هذا التشخيص يحتاج إلى معيارٍ وشاخصٍ يحدّد ذلك. ولعلّ أفضل معيارٍ لذلك هو أن نرى ما هي آثار كلّ واحدٍ من هذين النحوين من التعاطي. أحيانًا قد يقوم الشخص، نتيجةً لغضبه، بحركةٍ يندم عليها، فيكون للعفو والتسامح تأثيرٌ تربويٌّ وأخلاقيٌّ مضاعف عنده وعند الآخرين، وهو يؤدّي إلى تنبّهه ووعيه، فيكون الطريقة الفُضلى لتنبيهه إلى ذلك. في مثل هذه الحالات، لو تمّت مواجهته بردّة فعلٍ سيّئة أو أشدّ، لكان ذلك يجعله أكثر جرأةً ويترك آثارًا سيّئة عنده، فالعفو والتسامح إذًا هو أفضل ردّ فعلٍ على ذلك.



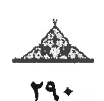
آيات القرآن الكريم تدعونا إلى هذا النوع من الأفعال الحسنة، ولذلك يقول الله تعالى مخاطبًا نبيّه الأكرمﷺ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾[1]. وفي آية أخرى يأمر نبيّه الأكرمﷺ بأن قابل خصومك بالإحسان وسترى كيف ينقلبون إلى أولياء ومحبّين: ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[2].

كلمات أهل البيتعليهم السلام وسيرتهم العطرة تصبّ في الاتجاه نفسه مع هذه الإرشادات القرآنيّة القيّمة، وكم هو جديرٍ أن نقف عند القصّة الرائعة المنقولة من سيرة الإمام السجّادعليه السلام المباركة، وكذلك قد نُقل من سيرة أهل البيتعليهم السلام كثيرٌ من الموارد المشابهة. عددٌ غير قليل من الناس، بل من أقارب الأئمّة الأطهار وأرحامهم، كانوا قد تأثّروا بدعايات السوء والوساوس الشيطانيّة بما ترك عندهم تصوّرات خاطئة عن الأئمّةعليهم السلام، وأحيانًا كان بعضهم يُقدِم على أفعال شنيعة غير مناسبة. في هذه الوقائع المليئة بالعبر نجد سيرة هؤلاء الأطهارعليهم السلام في التعامل مع تلك الأفعال الجوفاء والجهلاء، فسيرتهم في هذا

---

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٩٦.

(٢) ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٣٣ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ (سورة **فصّلت**، الآيات ٣٣ - ٣٥). في هذه الآيات المباركة، يمدح الله تعالى في البداية أولئك الذين يدعون إلى الحقّ ويعتبرهم قولهم أفضل الأقوال ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا﴾. ثمّ يعتبر أنّ السيّئات لا تقارن بالحسنات، ومن ثمّ يوصي رسوله الكريم بما يؤدّي إلى تحبيب الخصوم ويرفع عنهم الصفات السيّئة والكلام غير المناسب؛ وذلك بالسلوك الحسن في مقابل أفعالهم الكريهة، وهذا ما سوف تشاهد آثاره وبركاته بأمّ عينيك. وفي نهاية الآيات يذكر تعالى أنّ هذه الخصال الحسنة لا يحظى بها إلا من تحلّى بالصبر والشكيمة وحظي بفضل إلهيٍّ عظيم.





المجال تستحقّ التأمّل وفيها كثيرٌ من الدروس والعبر للعقلاء وأهل المعرفة.

يقولون: جاء أحد أبناء عمومة الإمام السجّادعليه السلام إليه وألقى عبارات فيها تجاسر وإهانة للإمام، فانزعج أصحاب الإمام الذين كانوا حاضرين حينها وغضبوا، وكانوا مستعدّين لمواجهة ذلك الرجل الوقح، ولكنّهم آثـروا السكوت وكظم الغيظ احترامًا للإمامعليه السلام، إذ كانوا ينتظرون الإمام ليروا ماذا سيفعل. ظلّ الإمام ساكتًا وذلك الرجل يقول كلّ ما يحلو له ممّا فيه إهانة له، إلى أن تعب وغادر المكان. عندما غادر، توجّه الإمام إلى أصحابه وقال: هل ترغبون في أن أذهب إليه وأواجهه على ما فعل؟ فاستبشر الأصحاب وظنّوا أنّ الإمامعليه السلام أراد أن يعاقب ذلك الرجل، ولهذا أجابوه جميعًا: بلى يا ابن رسول الله نحن جاهزون!

نهض الجميع ورافقوا الإمام إلى منزل ذلك الشخص. عندما جاء الرجل إلى الباب ورأى ذلك الجمع ارتعد وظنّ أنّ الإمام جاء بقصد معاقبته، وأنّه قد اصطحب معه مجموعةً من الأشخاص لمساعدته في ذلك. عندما شاهده الإمامعليه السلام ألقى السلام عليه وقال له: إن كان ما قلته صحيحًا وكانت تلك المثالب فيّ حقيقةً، فأرجوك أن تدعو الله ليغفر لي، وإن كان ما قلته خطًا وكذبًا، فالله أدعو أن يغفر لك، وأنت بدورك استغفره أيضًا.

تأثّر الرجل تأثّرًا بالغًا من تعاطي الإمام الذي لم يكن يتوقّعه، فبكى وانكبّ على يدي الإمامعليه السلام وقدميه يعتذر إليه ـ ولاحقًا صار من أصحاب الإمام السجّادعليه السلام وأتباعه ـ بعد هذه الحادثة توجّه الإمام



إلى أصحابه قائلًا: أكان أفضل أن أواجهه بالمثل أو بعبارات سيّئة في حين أنّه بما فعلناه قد صلح وتاب؟ لقد ارتفعت الفتنة بما قمنا به من عملٍ صالح وحسن.

هذا التعاطي من الإمام السجّاد عليه السلام يعدّ أفضل مصداق لما ذُكر في القرآن عن كظم الغيظ: ﴿وَٱلۡكَـٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾[1] و مصداقٌ واضحٌ لقوله: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾[2]، كما أنّه من مصاديق إرشاد الأفراد الطالحين وتربيتهم بأفضل طريقة، فبهذه الطريقة الصحيحة استجلب الإمام عليه السلام الرضا الإلهي، وداوى المرض الأخلاقي عند ذلك الرجل، وبضبطه لأصحابه وأنصاره حال دون وجود الفتنة. فما هو أفضل من هذا السلوك الذي يبدّل العدوّ إلى صديق، ويحوّل الخصم الوقح وبذيء اللسان إلى صديقٍ وناصر محبٍّ ومخلص؟

وبناءً عليه، فالعفو والتسامح والأمر بـ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ إنّما هو للحالات التي لا تؤدّي عند الطرف الآخر إلى مزيدٍ من الوقاحة والاغـتـرار، ولا تتسبّب عنده بمزيدٍ من أفعال السوء والمعاصي، ولا تؤدّي كذلك إلى اشتعال الفتن الاجتماعيّة. إذا كنّا في مواجهةٍ مع أشخاصٍ وجماعات يؤدّي العفو والتسامح معهم إلى مزيدٍ من الوقاحة والتجرّؤ، ويفسح المجال لهم لمزيدٍ من التحلّل والتفلّت بحيث يشعرون أن الجوّ صار أكثر أمانًا وراحةً لهم، وبذلك يكملون طريقهم بمزيدٍ من أعمال السوء والشرّ؛ فهنا يكون التأديب والعقوبة

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٣٤.

(٢) سورة **فصلت**، الآيات ٣٣ - ٣٥.



هما الراجحَين، ويكون أفضل ردّ فعلٍ تجاههم هو المقابلة الشديدة والصريحة؛ طبعًا مع مراعاة الحدود والضوابط القانونيّة والحقوق والواجبات الشرعيّة.

في تتمّة الدعاء، يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى أن يتفضّل بتوفيقه إيّاه للتعامل السلمي والهادئ مع الخصوم «**وَأَنْ نُسَالِمَ مَنْ عَادَانَا حَاشَى مَنْ عُودِيَ فِيْكَ وَلَكَ، فَإِنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذِي لاَ نُوالِيهِ، وَالحِزْبُ الَّذِي لاَ نُصَافِيهِ**».

في التعامل مع الذين خاصمونا وحاربونا، من الأفضل أن نأتي إليهم من باب الصلح والتصالح والفعل الحسن. وبدلًا من معاداتهم، نتعامل معهم بكلّ رحمة ومحبّة وببشاشة وسلوك حسن. هذه الطلبات [التي يطلبها الإمام] والتوفيقات التي يسألها مكمّلةٌ لذلك الإرشاد القرآني الذي يقول: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾؛ أي إذا خاصمك وعاداك، فبادر إليه بالمحبّة، إذا أساء إليه بكلامه أو أهانك وقلّل من احترامك أو اعتدى على شيءٍ من مالك؛ فأنت بادر بكلّ محبّة وسرور إلى إرسال هديّةٍ إليه وعامله بإحسان. وعندما تلتقي به فضمّه إليك بأفضل ما يكون وأكرمه بكلّ احترام.

التعامل العدائي مع أعداء الله

جميع تلك التوصيات والإرشادات التربويّة والأخلاقيّة إنّما هي في حال كان منشأ العداوة والخصومة والتعاطي السلبي هو المسائل الشخصيّة وحالات الغضب والانفعال المؤقّتة لحدثٍ عابر بسيط. أمّا إذا كان منشأ هذه العداوات هو الدين والمعتقدات الدينيّة، وكان محور البغض والضغينة الموجودة بيننا وبين الآخرين هو رضا الله أو عدم



رضاه ﷻ، أو إذا كانت عداوة الأعداء لنا بسبب الدين والتزامنا بالأصول والقِيَم الإلهيّة؛ فحينها لا يكون هناك مكانٌ للمسالمة والصلح.

ولهذا يقول الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء: **«حَاشَى مَنْ عُودِيَ فِيْكَ وَلَكَ، فَإِنَّهُ الْعَدُوُّ الَّذي لاَ نُوالِيهِ، وَالحِزْبُ الَّذي لاَ نُصَافِيهِ»**.

كان فريد عالم الوجود؛ أمير المؤمنين عليه السلام، الذي يوصي بالعفو والتسامح مع العدوّ بعد الغلبة والنصر عليه؛ كان في مثل تلك الأجواء المسمومة لا يكتفي بمواجهة الأعداء الصريحين بعداوتهم؛ بل كان يقف حتى في مقابل أقرب المقرّبين إليه وأرحامه أيضًا إذا ما كان لديهم عداوة للدين؛ بل ويتفاخر عليه السلام بهذه المواجهة ويتغنّى بها: «وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّه صلى الله عليه وآله نَقْتُلُ آبَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا وَإِخْوَانَنَا وَأَعْمَامَنَا. مَا يَزِيدُنَا ذَلِكَ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا وَمُضِيًّا عَلَى اللَّقَمِ وَصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الْأَلَمِ وَجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ، وَلَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا وَالْآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يَتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَيْنِ يَتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيُّهُمَا يَسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ، فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا وَمَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا، فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وَأَنْزَلَ عَلَيْنَا النَّصْرَ، حَتَّى اسْتَقَرَّ الْإِسْلَامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ وَمُتَبَوِّئًا أَوْطَانَه»[١].

وهنا يسير الإمام السجّاد عليه السلام بسيرة جدّه الطاهر أمير المؤمنين عليه السلام، فيعتبر أنّ العفو والتسامح والسلم وحسن التعامل إنّما يكون جائزًا ومستحسنًا مع أولئك الذين تنبع عداوتهم وخصومتهم

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٥٦.





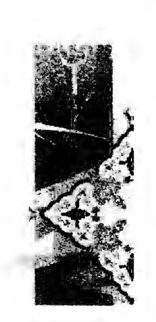
من أسباب شخصيّة ولحالات غضب وانفعال؛ وذلك يقول: إلهي إن كانت عداوتهم في طريقك ولأجلك أنت، فكانوا أعداءك أنت وكانت معاداتهم لنا بسبب الإيمان بك؛ فحتمًا لن نكون معهم ـ بأيّ وجهٍ من الوجوه ـ من أهل المداراة والعفو والبشاشة؛ وذلك لأنّ النعومة والمداراة مع هؤلاء تؤذي الدِّين، فالمقام مقام إظهار الشدّة والعنف ضدّهم.



الجلسة السادسة عشرة:

ضرورة الاهتمام بجميع الفرص





«وَأَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيْكَ فِيْهِ مِنَ الأَعْمَالِ الزَّاكِيَةِ بِمَا تُطَهِّرُنا بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ، وَتَعْصِمُنَا فِيهِ مِمَّا نَسْتَأْنِفُ مِنَ الْعُيُوب، حَتَّى لا يُورِدَ عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ مَلاَئِكَتِكَ إلاّ دُونَ مَا نُورِدُ مِنْ أَبْوابِ الطَّاعَةِ لَكَ، وَأَنْوَاعِ القُرْبَةِ إِلَيْكَ»

ضرورة الاهتمام بجميع الفرص

افتتح الإمام السجّاد عليه السلام دعاءه في استقبال شهر رمضان المبارك بالحمد والتقدير الإلهيّ. ثمّ كان له مجموعة طلبات من الله تعالى أوّلها يرتبط بالصلاة والعبادات في هذا الشهر الشريف. أمّا القسم الثاني فيتعلّق بالواجبات الماليّة، وصلة الأرحام، وإعطاء الزكوات والصدقات. يرتبط القسم الثالث بواجبات الإنسان في معاشرته للآخرين حيث ذكر عليه السلام أهمّها، وبخاصّة تلك الواجبات التي يُغفَل عنها، طالبًا من الله تعالى أن يوفّقه لأدائها.

في هذا القسم من الدعاء يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى التوفيق لأداء أفضل الأعمال. والمثير للانتباه في هذه الفقرات من



الدعاء هو أنّ الإمام عليه السلام كان بإمكانه أن يطلب من الله تعالى في جملةٍ واحدة أنْ وفّقنا لأداء أفضل الأعمال في شهر رمضان المبارك، ولكنّ الإمام عليه السلام لم يفعل ذلك؛ بل ذكر تلك الموارد بالتفصيل، طالبًا إيّاها من الله تعالى. لعلّ السرّ في هذا النوع من الطلب هو أن يلتفت الإنسان إلى وجود أعمال متنوّعة في هذا الشهر المبارك، وأن يستخرج أولويّة كلٍّ منها، وأن يهتمّ بشكلٍ أكبر بالأعمال التي يُغفَل عنها أحيانًا، وبناءً عليه، فإنّ تفصيل موارد الطلب بذاته مطلوب.

تأثير الأعمال وتأثّرها

الاعتقاد بالمعاد يُعدّ أحد أهمّ الأركان العَقَدِيَّة عند المسلمين؛ وهو يعني الاعتقاد بيومٍ سيأتي حتمًا وسيعرض الله تعالى فيه حساب جميع أهل العالم. وبالنتيجة، فسيرى كلّ إنسان جزاء أعماله الحسنة أو السيّئة. هذا الأمر أكّدته آيات القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام بشكلٍ كبير، ولعلّ أصرح آيات القرآن الكريم وأوضحها في الحديث عن المعاد، والتي تعدّ من محكمات القرآن كما إنّها لا تحتمل الترديد والإبهام؛ الآيتان الأخيرتان من سورة الزلزلة، اللتان يقول الله تعالى فيهما: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾[1].

هذا هو اعتقادنا الشامل والجازم الذي لا يتخلّله أيّ إبهام. ومضافًا إليه، ثمّة مسائل أخرى جديرة بالبحث قد طُرحت في ذيل هاتين

(١) سورة **الزلزلة**، الآيتان ٧ - ٨.





الآيتين الكريمتين وهذه القاعدة الكلّيّة، والتي يمكن تتبّعها بمراجعة القرآن الكريم وروايات المعصومين عليهم السلام وكلمات مفسّري القرآن.

للوهلة الأولى، قد يُستفاد من الآية الكريمة أنّ الإنسان الذي قد قام على امتداد عمره بآلاف الأعمال الحسنة وآلاف الأعمال السيّئة، سيكون في عالم القيامة في حالة معاينة دائمة لثواب أعماله الحسنة ومجازاة الأعمال السيّئة؛ أي يكون في قسمٍ من أوقات القيامة في حالة معاينة ثواب أعماله الحسنة، وفي القسم الآخر يعاين مجازاته على أعماله السيّئة. هذا مع أنّ الأمر ليس كذلك بحسب الظاهر؛ وإنّما القيامة عالمٌ خالدٌ وبلا نهاية، ليس فيه قسمان منفصلان لثواب كلّ فردٍ وعقابه، كما لا يختلط فيه الثواب والعقاب كلٌّ منهما في الآخر.

المسألة الأخرى هي أنّ هذه القاعدة الكلّية إنْ كانت صحيحة، فأين هو محلّ الاعتقاد بالتوبة وبمغفرة الذنوب؟ نحن نعتقد بأنّ توبة الإنسان إذا كانت قطعيّة، وتمّت وفق شروطها، فسوف تُغفَر جميع ذنوب الإنسان التي ارتكبها على امتداد عمره. وطبقًا لقانون التوبة، حتى لو كان شخصٌ ما قد ارتكب الذنوب في جميع عمره، فإذا تاب في آخر عمره توبةً نصوحًا، فإنّ جميع ذنوبه ستُغفَر حتمًا. إذا كان الأمر كذلك ـ وهو كذلك ـ فكيف ينسجم هذا الاعتقاد [بالتوبة] مع تلك القاعدة الكلّية؟

وجود مثل هذه المسائل التي قد يظهر أنّها متعارضة ومتناقضة، دفع بعض السطحيّين إلى توهّم أنّ القرآن يحتوي على اختلافٍ وتناقض، والحال أنّه ليس كذلك. وبتدقيقٍ أكبر وبنظرة أعمق إلى





الأبعاد المتعدّدة في هذه المسألة، نستنتج أنّ وجود مثل هذه الاختلافات والتناقضات الموهومة منتفٍ من الأساس.

لا شكّ في أنّ كلّ شخصٍ سيرى يوم القيامة أعماله الحسنة والمقبولة كما سيرى جميع ذنوبه التي لم تُغفَر، ولكنّ العلاقة التي تربط بين أعمال الإنسان الحسنة وأعماله السيّئة هي علاقةٌ من نوع خاصّ، وللقرآن الكريم تعبيره الخاصّ حول هذه العلاقة الخاصّة، حيث يقول تعالى: ﴿مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾[1]. وفي آيةٍ أخرى يشير إلى هذه الحقيقة فيقول: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[2].

وبناءً عليه، فالله تعالى يبطل تلك الأعمال وآثارها من خلال منحه بعض الأعمال خاصّيّة التأثير في أعمال أخرى، وهذا ما ورد في آيات القرآن الكريم وفي كثيرٍ من روايات المعصومين عليهم السلام، حيث عُبّر عن هذا النوع من الأعمال التي يتأثّر بعضها ببعض ويؤثّر بعضها في بعض ويبطله؛ عُبّر عنه بعنوان «الحبط» و«التكفير». ومن ذلك مثلًا الإيمان، والتوبة، والعمل الصالح[3]، وإقامة الصلاة في أوقاتها[4]، وأمورٌ أخرى من هذا القبيل من الأعمال التي لا تؤدّي إلى زوال آثار بعض الأعمال السيّئة والمعاصي فحسب؛ بل تقوم ـ بمعنًى من المعاني ـ بتبديل

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٣١.

(٣) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.

(٤) ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ (سورة **هود**، الآية ١١٤).





السيّئات إلى حسنات[١]. وفي المقابل، فالشرك والكفر[٢]، والارتداد[٣]، والحرص على الدنيا بدلًا من رضوان الله[٤]، وإهانة رسول الله ﷺ[٥]، والنفاق[٦]، والمنّ والأذى بعد الإنفاق والصدقات[٧]؛ هذه جميعها تؤدّي إلى حبط الأعمال الحسنة وإبطال مفعولها.

ما هي الأعمال التي يمكنها أن تؤثّر في أعمال أخرى وتؤدّي إلى إبطالها وإبطال آثارها؟ ما هي الأعمال الصالحة التي يمكنها أن تلغي الأعمال السيّئة؟ أيٌّ من الأعمال السيّئة يمكنه أن يلغي آثار الأعمال

---

(١) ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (سورة **الفرقان**، الآية ٧٠).

(٢) ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ (سورة **الأحزاب**، الآيتان ١٨ - ١٩)؛ وكذلك قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ٨٨).

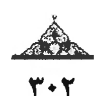
(٣) ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٢١٧).

(٤) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (سورة **هود**، الآيتان ١٥ - ١٦).

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ٢).

(٦) سورة **الأحزاب**، الآيتان ١٨ - ١٩.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٢٦٤).

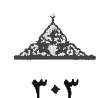




الصالحة؟ هذه الأسئلة هي موضع تضاربٍ بين آراء العلماء المسلمين، وبخاصّة المتكلّمين منهم.

يعتقد بعض علماء أهل السنّة ومتكلّميهم بأنّ كلّ عملٍ يقوم به الإنسان يُلغي العمل السابق ويزيل آثاره. فعلى سبيل المثال، إذا فرضنا أنّ شخصًا ما يقوم بأعمال صالحة وأعمال سيّئة على الدوام، فكلّ عملٍ صالح يقوم به يُلغي العمل السيّئ الذي يسبقه ويزيل آثاره، وبالنتيجة فمع نهاية كلّ يوم لا يبقى في سجلّ أعماله إلا العمل الصالح أو العمل السيّئ، ويستمرّ الأمر كذلك حتّى آخر عمره؛ أي إنّ نتيجة هذه التأثيرات والتأثّرات هو أنّ صحيفة أعمال الإنسان لا يبقى فيها إلا العمل الصالح أو السيّئ. بناءً عليه، ونتيجةً لكسر الأعمال وانكسارها، فإنّ صحيفة أعمال الإنسان لا يبقى فيها إلا عملٌ صالح واحد أو عملٌ سيّئ واحد.

مجموعةٌ أخرى من متكلّمي أهل السنّة يعتقدون بأنّ تأثير الأعمال بعضها في بعض لا يكون على هذا النحو البسيط من الكسر والانكسار؛ وذلك لأنّ الأعمال ليست جميعها في رتبة واحدة وذات تأثيراتٍ متساوية، ولأجل هذا الكسر والانكسار لا بدّ من تقييم كلّ عمل ثمّ يُحسَب تأثير هذا العمل بمقدار قيمته في الواقع، فعندما يقوم الإنسان مثلًا بعملٍ صالح لا بدّ من أن نرى ما قيمة هذا العمل وما مدى تأثيره في جبران الذنوب. وفي المقابل، الأعمال السيّئة التي ارتُكبت ما مقدارها، ولأجل إبطالها ما هو المقدار اللازم من الأعمال الصالحة؟ وبناءً عليه، فجميع أعمال الإنسان على امتداد عمره تدخل في حالة كسر وانكسار، وتبعًا لمقدار قيمة كلٍّ منها ومستوى تأثيرها لا يبقى في النهاية إلّا الأعمال الأكثر وزنًا وقيمة.



أمّا في الروايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام، فنجد أنّ شيئًا من الرأيَين المذكورَين لم يحظَ بالتأييد الكامل. وما يُستفاد من كلمات الأئمّة المعصومين عليهم السلام هو أنّه لا يمكن لأيّ عملٍ أن يؤثّر في جميع الأعمال الأخرى، وهو ما تضمّنه كلٌّ من الرأيَين المذكورَين عن أهل السنّة؛ وإنّما لكلّ عملٍ تأثيرٌ فقط في أعمال خاصّة. على سبيل المثال، فقيام الإنسان بالمنّ على مَن أعانه وساعده إنّما يؤدّي إلى بطلان ذلك العمل والمساعدة التي قام بها تجاه ذاك الشخص[1]، لا إلى بطلان سائر الأعمال. وبناءً عليه، فهذا الشخص المتصدّق الذي يمنّ على غيره إذا كان له صدقات على أشخاصٍ لم يمنّ عليهم، أو أعمالٌ صالحةٌ أخرى من قبيل الصلاة، الصوم، الحج، وغيرها؛ فلن يتسبّب ذلك المنّ بالضرر على أيٍّ من هذه الأعمال.

وكذلك يُستفاد من الروايات أنّ بعض الأعمال السيّئة تُبطل عدّة أنواعٍ من الأعمال الصالحة أو تمنع قبولها، ومن ذلك مثلًا تأثير شرب الخمر، فهذا الفعل القبيح يؤدّي إلى عدم قبول صلاة العبد أربعين يومًا[2]. بحسب الظاهر، فالصلاة عبادة وشرب الخمر عمل لا ربط له

---

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٢٦٤).

(٢) عَنِ الْفُضَيْلِ بن يَسَارٍ قَالَ: سَمِعْت أَبَا جَعْفَر عليه السلام يَقُولُ: «مَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ فَسَكِرَ مِنْهَا لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صلاة أَرْبَعِينَ يَوْمًا، فَإِنْ تَرَكَ الصلاة فِي هَذِهِ الْأَيَّامِ ضُوعِفَ عَلَيْهِ الْعَذَابُ لِتَرْكِهِ الصلاة» (أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٣، ص ٥٧١). هذا، وقد بُيّنت الذنوب الكبيرة بصورٍ مختلفة في الكتب الروائيّة، كما ذُكر بعض علل تلك الذنوب وآثارها أيضًا، وبخاصّة في الكتاب الشريف **من لا يحضره الفقيه**، ج ٣، ص ٥٧٠، ضمن بابٍ بعنوان «مَعْرِفَةِ الْكَبَائِرِ الَّتِي أَوْعَدَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهَا النَّار»، حيث أورد أحاديث كثيرة عن الأئمّة



بها؛ ولكنّ هذه المعصية تتسبّب في إيجاد نوعٍ من الظلمة في روح الإنسان تُفسد عباداته وتُبطلها إلى أربعين يومًا، تمامًا كأثر السموم والأوساخ التي تترك في جسم الإنسان أثرًا طويل الأمد.

وكذلك هناك نوعٌ ثالثٌ من الأعمال التي تؤثّر في بطلان جميع الأعمال التي قام بها العبد على امتداد عمره الطويل، وأحد هذه الموارد التي يتّفق عليها جميع علماء الإسلام الكبار والمتكلّمون: الكفر والارتداد بعد الإيمان؛ الذي يلغي جميع أعمال الخير السابقة. فإذا كان شخصٌ يعيش في دار الإسلام، وكان أبوه وأمّه مسلمين، وكان يعيش في جوٍّ تهيّأت له فيه الأرضيّة لتلقّي الإسلام والمعتقدات والأحكام الإسلاميّة، وكان قد تلقّى أحكام الإسلام وعمل بها أيضًا لمدّة من الزمن، ثمّ ارتدّ وتخلّى عن معتقداته لأسباب غالبًا ما تكون نفسيّة؛ أي لدوافع شخصيّة؛ فالله تعالى لا يغفر لهذا الشخص بأيّ وجهٍ من الوجوه. وبحكم الله تعالى فالارتداد يبطل جميع أعماله، سواءٌ أكانت عبادة سنة واحدة أم عبادة مئة سنة.

أمّا الدوافع الشخصيّة عند هذا النوع من الأفراد فهي عبارة عن التمتّعات والملذّات العابرة، التي تسيطر عليهم نتيجةً للتسويلات الشيطانيّة والأهـواء النفسانيّة. كما تساهم في ذلك بعض الأمور؛ مثل الأجواء العائليّة الفقيرة بل الغنيّة، المشاركة في بعض المحافل والمجالس، مجالسة المنحرفين عقديًّا وخلقيًّا ومصاحبتهم، والتواصل مع بعض الشبكات الدوليّة، والوعود الكاذبة والمظاهر الخادعة، والملذّات الجنسيّة والتعلّقات الكثيرة؛ جميع هذه الأمور تؤدّي إلى

المعصومين عليهم السلام في هذا المجال.



أن يبتعد الإنسان عن معتقداته وقيمه ويقع في فخّ تلك الوساوس والأهـواء. تلك الوساوس التي قد تطال في كثيرٍ من الأحيان أفرادًا كانوا قد وُلدوا وتربّوا في عائلاتٍ صالحة ومتديّنة، ومع ذلك تأسرهم وتقيّدهم، وقد ينتهي الأمر في بعض الأحيان إلى أن يصبح بعض المسلمين بعد ارتدادهم دعاةً لفرقةٍ أخرى. جميع هذه المسائل، وأمور أخرى كذلك في هذا المجال، هي أمورٌ واقعيّة تحدث حاليًّا في مجتمعنا الإسلامي، وكفر هؤلاء الأفراد وارتدادهم مثل كبريت أُشعل في برميل بارود: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَـٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[1].

من الطبيعيّ أنّ الله تعالى لن يغفر لمثل هؤلاء الناس، على أنّ حساب هذه المجموعة التي تورّطت بهذه الورطة الخطيرة نتيجةً لكفران نعمة الدين، مستقلٌّ تمامًا عن الأشخاص الذين حرموا من الإسلام وأحكام الإسلام ويعيشون في ديار الكفر. هؤلاء مستضعفون قد أعدّ الله لهم، على أساس حكمته وعدالته، برنامجًا آخر.

وبناءً عليه، فبعض الأعمال لديها القدرة على أن تحرف الإنسان فجأةً عن الصراط المستقيم وتسلب منه تمام رأسماله المعنويّ، وقد أشير في القرآن الكريم إلى بعض هذه الموارد. ومن ذلك مثلًا أنّ آداب المؤمنين في تعاملهم مع الرسول الأكرم ﷺ لها أهمّية إلى حدّ أنّ الإنسان إذا لم يراعها فقد يتورّط في مثل ذلك الجزاء. لقد جعل الله تعالى لوجود نبيّه الأكرم ﷺ مقامًا رفيعًا إلى حدّ أنّه اعتبر

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢١٧.



بعثته صلى الله عليه وآله وسلم منّةً منه على المؤمنين: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾[1].

وكذلك جميع الأئمّة المعصومون عليهم السلام لديهم هذا المقام، ففي الزيارة الجامعة الكبيرة نقرأ العبارات التالية: «خَلَقَكُمُ اللَّهُ أَنْـوَارًا فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِينَ حَتَّى مَنَّ عَلَينَا بِكُم».

العالم كلّه إنّما يُرزَق ببركة ويُمن وجود هؤلاء الأطهار والأعزّاء الذين ببركة وجودهم تمّت هداية وإرشاد جميع أبناء البشر من بداية البعثة؛ بل من بداية الخلقة بمعنًى من المعاني؛ وحتى يوم القيامة. هؤلاء الذين لولا وجودهم لكنّا جميعًا غرقى في الجهل والغفلة ولما وجدنا طريقًا للنجاة. لقد أودع الله تعالى هداية الإنسان وإرشاده إلى هذه الطريق عند أعزّ عباده إليه. وفي المقابل، أيّ جفاءٍ وتقصير لم يرتكبه الناس بحقّ أولياء نعمتهم هؤلاء الطاهرين؟ ولهذا السبب فقد جعل الله تعالى لأنبيائه وأوليائه وخواصّه حريمًا خاصًّا، وأعدّ عقابًا أليمًا للذين لا يراعونه والذين يتجاوزونه ويتعدّونه، كما في الخطاب الإلهي لبني إسرائيل الذين لم تتورّط أيديهم ـ بحسب الظاهر ـ بقتل أحدٍ من الأنبياء، ومع ذلك قال الله لهم: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾[2].

في هذه الآية لا يقول لهم الله «لم قتلتم؟»، وإنّما يقول: «لِمَ تَقْتُلُونَ»؛ أي كأنّهم ما زالوا مستمرّين في قتل الأنبياء الإلهيّين. لماذا جاء القرآن بهذا التعبير ونسب إلى بني إسرائيل هذا الفعل؟

---

(١) ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ١٦٤).

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٩١.



الإجابة عن هذا السؤال ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام في **نهج البلاغة**، حيث تحدّث عن الراضين والمؤيّدين لأفعال الآخرين فيقول: «الرَّاضِي بِفِعْلِ قَوْمٍ كَالدَّاخِلِ فِيهِ مَعَهُمْ، وَعَلَى كُلِّ دَاخِلٍ فِي بَاطِلٍ إِثْمَانِ: إِثْمُ الْعَمَلِ بِهِ، وَإِثْمُ الرِّضَا بِهِ»[1].

ذلك العمل الشنيع والفظيع بقتلهم الأنبياء يتّسم بالقبح والفظاعة بحيث قد نسبه الله تعالى إلى قوم بني إسرائيل بتمامهم؛ وذلك لأنّ أسلافهم قد تجرّؤوا على أكبر النعم الإلهيّة؛ وهي وجود الأنبياء، فلم يحفظوا حرماتهم وحقوقهم، وقد رضي اللاحقون بما فعله السابقون.

مقامٌ خاصٌّ للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام

في هذا السياق، فإنّ حساب النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الطيّبين الطاهرين عليهم السلام مميّزٌ جدًّا ومستقلٌّ عن حساب سائر البشر بما فيهم أعظم الأنبياء الإلهيّين؛ فهؤلاء الأطهار هم صفوة الوجود وزهرته. ولكي يسلّط الله تعالى لنا الضوء على قدر هؤلاء الطاهرين ومنزلتهم، ولكي يوجّهنا إلى هؤلاء الآل الكرام بشكلٍ أكبر فنستفيد من نعمة وجودهم بأكبر قدرٍ ممكن؛ فقد جعل الله تعالى لهم امتيازات خاصّة؛ من قبيل

---

(١) **نهج البلاغة**، الحكمة ١٥٤. بالاستناد إلى هذه الكلمات الحكيمة للإمام علي عليه السلام يتضح أنّ الله تعالى بخطابه لبني إسرائيل يذكّرهم بحقيقة أنّكم لمّا كنتم راضين وفرحين بما فعله قَتَلة الأنبياء الإلهيّون، فأنتم مثلهم وشركاء في معصيتهم. وهذا من قبيل حادثة ناقة صالح عليه السلام التي لم يقتلها إلا شخصٌ واحد، ولكن لمّا كان قوم ثمود كلّهم راضين بهذا الفعل الخاطئ، فقد اعتبر الله الجميع شركاء في ذلك القتل، ولذا نسبه إلى القوم بأكملهم، حيث قال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا﴾ (سورة **الشمس**، الآية ١٤). لم يكن خطأ قوم ثمود إلا معصيتهم للنبيّ صالح عليه السلام ورضاهم بتلك الجريمة، ولكن عندما يكون الإنسان راضيًا بعملٍ ما، فهذا الرضا يعني أنّه لو كان مكان الفاعل لقام بما قام به ذلك الفاعل تمامًا.





حكم الخمس[1]، الاحترام للسادة وذريّة النبيّ الأكرمﷺ، والصلوات والتسليم عليهم.

في بداية سورة الحجرات المباركة، يذكر الله تعالى للمسلمين والمؤمنين بعض الامتيازات الخاصّة بنبيّه الأكرمﷺ. ومن جملة الامتيازات التي ذكرها الله تعالى لنبيّه الأكرمﷺ هو أنّ على المسلمين أن يراعوا في محضره منتهى الأدب، وألّا يتقدّموا عليه في أمرٍ من الأمور أبدًا[2]، وألّا يتجاسروا أمامه ويسيئوا الاحترام، وألّا يرفع أحدٌ صوته فوق صوت النبيّ في محضرهﷺ، ولا يناديه أحدٌ بصوتٍ عال[3]. إنّ منتهى قلّة الأدب والاحترام في أن يبادر شخصٌ إلى خلف منزل الرسولﷺ ويناديه باسمه وبأعلى الصوت كما ينادي الآخرين، لقد ذمّ الله هؤلاء الذين يسيئون إلى النبيّ بهذا الفعل واعتبر

---

(١) الخمس، مثل الزكاة، واجبٌ ماليٌ في ذمّة المسلمين تجاه ذرّيـة النبي الأكرمﷺ والأئمة المعصومينﷺ؛ أي السادات. هذه العائلة الكريمة والجليلة التي حُرّم عليها ـ من باب احترام النبيّ ـ أخذ الزكاة والصدقات التي هي بنظر الناس من فاضل الأموال، والتي تُعزل من أوساخ أموال الناس وتصل إلى مصارف محدّدة. وبدلًا من ذلك، فقد جعل الله لهم الخمس؛ حتى لا ينتشر ذلك التصوّر بين الناس حول النبيّ وأهل بيتهﷺ بأنّهم يتغذّون من فاضل أموال الناس ومن أوساخها، فالخمس ليس كذلك، وإنّما خمس أموال الناس ودخلهم من أوّل الآمر خارجٌ عن ملكيّة الناس، وقد جعله الله له ولنبيّه الأكرمﷺ ولذوي قربى النبيّﷺ، وقد منع الآخرين من التصرّف في هذا القسم. هذا الأمر يؤدّي إلى أن نتذكّر نحن المسلمون، وعلى الدوام، أبناء النبيّ الطاهرين، وأن ننظر إليهم بعين الاحترام، ومن خلال هذا الاحترام لأبناء النبيّ وأهله الكرام نرتقي إلى عظمة المقام الرفيع لوجوده المقدّس والمتعالي، ونحافظ على ذكره الكريم في مجتمعنا، فجميع هذه المسائل إنّما ترجع في النهاية إلى مصلحتنا نحن.

(٢) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ١).

(٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَـٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ٢).



أنّهم «لا يعقلون»[١]. ومن ثمّ يطرح الله تعالى على هذه الفئة من المسلمين أن يصبروا وينتظروا خروج النبيّ ﷺ من منزله، فإذا قاموا بهذا الفعل احترامًا له ﷺ، فسيشملهم العفو والمغفرة والرحمة الإلهيّة الواسعة[٢]. وفي المقابل، يمدح الله تعالى أولئك الذين يغضّون أصواتهم أمام رسول الله ﷺ ويخاطبونه بكلّ إكرام واحترام كبيرين وينادونه بالكنى والألقاب، ويعتبرهم أهل التقوى الذين يشملهم العفو الإلهي وينالهم الثواب العظيم[٣].

إنّ منزلة النبيّ الأكرم ﷺ ومقامه عند الله تعالى رفيعٌ وعظيم إلى حدّ أنّ هذه الآيات قد صرّحت بأنّ المسلمين الذين لا يراعون الأدب والاحترام مع رسول الله ﷺ، فهذا السلوك منهم يبيّن جهلهم وقلّة أدبهم، هذا أوّلًا؛ وثانيًا، فهو يؤدّي إلى حبط الأعمال وخسرانها، كما يبعّدهم عن رحمة الله ويحرمهم من الغفران والعفو الإلهيّ.

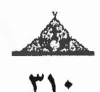
رفعُ الإنسان صوته أو خفضه له، ومـدّه أو غضّه، قد لا يبدو للوهلة الأولى سيّئًا إلى ذلك الحد أثناء التعامل مع الآخرين، وقد لا يُعدّ وقاحةً وبذاءة، ولكنّ القرآن الكريم قد أخبر عن عظيم أهمّية هذه التصرّفات الأخلاقيّة البسيطة، وكشف الستار عن أسرارها، وبيّن أنّ هذه التصرّفات الأخلاقيّة قد تظهر على أنها بسيطة، ولكنّها مرفوضة ولها تبعات وخيمة جدًّا في الدنيا والآخرة، فأحد هذه التصرّفات قد يجعل تمام وجود الإنسان في مهبّ الريح.

---

(١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ٤).

(٢) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ٥).

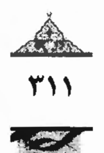
(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ٣).



هذه الآيـات والتعابير القرآنية لا تتحدّث عن الكلام البذيء والسُّباب الموجّه إلى الرسول الأكرمﷺ؛ بل قد ذُمّ فيها ونُهي حتى عن التصرّفات غير المؤدّبة وغير المحترمة والخارجة عن حدود الأدب واللياقة. دقّة التعابير القرآنية نجدها في هذه العبارات بكلّ وضوح، وهذا النحو من التعاطي القرآني هو نوعٌ من الوقاية من ظهور مثل هذه السلوكيّات المحتملة، وهو منطلقٌ لتوعية الآخرين وتنبيههم.

من هذا القانون التربوي والأخلاقي في القرآن يمكننا أن نستنتج أنّه قد يكون ثمّة عملٌ وسلوكٌ بسيطٌ ومقبولٌ بحسب الظاهر ولكنّ له آثارًا وبركاتٍ كثيرة؛ فعلى سبيل المثال، قطرة الدمع في عزاء الإمام سيّد الشهداءعليه السلام، والتي تعبّر عن المحبّة والارتباط القلبي بذلك الإمام العزيز وبجدّه الكريمﷺ، هذه القطرة لها بركة لا يمكن مقارنتها بسنواتٍ مديدة من العبادة؛ وذلك لأنّ مضمونها هو المحبّة والإكرام والاحترام لرسول اللهﷺ ولأهل بيته الكرامعليهم السلام. وكما أنّ رفع الصوت في محضر رسول اللهﷺ له أثرٌ من قبيل الارتداد ويؤدّي إلى حبط الأعمال؛ فكذلك لا غرابة في أن يكون لقطرة دمع في رثاء سيّد الشهداءعليه السلام تلك البركات الفائقة التي يذكرونها لها. هذه الأمور توجّهنا إلى هذه الحقيقة التي مفادها أنّ المِلاكات والمعايير التي نتبنّاها عندنا في التقييم، لا تتطابق مع الواقع تمامًا، وإنّما من أجل تعيين المعيار والملاك في تقييم أعمالنا وسلوكنا ونيّاتنا، فلا بدّ لنا من أن نتواضع ونسلّم ونذعن للقرآن وأهل البيتعليهم السلام.

هذا، ويمكن أن يُستفاد من آيات القرآن وكلمات المعصومينعليهم السلام - في الجملة - أنّ بعض الأعمال توجب حبط بعض الأعمال الأخرى وإبطال آثارها، ولكن ليس واضحًا لدينا تمامًا ما هي الأعمال التي



تشكّل طرفي هذه العلاقة من التأثير والتأثّر. صحيحٌ أنّ القاعدة الكلّية تقول: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[١]، ولكن مع ذلك، فهي لم تُذكَر بوضوح وصراحة لجميع الأعمال؛ هذا أوّلًا. ثانيًا، ليس واضحًا كذلك مستوى ومقدار آثار كلّ عملٍ ونتائجه، فحقيقة هذه الأمور خافيةٌ عنّا، ولا يُكشف جوانب من هذه الحقائق لبعض الناس إلا بالرجوع إلى آيات القرآن الكريم وروايات أهل البيت عليهم السلام. على أنّ ثمّة قدرًا متيقّنًا واضحًا، فقد ذُكرت بعض عناوين الأعمال في هذه المصادر كما ذُكرت آثارها أيضًا، ومن ذلك مثلًا قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[٢].

ويظهر أنّ إقامة فريضة الصلاة المهمّة من جملة الأعمال الداخلة ضمن القدر المتيقّن من هذه القاعدة الكلّيّة. ولهذا السبب، فقد أوصى الأئمّة المعصومون عليهم السلام بأنّكم إذا ابتليتم بالمعصية لأيّ سببٍ من الأسباب، فاحرصوا على أن تصلّوا بعدها ركعتين[٣] حتى تشعّ نورانيّة الصلاة على قلب الإنسان المظلم وتهيّئ لكم فرصة التوبة، ولعلّ الإنسان يستفيد من نورانيّة الصلاة فيشعر بالحضور الإلهي ويخجل من عمله القبيح. فإذا حدث هذا للإنسان تحقّقت التوبة الحقيقيّة: «كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً»[٤].

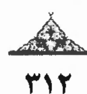
---

(١) سورة **هود**، الآية ١١٤.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) عَن عَلِيّ عليه السلام قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: «مَنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَأَشْفَقَ مِنْهُ فَلْيُسْبِغِ الْوُضُوءَ ثُمَّ لْيَخْرُجْ إِلَى الْبَرَازِ مِنَ الْأَرْضِ حَيْثُ لا يَرَاهُ أَحَدٌ فَيُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبَ كَذَا وَكَذَا" فَإِنَّهُ كَفَّارَةٌ لَهُ. (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٨٨، ص ٣٨٢).

(٤) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٤٢٦.





وبناءً عليه، فبعض الأعمال لها ذلك التأثير الإيجابي إلى حدّ أنّ بركتها تزيل سيّئات الإنسان ومعاصيه؛ بل أكثر من هذا، أحيانًا يجعل الله تعالى لبعض الأعمال تأثيرًا وبركةً أكثر بحيث إنّ القيام بها يبدّل تلك السيّئات إلى حسنات: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1].

مجدّدًا نقول إنّ حقيقة هذا الأمر خافيةٌ علينا، وفهم أنّ الحسنات يُذهبن السيّئات أمرٌ صعب. نعم، تصوّر هذا الأمر قد يسهّله إلى حدٍّ ما، ولكنّنا مع ذلك لا نعلم ما هي حقيقة تبديل السيّئات إلى حسنات؟

ذكر بعض المفسّرين أنّ المقصود هو أنّ التوبة الحقيقيّة تمحو الذنوب الموجودة في صحيفة الأعمال الملأى بالذنوب، وحينها تُسجّل التوبة على أنّها بذاتها عملٌ صالح. مفسّرون آخرون ذكروا تفاسير أخرى. وعلى أيّ حال، فمن الواضح أنّ الإنسان إذا سلّم لله تعالى وفهم العبوديّة والتزم بها، فسيصبح عزيزًا إلى حدّ أنّ الله تعالى يجعل أخطاءه وزلّاته مقدّمةً وسبيلًا للأعمال الصالحة، وبهذا المعنى يبدّلها إلى حسنات.

ماذا نطلب من الله تعالى؟

في تتمّة الدعاء، يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى ثلاثة أمورٍ مهمّة. الطلب الأوّل يرتبط بالماضي: «**وَأَنْ نَتَقَرَّبَ إِلَيكَ فِيهِ مِنَ الْأَعْمَالِ الزَّاكِيه بِمَا تُطَهِّرُنَا بِهِ مِنَ الذُّنُوبِ**».

---

(١) سورة **الفرقان**، الآية ٧٠.



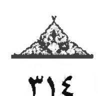
أي نطلب من الله أن يوفّقنا للأعمال التي تكون ـ أوّلًا ـ صالحةً بذاتها ومرضيّةً عنده عزّ وجلّ، وثانيًا يكون لها آثارٌ وبركات جيّدة لنا، وثالثًا تكون من الأعمال التي تبدّل سيّئاتنا إلى حسنات. ونتيجة هذه الفقرة من الدعاء، في حال الاستجابة، هو التوفيق للقيام بالأعمال التي تمحو جميع الذنوب السابقة. إذًا فمستقبل الإنسان ما زال في خطر، فما الذي ينبغي فعله للمحافظة على المستقبل وحمايته؟ لهذا السبب يذكر الإمام عليه السلام في هذا القسم طلبًا ثانيًا يشير إلى هذا الأمر، حيث يقول في هذا الطلب الثاني: «**وَتَعْصِمُنَا فِيهِ مِمَّا نَسْتَأْنِفُ مِنَ الْعُيوبِ**».

أي إنّ هذه الأعمال لها نورانيّة تشعّ على أرواحنا وتهيّئ فيها الأرضيّة بما يحول دون تلوّثنا بالذنوب في المستقبل. وفّقنا الله حتى نقوم في شهر رمضان المبارك بأعمالٍ تجعلنا بعد هذا الشهر وفي المستقبل في أمانٍ، ولا نكرّر المعاصي التي مُحيت.

أمّا الطلب الثالث الذي يذكره الإمام عليه السلام فهو طلبٌ مهمٌّ جدًّا ومتعالٍ: «**حَتَّى لا يورِدَ عَلَيكَ أَحَدٌ مِنْ مَلائِكَتِك إِلا دُونَ مَا نُورِدُ مِنْ أَبْوَابِ الطَّاعَه لَكَ، وَأَنْوَاعِ الْقُرْبَةِ إِلَيكَ**».

في هذه الفقرة يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى أمرًا قد يكون تصوّره صعبًا عندنا في بادئ الأمر. يطلب عليه السلام فيقول: إلهي وفّقنا للقيام بأعمالٍ لم يقم بها أيٌّ من ملائكتك؛ في هذا الشهر المبارك وفّقنا لتكون عباداتنا بنحوٍ لا تصل إلى مستواها حتى أعمال الملائكة.

لا شكّ في أنّ طلب مثل هذه الأمور الصعبة وغير الممكنة بحسب الظاهر، عندما يصدر من قبل أمثالنا، فلعلّه قد يبدو أشبه



بأحلام الطفولة، والتخيّلات المستحيلة. ولكنّ هذا الكلام قد صدر من شخصيّةٍ هي وليّ الله الذي يحيط بجميع حقائق العالم، إذًا فهو يعلم أنّ هذا الأمر ممكن؛ بمعنى أنّ العبد إذا طلب من ربّه، فالله تعالى سيمنحه التوفيق، وإذا علم هذا العبد قدر النعم الإلهيّة، فسيصل إلى المقام الذي لا يصل إليه أيّ ملكٍ من الملائكة؛ أي إلى نقطة الذروة بعد القيام بالأعمال الطاهرة وتطهيره للماضي ومصونيّته من تلوّثات المستقبل، وهو ما يتيسّر بعون الله تعالى ومدده وتوفيقه؛ بعد ذلك كلّه يرتقي مقامنا أيضًا إلى درجةٍ ليست أعلى من سائر الناس فحسب؛ بل حتى أعلى من الملائكة الإلهيّين! ويا لها من سعادة!

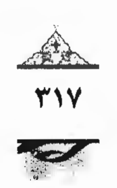
على أنّه قد يكون في كلام الإمامعليه السلام احتمالٌ آخر؛ وهو أنّ المقصود من الملائكة ليس جميع الملائكة؛ بل المقصود هو الملائكة الذين يحفظون ويسجّلون أعمال الآخرين؛ فيكون المعنى: إلهي وفّقنا ليكون عملنا بحيث لا يكون في سجلّ الأعمال التي تكتبها الملائكة أفضل منه. بناءً على هذا الاحتمال، يكون مقصود الإمامعليه السلام هو أعمال سائر الناس لا عبادة الملائكة، ولكن من الواضح أنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع ظاهر اللفظ ولا مع سياق الكلام.



الجلسة السابعة عشرة:

حقيقة العبوديّة لله







«اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذَا الشَّهْرِ، وَبِحَقِّ مَنْ تَعَبَّدَ لَكَ فِيهِ مِنِ ابْتِدَائِهِ إلَى وَقْتِ فَنَائِهِ مِنْ مَلَك قَرَّبْتَهُ أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلْتَهُ أَوْ عَبْد صَالِح اخْتَصَصْتَهُ أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَأَهِّلْنَا فِيهِ لِمَا وَعَدْتَ أَوْلِياءَكَ مِنْ كَرَامَتِكَ، وَأَوْجِبْ لَنَا فِيهِ مَا أَوْجَبْتَ لاِهْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي طَاعَتِكَ، وَاجْعَلْنَا فِي نَظْمِ مَنِ اسْتَحَقَّ الرَّفِيْعَ الاعْلَى بِرَحْمَتِكَ»

حقيقة عبوديّة الله

يشير الإمام السجّادعليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء إلى مسائل حول عبوديّة الله الأحد. ولتوضيح هذا القسم من الكلمات الحكيمة للإمام زين العابدينعليه السلام، لا بدّ لنا من بيان بعض المسائل في مجال معارف الإسلام، على أنّ المباحث والأصول الأساسيّة التي نستفيد منها في هذا البحث لتوضيح المسألة بصفتها أصولًا موضوعَةً قد بُحثت في محلّها وتمّ إثباتها بالأدلّة العقليّة وبالاستعانة بآيات القرآن الكريم وروايات المعصومينعليهم السلام.

المسألة الأولى: إنّ الهدف من خلق الإنسان هو أن يصير هذا الإنسان مؤهّلًا لتلقّي أعلى الدرجات من الرحمة الإلهيّة غير المتناهية،



والوصول إلى هذه الدرجات العالية لا يتيسّر إلا في ظلّ أعمال الفرد الاختياريّة. وبناءً عليه، فعلى الإنسان أن يسعى لكي يصير مؤهّلًا لإدراك تلك النعمة الإلهيّة العظيمة.

نِعَم الله تعالى ودرجات الرحمة الإلهيّة كثيرة، ولكنّ الله تعالى قد جعل من بين تلك الرحمات رحماتٍ خاصّة لا يمكن الحصول عليها إلا من هذا الطريق الخاصّ، حتى ملائكة الله المقرّبون مع ما لديهم من الدرجات العالية ومع ما يتنعّمون به من أنواع النعم والرحمات الإلهيّة؛ ليسوا حاضرين في هذا الطريق بسبب الخصوصيّات الموجودة عندهم، والتي تختلف عن موجودات أخرى كالإنسان. هؤلاء الملائكة يتلقّون رحماتٍ متناسبة مع كلٍّ منهم وعلى أساس اختلاف درجاتهم، كما أنّ خِلقتهم تقتضي ألّا يكون لهم شغلٌ سوى العبادة، فليس لديهم أيّ ميلٍ نحو الخطيئة والمعصية، ولهذا السبب فهم مستحقّون للرحمة التي تُعطى لهم نتيجة أعمالهم التي ليس فيها جنبة الاختيار.

أمّا الموجودات التي خلقها الله تعالى ذات إرادة واختيار؛ مثل الإنس والجنّ؛ فلديهم قدرة الاختيار والترجيح عندما تتعدّد الخيارات، فخِلقتهم قد جُعلت بنحو أنّهم يميلون إلى الصالحات والفضائل، ويميلون كذلك إلى الشهوات والرذائل، وهنا يظهر «فنّ» الإنسان في أن يختار طريق عبادة الله تعالى من بين هذين الميلين المتضادّين، فإذا قام بهذا الاختيار المهمّ، فسيصل إلى مقامٍ يجد فيه أنّ أفضل الملائكة قد باتت في خدمته، وهذا المقام العظيم والراقي المعبّر عنه بمقام الإنسان الكامل هو مقام القرب من الله[1].

---

(١) ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ (سورة **النجم**، الآيتان ٨ - ٩).





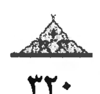
المسألة الثانية: هذا الوصول غير ممكنٍ إلا في ظلّ عبوديّة الله. على الرغم من أنّنا لا ندرك حقيقة هذه العلاقة، ولكن بالاستفادة من الآيات الكريمة، يمكننا أن نبيّن جوانب عامّة من هذه الحقيقة، حيث يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]؛ أي إنّ القرب الإلهي والكمال المناسب للإنسان لا يمكن الوصول إليه إلا في ظلّ معرفة الله تعالى، وبالتالي عبادته والعبوديّة له.

المسألة الثالثة: عبادة الله تعني أن يسعى المرء إلى أن يدرك حقيقة عبوديّته لله تعالى ويترجم هذه العبوديّة في سلوكه وأفعاله؛ أي أن يَفهم ويُفهِم من خلال أعماله أنّ مالكه ومالك ما بيده هو الله تعالى، وأنّه (العبد) لا يملك شيئًا بذاته إطلاقًا. جميعنا قد يملك في مرحلة الاعتقاد مثل هذا الإيمان بحيث نؤمن بأنّ كلّ شيءٍ هو ملك الله، ولكنّ العبوديّة لله إنّما تتحقّق عندما يتطابق سلوكنا مع هذا الاعتقاد عندنا، فنفهم بحقيقة الأمر ونُذعن بقلبنا بأنّ أنفسنا، وأيدينا وأرجلنا، وفكرنا ولساننا، وكلّ ما تحت أيدينا؛ جميع ذلك له هو. إذا وصل الإنسان حقيقةً إلى هذه المرتبة من المعرفة، فسيرى أنّ الله تعالى هو سيّده ومالكه، وسيطيعه في ما يأمره وينهاه.

عندما يأمرنا الله تعالى وينهانا ثمّ نعصيه في عملنا، أو عندما نعلم ما الذي يُرضي الله تعالى وما الذي لا يُرضيه ومع ذلك لا نراعي رضاه أو عدم رضاه في سلوكنا؛ فهذه التصرّفات تبيّن أنّنا لم ندرك حقيقة العبوديّة وإنّما ندّعي لأنفسنا نوعًا من الاستقلاليّة في مقابل الله، وتُظهر أنّنا لا نرى أنفسنا عبادًا له بالمعنى الحقيقيّ للعبوديّة؛ بل

---

(١) سورة **الذاريات**، الآية ٥٦.





نرى لأنفسنا نوعًا من السيادة والتسلّط على أنفسنا، وهذا هو منشأ تعاسة الإنسان وشقاوته.

إنّ قمّة الكمال الإنساني تكمن في أن يرى الإنسان نفسه عبدًا مطلقًا لله تعالى في جميع شؤونه الأعمّ من معتقداته، وفكره وذكره، ونيّاته، وسلوكه وجميع ظروفه... وبحسب تعبير الإمام الصادقعليه السلام: أن يُسلِم نفسه لله فيكبّر على روحه التكبيرات الخمس التي تُكبَّر على الميّت ويودّع أمانيه وداع الموت للحياة[1]، أو يشاهد نفسه «كالميت بين يدي الغاسل»[2] على حدّ تعبير كبار العلماء. هذه هي المرتبة التي ينالها أولياء الله مع اختلاف درجاتهم ومراتبهم. وبحسب اعتقاد جميع المسلمين، فنبيّ الإسلام المكرّم والمعظّمصلى الله عليه وآله وسلم يقع على رأس جميع الأولياء الإلهيّين وهو أعلى من الجميع. بعده يأتي إمامنا ومولانا أمير المؤمنينعليه السلام والسيّدة فاطمة الزهراءعليها السلام، ثمّ سائر الأئمّة المعصومينعليهم السلام على اختلاف المراتب. وفي المراتب اللاحقة يأتي الأشخاص المتّبعون لهؤلاء الآل الكرام والمقتدون بهم في الاعتقاد والالتزام، والذين هم أيضًا يترجمون هذه العبوديّة في حياتهم بحسب اختلاف مراتبهم.

---

(١) قَالَ الصَّادِقُعليه السلام: «...فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مُتَوَكِّلًا لا مُتَعَلِّلًا فَكَبِّرْ عَلَى رُوحِكَ خَمْسَ تَكْبِيرَاتٍ وَوَدِّعْ أَمَانِيَّكَ كُلَّهَا تَوْدِيعَ الْمَوْتِ لِلْحَيَاةِ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعه لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٦٨، ص ١٤٧).

(٢) «والمتوكّل لا يسأل ولا يردّ ولا يمسك شيئًا خوف الفقر، وينبغي لمن أراد سلوك طريق التوكّل أن يجعل نفسه بين يدي الله تعالى في ما يجري عليه من الأمور، كالميت بين يدي الغاسل يقلّبه حيث يشاء» (أبو محمّد حسن الديلمي، **إرشاد القلوب إلى الصواب**، ج ١، ص ١٢١).



المسألة الرابعة: حقيقة العبوديّة لله تتجلّى في الدعاء، ولهذا السبب فقد عُبّر عن الدعاء في كلمات المعصومين عليهم السلام بأنّه مخّ العبادة: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَة»[1]. إذا اعتبرنا أنّ عبادة الله مثل نواة الثمرة لها طبقات مختلفة، فإنّ لبّها هو الدعاء بحسب تعبير هذه الرواية. والمقصود من المخّ، وبخاصّة إذا كان المراد مخّ الإنسان، هو لبّ هذا الإنسان ودماغه. نيّة الإنسان التي هي المِلاك والمعيار الوحيد لتقييم جميع أفعال الإنسان وأعماله، هي نتيجة أداء اللبّ، وهذا القسم من وجود الإنسان له مكانة مهمّة إلى حدّ أنّ الإنسان لو لم يكن لديه هذا اللبّ لما كان افترق عن الحيوانات في شيء. وفي هذا السياق، فالدعاء بدوره هو مخّ العبادة ولبّها، فإذا لم يكن في العبادة دعاء، فكأنّه ليس هناك عبادة من الأساس! إذ لو كان ثمّة عبادة فلا بدّ من أن تُترجم في السلوك العبوديّ عند الإنسان.

العلاقة المتبادلة بين العبد والله

ذكرنا أنّ العبوديّة هي الطريق الوحيد للوصول إلى القرب من الله أو الكمال الإنساني. والعبوديّة عبارة عن علاقة بين الإنسان والله، وفي مثل هذه العلاقة عندما ينظر الإنسان إلى نفسه فإنّه يرى عبدًا لا يملك شيئًا، ولكن عندما ينظر إلى الله يراه يملك كلّ شيء. في العبادة دائمًا ما تهيمن إحدى هاتين النظرتين أو كلاهما بشكلٍ متساوٍ، ولهذا

---

(١) عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله قَالَ: «الدُّعَاءُ مُخُّ الْعِبَادَةِ، وَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَدْعُو اللَّهَ إِلاَّ اسْتَجَابَ لَهُ: إِمَّا أَنْ يُعَجِّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا أَوْ يُؤَجِّلَ لَهُ فِي الآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يُكَفِّرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا دَعَا مَا لَمْ يَدْعُ بِمَأْثَمٍ» (محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**. ج ٧، ص ٢٧؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**. ج ٩٠، ص ٣٠٠).

السبب نجد أنّ الأئمّة المعصومين عليهم السلام في الأدعية ذات المضامين الراقية والقيّمة مثل دعاء أبي حمزة الثمالي، تارةً يلتفتون إلى فقرهم وعجزهم وعبوديّتهم، وتارةً أخرى يكون أكثر تركيزهم متّجهًا إلى كرم الله تعالى اللامحدود وإلى لطفه وعفوه ورحمته الواسعة. في بعض التعابير المنقولة عن هؤلاء الأطهار عليهم السلام في أدعيتهم، نجدهم يصرّحون بهذه الحقيقة: «إِذَا رَأَيتُ مَوْلَايَ ذُنُوبِي فَزِعْتُ وَإِذَا رَأَيتُ عَفْوَكَ طَمِعْت»[1].

هذه العلاقة المميّزة المتبادلة لا بدّ من الحفاظ عليها لا في الدعاء فقط؛ بل في جميع العبادات. على الإنسان أن يجعل أمام عينيه على الدوام هذه الحالة بين فقره هو والغنى الإلهي، بين قبحه هو والجمال الإلهي، وبين قلّة حيائه هو والستر الإلهي؛ على أنّ هذه المضامين تبرز وتتبلور في الدعاء أكثر من سائر العبادات، كما أنّ حقيقة الدعاء تنطبق على هذا الأمر؛ لأنّ حقيقة الدعاء هي أن ندرك فقرنا نحن في مقابل غنى الله، وبالتالي ندرك أنّ حاجتنا بيد الله. نعم؛ إدراك هذه الحقيقة ليس سهلًا بالنسبة إلينا، والمشكلة تكمن في أنّنا جميعًا نعتبر أنفسنا عالمين بكثيرٍ من الأمور، وعلى الرغم من أنّنا نعتقد، بناءً على تعاليمنا الدينيّة، بأنّ كلّ ما نملكه هو عطيّةٌ من الله لنا؛ فمع ذلك نقول في مقام البيان: يدي، رجلي، أُذُني، عقلي،

---

(١) «أَدْعُوكَ يَا سَيِّدِي بِلِسَانٍ قَدْ أَخْرَسَهُ ذَنْبُهُ رَبِّ أُنَاجِيكَ بِقَلْبٍ قَدْ أَوْبَقَهُ جُرْمُهُ أَدْعُوكَ يا رَبِّ رَاهِبًا رَاغِبًا رَاجِيًا خَائِفًا إِذَا رَأَيتُ مَوْلَايَ ذُنُوبِي فَزِعْتُ وَإِذَا رَأَيتُ عَفْوَكَ طَمِعْتُ فَإِنْ غَفَرْتَ فَخَيرُ رَاحِمٍ وَإِنْ عَذَّبْتَ فَغَيْرُ ظَالِمٍ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٥، ص ٨٢؛ **مفاتيح الجنان**، أعمال شهر رمضان المبارك، أعمال السحر، دعاء السحر، دعاء أبي حمزة الثمالي).



مالي، علمي... وأحيانًا يغرق ابن آدم في غفلته وجهله إلى درجة أنّه قد يصرّح فيقول: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾[1]. هذا التعبير في الواقع كلامٌ لقارون قاله بالنيابة عنّا جميعًا؛ وذلك لأنّ هذا المعنى موجودٌ في قلوبنا أيضًا، اللهمّ مع اختلاف المراتب والاختلاف في الصراحة والإبهام.

يقولون عندما أرسل النبيّ الأكرمﷺ إلى ذلك الرجل حتى يؤدّي زكاة ماله، أجاب ذلك الرجل قائلًا: لماذا عليّ أن أدفع من مالي للآخرين؟ هل يريد النبيّ أن يأخذ منّا الجزية؟ لقد عملنا وتعبنا في كسبنا، وهذا محصول جهدنا وتعبنا. نحن مسلمون ونؤدّي الصلاة، فلماذا نؤدّي الجزية؟[2]

خلاصة هذا التصرّف في مقابل رسول اللهﷺ وأمينه على رسالته هو أنّني صاحب ومالكٌ كما أنّ الله صاحبٌ ومالك، ومن هنا، فالزكاة هي جزية الله المالك منّي أنا المالك! أكثرنا نحن البشر على

(١) سورة **القصص**، الآية ٧٨.

(٢) يقصد سماحته القصّة المعروفة عن ثعلبة بن حاطب الذي كان من الأنصار، «قال للنبيّﷺ: ادع الله أن يرزقني مالًا، فقال: "يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه، أما لك في رسول اللهﷺ أسوة؟ والذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهبًا وفضّة لسارت، ثم أتاه بعد ذلك فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالًا، والذي بعثك بالحق لئن رزقني الله مالًا لأعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه، فقالﷺ: اللهمّ ارزق ثعلبة مالًا. قال: فاتّخذ غنمًا فنمت كما ينمو الدود، فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنزل واديًا من أوديتها، ثمّ كثرت نموًّا حتى تباعد من المدينة، فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة، وبعث رسول اللهﷺ المصدّق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل، وقال: ما هذه إلا أخت الجزية، فقال رسول اللهﷺ: يا ويح ثعلبة، يا ويح ثعلبة»، فأنزل الله تعلى قوله: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ (سورة **التوبة**، الآيتان ٧٥ - ٧٦)، (المجلسي، محمّد باقر، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٢٢، ص ٤٠) [المترجم].

هذه الشاكلة، وهذه خيوط الشرك والكفر التي تظهر في عملنا في مثل هذه اللحظات الحسّاسة والظروف الصعبة: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[1]. فعلى سبيل المثال، عندما يحلّ علينا وقت «جردة الحساب السنوية» نسعى بكامل جهدنا لكي نقلّل من مقدار الخمس والزكاة الذي علينا أن ندفعه. وكذلك بعد الحسابات الدقيقة وحين الدفع نسعى لأن نسلّمها لعالمٍ يُجيزنا في قسمٍ منها. وحتّى بعد تقليلنا وتحديدنا لذلك المقدار الواجب نميل كذلك إلى تحصيل إجازة شرعيّة لكي نسلّم المال للجهات والأفراد الذين نعرفهم. هذا كلّه في حين أنّنا حاضرون لندفع عشرة أضعاف ذلك الخمس والزكاة في وليمةٍ واحدة ندعو إليها الضيوف. على أنّ ما ذكرناه يتعلّق بالتكاليف الماليّة الواجبة، من قبيل الخمس والزكاة، أمّا إذا جئنا إلى التكاليف الماليّة المستحبّة فهذه الأوضاع أسوأ من ذلك بكثير. الحقيقة هي أنّ علينا أن نكون شاكرين في مثل هذه الحالات التي نواجهها وأن نؤدّي أعمالنا على أحسن وجه؛ فالله تعالى قد تفضّل علينا وجعلنا واسطةً لإرسال ماله إلى العباد المحتاجين. هذا بحدّ ذاته تفضّلٌ إلهيّ علينا يؤدّي إلى رشدنا وترقّينا المعنوي.

في سائر الأعمال كذلك ليس الوضع أفضل من ذلك، بل لا بدّ من ظهور آثار العبوديّة في جميع هذه الموارد، ولكن مع الأسف، أحيانًا تترسّخ فينا الأنانيّة والأهواء النفسيّة فتمنع بروز العبوديّة وظهورها، وبالتالي فأفضل ما يمكن للمرء أن يعمله هو أن يتجاوز حدود الأنانيّة. أحيانًا يتفضّل الله تعالى على بعض عباده ويمنّ عليهم بمنحهم درجةً

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ١٠٦.



من المعرفة تجعلهم لا يرون بعدها شيئًا لأنفسهم، فتظهر عندهم عبوديّة الله في جميع حالاتهم، في سلوكهم، وكلامهم، وحركاتهم وسكناتهم. هؤلاء يُفهمهم الله تعالى أنّهم لا يملكون شيئًا، وأنّ كل ما بحوزتهم إنّما هو منه هو قد وضعه أمانةً بأيديهم.

كثيرًا ما يحدث أنّ خطيبًا متكلّمًا وبارعًا يُبتلى في ذروة خطبته بنسيان أبسط العبارات والمطالب، ومهما يسعى لتذكّرها لا يوفّق لذلك، أو أنّ عالمًا جليلًا متقدّمًا في السنّ حين قراءته سورة الحمد في الصلاة ينسى قسمًا منها؛ هذه السورة التي كان يقرؤها لعشرات السنوات في صلاته وفي غيرها! هذه الأحداث والوقائع ليست اتّفاقيّة وبدون أسباب، والأشخاص الواعون والمتنبّهون يرون أنّ في هذه الأحداث تحذيرًا وتذكيرًا لهم، ويعتبرون جميع هذه الأمور لطفًا إلهيًّا لإيقاظهم وتنبيههم.

أحد كبار أساتذة الحوزة العلميّة (دامت بركاته) ينقل أنّه كان يحضر في النجف الأشرف في درس أحد كبار العلماء، وكان عددٌ من كبار المراجع في ذلك الزمان يحضرون في ذلك الدرس أيضًا. في يوم من الأيّام قام الأستاذ بعرض درسه، ثمّ قام بعض تلامذته البارزين، وكما هي العادة، بطرح إشكالات أجاب عنها الأستاذ وانتهى الدرس. في اليوم التالي عندما شرع بالتدريس، رأينا أنّه ذكر نفس المطلب تمامًا الذي عرضه في اليوم السابق، وكذلك قام تلامذته بتكرار الإشكالات السابقة بعينها، وسماحته أجاب بدوره بالأجوبة نفسها، وبهذا انتهى الدرس. في اليوم الثالث جاء الأستاذ وشرع بدرسه الذي شرح فيه، من أوّله إلى آخره، الدرس نفسه تمامًا الذي عرضه في اليومين السابقين، مكرّرًا الإشكال والأجوبة بعينها أيضًا. بعد انتهاء الدرس، اقترب إليه

أحد تلامذته المقرّبين وخواصّه وسأله عن السبب في ما جرى، فقد كرّرتم في درسكم المطلب نفسه لثلاثة أيام كما كرّرتم الإشكال نفسه والأجوبة عينها، فما السبب في ذلك مع أنّنا لم نعهد منكم هذا الأمر من قبل؟ في جوابه قال ذلك الأستاذ الجليل: تفكيري جامدٌ منذ ثلاثة أيـام، مهما طالعت وفكّرت فلا يخطر على بالي إلّا تلك المطالب السابقة، وكذلك عندما طرحتم الإشكال لم يكن يحضر في ذهني إلّا ذلك الجواب، ومهما حاولت لم أستطع أن أتقدّم بفكري أكثر من ذلك.

هذا النحو من الأحداث والوقائع يُظهِر لطف الله تعالى وعنايته ببعض عباده، بحيث إذا خطر في أذهانهم أوهامٌ ما أو تهيّأت عندهم الأرضيّة لوسوسات الشيطان، تأتي هذه الأحداث لتنبّههم وتُرجعهم، ويذكّرهم الله تعالى من خلال ذلك بأنّ لطفه إذا ما سُلب عن المرء ولو للحظةٍ قصيرة فسينسى جميع ما كان يعلمه قبل ذلك.

على أيّ حال، فالإنسان الذي يدّعي عبوديّته لله ينبغي أن تكون علاقته مع وليّ نعمته وخالقه بهذا النحو، فيرى أنّ بيد الله كلّ شيء وأنّه هو المحيي والمميت، ولا يرى لنفسه أيّ استقلاليّة؛ بل يعتقد بأنّ الله هو منشأ جميع أفعاله، وتصرّفاته، ونيّاته، وحركاته وسكناته: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[1].

أي إنّ يد رسول الله ﷺ والمؤمنين الذين شاركوا في محاربة الكفّار والمشركين لم تكن إلا عاريةً أعارهم الله إيّاها، وكأنّ وجودهم في ميدان الحرب كان مجرّد وسيلةٍ لا أكثر لكي يُنزل الله تعالى من خلالها الخسارة على المشركين. استحضار هذه الحالة عند

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ١٧.



الإنسان يساوي الإحساس بالإفلاس أمام الله تعالى صاحب القدرة غير المتناهية ومالك تمام وجوده. في مثل هذه الحالة التي يعيشها الإنسان، حتى العبادات والأعمال التي يؤدّيها بكلّ رحابة صدر، لا يراها من نفسه؛ بل يعتبرها جميعها نتيجةً للتوفيق الإلهي. إنّما هناك نسبةٌ محدودةٌ جدًا تكاد لا تُذكر من تلك العبادات والأعمال تُنسَب إلى الإنسان، وهذه النسبة بدورها تتلوّث بعدم خلوص النيّة.

إذا رافـق الإنسانَ هذا التوفيق وسيطرت عليه هذه الحالة السعيدة وتيقّن تمامًا بأنّه لا يملك شيئًا، فسيعيش حالةً من انقطاع الرجاء، مثل الشخص الذي يخسر رأس ماله فجأةً أو تغرق تمام بضاعته دفعةً واحدة، ففي مثل هذه الحالات لا يجد شيئًا لكي يتعلّق به ويعتمد عليه، وعندما ينقطع رجاؤه من كلّ شيء لن يبقى له إلّا اللجوء إلى الله تعالى.

هذه اللحظة هي لحظة التمسّك بالله تعالى، والتمسّك به والالتجاء إليه هو نقطة التحرّر. وما إن يستحضر العبد هذه العلاقة بينه وبين ربّه حتى يتنبّه إلى حقيقة أنّ التوجّه إلى الله تعالى يحتاج إلى استحقاقٍ وأهليّة كذلك، فيسأل نفسه: ما هو العمل الذي أعمله لله تعالى حتى يكون لديّ استحقاقٌ للّطف الإلهي؟ كلّ ما كان إنّما هو من لطفه وتوفيقه. في هذه اللحظة ينكسر الإنسان بالحقيقة، فتنقلب حاله وتجري دموعه ويرتجف بدنه، حتى وجهه يتغيّر لونه، ويغرق في التفكير بسبيل الخلاص: ماذا أفعل؟ إلى أين أذهب؟ عندما يرى أنّه لا يملك حتى الأهليّة والاستحقاق لأيّ شيء وأنّه عاجزٌ تمامًا؛ يتوسّل إلى الله تعالى مباشرةً ويقول: إلهي! انظر إليّ وإلى عدم أهليّتي، إلهي ارحمني بحقّ عبادك المحترمين والوجهاء عندك!

بهذا النحو يخاطب الإمام السجّاد عليه السلام ربّه في هذه الفقرة من الدعاء فيقول: «**اللّهُمّ إِنّي أَسْأَلُكَ بِحَقّ هَذَا الشّهْرِ، وَبِحَقّ مَنْ تَعَبّدَ لَكَ فِيهِ مِنِ ابْتِدَائِهِ إِلَى وَقْتِ فَنَائِهِ مِنْ مَلَكٍ قَرّبْتَهُ، أَوْ نَبِيٍّ أَرْسَلْتَهُ، أَوْ عَبْدٍ صَالِحٍ اخْتَصَصْتَهُ، أَنْ تُصَلّيَ عَلَى مُحَمّدٍ وَآلِهِ...**».

إذا وُفّقنا للوصول إلى مثل هذه الحالة السعيدة التي وصل إليها الإمام عليه السلام، فستصبح عباراتنا على هذا النحو والسياق. على أنّ الإمام السجّاد عليه السلام هو أحد الأئمّة المعصومين عليهم السلام وأحد الأنـوار الإلهيّة الطاهرة والنقيّة، ونحن غير قادرين على إدراك مقام تلك الأنوار الطاهرة، ولكن مع ذلك يُستفاد من تعابير الإمام عليه السلام أنّ هؤلاء الأئمّة العِظام عليهم السلام كانوا في مقام عبوديّتهم لله ينظرون إلى أنفسهم من جهة أنّهم عبيد ولا يملكون شيئًا، ومن جهةٍ أخرى ينظرون إلى كرامات الله تعالى وعناياته وألطافه غير المتناهية، حتى إنّهم كانوا يعتقدون بأنّ كل ما سوى الله ليس له ذاتيّة في مقابل الحقّ تعالى، بل كلّ شيءٍ من دون الله ليس ـ أساسًا ـ إلا دائرةً فارغةً أو كتلةً من الفقر، ولهذا السبب، فمع أنّهم لم يرتكبوا ذنبًا قطّ، كانت دموعهم تنهمر أكثر منّا، وكان تأوّههم وتضرّعهم يفوق الذي عندنا. منشأ هذه الحالات عندهم هو هذه الرؤية المتعالية والمقدّسة. في المقابل، لمّا كنّا نحمل أفكارًا ناقصة ومغلوطة، وتخيّلات وتوهّمات، وظهورًا مثقلة بالذنوب والمعاصي؛ لم يكن لدينا نحن مثل تلك الدموع والتأوّهات، اللهمّ إلّا إذا التجأنا إليهم لكي نصل نحن أيضًا إلى مثل تلك الحالات السعيدة.

في هذا الدعاء قام الإمام السجّاد عليه السلام ـ في الحقيقة ـ بتصوير حالاتنا نحن، ليعلّمنا كيف نشعر تمامًا بالفقر المحض في مقابل الله



تعالى، وكيف نتوسّل به لتعويض هذا العجز، ونقسم عليه بالوجهاء عنده حتى يشملنا كذلك بعنايته ولطفه.

فلسفة تأوّهات المعصومين عليهم السلام وبكائهم

لماذا كان الأئمّة عليهم السلام يعبّرون بهذه التعابير وينسبون إلى أنفسهم الذنوب ومن ثمّ يستغفرون الله منها؟

ذُكرت وجوهٌ عديدة في توجيه هذه الحالات، ومن جملتها ما سبق أن أشرنا إليه في الفقرات السابقة؛ أي إنّ كمال العبوديّة يكمن في أن يرى العبد نفسه، وهو في مقام إظهار العبوديّة في محضر الحقّ تعالى؛ يراها كتلةً من الفقر والاحتياج، ويعتبر نفسه فقيرًا محضًا بالحقيقة، ويرى أنّ هذا الفقر والعجز هو منشأ كلّ قبحٍ وعيب. إذا كانت الوقاحة قبيحةً، فمنشأ ذلك هو انعدام الحياء، والله تعالى هو الذي يعطي الحياء. إذا كان الجهل قبيحًا جدًّا، فرفعه إنّما يكون بالعلم والمعرفة، ومنشأ ذلك العلم والمعرفة هو الله تعالى فقط. بناءً عليه، يرى هؤلاء الأئمّة العظام عليهم السلام أنّ جميع العيوب، والقبائح، والرذائل، من العبد، ويعتقدون بأنّ رفعها لا يكون إلا من الله، إذًا فكلّ عزّةٍ من الله تعالى؛ لأنّه لولا عطاء الله لكان العبد أذلّ الأذلّاء.

عبد الله عندما يرى نفسه مجرّدًا عن العطاء الإلهي له، يرى نفسه أنّه الأذلّ، وعندما ينظر إلى ما يملكه وإلى عزّته من حيث إنّ منشأ جميع ذلك هو الله تعالى؛ يرى نفسه أنّه الأعزّ. إنّ العبوديّة للإله الجليل، الله تعالى، هي بذاتها أعلى درجات العزّة، وهذا مضمون جملةٍ من المطالب التي وردت في دعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة.





في هذه الفقرات من الدعاء يسجّل الإمام السجّادعليه السلام هذا الأمر عن حالاته بصفتها علاقةً بين العبد وربّه؛ أي إنّ حالة التقلّب التي تُعدّ من الخصائص المميّزة في الدعاء، نجدها في هذا الدعاء أيضًا؛ فأحيانًا ينظر الإمامعليه السلام إلى نفسه وإلى فقره مجرّدًا عن الألطاف والعناية الإلهيّة، وأحيانًا أخرى ينظر إلى عبوديّته لله المالك والغنيّ، وفي هذه النظرة عندما يتطلّع إلى الله تعالى يرى كرمه ورحمته غير المتناهية، ولهذا يطلب منه كلّ شيءٍ للجميع؛ لأنّه يعتقد بأنّك يا إلهي إذا أردت أن تغفر لجميع العالم بهذا الدعاء ما كان ذاك عنك مستبعدًا، ولا ينقص منك شيء. هذه هي نظرة الإمام إلى الرحمة الإلهيّة، فعندما ينظر إلى أنّه ليس بشيء يقول أنا لا أستحقّ شيئًا أبدًا وكلّ شيءٍ من فضل الله، وبما أنّه ليس لديّ استحقاق، فأقسم عليك بكلّ من هو عزيزٌ عندك وبكلّ شيءٍ عزيز عليك، وبما أنّنا في شهر رمضان المبارك، فأقسم عليك أوّلًا بحقّ هذا الشهر الذي شرّفته وأكبرت مقامه، وأقسم عليك بحقّ جميع الذين عبدوك أو سيعبدوك من أوّل خلقك لهذا الشهر المبارك إلى آخر عمره؛ من الملائكة والأنبياء والأولياء وعبادك الصالحين؛ إلّا ما رحمتني ووفّقتني لكي تشملني تلك الوعود التي أعطيتها لأوليائك: «**اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ... أَنْ تُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه، وَأَهِّلْنَا فِيه لِمَا وَعَدْتَ أَوْلِياءَكَ مِنْ كَرَامَتِكَ، وَأَوْجِبْ لَنَا فِيهِ مَا أَوْجَبْتَ لاهْلِ الْمُبَالَغَةِ فِي طَاعَتِكَ، وَاجْعَلْنَا فِي نَظْمِ مَنِ اسْتَحَقَّ الرَّفِيْعَ الاعْلَى بِرَحْمَتِكَ**».

ونحن كذلك علينا أن نتأسّى بذلك الإمام العظيم فنستشفع إلى الله دائمًا بأعزّ عباد الله تعالى وأفضلهم؛ أي رسول اللهصلى الله عليه وآله وسلم ومعه أمير المؤمنينعليه السلام الذي هو أخو النبيّ ونفسه. نحن نؤمن بأنّنا لو





أقسمنا على الله تعالى فقط بجمال وجه أمير المؤمنين عليه السلام أن يغفر لجميع محبّيه، فغفر لهم لما كان ذلك بعجيب؛ فهذا الرجل العظيم عزيزٌ عند الله تعالى إلى حدّ أن نَفَسًا منه أو نظرة أو قطرة دمع كافيةٌ لكي يُغفر ببركتها لجميع محبّيه.





الجلسة الثامنة عشرة:

الشعور بالفقر المحض أمام الله







«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَجَنِّبْنَا الإلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ وَالشَّكَّ فِي دِينِـكَ وَالْعَمَى عَنْ سَبِيْلِكَ وَالإغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ، وَالانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»

الشعور بالفقر المحض أمام الله

بالتدقيق في هذه الفقرة من الدعاء وفي الفقرات السابقة يتّضح أنّ طلبات الإمام السجّادعليه السلام من الله تعالى لها سيرٌ صعوديّ تقريبًا؛ ففي البداية، وبعد الحمد والثناء الإلهي، يطلب التوفيق لإدراك شهر رمضان المبارك، ثمّ يطلب بعد ذلك مجموعة طلبات حول التوفيق لمراعاة حدود الصلاة وسائر العبادات المذكورة لهذا الشهر، وحول التوفيق في الواجبات المالية، وصلة الرحم، وإغاثة المحرومين ومراعاة الواجبات الاجتماعية. وفي النهاية، يطلب من الله تعالى أن يرتقي به إلى درجةٍ تكون أعلى حتّى من الملائكة المقرّبين، وأن يوفّقه لطاعاتٍ تعجز عنها حتى الملائكة.

في هذه الفقرة من الدعاء، كأنّ الإمام قد تنزّل فجأةً ليطلب من الله تعالى النجاة من الشرك والشكّ والتردّد، فما سبب ذلك؟ وبخاصّة عندما نقارن بين حالات الإمام المقدّسة والمتعالية وحالاتنا نحن، فإنّ هذا السؤال يبرز بشكلٍ أكبر.

في الحقيقة لا نعلم السبب الذي دفع الإمام عليه السلام ليختار هذه الطريقة ويتكلّم بهذا النحو، ولكي نحلّ هذه المسألة، لعلّ بإمكاننا أن نشير إلى ذلك المطلب الذي ذكرناه في الفقرات السابقة في مقام الإجابة عن السؤال حول سبب بكاء المعصومين عليهم السلام وتأوّهاتهم في محضر الله تعالى.

ذكرنا أنّ ميزة الدعاء هي أنّ الإنسان يرى فيه نفسه أحيانًا من دون الله، وفي هذه الحالة فهو ينظر في الواقع إلى ما لديه من نقصٍ وعيب، وجهلٍ وفقر محض، وتقصير وقصور. أحيانًا أخرى قد يرى نفسه محصورًا في دائرة ألطاف الله وتفضّلاته، وفي هذه الحالة يبرز أمام نظره غناه ومالكيّته، وعلمه ومعرفته وكماله. في الواقع، فعندما ينظر الإنسان إلى نفسه من دون الله فإنّه يشاهد في وجوده موانعًا، ويرى أنّه لا خلل في الله تعالى وألطافه، فهو يعطينا، ولكن لماذا لا أشعر بتحسّنٍ في نفسي؟ لعلّ ذلك بسبب الموانع الموجودة عندي، فأنا أقوم حتى بالأعمال الصالحة ولكن دون أن تترك فيّ أثرًا، ولعلّ ما يمنعني في الطريق هو هذا الشكّ والتردّد، والانحرافات العَقَديّة والسلوكيّة، والنيّات غير الخالصة والرياء والسمعة وبعض الأعمال الذميمة؛ كلّ واحدٍ من هذه الموارد يمكنه أن يكون مانعًا لقرب الإنسان من الله، ولا بدّ من رفع هذه الموانع، وهذا ما نتوجّه إلى الله





تعالى ونستمدّ منه العون من أجله؛ وبالتالي فهذا النوع من الطلبات هو نوعٌ من الاستمداد من حضرة الحقّ لإزالة الموانع.

وكذلك حال الأئمّة المعصومين عليهم السلام في الدعاء، أحيانًا كانوا ينظرون إلى الله تعالى وغناه المطلق ولطفه وكرمه غير المتناهي ويعلّقون الآمال على ذلك. وأحيانًا كذلك كانوا ينظرون إلى أنفسهم وعجزهم وفقرهم، وفي هذه الحالة يبكون على أنفسهم؛ إذ في هذه الحالة يرون أنفسهم من دون الله كتلةً من الفقر وليس لديهم من ذاتهم أيّ شيءٍ إطلاقًا، فينسبون إلى أنفسهم مثل هذه التعابير: «فَمَنْ يكُونُ أَسْوَءَ حالًا مِنّي إِنْ أَنَا نُقِلْتُ عَلَى مِثْلِ حالي إِلى قَبْرٍ...»[١]

أو يطلبون الله مثل هذه الطلبات: «**وَجَنِّبْنَا الْإِلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ، وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ، وَالشَّكَّ فِي دِينِكَ، وَالْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ، وَالْإِغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ، وَالِانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ**».

ذكر هذه الأمور لأمثالنا ولسائر الناس غير المعصومين أمرٌ مقبولٌ ومتوقّع، ولكن أن نرى شخصيّةً بارزة ومتميّزة مثل الإمام السجّاد عليه السلام بعد أن يطلب من الله مسائل عادية ومهمّة طبعًا، يقول مباشرة: إلهي

---

(١) «فَقَدْ أَفْنَيتُ بِالتَّسْويفِ وَالْآمالِ عُمْري، وَقَدْ نَزَلْتُ مَنْزِلَةَ الْآيسينَ مِنْ خَيري، فَمَنْ يكُونُ أَسْوَءَ حالًا مِني، إنْ أَنَا نُقِلْتُ عَلى مِثْلِ حالي إلى قَبْرٍ لَمْ أُمَهِّدْهُ لِرَقْدَتي، وَلَمْ أَفْرُشْهُ بِالْعَمَلِ الصّالِحِ لِضَجْعَتي، وَما لي لا أَبْكى وَلا أَدْري إِلى ما يكُونُ مَصيري، وَأَرى نَفْسي تُخادِعُني وَأَيامي تُخاتِلُني، وَقَدْ خَفَقَتْ عِنْدَ رَأْسي أَجْنِحَةُ الْمَوْتِ، فَما لي لا أَبْكي، أَبْكي لِخُرُوجِ نَفْسي، أَبْكي لِظُلْمَةِ قَبْري، أَبْكي لِضيقِ لَحدي، أَبْكي لِسُؤالِ مُنْكَرٍ وَنَكيرٍ إِيايَ، أَبْكي لِخُرُوجي مِنْ قَبْري عُرْيانًا ذَليلًا حامِلًا ثِقْلي عَلى ظَهْري، أَنْظُرُ مَرَّةً عَنْ يميني وَأُخْرى عَنْ شِمالي، إِذِ الْخَلائِقُ في شَأْنٍ غَيرِ شَأْني، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يوْمَئِذٍ شَأْنٌ يغْنيه» (**مفاتيح الجنان**، دعاء أبي حمزة الثمالي؛ محمّد بن جعفر الطوسي، **مصباح المتهجد**، ص ٥٩٠).

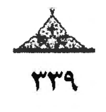


«وجنّبنا الإلحاد في توحيدك»؛ فهذه مسألة عجيبة وإدراكها في غاية الصعوبة. الواقع هو أنّ هؤلاء العظام كانوا يرون أنفسهم في مقابل مولاهم مَدينين وفقراء في الحقيقة، وقد نُقل في سيرة حياة أهل البيت عليهم السلام كثيرٌ من الحالات الغريبة، والبكاء الطويل، والتأوّهات المحرقة، وحالات الإغشاء. هذه الحالات العجيبة والغريبة ومثل هذه التعابير المنقولة عنهم والتي تثير المشاعر؛ إنّما تعبّر عن واقع أنّهم عليهم السلام لم يفعلوا ذلك كلّه لأجل الآخرين أو لكي يعلّموا غيرهم، بل تؤيّد في الغالب الرأي الذي يقول إنّ هذه الأدعية والمناجيات كانت من أجل أنفسهم عليهم السلام ولبيان حالاتهم الشريفة.

وعلى أيّ حال، يمكن أن يستفاد من هذه الفقرة من دعاء الإمام السجّاد عليه السلام أنّ جلب التوفيق الإلهي، وبالتالي القيام بالأعمال الصالحة وإن كان بأفضل وجهٍ وصورة، فذلك وحدَه غيرُ كافٍ؛ إذ يقف أمام الإنسان موانعُ وآفاتٌ كثيرة ينبغي أن لا يغفل عنها. ولا شكّ في أنّ التعرّف على الموانع والتغلّب عليها ورفعها وعدم الوقوع في شراكها هو توفيقٌ لا بدّ من طلبه من الله تعالى.

التوحيد والإلحاد في التوحيد

من فقرات هذا الدعاء التي تثير الدهشة والتعجّب عند الجميع: أن يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله أن يجنّبه الانحراف عن طريق التوحيد. كما سبق أن أشرنا، فمدعاة العجب في هذا القسم من الدعاء هو أنّ الداعي ليس إنسانًا عاديًّا؛ بل هو الإمام المعصوم ووليّ الله: الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام.



كلمة «إلحاد» بحسب الاصطلاح المعروف والرائج إنّما تُطلَق على الأشخاص الذين ينكرون الله تعالى أو ينكرون الدين من الأساس، ولكنّ المعنى اللغوي للإلحاد ليس كذلك في الحقيقة. الإلحاد مفهومٌ قرآنيّ[1]، والمقصود منه الميل والانحراف عن الحقّ. بناءً عليه، فالإلحاد يعني الانحراف. نعم؛ إنكار الله تعالى أحد مصاديق الانحراف والإلحاد، ولكنّ الإلحاد لا ينحصر في إنكار الله والدين. ثمّ إنّ استعمال الإلحاد في القرآن والروايات استعمالٌ واسعٌ جدًّا، وهو يشمل جميع أنحاء الانحراف عن طريق التوحيد.

التوحيد يعني القول بوحدانيّة الله؛ أي الاعتقاد بأنّ خالق عالم الوجود ومدبّره واحدٌ لا شريك له. في مقابل هذه الرؤية معتقدات أخرى أيضًا ممتدّة من الماضي البعيد جدًّا إلى يومنا هذا؛ من قبيل الاعتقاد بالثنويّة أو الاعتقاد بالتثليث. هذه المعتقدات والمدارس هي نوعٌ من الانحراف عن عقيدة التوحيد. صحيحٌ أنّ هذه الجماعات تؤمن بالله وتعدّ من جملة عبدة الله تعالى، ولكنّها في الواقع لا تعتقد بالإله الواحد الأحد الذي لا شريك له. مضافًا إلى ذلك، فإلى جانب تلك الجماعات أشخاصٌ ينكرون الله تعالى من الأساس، وهؤلاء يُعرَفون في التعابير القرآنية بـ«الدهريّين»: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾[2]. هذه المجموعة من الملحدين معروفة بـ«الطبيعيّين»، واليوم يقال لهم «الماديّون» أو «الماترياليّون» بحسب التعبير الغربي.

---

(١) ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ (سورة **الأعراف**، الآية ١٨٠)؛ ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾ (سورة **النحل**، الآية ١٠٣)...

(٢) سورة **الجاثية**، الآية ٢٤.





الإلحاد في التوحيد يشمل جميع هذه الأقسام الثلاثة الأخيرة، فكلّ نوعٍ من الانحراف عن عقيدة الوحدانية والتوحيد هو نوعٌ من الإلحاد. ولكن هل الإنكار في التوحيد ينحصر في هذه الأنواع الثلاثة (الثنويّة، التثليث، والمادّية)؟ إنّ خطر الانحراف عن الصراط المستقيم الاعتقادي وخطر الإلحاد في التوحيد بمختلف أشكاله يهدّدنا جميعًا نوعًا ما. أشخاصٌ كثر، وقد رأينا بعضهم بأمّ العين، انحرفوا بعد سنواتٍ من دراسة العلوم الدينيّة، والمثال القرآني البارز في باب الإلحاد في التوحيد: بلعم بن باعوراء. عندما نرى مثل هذه الشخصيّة التي قد وصلت بعد سنواتٍ من الجهد والمشقّات الكثيرة إلى مقام «مستجاب الدعوة»، ثمّ تسقط دفعةً واحدة؛ فسيكون حال الآخرين في غاية الوضوح، ولا يمكن لأحدٍ أن يجزم بأنّه في مأمنٍ من تهديد خطر الكفر، كما لا شكّ في أنّ كلّ من يشعر بمثل هذا الأمان قد وقع ضحيّة خدع الشيطان. جميعنا معرّضون لجميع أنواع الخطر، اللهمّ إلّا إذا شملتنا الألطاف الإلهيّة وأعاننا التوسّل بعنايات أهل البيت عليهم السلام وذكر المصائب وذرف الدموع، ليضمن لنا حفظ ديننا، ولولا هذه الفسحة من الأمل فإنّ أيدينا خالية تمامًا. على أنّ خطر الإلحاد في التوحيد والانحراف عن الطريق لا ينحصر بأن يصبح الفرد مسيحيًا أو ثنويًا أو منتميًا لفرقة ضالّة، ولا بأس بأن أذكر هنا عدّة نماذج عن أشخاص انحرفوا عن مسير الحقّ لأسباب مختلفة.

قبل انتصار الثورة، كان أحد العلماء يرتقي المنبر في المدرسة الفيضية، وقد كنت حاضرًا حينما كان يتحدّث في ليلةٍ بعد الصلاة حول المادّيين والملحدين، ذاكرًا في هذا المجال أدلّةً يردّ بها عليهم. وفي خطابه للمادّيين جعل يقول: أنتم تعتقدون بأنّ المعادلات



الرياضيّة وحلّ تلك المعادلات وقواعد الجمع والمعالجة في المعادلات الرياضيّة، هذه جميعها أمورٌ ثابتةٌ لا تتغيّر، والإله الذي نعتقد به كذلك، فهذه الأمور الثابتة هي الله، وبقيّة الأمور في العالم من غير هذه الأمور الثابتة لمّا كانت متغيّرةً وتزول، فمجموع هذه المتغيّرات هي علم الله. علم الله كذلك هو عين الله، والله هو تلك المعادلات الرياضيّة الثابتة.

هذا الشخص كان عالمًا في هذه المدينة يرتقي المنبر في الحوزة العلميّة في قمّ المقدّسة ليدافع عن معتقداتنا الدينيّة بمثل هذه التصوّرات والمعارف!

شخصٌ آخر كذلك كان من أهل العلم والفضل، وكان قد درس في الحوزة العلميّة في قمّ وفي سائر الحوزات أيضًا. كان يعتقد بأنّ الردّ على الماديّة ومواجهة الماديّين في غاية السهولة، وأنّه لا حاجة إلى المباحث الفلسفيّة والكلاميّة المعقّدة. كان يقول مخاطبًا الماديّين: جميع التغييرات الموجودة في عالم المادّة وتبدّل المادّة إلى مادّة أخرى وهكذا؛ جميع ذلك ينتهي أخيرًا إلى شيءٍ اسمه «مادّة المواد»؛ أنتم تسمّونه «مادّة المواد» ونحن نعبّر عنه بـ«الله»!

هذان الشخصان كانا من الصالحين، ولكنّهما في مقام الدفاع عن الدين والمعتقدات الدينيّة كانا يلقيان على الآخرين مثل هذه الكلمات!

الحالة الثالثة التي أنقلها عن شخصٍ كان قد كتب قبل انتصار الثورة كتابًا بعنوان «التوحيد»، وقد ادّعى في هذا الكتاب بأنّه ليس ثمّة إشكالٌ يرد على الماديّة الفلسفيّة، وأمّا ما يستحقّ الذمّ فهو





المادّيّة الأخلاقيّة. المادّيّة الفلسفيّة تعني الاعتقاد بأنّ هذا العالم ليس فيه شيءٌ سوى المادّة؛ هذا الاعتقاد المشبع بالإلحاد كان يرى في كتاب توحيده أن لا إشكال يرد عليه، إذ إنّ كلمة «الله» في «لا إله إلا الله» تعني بحسب اعتقاده المثاليّة الأخلاقيّة.

هذا الشيخ المدّعي كان شخصًا يتظاهر كذلك ببعض السلوكيّات الأخلاقيّة، فكان ـ مثلًا ـ يتجنّب الجلوس على السجّاد الثمين والنوم على الفُرش الناعمة، ولم يكن يتناول أيّ طعامٍ في الولائم التي يُدعَى إليها ـ مع أنّه كان يأكل من كلّ شيء في الولائم الخاصّة ـ، وباختصار فقد كان يتظاهر بكثيرٍ من الزهد أمام أعين الآخرين. على أنّ هذا الرجل، لاحقًا، وبعد سنواتٍ من الدراسة في الحوزات العلميّة في مشهد وقمّ، على يد بعض كبار العلماء؛ صار منكرًا للدين من الأساس. لقد روّج بين رفاقه ومريديه وأتباعه الزواج الجماعي، وفي تبريره لهذا العمل القبيح كان يستدلّ بالقرآن الكريم حيث يقول: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾[1]، باعتبار أنّ «نساء» جمع و«كُم» جمعٌ أيضًا، فيكون معنى الآية هو أنّ مجموعةً من الرجال يتزوّجون، بشكلٍ جماعي، مجموعةً من النساء! هذه الأحكام الشيطانيّة كانوا يطبّقونها وينفّذونها كذلك في منازل فريقه. لقد كان يعتقد في كتاب توحيده بأنّ الإيمان بالمادّة وعدم الإيمان بالله ليس عيبًا، فالمهمّ هو أن يكون الإنسان زاهدًا ويكون نصيرًا للعمّال والفقراء، وأمّا سائر الأمور فهي غير مهمّة؛ أن يكون لديك اعتقادٌ بالله أو أن لا يكون، ما الفرق في ذلك؟

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٢٣.



نموذجٌ آخر من بحوثه كان حول معنى التوحيد؛ فقد كان يقول إنّ «التوحيد» من «وَحَـدَ»، وهو من باب التفعيل بمعنى «إيجاد الوحدة» و«جعل الشيء واحدًا»؛ أي نأتي إلى شيءٍ ما لا يكون واحدًا بالأصل ثمّ نجعله واحدًا ونمنحه الوحدة، وبالتالي، فأصل التوحيد يعني أن نمنح الوحدة لكلّ ما هو كثرة ولا يتّصف بالوحدة. ثمّ إنّ مجموعةً استنتجت من هذا الفهم المغلوط والمنحرف أنّ التوحيد بالأساس عمليّةٌ مرتبطة بالمجتمع؛ وهذا المفهوم هو ما أسماه بعض الأفراد والجماعات، الذين كانوا بحسب الظاهر مسلمين ولكنّهم كانوا ماركسيّين في مقام العمل؛ أسموه بـ«المجتمع التوحيدي المعاصر».

إحدى خصائص الماركسيّين كانت في أنّهم عندما يَدخلون إلى مجتمع ما يهيمنون على أدبيّات ذلك المجتمع. كانوا يستحوذون على أفضل الأدبيّات الموجودة في كلّ مجتمع، كما كانوا يُدخلون إلى أدبيّات المجتمع معظم المصطلحات الجديدة والكلمات البرّاقة، تمامًا كما ينسب القرآن الكريم إلى الشياطين والمنافقين: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾[1].

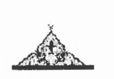
هكذا كان الماركسيّون، وأحد تلك المفاهيم الجديدة والجذّابة التي روّجوها: «المجتمع التوحيدي المعاصر». كانوا يدّعون أنّ المجتمعات التي تشكّلت في العالم حتى يومنا هذا عبارة عن: الإقطاعية، والرأسمالية، ونظام الرقّ، وقد انطوت صفحة تلك المراحل. أمّا اليوم فهو زمان حاكميّة المجتمع الاشتراكي والشيوعي حتى نوجد

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١١٢.

في ظلّ ذلك «المجتمع المعاصر». كانت دعواهم أنّ الوصول إلى المجتمع الشيوعي يكون من طريق المجتمع الاشتراكي، حيث يكون كلّ شيء في هذا المجتمع ملكًا للجميع بنحوٍ مشترك. كان ماركس يعتقد بالمجتمع الاشتراكي؛ ذلك المجتمع الذي لا يكون فيه المال، الثروة، الممتلكات، المرأة، المنزل، الحقوق والمزايا؛ جميع ذلك لا يكون مختصًّا بشخصٍ ما، وليست الملكية الخاصّة هي التي تُلغَى فحسب؛ بل الاستفادة من النساء لا بدّ من أن تتمّ بشكلٍ مشترك! فالحاجة إلى المرأة أو الزوج هو نوعٌ من الاحتياجات التي لا بدّ للدولة من أن تؤمّنها. على الدولة أن تتكفّل برفع احتياجات عموم الأفراد في المجتمع، سواءٌ أكانت هذه الحاجة إلى الماء والغذاء أم إلى المرأة والزوج؛ لا بدّ من إنشاء مراكز يرجع إليها جميع أفراد المجتمع ـ كلٌّ بحسب حاجته ـ لكي يرفعوا حاجاتهم فيها.

ومع ظهور الماركسيّين الإسلاميّين، أضافوا إلى ذلك المصطلح كلمة «التوحيدي» ليقولوا إنّنا نسعى إلى إيجاد «المجتمع التوحيدي المعاصر». ولهذا السبب فقد كانت هذه المجموعة المنحرفة تقوم بأفعالٍ مشينة في منازل فريقها، ومن خلال إقامة الزواج الجماعي كانوا يفكّرون بتعميم هذه الحالة الحيوانيّة. لقد تناول هؤلاء الأفراد أفضل شعارٍ لأنبياء الله، وهو «التوحيد»، ثمّ صاروا يؤوّلونه إلى هذا الشكل، ففسّروا التوحيد بجعل الشيء واحدًا وبالاشتراك في جميع الأشياء، حتى غدا التوحيد في نهاية المطاف عين الآمال المتأخّرة عند ماركس وأمثاله، وبهذه الطريقة أوجد هؤلاء الانحراف في مفهوم «التوحيد» ومعناه، في حين أنّنا جميعًا نعلم أنّ التوحيد يعني



﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾[(١)]، التوحيد يعني ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ﴾[(٢)]، والتوحيد يعني الاعتقاد بوحدانيّة الله لا جعل الأشياء المتكثّرة شيئًا واحدًا.

هذه الحالات تشكّل نماذج ملموسة لانحرافاتٍ في مجال التوحيد ووحدانيّة الله، وهي موجودة بين بعض أهل العلم والمحصّلين. إذا ابتُلي الإنسان بمثل هذا الانحراف فلا شكّ في أنّ أعماله وعباداته التي يؤدّيها لن يكون لها بعدُ أيّ قيمة. يتحدّث القرآن الكريم حول هؤلاء الأفراد وأعمالهم التي لا فائدة منها فيقول: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾[(٣)].

وفي آيةٍ أخرى يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾[(٤)].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ١٦٣.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١٧١.

(٣) سورة **النور**، الآيتان ٣٩ - ٤٠.

(٤) سورة **إبراهيم**، الآية ١٨.



وكذلك في سورة الفرقان المباركة يقول حول أعمال الكافرين التي لا فائدة منها: ﴿لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾[1].

جميع هذه التعابير القرآنية الحادّة والشديدة تكشف عن عاقبةٍ سيّئة للغاية تستحقّ التأسّف لهؤلاء الذين تورّطوا بنوعٍ من الإلحاد والانحراف عن الحقّ والتوحيد والذين باتت أعمالهم وتصرّفاتهم مشوبةً بهذا النوع من المعتقدات المنحرفة. على أنّ هذه الحالات لا تختصّ بالماضين وليست عاقبة خاصّة وحصريّة لأقوامٍ بعينهم، بل حتى في أيامنا هذه لسنا، نحن ولا سائر عباد الله، مصونين من وجود مثل هذه الأخطار. لا يمكن لأيّ أمرٍ من الأمـور، من قبيل الحضور في الأماكن المقدّسة في قم والنجف، والاشتغال بالمباحث الدينية والإسلاميّة، والانتماء إلى بعض الجماعات والفئات؛ جميع ذلك لا يمكنه أن يضمن للإنسان مصونيّته من الانحراف عن مسير التوحيد. وبناءً عليه، فلا بدّ من اللجوء إلى الله تعالى وطلب العون منه في كلّ الأحوال، فمع مثل هذه الانحرافات ما أجدر بالإنسان أن يطلب من الله فيقول: إلهي احفظني عن الإلحاد في توحيدك.

ثمّة نقطة جديرة بالذكر بما يخصّ هذا النحو من المسائل الاجتماعيّة؛ وهي أنّ نخب المجتمع قد يتورّطون في نوعٍ من الإفراط أو التفريط: فمجموعة تولي أهمّية أكبر للمسائل الفكريّة والنظرية، والعَقَديّة، والمعرفيّة والإيمانيّة، ومجموعةٌ أخرى تهتمّ أكثر بالمسائل العمليّة والخارجيّة حاملةً روحيّةً عملانيّة. لا شكّ في أنّ القرآن الكريم

---

(١) سورة **الفرقان**، الآيتان ٢٢ - ٢٣.



قد أَولى للإيمان أهميةً أكثر من العمل واعتبر أنّ العمل الصالح فرع الإيمان، وهذا ما صرّحت به آيات القرآن أيضًا: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾[1]، كما صرّحت بأنّ العمل من دون إيمان ليس له أيّ قيمة: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٍۖ لَّا يَقۡدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾[2].

بشهادة هذه الآية الشريفة، فالعمل الصالح لا يكون ذا قيمة ومؤثّرًا في إيصال الإنسان إلى السعادة إلّا إذا كان مستندًا إلى الإيمان؛ بل أكثر من ذلك، العمل الصالح أساسًا لا يجعل الإنسان سعيدًا إلا حينما يؤدّي إلى تقوية إيمان الإنسان ورفع درجاته: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾[3].

المقصود من «الكلم الطيّب» هو الإيمان والاعتقاد؛ فالإيمان في الحقيقة يمنح الرفعة للإنسان ويوصله إلى الله، والعمل الصالح مؤثّرٌ وداعمٌ لرفع الإنسان، ولهذا السبب كانت النيّة مؤثّرةً جدًّا في تقييم الأعمال، فعلى سبيل المثال، إذا بلغ أحدهم سنّ التكليف، وكان مؤمنًا بالله تعالى وينوي القيام بالعمل الصالح، ولكنّه توفّي بحادثةٍ ما قبل أن يقوم بالعمل، فلا شكّ في أنّه من أهل النجاة؛ لأنّه ارتحل عن الدنيا وهو مؤمن. وفي المقابل، فالشخص الذي لم يؤمن بالله تعالى ولكنّه قام بأعمالٍ صالحة، ثمّ ارتحل عن هذه الدنيا وهو في حال الإنكار

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥.

(٢) سورة **إبراهيم**، الآية ١٨.

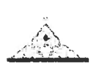
(٣) سورة **فاطر**، الآية ١٠.

والكفر، فصحيحٌ أنّ عذابه قد يُخفَّف بسبب أعماله الصالحة، ولكنّه ليس من أهل النجاة مثل المؤمنين.

وبناءً عليه، فالإيمان أصل، والعمل الصالح ـ بحدّ ذاته ـ نتيجةٌ للإيمان، وجميع جهود الإنسان في مجال حفظ إيمانه ومعتقداته، وتعلّم أكثر معارف الدين وحقيقة الولاية، ومحبّة أهل البيت عليهم السلام وولايتهم مهما أمكن؛ جميع تلك الجهود إنّما هي لتقوية البعد الإيماني حتى يُتقرّب إلى الله تعالى في ظلّها. ولهذا السبب، فجميع التوجيهات التربويّة والأخلاقيّة والإرشـادات والتوصيات التربويّة والأخلاقيّة إنّما هي لتقوية بُعد الإيمان والمعتقدات عند الإنسان، حتى يخطو في الصراط الإلهيّ المستقيم بالاعتماد على هذا المرتكز الاعتقاديّ المحكم.

هذا، ولكن ثمّة مجموعة ترى أنّ جميع الحسنات في الإحسان والعمل الصالح، فالمهمّ في رأيهم هو إغاثة الفقراء، ولا يختلف الأمر عند الشخص العامل أيًّا تكن نيّته في العمل. معيار التقييم في هذه الرؤية هو نفس العمل، فالمهمّ مثلًا هو أن تكون أعمال الشخص الفلاني في إطار خدمة الناس وازدهار البلاد، وإنْ لم تكن نيّاته في أداء تلك الأعمال نيّات طيّبة بالحقيقة، بل وإنْ لم يكن إيمانه واعتقاده صحيحًا من الأساس. فنفس فعله ذو قيمة على أيّ حال، وهذا كافٍ بحدّ ذاته.

مع الأسف، فكثيرٌ من الأفراد، ولو كانوا من الخواصّ، قد يقعون نتيجة هذا الاشتباه في بعض المغالطات والانحرافات الفكريّة، ومنهم مثلًا إحدى الشخصيّات العلمائيّة، الذي خُتم له لاحقًا بحسن العاقبة



ـ والحمد لله ـ واستشهد في حادثة «السابع من تير». هذا الشخص، ونتيجةً لهذه الاشتباهات، كان يعتقد بأنّ للإسلام قسمين؛ ونحن قد عملنا بقسمٍ من الإسلام، فيما الماركسيّون عملوا بالقسم الآخر منه. وبناءً عليه، فليس لنا فضيلةٌ عليهم كما ليس لهم هم فضيلة علينا؛ فنحن لم نأخذ ولم نلتزم إلا بالاعتقاد باللّه والأحكام الإلهيّة مثل الصلاة وسائر العبادات، وهم قد أخذوا قسم العدالة وإغاثة الفقراء والأمور الاجتماعيّة وعملوا بها. ومن هنا، فلا ينبغي لنا أن ننسب إليهم الكفر وعدم التديّن، وإلّا كان لهم الحقّ أيضًا في أن يعتبرونا كفارًا وبلا دين!

هذه الحالات نماذجُ من الأخطار التي تهدّد معتقداتنا وتكمن لنا، بحيث لا يمكن لأيّ شخصٍ أن يشعر بالأمان من ذلك الخطر، ولولا الألطاف والتفضّلات الإلهيّة لما كان أحدٌ من الناس في أمانٍ من ذلك، وهذه الحقيقة هي التي يشير إليها الإمام السجّادعليه السلام في تعبيره الحكيم حيث يقول: «**اللّهُمّ جَنّبْنَا الْإِلْحَادَ فِي تَوْحِيدِك**».



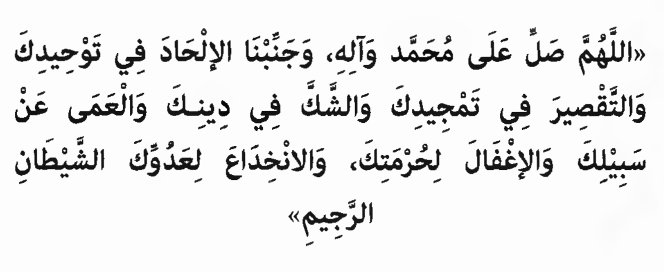


الجلسة التاسعة عشرة:

موانع القرب من الله





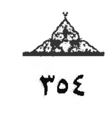


«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِه، وَجَنِّبْنَا الإلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ وَالشَّكَّ فِي دِينِكَ وَالْعَمَى عَنْ سَبِيْلِكَ وَالإغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ، وَالانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»

موانع القرب من الله

في هذه الفقرة من الدعاء يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى التوفيق لأداء أفضل الأعمال والعبادات في شهر رمضان المبارك، بهدف إدراك مقام القرب والوصول إلى الرضوان الإلهي.

قد ذكرنا سابقًا أنّ العناية واللطف الإلهيّ لازمٌ للوصول إلى أيّ موفّقيّة، ومضافًا إلى ذلك، فلا بدّ من رفع الموانع التي وقعت أو ستقع في طريق الاستفادة من هذه المواهب الإلهيّة ودفعها، وذلك حتى لا تحول دون استفاضة الإنسان من الفيوض الربّانيّة. طبعًا فهذا بحدّ ذاته توفيقٌ لا بدّ من طلبه من الله تعالى، ومسائل الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرات من الدعاء تُعدّ من هذا السنخ، فقد ابتدأ عليه السلام مسألته



من الله بأن يوفّقنا لأداء الأعمال والعبادات التي تؤدّي إلى قربنا منه، وفي تتمّة الدعاء كذلك يطلب من الله التوفيق لرفع الموانع التي تحول دون ذلك ودفعها.

من كلمات الإمام السجّاد عليه السلام ونوع طلباته من الله في هذه الفقرة من الدعاء يتّضح أنّه يلفت نظرنا إلى ثلاث مراتب من المسائل وبتبعها ثلاث مراتب من الموانع لوصول الإنسان إلى القرب الإلهي؛ أي إنّ كلّ واحدةٍ من هذه المراحل والمراتب لها آفات وموانع يطلب الإمام عليه السلام من الله تعالى أن يعينه للنجاة منها ومن شرّها.

في المرتبة الأولى، قسمٌ من هذه الموانع هو أمورٌ تتعلّق بأكثر المعتقدات أساسيّةً؛ أي بأولى مرتكزات سعادة البشريّة. هذه الأمور الاعتقاديّة تُعدّ أكثر المسائل بنيويّةً وتأسيسًا في البناء الروحي والإيماني عند الإنسان؛ تمامًا مثل جذور الشجرة الضخمة التي تتوقّف حياتها على حياة جذورها، ومن هنا يقال لهذه الأمور «أصول» بمعنى الجذور. أمّا علّة تشبيه هذه الأمور بجذور الشجرة وتسميتها بالأصول فهو بلحاظ المميّزات الموجودة في جذور الشجرة، فميزة جذور الأشجار تكمن في أنّها ما دامت سالمة وتوصل المواد المغذّية إلى الشجرة فستبقى الشجرة على قيد الحياة، فإنّها لو يبست أغصان الشجرة وأوراقها واحترقت، فما دام لها جذورٌ سليمة يبقى هناك أملٌ باخضرارها مجدّدًا. أمّا إذا تآكلت الجذور تمامًا أو احترقت وتلفت، فلن يبقى هناك أيّ أملٍ في حياة تلك الشجرة واخضرارها وإثمارها.

المعتقدات الأساسيّة، من التوحيد، ومعرفة الصفات الإلهيّة، وإثبات العدل الإلهي، والنبوّة، والمعاد، والاعتقاد بالإمامة؛ هي



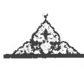


من جملة جذور الحياة لديننا، ومن بين هذه الأمور الأساسيّة، يُعدّ التوحيد الجذر الأساس والأصل لبقيّة الأصول، والمعتقدات الأخرى هي تجلٍّ لذلك التوحيد. التوحيد أساس الدين، وبحسب تعبير العلّامة الطباطبائي، إذا أردنا تلخيص الدين في كلمة فالكلمة هي «التوحيد»، وإذا أردنا توسعة «التوحيد» وشرحه فالنتيجة هي الدين بتمامه.

بناءً عليه، فلا بدّ، قبل أيّ شيءٍ آخر، من أن تنصبّ جميع جهودنا على أكثر هذه الأصول أساسيّةً، وأن نحافظ عليه غضًّا وسليمًا من أيّ خللٍ وانحراف، وأن نزيل موانع تحقّقه. فإذا كان التوحيد سليمًا مفعمًا بالحياة أمكننا أن نتوقّع سلامة سائر المعتقدات؛ ذلك أنّ سلامة تلك المعتقدات وبتبعها جميع الأغصان والأوراق؛ إنّما تنبثق وتنبع من سلامة التوحيد. أمّا إذا اختلّ هذا الأصل وأصابه الجفاف فستزول أيضًا سائر المعتقدات وأغصان شجرة الدين وأوراقها، ومن هنا كان أوّل ما طلبه عليه السلام في هذا المقام أن قال: **«وَجَنِّبْنَا الإلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ»**.

مصاديق الإلحاد في التوحيد

الإلحاد في التوحيد هو المانع الأكبر من الوصول إلى قرب الله تعالى، والمقصود منه هو جميع أنواع الانحراف التي قد تقع في العقيدة الصحيحة. تارةً يظهر الإلحاد بصورة إنكار الله تعالى، وتارةً أخرى بصورة جعل شريكٍ له أو بنسبة بعض الصفات الناقصة إليه. كلّ نحوٍ من هذه الموارد هو نوعٌ من الإلحاد والانحراف عن طريق الحقّ، وكلّ نوعٍ من الانحراف عن طريق التوحيد هو نوعٌ من الشرك ومانعٌ من





تحقّق التوحيد الخالص؛ مثل الشرك في الخالقيّة أو الشرك في الربوبيّة. وكذلك فإنّ نسبة أيّ صفة خاطئة إلى الله تعالى هي نوعٌ من الانحراف عن التوحيد؛ ذلك أنّ هذه الحالة تعني انتفاء المعرفة الصحيحة بالله تعالى؛ فعلى سبيل المثال، نحن نعتقد بأنّ الله ذو قدرة غير متناهية وأنّه متفرّدٌ في قدرته. تفرّد الله تعالى يعني أنّه ﷻ قاهر فوق كلّ شيء، وجميع الأشياء تحت هيمنته وسلطته، بل كلّ شيءٍ إنّما يوجد ويكون قادرًا بإرادته هو، فلا وجود أساسًا لأيّ قدرة مستقلّة عند غير الله تعالى وخارج قدرته المطلقة والدائمة. أمّا إذا اعتقدنا بأنّ القدرة مقسومة وأنّ قسمًا منها بيد الآخرين، فلن تكون قدرة الله إذًا مطلقةً وغير نهائيّة، وعندما تكون القدرة محدودةً وموزّعةً ومقسومة، فستكون بالطبع قابلةً للانكسار والهزيمة، وفي هذه الحالة نكون في الواقع قد سلبنا عن الله تعالى إحدى صفات الألوهيّة؛ فمتى ما كان شيءٌ ما محدودًا كان بالإمكان أن نفترض شيئًا أكمل، وأكبر، وأقوى منه، وإذا افترضنا أنّ الله تعالى لديه قدرة محدودة، فسيكون ممكنًا ومتصوّرًا أيضًا أن نفترض وجود قدرة أعلى منه، وبالتالي فلن تكون قدرة الله تعالى هي القاهرة.

يرى نبيّ الله يوسف عليه السلام أنّ الله الواحد هو صاحب القهّاريّة والقدرة المطلقة، وهذا ما قاله لصاحبيه في السجن اللذين تشرّفا بالجلوس بين يديه لكي يعبّر لهما مناميهما، حيث قال لهما في ذاك السياق: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾[1].

(١) سورة **يوسف**، الآية ٣٩.



من الطبيعي أنّه إذا كان هناك أرباب وآلهة متعدّدون بدلًا من الإله الواحد، فسيكون لكلٍّ منهم قدرة محدودة بطبيعة الحال، وعندما تكون القدرة محدودة فستكون قابلة للانكسار والهزيمة، فلن يكون الله تعالى بعد ذلك صاحب القدرة والإرادة المطلقة. نحن نعتقد بأنّ الله تعالى موجودٌ صاحب قدرة أولًا، وثانيًا فقدرته غالبة على الجميع؛ بحيث لا يمكن أن يُفترض أعلى منها؛ بل جميع الأشياء تحت سيطرته. كلّ ما سوى الله إنّما هو موجود بإرادته هو، ولو لم تكن إرادته لما كان هناك شيء ولكان كلّ شيءٍ عدمًا:

«اگر نازى كند از هم فرو ريزند قالبها»[1]

الترجمة: إذا تدلّل تنهار القوالب من لحظتها.

إذا رأينا أنّ الله وحده هو الواحد القهّار، فيمكننا أن ندّعي بأنّ لديه علمًا غير متناهٍ، وقدرةً غير متناهٍ، وجمالًا غير متناهٍ، وكمالًا غير متناهٍ؛ وبعبارةٍ واحدة: هو مالك جميع الصفات الحسنة وبشكلٍ لامتناهٍ. أيّ تصوّر عن الله غير هذا التصوّر هو إلحادٌ وانحرافٌ في التوحيد، وفي هذه الحالة، فلأنّ جميع الصفات الجلاليّة والجماليّة التي ننسبها إلى الله تعالى متفرّعةٌ من الاعتقاد بوحدانيّته وقهّاريّته، فلن يكون بالإمكان معرفة صفات الله تعالى بالشكل الصحيح؛ فإذا لم يكن الله واحدًا وكان قابلًا للانقسام، فستكون صفاته مثل صفات المخلوقات ولن يكون ذا صفاتٍ غير محدودة.

---

(١) البيت من قصيدة بالفارسية لصدر المتألّهين الشيرازي (الملا صدرا)، وترجمتها كما ذكرنا أعلاه [المترجم].



ثمّ إنّ معرفة الله إذا كانت مشوبةً بالشرك فستكون معرفةً ناقصةً ومنحرفة، وفي هذه الحالة فلا الله تعالى ولا صفاته العُليا سيقعان محلًّا للمعرفة الواقعيّة والصحيحة. وكذلك إذا لم يُعرف الله تعالى ووحدانيّته بشكلٍ صحيح، ووقع الإلحاد في التوحيد، فالتمجيد والتقدير الإلهي كذلك لن يكون تامًّا وكاملًا؛ أي إذا كان لدينا إلحادٌ وانحراف في التوحيد فلن نستطيع أن نمجّد الله تعالى ونقدّره بشكلٍ صحيح، وبطبيعة الحال فلن يتحقّق الخضوع والخشوع التامّ في مقابل إلهٍ بهذا النحو، فالإنسان المنحرف عن الطريق الصحيح لمعرفة الله والعقيدة التوحيديّة لا يدرك العظمة الإلهيّة ولا يعرف قيمة العبادة والركوع والخضوع والخشوع أمامه ﷻ، بل من الممكن له، بدلًا من حمد الله وتمجيده والخضوع له، أن يعترض على الله تعالى أو أن يتمرّد عليه ويسيء الأدب ـ والعياذ بالله ـ[1]؛ أي ينزّل من مقام الله العظيم حتى إلى ما دون مقام إنسانٍ عاديّ، من حيث إنّه لا يعتقد بالله تعالى الواحد الواجد لجميع الكمالات، بل هو مشرك ويؤمن بالآلهة، والآلهة بتصوّره الخاطئ غير منزّهةٍ عن العيوب، وبالتالي فلن يكون للآلهة مزيّة عن سائر الموجودات، وما أكثر أن نرى مثل هذا الإنسان يعتبر أنّ زمام أمره بيد آلهةٍ تتنازع وتتخاصم في ما بينها حول رعايته وهدايته: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ

---

(١) قبل سنوات عدّة سافرنا إلى الهند، وفي يومٍ من الأيّام كنّا نتمشّى في إحدى المدن الهنديّة مع بعض الأصدقاء وأحد الفضلاء الهنود، وقد صادف أنّ الطقس ماطر، حيث إنّ الصيف في المناطق الاستوائيّة يشهد أمطارًا خاصّة. في تلك اللحظة، كان أحد الهنود يمرّ من ذلك الطريق فرأيناه بوجهٍ متجهّم يقول شيئًا باللغة الهنديّة، ثمّ مضى في سبيله. لم نفهم ما قاله. فسألت ذلك الأخ الهندي الذي كان يرافقنا عن مضمون قوله، فضحك وقال: إنّه يسبّ إله المطر ويقول له: «عندما كان ينبغي أن تُنزِل المطر لم تُنزله، وها أنت تُنزله الآن؟!».



وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ الْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[١].

لا شكّ في أنّ الآلهة التي تتنازع وتتخاصم في ما بينها مليئةٌ في وجودها بكلّ نقصٍ وعيب، وآلهة بهذا النحو ليست جديرةً إطلاقًا بالتمجيد والعبادة والخضوع والخشوع. في هذا الآية الكريمة، يقارن الله تعالى مقارنةً دقيقة بين حُسن حال الإنسان الموحّد وتعاسة وسوء حال الإنسان المشرك والكافر بالله تعالى، مادحًا ببيانه الجميل الفئة الأولى وذامًّا الفئة الثانية. إنّ الاعتقاد التوحيدي بالله الواحد يقتضي خضوع الإنسان أمامه وتنزيه الساحة المقدّسة لذلك الوجود الأحد عن كلّ نوعٍ من احتمال النقص والقصور والخلل. وهذا هو التسبيح أو الموضوع الأوّل الذي يُجريه الإنسان على لسانه أو يلهج به في قلبه تجاه الله تعالى ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٢].

الإنسان المعتقد بالله الواحد يرى تلك الذات الطاهرة واجدةً لجميع الكمالات ومنزّهةً وبريئةً عن كلّ عيبٍ وقُبحٍ وقصورٍ ونقص. كلّ ما يُتصوّر من المحاسن والجمالات والكمالات فهي موجودةٌ عنده بتمامها وكمالها. وما يُتصوّر من حُسنٍ وجمالٍ وكمالٍ عند الإنسان أو

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٢٩.

(٢) سورة **الجمعة**، الآية ١. كثيرةٌ هي الآيات القرآنيّة التي تذكر تسبيح الموجودات لله تعالى، وقد أشير إلى هذا الأمر، بنحوٍ أو بآخر، في أغلب سور القرآن الكريم، كما نجد التصريح بذلك في سورٍ؛ منها: **الرعد، الإسراء، النور، الحشر، الجمعة، التغابن، ص، الأنبياء، يس، الزمر، غافر، فصّلت، الشورى، الأعراف، الحديد، الصف، الأعلى، آل عمران، طه، ق، الفرقان، الطور، المؤمنون، يوسف، النمل، القصص، الصافات، الزخرف، القلم، البقرة، المائدة، يونس، سبأ، التوبة، النساء، الأنعام، مريم، النحل، الروم، الإنسان، السجدة** وغيرها...

عند أيّ موجودٍ آخر غير الله فهو ليس إلّا رشحةً وصلت إليه ناقصةً جـدًّا ومحدودةً مثل رأس إبـرةٍ من قطرة من محيط الكمال غير المتناهي، وجميع تلك الآثار الحسنة إنّما تترتّب عليها. لقد كان جمال النبيّ يوسفعليه السلام ومظهره الفائق والأخّاذ بحيث إنّ نظرة بعضهنّ إلى وجهه المبارك قد جعلتهنّ في دهشة وحيرة، وبدلًا من أن يقصصن الفاكهة التي كانت في أيديهنّ قطّعن أيديهنّ وقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[1]، هذا والحال أنّ جمال هذا العبد المطيع لله تعالى لا يساوي أمام جمال الخالق الواحد الذي هو خالق كلّ أنواع الجمال الظاهري والباطني؛ لا يساوي قطرةً في مقابل جميع محيطات العالم. وهذه النسبة تصدق على القدرة والعلم وسائر الكمالات الإلهيّة أيضًا.

بناءً عليه، فالخطر الأوّل الذي يواجهه الإنسان هو الانحراف عن التوحيد وعن سائر المعارف العَقَديّة بالتبع. إنّ الإدراك والفهم الخاطئ لله تعالى ولصفاته الإلهيّة الحسنة يستلزم الضلال عن الطريق وعدم الوصول إلى الهدف الصحيح بعد طيّ الطريق؛ ذلك أنّ الإنسان المنحرف عن طريق التوحيد يرى الله تعالى ناقصًا وينسب إلى صفاته من صفات المخلوقين، فلا يمكنه بالتالي أن يمجّد الله تعالى ويعبده كما يستحقّ.

أمّا المعرفة الصحيحة بالله الواحد والإيمان به وبصفاته فيعرّف الإنسان على الهدف؛ أي القرب من الله الواحد، ومن ثمّ يجعله يسعى وراء الطريق والمنهج الصحيح للوصول إلى الهدف المقدّس والمتعالي؛

---

(١) سورة **يوسف**، الآية ٣١.



أي القرب منه ونيل رضوانه، وبخاصّة إذا علم الإنسان أنّ أعلى كمال متصوّر للموجود الإمكاني هو الكمال الذي يحصل في ظلّ القرب من الله ومن خلال عبادته، حينها ستنصبّ جميع جهوده على معرفة الطريق والمنهج الذي يجلب له رضوان الله تعالى.

ولهذا السبب كان الطلب الأوّل والأهمّ الذي طلبه الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى، وبعد الصلاة والسلام على حضرة خاتم المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الميامين عليهم السلام؛ أن سأل الله النجاة والحفظ من هذه المهلكة: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَجَنِّبْنَا الإلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ**».

أمّا المرتبة الثانية من الموانع فهي تتعلّق بمراحل ما بعد التوحيد، وبعد المسائل المرتبطة بالمعتقدات؛ أي الدين والشريعة. في سبيل دفع هذه الموانع أو رفعها لا بدّ من القيام بأيّ عملٍ في سياق معرفة الدين والتديّن بما تكون نتيجته جلب رضوان الحقّ تعالى. في هذه المرتبة يحتاج الإنسان إلى الدين من أجل الهداية، ومن أجل معرفة الدين فهو محتاجٌ إلى العون من الله عزّ وجلّ.

يولد الإنسان جاهلًا لا يعلم شيئًا، ثمّ يعينه الله تعالى في طريق التعلّم من خلال منحه أدوات وأسباب العلم والمعرفة: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1].

---

(١) سورة **النحل**، الآية ٧٨.



وكذلك في المضامين الروائيّة ورد التصريح بحقيقة أنّ الله تعالى قد بنى البشر، لأسبابٍ ما، على أساس الجهل: «لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنَاهُمْ بُنْيَةً عَلَى الْجَهْلِ...»[1].

من الطبيعي أنّ إنسانًا بهذه النقائص والعيوب، ليس لديه القدرة على معرفة جميع المعارف الإلهيّة والدين والشريعة. ولهذا السبب، لم يتركه الله تعالى بهذه الحالة، بل أرسل لعباده ـ ومن كمال لطفه ـ الدين عن طريق الأنبياء العظام عليهم السلام. ومن حينها كان أوجب أمرٍ علينا جميعًا أن نسعى إلى معرفة هذه النعمة الكبرى؛ أي الدين، معرفةً صحيحة. على الإنسان أن يعرف جيّدًا واجباته تجاه نفسه، وتجاه الله تعالى، وتجاه المجتمع وسائر المخلوقات، حتى يؤدّي تلك الواجبات في مقام العمل بالطريقة التي يرضاها الله تعالى.

ونحن نجتاز هذه الطريق، ما أحسن أن نتجنّب التيه والضياع، وأن نتعرّف على الدين بنحوٍ يقينا من الاختيار الخاطئ، بحيث نكون على يقين من صحّة الدين الذي اخترناه وصوابيّته ومطابقته لرضوان الله تعالى وإرادته، ثمّ نجعل تمام جهودنا بعدها منصبّةً على معرفة جميع تفاصيل الدين وتعلّم الطريق الصحيح للعمل بها.

---

(١) عَنْ أَبي حَمْزَةَ الثُّمَالِي قَالَ: قُلْتُ لِعَلِيّ بن الْحُسَينِ عليه السلام: «لِأَيِّ عِلَّةٍ حَجَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْخَلْقَ عَنْ نَفْسِهِ؟» قَالَ عليه السلام: «لِأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بَنَاهُمْ بُنْيَةً عَلَى الْجَهْلِ، فَلَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَنْظُرُونَ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَمَا كَانُوا بِالَّذِينَ يَهَابُونَهُ وَلَا يُعَظِّمُونَهُ، نَظِيرُ ذَلِكَ أَحَدُكُمْ إِذَا نَظَرَ إِلَى بَيتِ اللَّهِ الْحَرَامِ أَوَّلَ مَرَّةٍ عَظَّمَهُ فَإِذَا أَتَتْ عَلَيهِ أَيامٌ وَهُوَ يرَاهُ لا يكَادُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيهِ إِذَا مَرَّ بِهِ وَلَا يُعَظِّمُهُ ذَلِكَ التَّعْظِيم (أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **علل الشرائع**، ج ١، ص ١١٩؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٣، ص ١٥).



آفة هذه المرحلة هي الشكّ والتردّد في الدين والأحكام الإلهيّة، فنتيجة الشكّ والتردّد في الدين هي عمى القلب وفقدان البصيرة وبالتالي: الضلال والانحراف[١].

أمّا البصيرة وتيقّظ القلب فهما لأجل أن يرى الإنسان الحقّ والباطل، يشخّص الحقّ من الباطل، يسلك في طريق الحقّ ويحفظ نفسه عن السقوط في مهلكة الباطل، يرى النور الإلهي ويتّجه نحوه، يعرف الظلمة ويتجنّبها، يلتفت إلى الأخطار التي تواجهه في الطريق، ويعرف الأعـداء وقطّاع الطرق حتى لا يقع في شِراكهم. والإنسان لا يكون بمأمنٍ من هذه الأخطار إلّا حينما يكون لديه بصيرة كاملة يعرف من خلالها الدين معرفةً صحيحة ويكون بعيدًا عن جميع أنواع الشكّ والتردّد في الدين والتزلزل في الطريق.

بناءً عليه، فأهمّ أمرٍ للإنسان بعد معرفة الله والتوحيد: أن يعرف دين الله، ففقدان البصيرة في الدين، وأيّ نوعٍ من الشكّ والتردّد فيه، إنّما يؤدّي إلى عدم عثورنا على طريق التقرّب إلى الله، حتى بعد التعرّف عليه ومعرفته، وهذا ما يحرمنا بالتالي من الرحمة غير المتناهية ومن الرضوان الإلهي في الدنيا والآخرة. في مثل هذه الأوضاع المضطربة قد تُعرَض علينا أديانٌ وشرائعٌ خاطئة من صنع البشر، وقد تحاصرنا فنضلّ نتيجةً للغفلة ونختار طريقًا لا يتطابق مع رضوان الله وإرادته.

---

(١) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (سورة **الحج**، الآية ٤٦).





ينبّه الإمام السجّادعليه السلام إلى هذا الأمر المهمّ؛ وهو أنّ أكبر مانع وآفة يواجهها الإنسان تكمن في الشكّ والتردّد في طريق الوصول إلى القرب والرحمة الإلهيّة، ومن ثمّ يطلبعليه السلام من الله تعالى أن يجنّبنا كلّ نوعٍ من الشكّ والتردّد في دينه: «**وَجَنِّبْنَا... الشَّكَّ فِى دِينِكَ، وَالْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ**».

أمّا موانع الفئة الثالثة، فهي مجموعة أمور تقع بعد معرفة الدين وأثناء العبوديّة لله في مقام العمل، فتمنع الإنسان عن الوصول إلى القرب الإلهي. الموانع السابقة كانت مرتبطة برؤية الإنسان وبتوجّهاته القلبية ومعتقداته. أمّا الآن، فبعد اجتياز الطريق الصحيح والنجاة من الإلحاد في التوحيد ومعرفة الدين بالشكل الصحيح والتحرّر من الشكّ والتردّد فيه، يصل الأمر إلى مقام العمل. هنا على الإنسان أن يتهيّأ لمواجهة الموانع المختلفة التي قد تعترضه في هذه المرحلة، فالشياطين الموجودة داخل الإنسان وخارجه لم تتركه بعد، وهي تترصّد له لحرفه في مقام العمل حتى تمنع الإنسان من خلال ذلك عن الوصول إلى ذلك الهدف الراقي والمتعالي؛ أي القرب الإلهي. المهمّ في هذه المرحلة هو أنّ على الإنسان في مقام العمل أن يعلم قدر النعم الإلهيّة، ويحترم أوامر الدين ونواهيه وحدوده وضوابطه، ويعظّم الحرمات الإلهيّة، ويراقب نفسه على الدوام حتى لا يتقدّم على تلك الحرمات ولا يتأخّر عنها. أمّا إذا قصّر أو أهمل في هذه الأمور فسيقع في حبائل الشيطان شاء أم أبى، وهذا ما سيوصله إلى الهلاك. أيّ نوعٍ من الإهمال والغفلة والتغافل عن الحدود الإلهيّة يعدّ آفة هذه المرحلة. طبعًا فالغفلة تطرأ على الإنسان أحيانًا بشكلٍ طبيعي، وعلى الإنسان أن يراقب نفسه حتى لا يُبتلى بها، ولكنّ الأسوأ من ذلك هو



الغفلة العمديّة التي يورّط الإنسان نفسه بها نتيجة إهماله لحقائق الدين.

أهمّية المراقبة الدائمة

عادةً نرتّب برنامج حياتنا على امتداد الليل والنهار بحيث لا نلتفت فيه إلى الأمور المرتبطة بحقيقتنا إلّا نادرًا. من أوّل الصباح حيث نستيقظ من نومنا وإلى آخر الليل حيث نخلد إلى النوم يمرّ من عمرنا ساعاتٌ ودقائق لا نعدّها، وفي ذلك كلّه نادرًا ما نراقب ونحرص على أنفسنا حتى لا ننشغل بالأمور العبثيّة، ولا نتجاوز الحدود الإلهيّة، ولا نتورّط بالوساوس الشيطانيّة والرغبات النفسانيّة، بل نلتفت إلى الأمور التي يرضى عنها الله تعالى. أكثر التفاتنا ينصبّ على رفع حاجاتنا ورغباتنا الغريزيّة؛ من المأكل والمشرب، والملبس، وتهيئة وسائل العيش، وإعداد الطعام، والبيع والشراء، والعمل والتكسّب، وتأمين الموارد الماليّة، وما شابه ذلك ممّا يصرف إليه تمام عمرنا وحياتنا. والإنسان بطبيعته عندما يتّجه اهتمامه نحو شيءٍ ما ينصرف عن سائر الأمور، وعندما ينصبّ تمام توجّه الإنسان على هذه الأمور البهيجة والمثيرة، فلن يمكنه بعدها أن يلتفت إلى الله تعالى وإلى الحدود الإلهيّة، وحتى إذا كان لديه التفات إليهما، فمن المتيقّن أنّه سيكون قليلًا جدًّا لا يكاد يُذكر.

نعم؛ أحيانًا يوجّه بعضهم إلينا تحذيرًا وتنبيهًا؛ وبعبارةٍ أخرى: قد نجد من حولنا بعض الأشخاص والأمور التي توقظنا وتنبّهنا من الغفلة، وهؤلاء الأشخاص وهذه الأمور قد جعلهم الله في الواقع من أجل إيقاظنا وتنبيهنا، ولكنّ الغفلة وعدم الالتفات إلى هذه الأمور يؤدّيان

إلى أن نخسر هذه الفرص الثمينة. كثيرًا ما يحدث أن يخترق أسماعنا صوتٌ عذب لقراءة القرآن، ولكنّنا لا نهتمّ به ونَعبُر عنه بكلّ بساطة مرجّحين صوتًا آخر. لعلّنا قد أدركنا الحضور بين يدي أحد العرفاء، وما أكثر أن يجعله الله تعالى بيننا من أجل هدايتنا، ولكنّ تغافلنا وإهمالنا المتعمّد وترجيحنا لأمورٍ أخرى لا قيمة لها يؤدّي إلى أن نُحرَم من هذه الفرص الاستثنائيّة؛ هذه الفرص التي يستفيد منها بعض الأفراد من ذوي البصيرة واليقظة أفضل استفادة فينهلون من معينها ويوصلون أنفسهم إلى المنزلة المرجوّة. لعلّه قد حدث معنا كثيرًا أن ضيّعنا فرصة الصلاة في أوّل الوقت، هذه الفرصة التي لا نظير لها نضيّعها لمشاهدة فيلمٍ ما، أو لسماع خبرٍ ليس بتلك الأهمّية، أو للاستمرار في حوارٍ مع أحد الأصدقاء أو في مطالعة أو رياضة... هذا في حين أنّ كلًّا من هذه الأمور؛ أي صوت القرآن، والحضور في محفلٍ نوراني، والصلاة في أوّل الوقت؛ هذه الأمور التي نُحرَم منها بسهولة نتيجة غفلتنا، كلٌّ منها بحدّ ذاته منبّه من الغفلة وسببٌ لنجاتنا، وأحيانًا يعادل بالنسبة إلى الإنسان عمرًا كاملًا من العبادة. هذه الحالات لها تلك الأهمّيّة ولكنّ الذي يورّط الإنسان أنّه يتعمّد إهمالها والغفلة عنها ولا يريد أن يلتفت إليها.

إنّ إهمال هذه الأمور المهمّة يؤدّي إلى قسوة قلب الإنسان ويسلب منه توفيقاتٍ كثيرة. هذه المجموعة من الناس قد تسقط شيئًا فشيئًا إلى حدّ أنّهم لا يحبّون حتى أن يسمعوا اسم الله تعالى



ـ والعياذ بالله ـ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾[١].

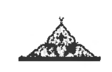
السرّ في هذه المسألة هو أنّ المرء عندما يغرق في ملذّات الدنيا يتحوّل إلى موجودٍ شهوانيّ يجعل تمام مساحة قلبه متّجهةً نحو ملذّات الدنيا، فينفر من كلّ ما يزاحم لذّته الدنيويّة. وفي المقابل، فكلّ ما ومن يُرضي شهواته الحيوانيّة يكون محبوبًا عنده. عندما يكون الإنسان لاهثًا وراء الشهوة والمعصية، من باب العادة أو الملكة النفسانيّة، فإذا قام شخصٌ أو شيءٍ ما بصرفه عن هذه المسألة وتذكيره بالله، فلا شكّ في أنّه سينفر من ذلك الشيء أو ذاك الفرد ويجد في نفسه حالةً من الاشمئزاز الداخلي تجعله يتحاشى ذلك الشيء أو الفرد.

وفي النقطة المقابلة تمامًا نجد أولئك الذين يراقبون أنفسهم على الدوام، ويخشون الله تعالى ويراعون حرمته وحرمة أحكامه، ويراقبون بدقّة أداءهم لواجب العبوديّة، ويلجأون إلى الله ويطلبون العون منه في حالات الخطر. هؤلاء تمتلئ قلوبهم شيئًا فشيئًا بالخشوع والطاعة لله تعالى، وبعد مدّة قصيرة، وبفضل الألطاف الإلهيّة الخاصّة، يعشعش العشق الإلهي في أرواحهم. ومتى ما بات العبد متيّمًا بمولاه، فإنّ سماع اسمه المقدّس سيجعل قلبه يخفق بسرعة وسيجلب إليه كلّ توجّهه، ليكون، كما كان إبراهيم الخليل عليه السلام، حاضرًا لينفق كلّ رأسماله حتى يسمع اسمه المبارك والجميل؛ إذ إنّ صفاء روحه في سماع اسم حبيبه وخليله الجليل[٢]. هذا فضلًا عن أن

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٤٥.

(٢) يُروَى أنّ الله تعالى لمّا اتّخذ ابراهيم خليلًا قالت الملائكة: «يا ربّ إنّه كيف يصلح للخلّة وله





يستطيع رؤية جماله النورانيّ أيضًا، ويا لها من سعادة! يبيّن القرآن الكريم هذه الحالات الرائعة التي لا توصف عند عباد الله المخلصين

شواغل من النفس والولد والمال والمرأة؟، فقال تعالى: أنا لا أنظر إلى صورة عبدي وما له، بل إلى قلبه وأعماله، وليس لخليلي محبّة لغيري، فإن شئتم جرّبوه. فجاءه جبريل وكان لإبراهيم عليه السلام اثنا عشر كلبًا للصيد ولحفظ الغنم، وطوّق كل كلب من الذهب إيذانًا بخساسة الدنيا وحقارتها. في المساء وبينما كان متوجّهًا إلى الصحراء ومعه رؤوس الغنم رأى على رأس مرتفع جبرئيل عليه السلام على هيئة إنسان غير معروف وهو يردّد اسم الله تعالى قائلًا: سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ، فانفطر إبراهيم عليه السلام لسماع اسم حبيبه المبارك، واتّجه إلى ذلك المرتفع متتبّعًا مصدر الصوت.

وبالنهاية وصل إلى أعلى المرتفع وقال له: أنت الذي ذكرت اسم حبيبي بهذه الروعة؟ فأجابه: نعم. فقال له: إذا كرّرت اسم محبوبي المقدّس مرّةً أخرى بذلك الصوت الجميل فسأعطيك ثلث أغنامي، فكرّر جبرئيل الأسماء المقدّسة. فأصاب إبراهيم عليه السلام الوجد وقال له: كرّر هذا الذكر مرّةً أخرى حتى أعطيك الثلث الثاني من أغنامي أيضًا. فكرّر جبرئيل للمرّة الثانية. فتحمّس نبيّ الله عليه السلام إلى حدّ أنّه طلب منه أن يذكر اسم محبوبه للمرّة الثالثة على أن يعطيه بقيّة أغنامه.

حينها عرّفه جبرئيل عليه السلام بنفسه وقال له: جَديرٌ أن يَتَّخِذَكَ اللهُ خَليلًا وَيَجعَلَ لَكَ فِي المِلَلِ وَالنِّحَلِ ذِكرًا جَميلًا.

هذه الحادثة الرائعة وردت في نقلٍ آخر ذكروا فيه أنّ جبرئيل عليه السلام هبط عن سائر الملائكة ليمتحن إبراهيم عليه السلام، فجاءه على هيئة إنسان، وسلّم عليه وقال: لمن هذه؟، فقال: لله ولكن في يدي، فقال: تبيع واحدًا منها؟، قال: اذكر الله وخذ ثلثها، فقال: سبّوح قدّوس ربّ الملائكة والروح فأعطى الثلث، ثمّ قال: اذكره ثانيًا وخذ ثلثها، واذكر ثالثًا وخذ كلّها برعاتها وكلابها، ثمّ اذكره رابعًا وأنا أقرّ لك بالرقّ، فقال الله تعالى: كيف رأيت خليلي يا جبريل؟، قال: نِعم العبد خليلك يا ربّ، فقال إبراهيم لرعاة الغنم: سوقوا الأغنام خلف صاحبي هذا، فقال جبريل: لا حاجة لي إلى ذلك وأظهر نفسه، فقال: أنا خليل الله لا أستردّ هبتي، فأوحى الله إلى إبراهيم أن يبيعها ويشتري بثمنها الضياع والعقار ويجعلها وقفًا. (هذه الحادثة المهمّة والرائعة قد وردت في المصادر المختلفة وبأشكالٍ متعدّدة. من جملة تلك المصادر: إسماعيل بن مصطفى حقّي، **تفسير حقّي (روح البيان)**، ج ٧، ص ٣٥١؛ الحسن بن الحسين الشيعي السبزواري، **مصابيح القلوب**، تصحيح محمد سبهري، ج ٥، ص ١٢؛ مرتضى مطهّري، **مجموعة المؤلّفات**، ج ٢٦ (**التعرّف على القرآن**)، ص ٢٩٢).



حيث يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[1].

بناءً عليه، فشرط السلامة في مقام العمل وأداء والواجبات والتكاليف الإلهيّة بشكلٍ صحيح، هو المراقبة الدائمة والتوجّه المستمرّ إلى الله تعالى والمحافظة على ذكره في القلب. وأمّا آفة هذه المرحلة فهي الغفلة والتغافل والإهمال. ولهذا السبب يشير الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء إلى هذه الآفة الخطيرة طالبًا من الله تعالى العون للنجاة والتخلّص من هذه المهلكة: «**وَجَنِّبْنَا... الْإِغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ، وَالانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ**».

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٢. كما وردت أوصاف هذه الفئة من عباد الله في آياتٍ أخرى من القرآن الكريم؛ منها: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (سورة **المائدة**، الآية ٨٣)؛ ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ (سورة **التوبة**، الآية ٩٢)؛ وغيرها...

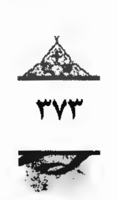




الجلسة العشرون:

لوازم استجابة الدعاء







«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَجَنِّبْنَا الإلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ وَالشَّكَّ فِي دِينِكَ وَالْعَمَى عَنْ سَبِيْلِكَ وَالإغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ، وَالانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»

لوازم استجابة الدعاء

الدعاء يعني دعوة الله ونداءه لتأمين الحاجة. وبناءً عليه، فلا بدّ من أن يكون قصد الداعي أثناء الدعاء قصدًا جادًّا ونابعًا من القلب، لا مجرّد لقلقة لسان. ومن مضمون الآية الكريمة ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾[1] يمكننا أن نستفيد أنّ من شروط استجابة الدعاء أن يكون قصد الداعي جدّيًّا وطلبه واقعيًّا، هذا أوّلًا؛ وثانيًا أن يكون الطلب من الله فقط.

(١) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (سورة **غافر**، الآية ٦٠).



كثيرٌ من أدعيتنا هي ترديد للأدعية المأثورة عن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام، أو ـ أحيانًا ـ عن سائر الأنبياء والأولياء الإلهيّين. هذه الطريقة إذا لم تكن مقرونةً بالتدبّر والتوجّه إلى المعاني فهي بذاتها تكشف عن عدم جدّية وواقعيّة طلباتنا، اللهمّ إلّا إذا كانت الاستفادة من هذه الأدعية المأثورة نابعةً من صميم القلب ومقرونةً بالتوجّه إلى معانيها ومضامينها الراقية، فستكون بالغة التأثير، وأحيانًا تكون بحدّ ذاتها الطريقة الفُضلى للدعاء. ينبغي أن يكون دعاؤنا بنحوٍ نقصد فيه إنشاء المضامين الواردة أثناء قراءتنا لنصّ الدعاء وأن نلتزم بلوازمه أيضًا، بمعنى أن نكون معتقدين حقًّا بأنّ جميع ما بين أيدينا من الله تعالى، ومؤمنين حقًّا بأنّ الألم منه وكذلك الدواء، وأنّه هو الطبيب الحقيقيّ المعافي والدواء النافع الشافي؛ جميع ذلك في يد قدرته، وبالتالي فعند الاعتماد على علم الطبيب وخبرته وتأثير الدواء علينا أن نلتفت جيّدًا إلى حقيقة أنّ هذه الأمور جميعها أسبابٌ قد هيّأها لنا بحكمته الربّانيّة، وأنّه ينبغي لنا في هذه الأمور وفي ما يشابهها أن نلجأ إلى هذه الأسباب حتى يحقّق لنا الفرج. أمّا إذا كان لدينا هذا الاعتقاد ولكنّنا في مرحلة العمل تجاهلنا التوجّه والاعتماد على هذه الأسباب الإلهيّة ومن ثمّ أردنا الشفاء منه بذاته؛ فهنا نكون قد وقعنا في الضلالة، إذ كأنّنا في هذه الحالة نعتبر أنّ الاعتماد على الإمكانات الطبّيّة والطبابة بشكل عامّ هي من المؤثّرات المستقلّة في مقابل الله تعالى وأنّ الله مؤثّرٌ مستقلٌّ آخر، حيث نتخيّل أنّنا أعرضنا عن هذه الأمور وتوجّهنا إلى الله تعالى. لا شكّ في أنّ هذا الدعاء لن يُستجاب بأيّ وجهٍ من الوجوه؛ ذلك أنّ عدم التوجّه إلى الأسباب الإلهيّة، وبالتالي عدم الاستفادة منها، إنّما يعبّر عن أنّنا لا



نملك طلبًا واقعيًا. فأحيانًا وفي بعض الحالات قد لا تتوفّر عند الإنسان هذه الأسباب الظاهريّة فيتوسّل بمسبّب الأسباب، في هذه الحالة، فبما أنّ طلبه واقعيّ إذ يطلبه من الله، فهنا أيضًا سيستجيب له الله تعالى.

هذا الأصل المسلّم حاكمٌ في جميع الحالات التي تظهر فيها مشكلات وموانع في طريق الإنسان باتّجاه القرب من الله، وكذلك في المسائل العَقَديّة نحن نطلب من الله تعالى أن يحفظنا عن الانحراف في التوحيد، فإذا كان الله تعالى قد عيّن لرفع هذه المشكلة ومعالجة هذا المرض طريقًا وطبيبًا ودواءً، وكانت جميعًا حاضرةً ومتوفّرةً بين أيدينا، ومع ذلك لم نستفد منهم وطلبنا من الله تعالى النجاة من الانحراف؛ فهذا العمل إنّما يُعدّ نوعًا من الإهمال لأمره وللأسباب التي هيّأها لنا. لقد أنزل الله تعالى القرآن شفاءً لمعالجة هذا المرض وقد بيّن فيه كثيرًا من سبل العلاج، والإعراض عن القرآن وعن أحكامه هو إعراضٌ عن الله تعالى، وفي هذه الحالة سيكون طلبنا النجاة من الله أشبه بالهزل والاستهزاء؛ إذ إنّ هذه الرؤية الخاطئة تشبه ذاك المضيف الذي هيّأ، لكي يرفع العطش عن ضيفه، أنواعًا متعدّدة من الأشربة العذبة؛ كالماء البارد العذب وأنواع العصائر وما شابه؛ وضعها بين يدي ضيفه ولكنّ الأخير لم يعر هذه الضيافة المتنوّعة أيّ اهتمام، كما لم يقدّر ما تكبّده صاحب المنزل من عناء لكي يعبّر من خلاله عن احترامه للضيف، فتوجّه إلى المضيف يطلب منه أن يفعل شيئًا ما لكي يروي عطشه، أفلا يكون ذلك سخريةً واستهزاءً بصاحب المنزل؟

بناءً عليه، فإذا كان قصد الداعي حقيقيًّا، فإنّه يستعمل جميع ما وضعه الله بين يديه ممّا هو ملك للّه. وإذا ما أحسّ بنقصٍ ما فإنّه

يطلب من الله أن يرفع عنه ذلك النقص. وكذلك إذا لم تتوفّر عنده الأسباب العاديّة لرفع حاجته، فهنا أيضًا يطلب من الله تعالى أن يرفع حاجته من الطرق غير العاديّة. جميع هذه الحالات تشكّل طريقًا صحيحًا ومنهجًا معقولًا يتطابق مع ما أراده الله وأوصى به. في هذه الحالة، فإذا كنّا نطلب من الله أن يحفظنا من الشكّ في الدين ومن الإلحاد في التوحيد؛ فذلك لأنّ بعض الأمور الأخرى ليست في متناول أيدينا أو هي ليست تحت سيطرتنا، ولهذا السبب نطلب المدد والعون من الله تعالى. هذه هي المعادلة والطريق المعقولة ـ والإلهيّة في الوقت نفسه ـ التي ينبغي أن نستفيد منها ونعتمد عليها، في المكان الصحيح، من أجل رفع حاجاتنا وفق ما حدّده لنا الله تعالى، على أنّ جميع جهودنا ينبغي أن تنصبّ على العثور على ذاك الطريق الصحيح والمنهج السليم للاستفادة منه.

الشرط الآخر هو أن يكون طلب الإنسان من الله فقط بالحقيقة. والطلب من الله لا يعني ألّا يقوم الفرد بأيّ جهدٍ ولا يستفيد من الأسباب والوسائل التي حدّدها الله تعالى لجريان الأمور في هذا العالم؛ فقد وضع الله جميع الوسائل والأسباب والأدوات بين يدي الإنسان حتى يقضي حاجاته من خلال الاعتماد والتمسّك بها. وعندما نطلب من الله تعالى أن يُنجز لنا أمرًا من الأمور على أحسن ما يكون، فهذا يعني أن يجعل الله تعالى في هذه الأسباب والعلل، ومن جملتها جهدنا وفعلنا نحن، تأثيرًا مفيدًا، وإذا كان ثمّة مانعٌ من تأثيرها يرفع ذلك المانع. أمّا لو كان طلبنا بمعنى أن يقوم الله بإنجاز جميع الأمور عبره مباشرةً، ومن دون أن يجعل لذلك واسطةً من الأسباب والعلل الأخرى، والتي من جملتها جهدنا وفعلنا؛ فهذا الطلب مغايرٌ لحكمة





الخلق؛ إذ قد خُلقنا حتى نختار بجهدنا وإرادتنا طريق حركتنا التي نتقدّم ونقترب فيها من الله عزّ وجلّ.

الدعاء في الأساس من أجل تنبيه الإنسان إلى أنّ كلّ ما هو موجودٌ بين أيدينا إنّما هو من طرف غيرنا جُعل بين أيدينا؛ جميع ذلك بالحقيقة ملك الله وطوع إرادته، ولكنّه بالطبع وسيلةٌ من أجل اختبارنا. وبناءً عليه، فعندما نطلب من الله أن يبعّدنا عن الشكّ والتردّد في الدين أو عن وساوس الشيطان، فهذا لا يعني أن نهمل ونجلس مكتوفي الأيدي؛ وإنّما لأنّنا لا نملك المعرفة والإدراك الكافيَين واللازمَين من جهة، ولأنّ الشيطان لن يتورّع أبدًا عن الوسوسة إلينا والعمل على انحرافنا من جهةٍ أخرى، وبالتالي علينا في كلّ لحظة أن نكون متنبّهين بشكلٍ دقيق، وبوعينا وترصّدنا للأمور من حولنا نسأل الله المدد والعون حتى تكون مراقباتنا وترصّداتنا هذه مفيدة ومؤثّرة.

عوامل الانحراف عن التوحيد

لقد خصّص الله تعالى قسمًا من آيات القرآن لتوضيح طرقٍ تصوننا عن الانحرافات في الدين والعقيدة. نعم؛ نمط بيان هذه الطرق في القرآن يختلف بين موضعٍ وآخر، فأحيانًا يذكر ذلك بطريقة الأمر والنهي، وأحيانًا أخرى بطريقة السرد القصصي؛ أي بذكر مصير أقوامٍ وأشخاصٍ كانوا قد ابتلوا بالانحراف مع بيان علّة الانحراف عندهم، ثمّ يوصينا بأنّكم إذا أردتم ألّا تتورّطوا في ما تورّطوا به فاحرصوا على ألّا تسلكوا السبيل الذي سلكوه، ومن هنا يبيّن مثلًا مصير الدهريّين، وعبدة الأصنام، وعبدة الملائكة، وعبدة الجنّ، ويذكر علّة ابتلاء هذه





المجموعات المنحرفة، وكيف تورّطوا بهذه المعتقدات السخيفة والمشوبة بالشرك، وكيف انحرفوا عن مسيرة التوحيد.

ومن خلال دراسة الآيات القرآنيّة الكريمة التي تتحدّث عن بعض الأفراد والجماعات الإنسانية، وعن كيفية انحرافهم عن التوحيد وتلوّثهم بالشرك؛ يتّضح أنّ ثمّة عدّة عوامل أبرز من غيرها، وفي ما يلي نشير ـ بشكلٍ إجمالي ـ إلى هذه العوامل المهمّة:

١- اتّباع سنّة الآباء

أحد العوامل التي تؤدّي إلى انحراف الإنسان عن التوحيد والتورّط بالمعتقدات الخاطئة والمشوبة بالشرك: التقليد الأعمى والاقتداء الخاطئ بالآباء والأجداد والأجيال السابقة. في قصّة مواجهة النبيّ إبراهيمعليه السلام مع المشركين وعبدة الأصنام، ينقل القرآن الكريم عن لسانه كيف خاطب عبدة الأصنام بقوله: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾[١].

هذا السؤال العاقل والحكيم من النبيّعليه السلام أجاب عنه عبدة الأصنام بقولهم: ﴿قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾[٢]؛ أي وجدنا آباءنا يفعلون هذا الفعل، كما في قوله تعالى أيضًا: ﴿قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾[٣].

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٥٢.

(٢) سورة **الأنبياء**، الآية ٥٣.

(٣) سورة **الشعراء**، الآية ٧٤.



في آيات أخرى من القرآن الكريم يوجّه أنبياء الله عليهم السلام سؤالهم إلى المشركين: هذه الأصنام لا تعقل ولا تشعر ولا تجلب لكم نفعًا ولا ضرًّا؛ فلماذا إذًا تعبدونها؟[١] وكان المشركون يجيبون الأنبياء بالاستدلال بعين تلك العبارات العوجاء والجوفاء بأنّنا نقتدي بآبائنا[٢] ونهتدي باقتفاء آثارهم[٣].

ثمّ إنّ الأشخاص الذي كانوا ينحرفون عن مسيرة التوحيد الصحيحة ويتورّطون بالشرك وعبادة الأصنام ويقفون في مقابل المنطق القويّ والمبرهن لأنبياء الله عليهم السلام ليسوا محصورين بقومٍ أو بقبيلةٍ خاصّة؛ بل قد نسب الله تعالى في سورة الزخرف المباركة هذا الانحراف والاعوجاج إلى جميع الأقوام الذين كان الأنبياء الإلهيّون عليهم السلام يتّجهون لهدايتهم، حيث يقول:

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[٤].

من هذه الآية الكريمة يمكن أن يُستنتَج أنّ هذا الانحراف لا يختصّ بعصرٍ ومصرٍ خاصّين، فخطر الإلحاد والانحراف عن التوحيد ما زال حتى الآن يهدّد الإنسان؛ ذلك أنّ العلّة الأساس لانحرافهم هي

---

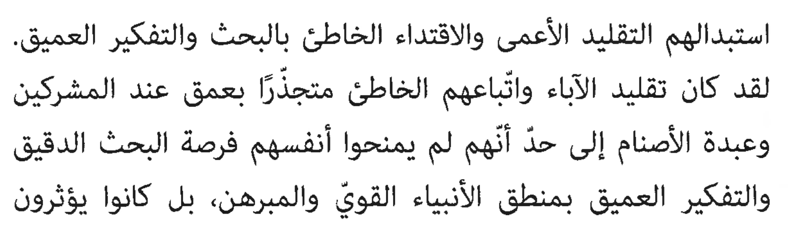
(١) ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ۝٦٩ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٧٠ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ۝٧١ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ۝٧٢ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ﴾ (سورة **الشعراء**، الآيات ٦٩ - ٧٣).

(٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ (سورة **الزخرف**، الآية ٢٣).

(٣) ﴿بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ (سورة **الزخرف**، الآية ٢٢).

(٤) سورة **الزخرف**، الآية ٢٣.





استبدالهم التقليد الأعمى والاقتداء الخاطئ بالبحث والتفكير العميق. لقد كان تقليد الآباء واتّباعهم الخاطئ متجذّرًا بعمق عند المشركين وعبدة الأصنام إلى حدّ أنّهم لم يمنحوا أنفسهم فرصة البحث الدقيق والتفكير العميق بمنطق الأنبياء القويّ والمبرهن، بل كانوا يؤثرون التمسّك بمنهجهم الخاطئ وغير المعقول.

المسألة الأخرى في هذه الآيات الشريفة هي انحراف النخب والخواصّ، ومن ثمّ اتّباع الناس لهم بشكلٍ أعمى. إنّ نمط حياة وعيش المترفين والمرفّهين الذين يشكّلون قسمًا من الخواصّ والبارزين في أيّ مجتمع يجعل هؤلاء يملأون بنمطهم أعينَ كثيرٍ من الناس وقلوبهم، ولذا فمن الطبيعيّ أنّ سلوك هؤلاء يُلقي بظلاله على خيارات الناس وقراراتها. عندما تختار النخب والخواصّ التبعيّة للماضين وتقليدهم الأعمى بدلًا من التعقّل والتفكير، فبقية الناس ستفعل ذلك أيضًا، وهذا ما يؤكّد عليه هؤلاء المترفون والمرفّهون في المجتمع بكلامهم الخاطئ حول التمسّك بسيرة الآباء وتقليدهم، وكأنّ آباءهم هم آلهتهم. ثمّ إنّ أواسط الناس العاديّين في المجتمع تقبّلوا هذا المنهج فشاع بينهم هذا الأمر[١].

---

(١) في السابق، كان احترام الأب من الأصول المسلّمة والمتعارفة، وحتى الاحترام والاقتداء بكبار القبيلة الذين هم أكبر سنًّا من البقيّة، ويحملون صفة «شيخ القبيلة»؛ كان أمرًا ضروريًّا جدًّا ولازمًا. ويعتقد بعضهم بأنّ منشأ عبادة الأصنام وأساسها يرجع إلى هذا الأمر؛ فبعض الشعوب كانت تنحت المجسّمات للمحافظة على ذكرى آبائهم ومن ثمّ يتذكّرون بتلك التماثيل آباءهم فيبذلون لها الاحترام من حيث إنّها تمثّل آباءهم. شيئًا فشيئًا ومع مرور الزمن، صارت تلك التماثيل بحدّ ذاتها محلًّا للاحترام، وبخاصّة عندما تكون بأشكالٍ عجيبة وغريبة ومصنوعة من المجوهرات الثمينة، وصار الناس ينحنون أمامها تعظيمًا، ثمّ تبدّلت هذه الرؤية إلى عملٍ معروفٍ اليوم بعبادة الأصنام.



هذا السلوك وهذه الإجابات السخيفة التي لا قيمة لها إنّما تكشف عن استخفاف المشركين وإهمالهم للمسائل المرتبطة بالمعتقدات. هذا في حين ينبغي أن يكون للدين والمعتقدات قيمة كبيرة عند الإنسان؛ فالدين نعمة ثمينة تتضمّن سعادة الإنسان في الدنيا والآخرة، وصحّة الدين وصوابيّته يعنيان تأمين السعادة، كما أنّ أي نوعٍ من الانحراف والاعوجاج في الدين يساوي الافتراق والابتعاد عن السعادة والتورّط بالشقاوة والتعاسة. وبحسب تعبير الإمام الصادقعليه السلام، فالدين نعمة كبرى وقيّمة أُمِر النبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله بشكرها، إذ يقول الراوي: سألت حضرة الصادقعليه السلام عن مراد الله تعالى من هذه الآية الكريمة: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1] فأجاب الإمامعليه السلام بقوله:

«الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيكَ بِمَا فَضَّلَكَ وَأَعْطَاكَ وَأَحْسَنَ إِلَيكَ». ثُمَّ قَالَعليه السلام: «فَحَدَّثَ بِدِينِهِ وَمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ وَمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيه»[2].

---

(١) سورة **الضحى**، الآية ١١.

(٢) عَنْهُ عَنِ أَحْمَدَ بن مُحَمَّدِ بن أَبِي نَصْرٍ عَنْ دَاوُدَ بن الْحُصَينِ عَنْ فَضْلِ الْبَقْبَاقِ قَالَ: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِعليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، قَالَعليه السلام: الَّذِي أَنْعَمَ عَلَيكَ بِمَا فَضَّلَكَ وَأَعْطَاكَ وَأَحْسَنَ إِلَيكَ. ثُمَّ قَالَعليه السلام: فَحَدَّثَ بِدِينِهِ وَمَا أَعْطَاهُ اللَّهُ وَمَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيه» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **أصول الكافي**، ج ٢، ص ٩٤). وفي عبارةٍ أخرى عن الإمام الحسين بن عليّعليه السلام في تفسير هذه الآية الكريمة يُنقل عنه ما يلي: عَنْ عَمْرِو بن أَبِي نَصْرٍ قَالَ حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ قَالَ: رَأَيت الْحُسَينَ بن عَلِيٍّعليه السلام وعَبْدَ اللَّهِ بن عُمَرَ يطُوفَانِ بِالْبَيتِ، فَسَأَلْتُ ابن عُمَرَ فَقُلْتُ: قَوْلُ اللَّهِ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، قَالَ: أَمَرَهُ أَنْ يحَدِّثَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ. ثُمَّ إِنِّي قُلْتُ لِلْحُسَينِ بن عَلِيٍّعليه السلام: قَوْلُ اللَّهِ ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، قَالَعليه السلام: «أَمَرَهُ أَنْ يحَدِّثَ بِمَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيهِ مِنْ دِينِهِ». (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج ٢٤، ص ٥٣).

بناءً عليه، فينبغي ألّا يُستخفّ بالدين وبالأمور المرتبطة به، فهذا النحو من التعاطي مع الدين يؤدّي إلى الانحراف والشكّ والتردّد في الدين. ولأهمّيّة هذه المسألة يكفينا أن وليّ الله الإمام السجّاد عليه السلام يعوذ بالله تعالى من كلّ أنواع الشكّ والتردّد في الدين ويطلب منه العون والتوفيق في ذلك: «**وَجَنِّبْنَا... الشَّكَّ فِى دِينِكَ، وَالْعَمَى عَنْ سَبِيلِكَ**».

٢- تقليد الأشخاص والجماعات الممتازة والمتفوّقة

من جملة عوامل الإلحاد في التوحيد والانحراف عن الحق: الإذعان والتسليم للأشخاص الذين لديهم، لأسبابٍ ما، بعض الامتيازات والتفوّقات الماديّة والظاهريّة؛ على أنّ هذه المسألة تختلف بحسب الأزمنة والعصور المختلفة، ففي الماضي كان الأفراد والجماعات الذين يُحسبون من الممتازين من أمثال أصحاب رؤوس الأموال، والمترفين، والحكّام، وأصحاب السلطة والنفوذ، والعلماء. بعض هؤلاء ما زال كذلك في عصرنا الحاضر، ويُضاف إليهم اليوم الفنّانون والممثّلون في السينما والتلفزيون، والرياضيّون، وبعض النخب العلميّة، والمشاهير؛ حيث يُعدّ هؤلاء من جملة الفئات المتفوّقة والممتازة التي يعتبرها الآخرون قدوةً ونموذجًا لهم يقتدون بهم في أعمالهم وسلوكهم. بالله عليكم على أيّ أساس تكون هذه الفئات قدوةً يتّبعها الآخرون؟

هذا التقليد في مثل هذه الأمور لا نراه إلا عند الفئات ضعيفة العقل أو التي لا تهتمّ بالتدقيق في هذه الأمور، ومن ذلك مثلًا الشاب المقبل على الزواج وعلى تكوين العائلة، نراه في اختيار نمط حياته وتحقيق آماله يقلّد الأشخاص الذين لديهم حياةٌ أفضل بحسب الظاهر؛



الذين لديهم منازل فخمة ووسائل ترفيه مناسبة؛ من المركب المناسب وما شابه ذلك. هؤلاء الأفراد، نتيجة لقلّة التفاتهم، يقعون في تعميمات خاطئة؛ أي ينشدّون إلى ظاهر حياة أولئك الأفراد فيجعلونهم معيارًا ومِلاكًا لتقييم الأمور الأخرى.

في حالاتٍ أخرى، قد نجد أنّ رياضيًّا ما أو عالِمًا مخترعًا ناجحًا يكون بالنسبة إلى بعض الأفـراد نموذجًا وقـدوةً حتى في سائر المجالات؛ أي إنّ هؤلاء الأفراد يرون النجاح الرياضي أو العلمي لتلك النماذج فيقومون بتعميم هذا النجاح على سائر الأمور أيضًا؛ فبما أنّه ناجحٌ في الرياضة فهو ناجحٌ كذلك في أفكاره ورؤاه السياسيّة والعَقَديّة، أو لأنّه عالمٌ ومخترعٌ ناجحٌ فلا بدّ من أنّه الأفضل أيضًا في مسلكه وعقيدته، وفي نوع لباسه، وتسريحة شعره، وأخلاقه وسلوكه، وحتى في كيفيّة مشيه وطريقة كلامه، وبالتالي فهو جديرٌ بالتقليد في جميع هذه الأمور. على هذا الأساس نجد أنّ هؤلاء الأفراد الذين يحظَون بتفوّقٍ وامتياز في بُعدٍ من الأبعاد يكونون بالنسبة إلى الأفراد ضعاف العقول وضعاف النفوس قدوةً لهم في مختلف الجهات، ولذلك يقلّدونهم ويقتدون بهم في الأفكار والـرؤى، وفي السلوك والعمل؛ وهذا هو التقليد الأعمى.

ما ينقله القرآن من قصّة تقليد بني إسرائيل وتبعيّتهم العمياء معبّرةٌ للغاية ومؤثّرة جدًّا، كما أنّ أهل البيت عليهم السلام قد حذّرونا من أنّ ما جرى على بني إسرائيل سيجري علينا نحن أيضًا[١].

---

(١) كَمَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله أَنَّهُ قَالَ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار**، ج ٥١، ص ١٢٨).



بنو إسرائيل هم ذريّة أبناء نبيّ الله يعقوبعليه السلام. بعد أن استقرّ النبيّ يوسفعليه السلام في مصر وحكم في تلك البلاد انتقل جميع إخوته وأبناؤهم إلى مصر وسكنوا بها. لاحقًا مع مرور الوقت وتعاقب الأجيال وتضاعف أعدادهم بالتوالد والتناسل قام فراعنة مصر بفرض أعمال السخرة عليهم ثمّ استعبدوهم بعد مدّة من ذلك. عندما بُعث النبيّ موسىعليه السلام بالرسالة، كلّفه الله تعالى بأن ينجّي قومه بني إسرائيل من العبوديّة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في نقله لكلام موسىعليه السلام مخاطبًا فرعون: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1]، حيث كان بنو إسرائيل في وضعٍ مأساويّ نتيجة استعبادهم في أرض مصر، وبعد سنواتٍ طويلة من المعاناة وتحمّل المشقّات وذرف الدموع والآهات والآلام، أرسل الله تعالى إليهم نبيّه موسىعليه السلام لكي يخلّصهم.

مع الجهود الكبيرة التي بذلها موسىعليه السلام، وإظهار المعجزات، ومع ما أنزله الله تعالى من بلاءات أرضيّة وسماويّة على قوم فرعون، وبعد تحمّل المشقّات الكثيرة، استطاع موسىعليه السلام في نهاية المطاف أن ينجّي قومه المستضعفين من أيدي الفراعنة. ثمّ تحرّك هؤلاء القوم الذين نجوا من المعاناة بفضل الله تعالى وبهمّة نبيّه، تحرّكوا مرافقين النبيّ موسىعليه السلام باتّجاه الموطن الأصلي لإبراهيم ويعقوبعليهما السلام؛ أي أرض كنعان. هؤلاء الموحّدون المرافقون لنبيّهم التقوا أثناء عبورهم للطريق بقومٍ مشركين يعبدون الأصنام[2]. كان لهؤلاء أرضٌ ذات مناخٍ

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٢٢.

(٢) ﴿فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ﴾ (سورة **الأعراف**، الآية ١٣٨).



جيّدٍ ومراعٍ خضراء ومرتفعاتٍ جميلة، وفي تلك الأرض بنوا على رؤوس التلال أبنيةً فخمة رائعة تقع حول أسوار حدائقهم الغنّاء. عندما سألوا أهل تلك المدينة عن تلك الأبنية العالية أجابوهم بأنّها معابدٌ للأصنام، إذ قد وضعوا في تلك القصور الفخمة أصنامًا كانوا يتوافدون عليها أفواجًا لعبادتها. انشدّ بنو إسرائيل إلى روعة تلك المعابد فصاروا يهرعون لمشاهدتها، واندهشوا من جمال تلك الأبنية والأصنام داخلها إلى حدّ أنّهم عندما رجعوا إلى موسى عليه السلام طلبوا منه أن: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾.

لا ننسى أنّ بني إسرائيل جميعهم أبناء نبيّ، وهم أمّة أحد أنبياء أولي العزم الذي شاهدوا على يديه معجزاتٍ متعدّدة، وإحدى أكبر معجزات نبيّهم تخليصهم من أيدي الفراعنة الذين قال عنهم القرآن: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾[1]، كما إنّهم شاهدوا بأمّ أعينهم كيف فُرق البحر ونجوا هم فيما غرق آل فرعون، وكانت نتيجة كلّ تلك الجهود أن صاروا موحّدين يعبدون الله. ومع ذلك كلّه، بدلًا من أن يشكروا الله تعالى على جميع هذه الألطاف الخاصّة، عندما وقعت أنظارهم الفاقدة للبصيرة على تلك المعابد الفخمة وعلى الجمال والرونق المحيط بها بادروا إلى نبيّهم فطلبوا منه ذلك الطلب السخيف المشوب بالشرك. لقد توصّلوا إلى نتيجةٍ مفادها أنّ هؤلاء القوم لديهم إلهٌ أفضل من إلههم بمرّات، فإله هؤلاء القوم له جمالٌ فائق يأخذ القلوب، ولديه أبنية فخمة ورائعة، في حين أنّ إلهنا لا نراه

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤٩.



بأعيننا، وليس له مساجد ومعابد كتلك المعابد الجميلة والرائعة عند هؤلاء.

أمّا موسى عليه السلام فقد قابلهم بكلّ غضبٍ وقال: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[1].

وكذلك ينقل القرآن الكريم طلباتٍ سخيفة أخرى جاء بها هؤلاء الجهلة؛ مثل كلامهم لموسى عليه السلام حين خاطبوه: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[2].

وفي موضعٍ آخر يخاطب الله تعالى نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيقول له إنّ أهل الكتاب يسألونك أن تنزّل عليهم كتابًا من السماء، وهذا أمرٌ عجيب، ولكنّ الأعجب منه والأكبر ما طلبوه من موسى عليه السلام: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[3].

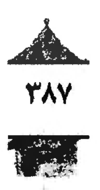
ما يثير التعجّب أنّ النبيّ موسى عليه السلام كان قد أثبت لهم وجود الله الواحد إله الأرض والسماء والذي تتنزّه ذاته المقدّسة عن كلّ عيبٍ ونقصٍ بما في ذلك الصفات الجسمانية، ومع ذلك فقد ظلّت هذه الفئة الساذجة عالقةً بتلك الأفكار الوهميّة، كأنّ قلوبهم ما زالت تتوق إلى إلهٍ محسوسٍ مثل الأصنام أو مثل فرعون.

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٣٨.

(٢) ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٥٥).

(٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾ (سورة **النساء**، الآية ١٥٣).



لقد كان بنو إسرائيل في هذه المرحلة موحّدين، ولم يكن أهالي تلك المدينة آباءهم ولا أجدادهم حتى يكون فعلهم [بطلب إلهٍ من موسى] اقتداءً بسيرة الآباء. هذا الفكر الخاطئ وهذا الطلب المغفّل من بني إسرائيل إنّما منشؤه أنّهم التقوا في مسيرهم إلى كنعان بأمّةٍ كانت أكثر تحضرًا بقليلٍ من سائر الأمم، وكان ظاهر حياتهم جذّابًا ومثيرًا. وعلى فرض أنّ أهل تلك المدينة كانوا أناسًا متحضّرين ومتقدّمين، فلأيّ سبب عليهم أن يعتبروا أنّ مسلكهم ومعتقدهم كان أفضل من غيره حتى يقتدوا بهم؟ إنّ تعميم أفضليّة هؤلاء القوم في مجالٍ معيّن على الأبعاد الأخرى والإحساس بالحقارة في مقابلهم ليس إلا فعل الناس السذّج الذين لا يلتفتون إلى المسائل الأساسيّة.

٣- المادّيّة

لعلّ أحد أهمّ أسباب هذا النوع من التقليد والاقتداء والتعميمات الخاطئة: اندفاع الأفراد نحو المادّيّة. إنّ تقبّل الأمور غير المحسوسة صعبٌ عند الأشخاص الذين لديهم نوعٌ من التوجّه الإفراطي نحو المادّيّة، أو أنّ هؤلاء لا يتعبون أنفسهم أساسًا لإدراك وفهم مثل هذه الأمور.

في قصّة بني إسرائيل، كان إلحادهم في التوحيد بسبب أنّهم كانوا مادّيّين بشكلٍ إفراطي، ولهذا السبب، فلمّا رأوا ظاهر الحياة الرائعة عند أهالي تلك المدينة وبخاصّة في أصنامهم، فقد رجّحوا عبادتها على عبادة الإله الذي لا يُرى بالعين أساسًا وليس مثل سائر الموجودات الجسمانيّة التي يمكن عقد ارتباطٍ وتواصلٍ ظاهريّ معها.





ويشهد على هذا المدّعى طلبهم من نبيّهم أن يروا الله تعالى أو أن يظهره لهم بنحوٍ يمكنهم أن يشاهدوه بالعيان.

ثمّ إنّ الحكمة من نقل القرآن الكريم لهذه القصّة ونظائرها تكمن في أنّ هذه الحوادث ليست لبني إسرائيل فقط، بل قد نُبتلى نحن أيضًا بمثل هذا الابتلاء والامتحان. هذه المسألة اهتمّ بها النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام حيث نبّهونا إليها في الروايات، فعن النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ وَالْقِذَّةِ بِالْقِذَّةِ حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»[1].

هذا التعبير الحكيم إنّما يحكي عن أنّ التقليد الأعمى والمادّيّ البعيد عن الفكر والتأمّل قد يحدث عند كلّ قوم وملّة وفي كل عصرٍ وزمان. إذًا فعلى الإنسان أن يبقى مراقبًا حتى يقيّم كلّ أمرٍ بمعايير صحيحة ودقيقة، ومن ثمّ يتّخذ قراره على أساس التقييم الصحيح وينفّذه في مقام العمل. ولكنّ مسألة تقليد الآخرين واتّباعهم بمادّيّة ودون تفكير وتأمّل، مسألة مهمّة رائجة وشائعة، فكثيرٌ من الأمم والشعوب التي كان لها في الماضي مفاخر وشخصيّات عظيمة وإنجازات حضاريّة مدهشة وكبيرة، صارت، نتيجة ضعف النفس والجهل والمادّيّة الإفراطيّة، مسحورةً بتطوّرات الغرب الظاهريّة الأخّاذة، جاعلةً كلّ أنظارها وأسماعها مشدودة إلى كلمات الغربيّين وفكرهم في جميع الأمور، بما في ذلك المعتقدات حتى المقدّسات. مع الأسف، فبعضهم عمد إلى بعض التطوّرات الغربيّة التي هي ليست بتلك الأهمّيّة، فجعلها أساسًا له، وقام بتعميمها على سائر

---

(١) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٥١، ص ١٢٨.

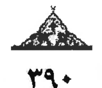


المجالات أيضًا. بنظر هؤلاء، فبما أنّ الغربيّين لديهم تطوّرٌ علميّ ومدنهم جميلة، إذًا فثقافتهم، وعاداتهم وتقاليدهم، ولباسهم، ومأكلهم ومشربهم، بل طريقة كلامهم؛ جميع ذلك جديرٌ بالاتّباع!

العوامل المؤثّرة في شخصيّة الأفراد المقلّدين

جديرٌ بالبحث أن نتناول هذه المسألة المهمّة بطريقة دقيقة وندرسها ونحلّلها تحليلًا نفسانيًّا صحيحًا. الذي يبدو هو أنّ هؤلاء الأفراد والمجتمعات لديهم نفسيّات ضعيفة وهويّات شخصيّة تابعة ومتزلزلة، فهم كما يقال ويعبّر عادةً: «ضعيفو النفس» و«بلا هويّة»، فقد تربّوا من مرحلة الطفولة، ونتيجةً للعوامل الوراثيّة أو المحيطيّة (التربية الأسريّة، المحيط، الأصدقاء، الجيران...) تربّوا ونشأوا بنحوٍ قبلوا فيه أن ينظروا إلى الآخرين كيف يعيشون ليعيشوا مثلهم.

مع الأسف، فأغلب أفراد المجتمع هم على هذا النحو. نعم؛ مع ذلك قد نجد أحيانًا بعض الأفراد، حتى من بين الأطفال والمراهقين، لديهم في مثل هذه الحالات رأيٌ وموقفٌ مستقلّ، ولا يتأثّرون بالآخرين في القرارات التي يتّخذونها، بل يعملون على أساس قناعاتهم وخياراتهم الذاتيّة فقط. هؤلاء لا يهتمّون بالآخرين أساسًا وإنّما يبادرون إلى العمل فقط على أساس صحّته أو عدم صحّته، وإذا ما طُلب منهم عملٌ ما فإنّهم يسألون عن علّته وغايته حتى يؤدّوا عملهم بمزيدٍ من القناعة والاستقلاليّة. هذا، ولكنّ عدد هؤلاء الأفراد قليلٌ جدًّا، وأغلب الناس في مختلف الأعمار ليسوا على هذا النحو، وإنّما أنظارهم متّجهة نحو الآخرين فقط، وبخاصّة إلى أولئك الذين لديهم نوعٌ من الامتياز والتفوّق في بعض الجهات، حيث نجد روحيّة التوجّه





إلى الامتياز والتفوّق بلحاظ الشكل، والدخل المالي، والمراتب العلمية، والمكانة الاجتماعية، والقدرة الروحية، والقوّة الجسمية؛ موجودةً بشكلٍ خاصّ وواضح عند الأطفال والمراهقين والمراهقات أكثر منها في سائر المراحل العمرية.

العيب الآخر عند هذه الفئة المقلّدة هو أنّ أكثر توجّهها ينصبّ على امتيازات المميّزين وتفوّقهم فيما هم غافلون عن نقاط القوّة أو الضعف الموجودة في أنفسهم، فلا يفكّرون في أنّ ما هو موجودٌ عندهم هل هو نفسه الذي يتطابق مع قدرتهم أم لا؟ وهل يتطابق مع أهدافهم العالية في هذه الحياة أم لا؟ ألا يمكنهم أن يكونوا أفرادًا أفضل منهم؟ أليس لديهم داخل أنفسهم أرضيّة واستعدادات غير تلك الموجودة عند هؤلاء الأفراد؟ هل هؤلاء البارزون مميّزون في جميع المجالات أم في بعدٍ واحدٍ أو بعدين فقط؟ وإذا بحثنا وحقّقنا أكثر في الموضوع ألن نصل إلى نتيجةٍ مُفادها أنّ بعض الأمور الموجودة عند هؤلاء الأفراد هي خطأ واشتباه من الأساس، وبالتالي فلا يصحّ تقليدها واتّباعها؟

مع الأسـف، فقد شهد مجتمعنا في الماضي، كما في زماننا الحالي أيضًا، أفرادًا هم بقلوبهم على هذا النحو بشكلٍ أو بآخر. قبل انتصار الثورة كانت مجموعةٌ من المتغرّبين عندنا توجّه تمام أنظارها إلى الغربيّين، معتقدين بأنّ علينا أن نقلّدهم في الملبس، والشكل الظاهري، وإدارة أمور المجتمع، وتنظيم المدن، والعمارة، والتعليم والتربية، وبالنهاية في جميع الأمور الفرديّة والاجتماعية، وبتعبير ذلك الشخص المتزلزل والسياسيّ المتغرّب: علينا أن نصير غربيّين من أمّ رأسنا إلى أخمص القدمين حتى نصبح سعداء.



إنّ التعامل العاقل مع الآخرين، حتى المميّزين والبارزين، ينبغي أن يكون تعاملًا اختياريًّا، فلا يصحّ أن تُخلط جميع الأمور بعضها ببعض؛ الاستفادة من تجارب الآخرين والتعلّم من الأشخاص الذين لديهم بعض الأمور الإيجابيّة والامتيازات الواقعيّة في بعض المجالات هو أمرٌ مطلوب يرجّحه كلّ إنسانٍ عاقل ومنصف، وكثيرٌ من مظاهر الحضارة البشريّة قائمةٌ على أساس تقليد الآخرين والتعلّم منهم، كأن يقوم الإنسان بدراسة اللغة والكلام من الآخرين، فذاك لا يكون إلّا على أساس تقليدهم والتعلّم منهم. كثيرٌ من الفنون والحرف كذلك؛ إنّما تنمو من خلال التعلّم والتقليد.

بناءً عليه، فالتعلّم والتقليد بذاتهما نعمةٌ كبرى تفضّل بها الله تعالى على الإنسان. ومع هذا، فالاستفادة من هذه النعمة، كما هو حال سائر النعم الإلهيّة، لا بدّ من أن يتمّ على أساس منهجٍ صحيح ومناسب، حتّى لا يكون، نتيجةً للإفراط والتفريط، سببًا لضرر وأذيّة الإنسان والمجتمع. فعلى سبيل المثال، التقليد والتعلّم من الآخرين والاقتداء ببعض الأفراد، الجماعات والمجتمعات، إذا كان مع المحافظة على الشخصيّة والهويّة الإنسانيّة والاستقلال الفكري عند الفرد والمجتمع، فلن يكون له أيّ ضررٍ على الفرد والمجتمع، حتى لو تحقّق في كلّ بعدٍ وفي كلّ مجال، وليس هذا فحسب؛ بل سيؤدّي إلى نموّ الفرد والمجتمع وترقّيهما أيضًا، إذ لن يضطر مثل هؤلاء الأفراد والمجتمعات إلى أن يبدأوا من الصفر متكبّدين العناء والمشقّات التي تحمّلها الآخرون وبذلوا دونها الأثمان؛ بل سيستفيدون من غيرهم ومن طاقاتهم العقليّة والتفكيريّة. ومن هنا مثلًا التطوّرات التي سجّلتها بعض المجتمعات الغربيّة أو الشرقيّة في بعض المجالات مثل العلم



والتكنولوجيا، هذه التطوّرات تُعدّ من النقاط الإيجابيّة في تلك المجتمعات، والاستفادة من هذه التجارب والطرق التي تمّ اجتيازها والتطوّرات المختلفة هو عملٌ في غاية الرجحان والعقلانيّة، بحيث يُعتمد على التقييم العقلاني والمعايير الصحيحة فيُقلَّد هؤلاء ويُتعلّم منهم بما يتوافق مع تلك المعايير.

إنّها لورقةٌ رابحة على المستوى الفردي والاجتماعي موجودةٌ بيد مثل هؤلاء الأفراد والمجتمعات؛ بأن يستفيدوا جيّدًا من هذه الإمكانات والنعم الإلهيّة دون أن يضطرّوا إلى اجتياز الطريق التي اجتازها الآخرون مرّةً أخرى. أمّا الإنسان الذي لا يستفيد في هذه الحالات من هذه القوّة الإلهيّة وهذا الرسول الداخلي، فحاله أشبه بحال الماشية التي تتبع هذا الشخص أو ذاك.

الدين الإسلاميّ المقدّس ونبيّ الإسلام المكرّم صلى الله عليه وآله أكبر مَن يشجّع في هذا المجال، حيث يقول صلى الله عليه وآله: «اطْلُبُوا الْعِلْمَ وَلَوْ بِالصِّين»[1]؛ أي حتّى لو تطلّب الأمر، فاطووا المسافات إلى أبعد نقاط العالم حتى لا تُحرَموا من التطوّرات العلميّة، طبعًا بشرط ألّا تصيروا مأسورين لتطوّراتهم العلميّة، وألّا تجعلوهم قدوةً لكم في جميع المجالات.

إحدى المغالطات التي طُرحت بعد انتصار الثورة، وتُعدّ من بين المفاهيم الخاطئة التي جاء بها المتنوّرون في بلادنا، وما زالوا حتى اليوم يؤكّدون عليها؛ هي أنّهم يقولون إنّ الحضارة والثقافة لا يمكن التفكيك في ما بينهما؛ فالعلم والصناعة الغربية ملازمة للثقافة

---

(١) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ١، باب «فرض العلم و وجوب طلبه»، ص ١٧٧.



الغربية، وإذا أردنا أن نحافظ على ثقافتنا الذاتيّة فلا بدّ من أن نصرف النظر كذلك عن العلم والصناعات الغربيّة. ولكنّ الأمر ليس بهذا الشكل؛ فتعلّم العلم والصناعات والفنون ممكنٌ مع المحافظة على الهويّة والثقافة الذاتيّة أيضًا. في أيّامنا هذه نرى كثيرًا من أمم العالم في البلدان العربيّة، الشرقيّة، والأفريقيّة، في تعاطيهم مع الثقافات الغربيّة يحافظون إلى حدٍّ كبير على هويّتهم وشخصيّتهم وتراثهم الذاتي في الوقت نفسه الذي يستفيدون فيه من الصناعة والتطوّرات الغربية، وبعضهم أكثر تطوّرًا وغنًى منّا في مختلف أبعاد العلم، والتكنولوجيا والصناعة.

وبناءً عليه، فالملازمة بين الحضارة والثقافة كذبةٌ كبرى انطلت على كثيرٍ من الناس. وعلى أيّ حال، ففقدان الهويّة، وبالتالي التقليد والاقتداء بهذا وذاك، هو منشأ كثيرٍ من المفاسد التي من جملتها الانحراف في العقائد والدين.

استعمال طريقة المغالطة

يواجه الإنسان في حياته كثيرًا من الأخطاء التي يرجع سببها الأساس إلى ضعف استعمال العقل والاستدلال العقلي، على أنّ الخطأ في المباحث العقليّة لا يختصّ بفئةٍ خاصّةٍ دون أخرى، حتى العلماء والمفكّرون والفلاسفة الذين أمضوا سنواتٍ طويلة في الفلسفة والاستدلالات العقليّة؛ حتى هؤلاء قد يقعون في بعض الأخطاء أيضًا. ولعلّه لأجل هذه الأخطاء يذمّ القرآن الكريم أكثر الناس لأنّهم لا





يستعملون عقولهم: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[1]. كثيرٌ من الناس العاديّين، بل من الباحثين والمفكّرين، قد لا يجدون مجالًا للتفكير في الأمور العقليّة واستعمال الاستدلالات العقلانيّة نتيجة الظروف وانشغالات الحياة المتعدّدة والمتنوّعة، وبالتالي فقد يقعون في أخطاء أثناء تشخيصهم فلا يكون عملهم مطابقًا للقرارات العقلانيّة.

أحد المصاديق البارزة لهذا النوع من الأخطاء: التورّط في المغالطات. والمغالطة لا تعني عدم تقديم دليلٍ عقليّ ولا التفوّه بكلام غير عقلاني؛ بل تتضمّن المغالطة استدلالًا عقليًّا بحسب الظاهر، ولكنّ الخطأ يقع في نفس ذلك الدليل العقلي بسبب عدم التدقيق الكافي. ولذا يعتبر علماء المنطق أنّ الاستدلالات المُغالِطة هي استدلالات لا أصولَ ولا أساسَ لها، وهي غير معتبرة وإنْ كان لها ظاهرٌ صحيح ومُخادع. كثيرٌ من المناقشات والحوارات على مستوى المجتمع وبين الناس مشوبةٌ بالمغالطات. الدعايات السياسيّة أو التجاريّة هي كذلك مليئةٌ بالمغالطات؛ ذلك أنّ هدف هذه الدعايات هو خداع الناس، والمغالطة هي الطريقة الأفضل لنيل هذا المرام.

الطريق الوحيدة للأمان من المغالطة هي بتقوية قوّة العقل والاعتماد عليها في البيانات والاستدلالات. وبطبيعة الحال، فهو أمرٌ في غاية الحُسن والرجحان أن يقوم الإنسان بتفعيل قوّة العقل والفكر وتقوية طرق استعمالها؛ ففي هذه الحالة سيكون بإمكانه أن يميّز الاستدلالات الصحيحة من الخاطئة ضمن علاقاته اليومية مع الناس وأثناء مناقشاته وحواراته، وبالتالي يكون في أمان من وقوعه

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ١٠٣.



في المغالطة وفي أمانٍ أيضًا من إيقاع الآخرين فيها. نعم؛ ولكنّ هذا الأمر غير ممكنٍ لجميع الناس، ولهذا السبب فالطريق الأخرى للأمان من خطر المغالطة هو اللجوء إلى الأشخاص المتخصّصين والذين هم محلّ ثقةٍ أيضًا. جميع عقلاء العالم على هذا النحو: إمّا هم بأنفسهم متخصّصون في مجالهم، وإمّا يرجعون في إنجاز أمور حياتهم إلى أهل الفنّ والاختصاص الموثوقين.

مع الأسف، كثيرٌ من الناس ليسوا كذلك؛ أي إنّهم إمّا لا يعتقدون بعموميّة هذه الطريقة وشمولها لجميع الأمور، وإمّا ليس لديهم في جميع المجالات معرفةٌ بالأشخاص المتخصّصين في كلٍّ منها، وإمّا لا يثقون بجميع الخبراء وأصحاب الاختصاص. ولهذا السبب يدخلون بأنفسهم إلى ميدان العمل، ونتيجة فقدانهم لقدرة التشخيص يقعون في مغالطاتٍ وأخطاء فظيعة. على سبيل المثال، فأحد هذه الموارد التي يقوم فيها بعض الشياطين بالمغالطة وإيقاع الآخرين في الأخطاء: استدلالهم بهذه الآية الكريمة: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾[1].

المخاطَب في هذه الآية هم الأشخاص الذين لديهم القدرة على تشخيص الكلام الجيّد من السيّئ، وهم الأشخاص الذين يعلمون أيضًا طريق تشخيص المغالطات ولا يقعون في الأخطاء بهذه البساطة. بناءً عليه، فإذا استطاع شخصٌ أن يقدّم للآخرين استدلالًا خاطئًا ضمن قالبٍ جذّابٍ وبمظهرٍ مستحسن، فكثيرٌ من الناس العاديّين، وأحيانًا حتى من أصحاب الرأي، لا يملكون القدرة على تشخيص ذلك. يكفي أن يكون

(١) سورة **الزمر**، الآيتان ١٧ - ١٨.

الشخص المغالِط أقوى من الآخرين بمقدارٍ ما، فسنرى أنّ جميع الأشخاص الذين هم أضعف منه في المباحث العقلانيّة، وبخاصّةٍ في طرق الالتواء والمغالطات، لا يستطيعون أن يكتشفوا الأخطاء التي يأتي بها. في هذه الحالة لن يكون هؤلاء مخاطبين بهذه الآية الكريمة؛ إذ لا يمكنهم أن يميّزوا القول الحسن والأحسن عن غيره من الكلام.

بناءً عليه، فهي مغالطةٌ واضحة أن نقول إنّ على الجميع أن يستمعوا إلى كلام الأشخاص الذين لديهم كلامٌ في كلّ شيء، ومن ثمّ يقارنوا بين الأقوال المتعدّدة ويشخّصوا اختلافاتها وأضدادها ويميّزوا صحيحها من سقيمها على أساس الجرح والتعديل، ليقوموا بعد ذلك باختيار الأفضل من بينها. هذا العمل خاصٌّ بالأشخاص الذين لديهم القدرة على فعله، وبحسب حكم القرآن الكريم، فلا ينبغي لعموم الناس أن يقوموا بذلك. حول هذه الفئة من الناس يقول الله تعالى:

﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾[1].

بحكم هذه الآية الكريمة، ففي هذه الحالات لا ينبغي أن يقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾؛ ذلك أنّ عموم الناس، بل بعض الخواصّ، ليس لديهم أساسًا القدرة على تمييز الاستدلالات الخاطئة من الصحيحة، وليست قدرة التعقّل والتفكير والتفلسف عندهم قويّةً بما يكفي. ومن هنا، فتوريط مثل هؤلاء الأشخاص في مباحث من هذا النوع هو من عمل الشيطان حتى

(١) سورة النساء، الآية ١٤٠.



يخدعهم من خلال الكلام الجميل والمنمّق فيوقعهم في خيارات ومواقف خاطئة: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[١].

هذا هو عمل الشيطان، حيث يقوم من خلال ذلك بصرف اهتمام الناس إلى هذه الأمور الظاهريّة، الجميلة والبرّاقة، ويُخفي عنهم الحقائق الكامنة في هذه الأمور، ويوجد الشبهة والتشكيك في جميع المسائل، وبخاصّة المسائل الاعتقاديّة والدينيّة. ولهذا السبب، يوصي الله تعالى في القرآن الكريم المؤمنين بألّا يجالسوا ولا يستمعوا لكلام هؤلاء الأشخاص الذين هم إخوان الشياطين وشغلهم إلقاء الشبهات، وإلا فلو استمعوا إليهم لباتوا مثلهم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾.

مرّةً أخرى يشير الله تعالى في سورة الأنعام المباركة إلى هذه المسألة المهمّة، حيث يخاطب نبيّه الأكرم (صلّى الله عليه وآله) فيقول:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

إنّ توجيه الخطاب في هذه الآية الكريمة إلى شخصيّة عظيمة هي شخصيّة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله إنّما يكشف عن الأهميّة الفائقة لهذا الحكم، ولكي يلفت أنظار أمّته إلى أهمّيّة هذا الأمر، وإلا فشأنه صلى الله عليه وآله أجلّ من هذه الأخطاء والأفعال التي تصدر عن بعضهم نتيجة خفّة

---

(١) ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ١١٢).

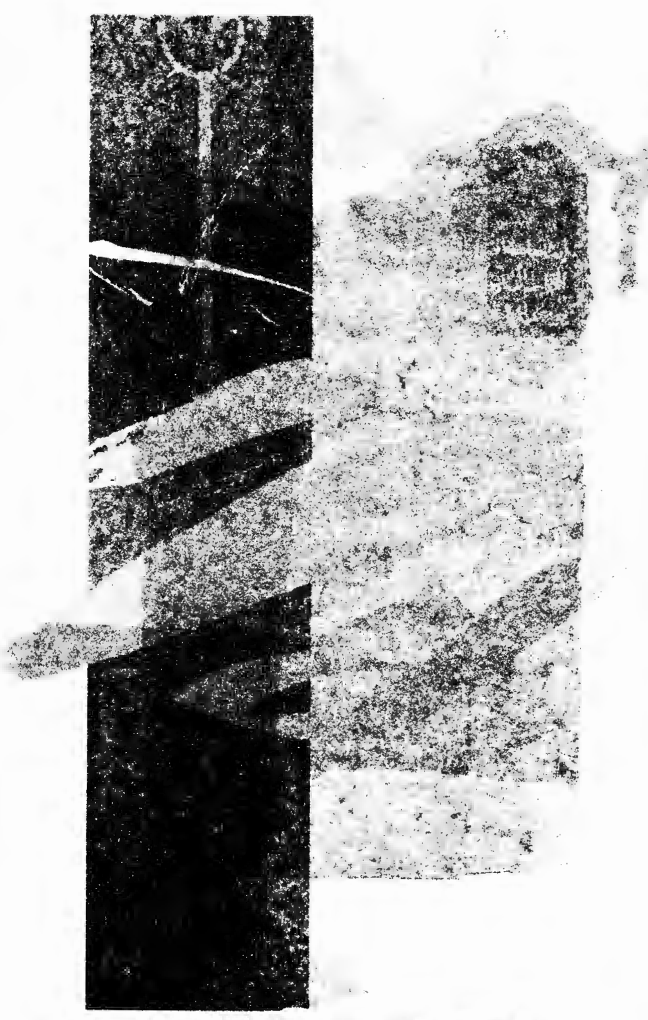
(٢) سورة **الأنعام**، الآية ٦٨.





عقلهم وعدم التفاتهم، وهو﴿عليه السلام﴾ أعقل العقلاء وأفهم من الجميع بصحّة الأمور وخطئها.

على الجميع، وبخاصّة أولئك الذين هم أقلّ علمًا وأقلّ قدرةً على التفكير والتعقّل؛ أن يراقبوا بشكلٍ دقيق معاشرتهم للمعاندين والشياطين، حتى يكونوا في أمانٍ من الإلحاد والانحراف في التوحيد ومن الشكّ والتردّد في الدين. الشعارات الخادعة والبرّاقة، مثل «حريّة الفكر»، «حرّية التعبير»، «التطوّر الفكريّ»؛ من حبائل الشيطان. نعم؛ إذا وصل المرء بعد سنوات من الاجتهاد في الدرس والغور في المسائل العلميّة والعقليّة؛ إذا وصل إلى مرحلةٍ يجد فيها أن لديه القدرة على مواجهة هذه الشبهات والتشكيكات، فسيكون له الحقّ في مقابلة هؤلاء المعاندين، بل إنّ واجب رجال العلم والمعرفة في هذه الحالات أن يبادروا، وبالاعتماد على الألطاف الإلهيّة، إلى الإجابة عن شبهات هذه الفئة من أجل حلّها ومن أجل إرشاد هؤلاء ونجاتهم.



الجلسة الحادية والعشرون:

طريق النجاة من خدع الشيطان





«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَجَنِّبْنَا الإلْحَادَ فِي تَوْحِيدِكَ وَالتَّقْصِيرَ فِي تَمْجِيدِكَ وَالشَّكَّ فِي دِينِـكَ وَالْعَمَى عَنْ سَبِيْلِكَ وَالإغْفَالَ لِحُرْمَتِكَ، وَالانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»

طريق النجاة من خدع الشيطان

في ذيل هذه الفقرة من الدعاء يطلب الإمام السجّادعليه السلام من الله تعالى ما يلي: «**اللَّهُمَّ... وَجَنِّبْنَا... وَالانْخِدَاعَ لِعَدُوِّكَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**».

وحقيقةً نسأل، كيف يمكننا في مقام العمل أن نبقى في أمانٍ من مكر الشيطان وخدعه؟ بناءً على ما ذكرناه سابقًا في باب شروط استجابة الدعاء، فالدعاء وحده لا يكفي لكي يصير هذا القرار المهمّ أمرًا عمليًّا؛ فشرط جدّيّة الطلب من الله تعالى أن نأخذ بعين الاعتبار الأسباب والعلل التي جعلها الله لإنجاز كلّ عمل، وسعينا وجهدنا هو أيضًا أحد تلك الأسباب. ومتى ما شعرنا أنّ تلك الأسباب غير كافية، وأنّنا





بحاجة إلى مددٍ وعونٍ أكبر من قبل الله تعالى؛ فعلينا أن نتوكّل على الله ونثق به، ونتيقّن بعونه ومدده.

ولعلّ السؤال التالي يخطر في ذهن كثيرٍ من الأشخاص؛ وهو أنّه لماذا خلق الله تعالى الشيطان مع ما فيه من خصائص، ومن ثمّ وضعه في طريقة حركة الإنسان؟ الإجابة التفصيلية عن هذا السؤال غير متيسّرة في هذا المجال، ولكن من الواضح لنا على نحو الإجمال أنّ الشيطان هو كذلك مثل سائر الأسباب والعلل؛ من عوامل امتحان الإنسان وابتلائه، ولهذا السبب فهو يسعى دائمًا إلى منعنا من العمل، ولا بدّ من أن نبقى مراقبين وحذرين من مكره وخدعه.

لكي يمتحن الإنسان ويختبره، يضع اللهُ تعالى هذا الإنسان دائمًا على مفترق طريقين، جاعلًا لذلك أدواتٍ مختلفة؛ بعض هذه الأدوات داخليّ، وبعضها الآخر خارجيّ، ومن الأدوات الخارجيّة لامتحان الإنسان: الشياطين وأعوان الشيطان وأنصاره، وفي مقابلهم الملائكة والموكّلون بالرحمة الإلهيّة. هاتان الفئتان من الأدوات، يدعوان الإنسان دائمًا إمّا إلى الأعمال القبيحة والسيّئة، وإمّا إلى النيّات الحسنة والأعمال الصالحة.

القسم الآخر من أدوات امتحان الإنسان داخليّة؛ ففي داخل الإنسان جاذبتان نحو الخير أو نحو الشر كلّ منهما تشدّ الإنسان نحو أحد الاتّجاهين: الأهواء والشهوات والميول الحيوانيّة، وفي مقابلها التوجّه والميل نحو الخير ومحبّة الله وأولياء الله؛ قوّتان كبيرتان كلٌّ منهما يقود الإنسان نحو إحدى الجهتين المتضادّتين.



بناءً عليه، ففي الجهة الإيجابيّة جعل الله في قلب الإنسان المؤمن وسيلةً للتقوية الداخليّة؛ وهي الميل نحو الإيمان بالله ومحبّة أوليائه وأحبابه: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾[1].

ومن هنا، كان في قلب المؤمن حبٌّ خاصٌّ تجاه الله تعالى وأوليائه. هذا، كما جعل الله لتقوية المؤمنين عوامل خارجة عن وجودهم، وبحسب القرآن الكريم، فقد جعل الله قسمًا من الملائكة مكلّفين بمساعدة الإنسان وتأييده.

المؤمنون مجموعةٌ قامت، بسبب قوّة إيمانها بالله وبيوم القيامة، بالتبرّؤ من أقرب الأقربين، حيث كتب الله تعالى الإيمان في قلوبهم وأيّدهم بملائكته الخاصّين: ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ﴾[2].

المقصود من «الروح» في هذه الآية الكريمة غير روح أشخاص البشر؛ «الـروح» موجود أعظم وأجـلّ من الملائكة، وبحسب أحد التعابير، فهو أعظم حتى من جبرئيل، وينزل في ليلة القدر لتقديم

---

(١) ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ (سورة **الحجرات**، الآية ٧).

(٢) ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (سورة **المجادلة**، الآية ٢٢).



الأمر الإلهي إلى وليّ الله عليه السلام[١]. على أساس هذه الآية الكريمة، فقد جعل الله تعالى تأييد المؤمنين أحد التكاليف الخاصّة التي كُلّف بها «الروح»[٢]، ولعلّ المقصود من الروح المؤيّدة للمؤمنين هي عينها ما جاء التعبير عنه في الرويات بعنوان «روح الإيمان»[٣]. وعلى أيّ حال، فهذا الموجود الشريف، أيًّا كان، يؤدّي إلى تقوية المؤمنين ونصرتهم. وفي المقابل، فقد جعل الله أعوانًا لتأييد ونصرة أتباع الهوى والمقيّدين في سجن الشهوات الحيوانيّة.

بناءً عليه، فإنّ كلًّا من المؤمنين وأتباع الشهوات ينالون التأييد والعون بواسطة قوًى داخليّة وخارجيّة، وعلى أساس سُنّة عامّة قرآنيّة وبمقتضى الحكمة الربّانيّة: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾

---

(١) في حديثٍ طويلٍ يجيب فيه عن سؤالٍ حول الروح، نُقل عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «الرُّوحُ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ؛ إِنَّ جَبْرَئِيلَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَإِنَّ الرُّوحَ هُوَ خَلْقٌ أَعْظَمُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **أصول الكافي**، ج ١، ص ٣٨٧).

(٢) ليس واضحًا جدًّا ما طبيعة هذا الموجود العظيم والشريف، ولا أنّه من أيّ سنخٍ من الموجودات هو؛ فقد اعتبره بعضهم من سنخ الملائكة، فيما ينكر بعضهم الآخر هذه الدعوى استنادًا إلى بعض الآيات والروايات. ويعتقد بعضهم أنّ الروح هو جبرئيل الأمين: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ (سورة **الشعراء**، الآية ١٩٣). ولعلّ «الروح» تُطلَق على سنخٍ خاصٍّ من الملائكة، على أنّنا لا نملك معلوماتٍ صحيحة عن هذا السنخ من الموجودات بسبب جهلنا بعالم ما وراء الطبيعة.

(٣) عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «سَأَلْتُهُ عَنْ عِلْمِ الْعَالِمِ، فَقَالَ عليه السلام لِي: «يا جَابِر! إِنَّ فِي الْأَنْبِياءِ وَالْأَوْصِياءِ خَمْسَةَ أَرْوَاحٍ: رُوحَ الْقُدُسِ وَرُوحَ الْإِيمَانِ وَرُوحَ الْحَياةِ وَرُوحَ الْقُوَّةِ وَرُوحَ الشَّهْوَةِ؛ فَبِرُوحِ الْقُدُسِ يا جَابِر عَرَفُوا مَا تَحْتَ الْعَرْشِ إِلَى مَا تَحْتَ الثَّرَى. ثُمَّ قَالَ: يا جَابِر! إِنَّ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ أَرْوَاحٌ يصِيبُهَا الْحَدَثَانُ إِلَّا رُوحَ الْقُدُسِ فَإِنَّهَا لا تَلْهُو وَلَا تَلْعَب» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **أصول الكافي**، ج ١، ص ٢٧١).



وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾[١].

في هذه الآية الكريمة، قسّم الله تعالى عباده إلى مجموعتين:

المجموعة الأولى: الأشخاص الذين تعلّقت قلوبهم بزخارف الحياة الدنيا وزينتها فهم أسرى بحبّ الدنيا؛ هؤلاء نعينهم ببعض الوسائل ونهيّئ لهم أسباب الوصول إلى ما يريدون ضمن حدود المصلحة، على أنّنا قد أعددنا لهم جهنّمًا سيكونون مهانين وأذلّاء فيها.

المجموعة الثانية: الأشخاص الذين يتّبعون الحقائق الثابتة والدائمة الأبـديّـة، ويسعون بكلّ جهودهم للوصول إليها. هؤلاء نشكرهم ولن نترك هذه الجهود منهم دون مقابل.

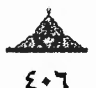
وعلى أيّ حال، فإنّنا نمدّ يد العون في هذا العالم إلى كلٍّ من هاتين المجموعتين، كما نهيّئ لكلٍّ منهما الأسباب والوسائل التي تتناسب مع ما يختارونه، ولا نمنعهم من الوصول إلى هدفهم: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[٢].

وفي تعبيرٍ آخر، يصرّح الله تعالى بأنّا قد عرضنا عليهم من البداية كِلى الطريقين: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾[٣]. ثمّ بعد ذلك نترك هذا الإنسان حرًّا في اختيار الطريق، وبعد أن يختار ما يختار، نعينه في اجتياز ذلك الطريق، سواء أكان طريق الخير أم

(١) سورة **الإسراء**، الآيتان ١٨ - ١٩.

(٢) سورة **الإسراء**، الآية ٢٠.

(٣) سورة **الإنسان**، الآية ٣.





طريق الشر؛ فالذي يختار طريق الخير ويمشي به نعينه ليسير في طريقه بشكلٍ أفضل وأسرع، وكذلك الذي يختار الضلال وينطلق في طريقه نهيّئ له وسائل السير في ما اختاره حتى يرتكب المعصية. على أنّ اللطف والإمداد الإلهي الذي يشمل حال المؤمنين أكثر من ذلك المقدار الذي يشمل الكفّار والعاصين، كما أنّ ثواب المؤمنين في الآخرة عشرة أضعاف: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ﴾[1]، وأحيانًا يكون أكثر من ذلك بكثير: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾[2].

بناءً عليه، ففلسفة خلق عالم الدنيا قائمة على الامتحان والاختبار، وإذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ من أن تكون أسباب ووسائل ذلك مهيّأةً أيضًا، وقد هيّأ الله تعالى هذه الأسباب في داخل الإنسان وخارجه، وهي عبارة عن:

القوى الداخلية المتضادّة؛ مثل التوجّهات المتعالية والعقل والتوجّهات الإيجابيّة من جهة، والأهواء النفسايّة والغرائز الحيوانيّة من جهةٍ أخرى.

والقوى الخارجيّة المتضادّة؛ مثل الجنود الإلهيّين والملائكة والروح الإلهيّة في طرف، وشياطين الإنس والجنّ في طرف آخر.

---

(١) سورة **الأنعام**، الآية ١٦٠.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٤٥.



هاتان القوّتان الجاذبتان، بقوّة جذبهما العالية، كلٌّ منهما تشدّ الإنسان باتّجاهها: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ﴾[1].

من طرفٍ تقوم الشياطين بدعوة الإنسان إلى الطرق المنحرفة، ومن طرفٍ آخر فإنّ له أصحابًا وأصدقاء ينصحونه بالابتعاد عن الشياطين ويدعونه نحو الله والهداية الإلهيّة. وأمّا عامل نجاتنا من الانحراف والنجاح في ميدان هذه المواجهة الحقيقيّة فهو أن نعرف، قبل أيّ شيءٍ، طرقَ الخير والشرّ وعناصرهما حتى لا ننجرّ إلى الضلال فجأةً ولا ننخدع نتيجةً للجهل والغفلة.

بعضهم يتصوّرون، نتيجةً لفهمٍ خاطئٍ عندهم، أنّ للشيطان عداوةً خاصّةً بينه وبين مجموعةٍ من البشر، ولذا فهو يتسلّط عليهم ويسوقهم قهرًا، ومن أوّل العمر، نحو المعصية والشرّ والسوء بحيث لا يكون لديهم أيّ قدرةٍ على مقاومته، فيقودهم في نهاية المطاف إلى جهنّم: ﴿فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

هذا التصوّر الخاطئ من إلقاءات الشيطان، في حين أنّ القرآن الكريم يخالف هذا التصوّر: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ﴾[3]. فعل الشيطان هو الوسوسة وعرض الطريق مقرونًا بالتزيين والتهديد والتشجيع، وليس في فعل الشيطان أيّ إجبار. نعم؛ الإنسان هو الذي

---

(١) ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ٧١).

(٢) سورة **النساء**، الآية ١٤٥.

(٣) سورة **النحل**، الآية ٩٩.



قد يضع نفسه في تصرّف الشيطان ويكون مطيعًا له، كما أنّ بعض الأفراد يسلّمون زمام أمورهم، وباختيارهم، إلى الله تعالى وإلى أوليائه: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾[١].

عندما يسلّم الإنسان بولاية الله ويضع نفسه تمامًا في تصرّف الله تعالى، فالله هو الذي يتصدّى لتدبير أموره، إلى الحدّ الذي يبيّنه الحديث القدسيّ المعروف بـ«قرب النوافل»، والذي ينقله الإمام الصادقعليه السلام عن جدّه الأعظم نبيّ الإسلام الأكرمصلى الله عليه وآله حيث يقول الله تعالى: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا»[٢].

وفي الدعاء القيّم للإمام أبي عبد الله الحسينعليه السلام في يوم عرفة يقولعليه السلام مخاطبًا الله تعالى: «إِلَهِي أَغْنِنِي بِتَدْبِيرِكَ لِي عَنْ تَدْبِيرِي وَبِاخْتِيارِكَ عَنِ اخْتِيارِي»[٣].

على كلّ حال، فالسنّة الإلهيّة قائمةٌ على أنّ الإنسان إذا عمل بأمر الله تعالى وجعله، بكلّ صدقٍ، وليًّا له في كلّ شيءٍ ووكيلًا تامًّا

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.

(٢) عَنْ حَمَّادِ بن بَشِيرٍ قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِعليه السلام يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِصلى الله عليه وآله: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ أَهَانَ لِي وَلِيًّا فَقَدْ أَرْصَدَ لِمُحَارَبَتِي، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدٌ بِشَيءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا. إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيءٍ أَنَا فَاعِلُهُ كَتَرَدُّدِي عَنْ مَوْتِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَه» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **أصول الكافي**، ج ٢، ص ٣٥٢؛ محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ٤، ص ٧٢).

(٣) **مفاتيح الجنان**، أعمال يوم عرفة، دعاء الإمام الحسينعليه السلام في يوم عرفة.



في جميع الأمور: ﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾[١]؛ فالله تعالى بدوره يقبل وكالته له ويتوكّل أموره حقيقةً، وحينها يصبح من أولياء الله وأحبابه: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[٢]؛ إذًا فالله تعالى يتصدّى لأموره ويدبّر له أمور دنياه مضافًا إلى أمور آخرته، وبالتالي يكون مرتاح البال، هادئًا ومطمئنًا ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾[٣]. مثل هذا العبد لا يكون لديه اضطراب وقلق، ولا همٌّ وغمّ، ولا خوف وفزع، وهكذا يكون أحباب الله. في عصرنا كذلك كان ثمّة من هؤلاء الأفراد وما يزال، ومنهم صاحب الشخصيّة العظيمة المرحوم السيد رضا بهاء الدينيّ رحمه الله الذي كان نموذجًا في الطمأنينة. لقد كنت أعرفه أكثر من أربعين عامًا، وطوال هذه الفترة المديدة لا أذكر أنّي رأيت منه حتى حالةً واحدةً من الاضطراب، أو الهلع، أو التردّد، أو التذبذب وما شابه هذه الأحوال؛ بل كان دائمًا في طمأنينة مسلّمًا قلبه لله المتعال، هادئًا مرتاح البال.

كذلك إذا جعل أحدهم الشيطان قائده ومقتداه واستعان به، فلا شكّ في أنّ الشيطان من جهته لن يقف متفرّجًا على هذا الخضوع والخشوع؛ بل سيتسلّط عليه ويساعده بما يخدم أهدافه الشيطانيّة:

---

(١) ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ (سورة **المزّمل**، الآية ٩)؛ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ نُوحٍ إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكُم مَّقَامِي وَتَذۡكِيرِي بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلۡتُ فَأَجۡمِعُوٓاْ أَمۡرَكُمۡ وَشُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُنۡ أَمۡرُكُمۡ عَلَيۡكُمۡ غُمَّةٗ ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (سورة **يونس**، الآية ٧١)؛ ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصۡبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيۡتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ (سورة **إبراهيم**، الآية ١٢).

(٢) سورة **يونس**، الآية ٦٢.

(٣) سورة **الرعد**، الآية ٢٨.

﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾[١]، وحينها سيكون دائمًا في حالة اضطراب، أو تذبذب، أو هلع، أو تردّد، وستكون شخصيّته شخصيّة متزلزلةً ومتأرجحة. مثل هؤلاء الأفراد، يُبتلون بعد مدّة، ونتيجةً لهذه الروحيّات، بكثيرٍ من الأمراض الروحيّة، النفسيّة، وحتّى الجسميّة؛ هؤلاء يتّخذون من الله موقف العداوة والبغض في مقابل محبّته ومودّته «تَتَحَبَّبُ إِلَيَّ فَأتَبَغَّضُ إِلَيكَ وَتَتَوَدَّدُ إِلَيَّ فَلَا أَقبَلُ مِنكَ»[٢].

من الطبيعي أنّ نتيجة الإعـراض عن الله هي التسليم لولاية الشيطان وسلطنة الطاغوت: ﴿إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ﴾، ومتى ما تسلّط الشيطان على الإنسان وأمسك زمام تدبيره وولايته، فسيقوده باتّجاه الهلاك والعدم: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٣].

الوسوسة أكثر أفعال الشيطان تأثيرًا

نحن وأمثالنا، بما أنّنا لسنا من أولياء الله ولا يزال خطر سيطرة الشيطان يهدّدنا على الدوام؛ كيف نخلّص أنفسنا من تجاذب القوى المتضادّة؟ أحد أهمّ الطرق لتسلّط الشيطان على الإنسان وأكثرها تأثيرًا: التصرّف في فكره وخياله وقـواه الإدراكـيّـة. جميع الأفعال المختلفة التي نُسبت في القرآن الكريم إلى الشيطان ترجع في جذورها إلى الوسوسة؛ فالوسوسة هي وظيفة الشيطان وفعله الأساس،

---

(١) سورة **النحل**، الآية ١٠٠.

(٢) **مفاتيح الجنان**، دعاء الافتتاح.

(٣) سورة **البقرة**، الآية ٢٥٧.





ولذا يتعرّض إلى الإنسان فيشكّكه في الاستدلالات البراهين ليضرب أصل معتقداته ويجعلها في معرض الشكّ والتردّد، فيُلقي مثلًا في أذهان الشباب مسائل من قبيل: من أين نعلم أنّ هذا البرهان ليس خاطئًا؟ لعلّ المنهج المعتمد في هذا الاستدلال فيه نقصٌ ما، لعلّ الآخرين لديهم استدلالات أقوى، الآخرون هم أيضًا بشرٌ وعقلاء مثلنا، التطوّرات العلميّة والتقنيّة عندهم تكشف عن قدراتهم ومستوياتهم العقليّة والعلميّة، احتمال صحّة ادّعائهم احتمالٌ كبير وبالتالي يُحتمل أن يكون الحقّ معهم... هذه الموارد جميعها من الوساوس الشيطانيّة.

أمّا النوع الآخر من الوساوس الشيطانيّة فهو الوسوسة في مقام العمل. يسعى الإنسان في مقام العمل إلى القيام بفعلٍ يؤدّي به إلى الإحساس بلذّةٍ ما أو يخلّصه من ألم ووجع، وفي هذه الحالات يقوم الشيطان بفعل شيئين اثنين: إمّا أن يزيّن الأفعال السيّئة ويشجّع الإنسان على فعلها، وإمّا أن يخوّفه من الأعمال الصالحة ليردّه عن فعلها.

في مقام التزيين، يعمل الشيطان على سَوق الإنسان باتّجاه الملذّات المحرّمة. وفي الحالات التي يقع فيها الإنسان، نتيجةً للخطأ والغفلة، في فعلٍ يستتبع لذّةً حرامًا، يأتي دور الشيطان من خلال الوسوسة حتى يُبرز له تلك اللذّة بشكلٍ يجعلها أكبر وأحلى في نظره. التلقينات الداخلية، التي لعلّ كلّ واحدٍ منّا قد خاض تجربتها بشكلٍ أو بآخر؛ هي من هذا القبيل، والشيطان هو الذي يعمل على تقويتها، إذ في هذه الحالات نشعر بأنّ في داخلنا قوّةً ما كأنّها تجذبنا وتشدّنا نحو بعض الأمور وتبرز جمالها ولذّتها بشكلٍ مضاعفٍ في نظرنا. في مثل هذه الحالة كأنّ قوّةً من الخارج تأتي لتقوّي تلك الجاذبة بما





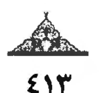
يشبه ذلك التعبير العرفي في المثل الشعبي المعروف الذي يصف ذاك الإحساس الداخلي الباطل والشيطاني الذي يقول للإنسان: «الخلّ المسروق أحلى من الحلاوة»؛ أي إنّ قدرته على التزيين عالية إلى حدّ أنّه يطال حتى الخلّ الحامض فيُظهره حلوًا في نظر الإنسانّ هكذا يكون تزيين الشيطان ووسوسته كما يعبّر القرآن: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾[1]، حيث يقوم الشيطان بكلّ مهارة بتزيين السرقة والتصرّف في مال الغير حتى يشجّع الإنسان على القيام بهذا الفعل القبيح.

وفي مقام التخويف، يعمل الشيطان على ردع الإنسان عن القيام بفعل الخير. الحالات التي يكون الإنسان فيها بصدد القيام بفعلٍ ما، أعمّ من كونه من النشاطات الفكريّة والذهنيّة أو نشاطًا باليد أو الجسم، طبعًا إن كان مقرونًا بالصعوبة والمشقّة؛ هذه الحالات تشكّل مدخلًا جيّدًا ليدخل من خلاله الشيطان إلى نظام إرادة الإنسان وقراره. التسويف والإهمال والتأخير في أداء بعض الأفعال، وبخاصّة في الأعمال الصالحة وفعل الخير، تهيّئ الأرضيّة لهذه الأمور من الداخل[2].

---

(١) سورة **الأنفال**، الآية ٤٨.

(٢) التسويف والإهمال في أعمال الخير ممّا ورد ذمّه بشدّة على اللسان المبارك لرسول الله ﷺ وأهل البيت عليهم السلام، وكذلك في وصايا رسول الله ﷺ القيّمة لأبي ذر (رضوان الله عليه) ورد التحذير من التسويف: «يا أبا ذر، إياك والتسويف بأملك فإنّك بيومك ولست بما بعده» (محمّد بن الحسن الحرّ العاملي، **وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة**، ج ١، ص ١١٤). وكذلك مولانا الإمام محمّد الباقر عليه السلام في وصيّته المباركة إلى جابر بن يزيد الجعفي يحذّره من الورود إلى البحر العميق الذي غرق وهلك فيه كثيرون؛ أي التسويف والإهمال، حيث يقول: «إيّاك والتسويف فإنّه بحرٌ يغرق فيه الهلكى» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٧٥، ص ١٦٢). وفي الأدعية والمناجيات المأثورة عن أهل البيت عليهم السلام أيضًا ورد التأكيد على هذا الأمر مرّات عدّة، حيث يستعيذ هؤلاء العظام بالله تعالى من التورّط في شراك التسويف، كما يقول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء حضرة الخضر عليه السلام المعروف بدعاء كميل حيث يتوجّه إلى الحقّ

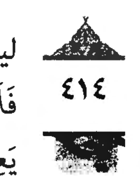


أحيانًا يقوم الإنسان بتأخير بعض أفعال الخير، كمساعدة المحتاجين مثلًا؛ نتيجةً لوسوسة الشيطان وبذريعة التعب أو اتّخاذ قرارٍ أفضل في المستقبل أو الخوف من أضرار محتملة. وبناءً عليه، فالكسل، التسويف، المماطلة، ضعف الإرادة، الفتور وضعف الحافزية؛ جميعها تشكّل بيئةً مناسبة وجاهزة لكي يجول الشيطان من خلالها في نظام إرادتنا واختيارنا فيدفعنا إلى ترك فعل الخير أو إلى تأخيره. ولعلّه لهذا السبب ورد في آيات القرآن وروايات المعصومين (عليهم السلام) التأكيد الكبير على المسارعة والتعجيل في فعل الخير، ففي القرآن الكريم عدّ الله تعالى المسارعة إلى فعل الخير إحدى خصال المؤمنين الحسنة: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ﴾[1].

إنّ فلسفة ضرورة مسارعة المؤمن ومسابقته واستعجاله في فعل الخيرات تكمن في دفع ورفع الموانع الداخليّة (الميول والأهواء النفسانيّة) والخارجيّة (شياطين الإنس والجنّ) التي قد تمنعه من القيام بتلك الأفعال، وخوفًا من أن يجد الشيطان في ذلك التأخير فرصةً

تعالى قائلًا: «وخدعتني الدنيا بغرورها ونفسي بجنايتها ومطالي» (**مفاتيح الجنان**، دعاء كميل). وكذلك الإمام زين العابدين عليه السلام في الدعاء المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي يتوجّه إلى الحقّ تعالى مخاطبًا: «فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري» (**مفاتيح الجنان**، دعاء أبي حمزة الثمالي).

(١) سورة **المؤمنون**، الآية ٦١. هذا، وقد أشارت كثيرٌ من آيات القرآن الكريم إلى المسارعة والمسابقة في فعل الخيرات، ومن تلك الآيات مثلًا: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ أَيْنَ مَا تَكُونُواْ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ١٤٨)؛ ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ١١٤)؛ ﴿...وَلَـٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (سورة **المائدة**، الآية ٤٨)؛ ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ (سورة **الأنبياء**، الآية ٩٠).



ليخوّفه من القيام بفعل الخير: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1]. وبشكلٍ عام: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[2].

لقد أنذر الله المؤمنين ألّا ينخدعوا بالشيطان ولا يحملوا وعوده الكاذبة محملَ الجدّ، وبدلًا من ذلك عليهم أن يسارعوا إلى فعل الخير حتى لا يتورّطوا بالشهوات الداخليّة ولا بتزيين الشيطان أو تخويفه.

لقد صوّر الله تعالى في القرآن الكريم كذب الوعود الشيطانيّة ضمن قالب حوارٍ بين أهل جهنّم: بين المستضعفين والمستكبرين، النخب وعموم الناس؛ حيث تتنازع هاتان الفئتان حول سبب صيرورتهم في جهنّم: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾[3]. يوجّه الناس العاديّون والمتوسّطون في المجتمع خطابهم إلى نخب المجتمع والمستكبرين فيه، فيقولون: لولا أنتم لكنّا مؤمنين ولما وصلنا إلى هذا المصير المشؤوم. فيجيبهم المستكبرون والنخب بأنّكم أنتم الذين أخطأتم؛ فبعد أن كان طريق الهداية (من خلال الأنبياء الإلهيّين والكتب السماويّة) مفتوحًا أمامكم ما هو المانع الذي شكّلناه أمامكم حتى لا تهتدوا؟ ومتى أجبرناكم وأكرهناكم على الكفر؟

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١٧٥.

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٢٦٨.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ (سورة **سبأ**، الآيتان ٣١ - ٣٢).



ثمّ في تتمّة هذا النزاع والحوار يوجّه المستضعفون اتّهامهم مجدّدًا إلى الذين تسبّبوا بانحرافهم عن الطريق الإلهيّ الحقّ نتيجة اتّباعهم لهم، فيقولون: ﴿بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾[١].

الحوار الآخر الذي أشار إليه القرآن الكريم هو الحوار الذي يدور في جهنّم بين الناس الضالّين والشيطان، حيث ينسب هؤلاء ضلالهم وانحرافهم إلى الشيطان معتبرين أنّه هو السبب الرئيس لما وصلوا إليه، فيجيبهم الشيطان قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾[٢]. أنتم الذين أدرتم ظهوركم لدعوة الله نحو الحقّ والحقيقة ولبّيتم دعوتي في المقابل. أنا لم أفعل شيئًا سوى أنّي دعوتكم، ولم يكن لي أيّ سلطة وسيطرة عليكم، نعم؛ كانت دعوتي كاذبة وأنتم أجبتم هذه الدعوة الجوفاء والكاذبة والخالية من الحقيقة، إذًا فبدلًا من أن تلوموني أنا؛ لوموا أنفسكم. ثمّ في نهاية المطاف يعترف الشيطان فيقول أنا وأنتم مخطئون معًا، وبالتالي فلا يمكن لأيٍّ منّا أن ينهض لتلبية استغاثة الآخر: ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾.

---

(١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

(٢) ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

قسمٌ آخر من آيات القرآن الكريم يشير إلى حقيقة أنّ غاية وسوسات الشيطان هي زرع العداوة والحقد والمشاجرة والنزاع بين البشر: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِي ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ﴾[1].

في هذه الآية الكريمة يشير الله تعالى إلى حقيقة أنّ الشيطان يشجّع الإنسان في البداية ويوسوس له من أجل الاستعمال السيّئ لبعض النعم الإلهيّة، فيوسوس للناس مثلًا ويعلّمهم أن يصنعوا من العنب الطيّب والحلو شرابًا مسكرًا، ثمّ يزيّن لهم عملهم ويوسوس لهم بتناول ذاك الشراب؛ أي إنّه يزيّن للإنسان تلك المادّة المرّة، سيّئة الطعم والمسكرة؛ يزيّنها إلى حدّ أن يصبح الإنسان مدمنًا عليها، ومن الطبيعي أنّ الإنسان المتشيطن عندما يتورّط بهذا الفسق فسيفقد عقله، ولن يرى أمامه بعدها شخصًا ولا شيئًا، وبالتالي سيتوجّه نحو العداوة والبغضاء والقتل، فهو سكران فَقَدَ عقله فلا يفهم أيّ شيء، ومثل هذا الحيوان قد يصدر عنه أيّ جريمة.

هذه العملية نفسها تحدث مع القمار بشكلٍ آخر، فعندما يتورّط في رذيلة القمار يسعى لكي يربح أكثر، ولكنّ خسارته لماله وممتلكاته تجعله يشعر بالبغضاء والعداوة تجاه الآخرين، وبالنتيجة يقع في شجارٍ معهم، وأحيانًا ينتهي به الأمر إلى القتل أيضًا.

جميع أنواع الأفعال التي نُسبت في القرآن الكريم إلى الشيطان يُمكن إرجاعها بشكلٍ أو بآخر إلى فعله الأساس؛ أي الوسوسة؛ فأصل جميع هذه الأفعال المنسوبة إلى الشيطان هو الوسوسة، على أنّ

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٩١.



وسوسة الشيطان تختلف بين حالةٍ وأخرى وفق ما تقتضيه كلّ حالة، فأحيانًا تكون الوسوسة من خلال إيجاد الشبهة في الأفكار والتصوّرات، وأحيانًا أخرى تؤدّي إلى تغيير توجّهات المرء وتجعل رغباته متّجهةً نحو الانحراف. وسوسات الشيطان ضمن هذين النطاقين تؤدّي إلى أن يقوم الإنسان أيضًا بأفعاله وأعماله بشكلٍ شيطاني وبعيدٍ عن الصواب؛ إذ إنّ جميع أفعال الإنسان الاختياريّة ناشئةٌ من عاملين اثنين: العامل الأوّل هو معرفة الإنسان، والعامل الثاني هو توجّهه وميله. صوابيّة كلّ خطوةٍ يُقدِم عليها الإنسان إنّما تتعلّق بصحّته وسلامته في هذين العاملين، ولهذا السبب، علينا أن نحفظ فكرنا من الوساوس الشيطانية، أي أن نتعلّم جيّدًا طريقة التفكير الصحيح وتقديم الاستدلالات الصحيحة، وأن نستعين بأهل المعرفة والفهم والتعقّل حتى لا نكون منقادين للشيطان في مقام المعرفة. وكذلك في بُعد التوجّهات والرغبات، علينا أن نكون مراقبين حتى لا يقوم الشيطان من خلال وسوسته بسَوق توجّهاتنا وميولنا نحو الجهات السلبيّة. هذان العاملان إذا لم يتعرّضا لضرر الوساوس الشيطانيّة، فسنؤدّي عملنا أيضًا بشكلٍ صائبٍ وصحيح. أمّا إذا لم نكن متسلّحين بالأدلّة الكافية، أو ابتُلينا في هذا المجال بالشكّ والتردّد، أو لم تكن ميولنا وتوجّهاتنا، لأيّ سببٍ كان، متّجهةً نحو الجهات الصحيحة؛ فأعمالنا وخطواتنا هي أيضًا لن تؤدَّى بالتالي بالشكل الصحيح الذي يُرضي الله عزّ وجلّ.

ما نشهده في أنفسنا أحيانًا من تهاونٍ في القيام ببعض الأمور، بحيث لا نكون مستعدّين لبذل أيّ شيءٍ في مقابلها؛ فذلك إنّما يرجع إلى أنّ الشيطان قام، بوساوسه الخفيّة والظاهرة، بتغيير رؤيتنا ومعرفتنا، أو أزال من عندنا اندفاعنا ورغبتنا في القيام بذلك الفعل؛

فعلى سبيل المثال لسنا حاضرين أن نقلّل من نومنا في الليل ربع ساعة فقط حتى نستبدل النوم بصلاة ليلٍ ندّخر من خلالها لأنفسنا خيرَ الدنيا والآخرة. هذا، في حين أنّ عمرنا ينقضي على امتداد الليل والنهار وننشغل أحيانًا بأمورٍ، مضافًا إلى أنّها غير مفيدة، قد تكون مضرّة للغاية أيضًا. السبب الأساس لهذا الخلل الكبير هو الانقياد لوساوس الشيطان في مجال المعرفة أو التوجّهات؛ فعندما لا يكون لدينا اطّلاعٌ على الآثار والبركات الإعجازيّة للصلاة والتهجّد في الليل، أو عندما لا يكون لدينا الاندفاع المناسب للقيام بهذا العمل الكبير؛ فمن الطبيعي ألّا نعيش حالة الخضوع والخشوع أمام الله تعالى، وبالتالي نرى أنّ أداء ركعتين مستحبّتين أمرٌ متعبٌ وشاقٌّ للغاية بالنسبة إلينا: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[1].

أولئك الذين يحبّون الصلاة ويحملون تفكيرًا صحيحًا حولها يعلمون كم تشكّله الصلاة من جوهرة ثمينة؛ أي إنّ هذا المقدار من المعرفة عندهم، قد أبعدوه، بالمراقبة الصحيحة، عن التضرّر بوسوسة الشيطان. وكذلك فهم يشعرون في أنفسهم بتوجّه وميلٍ خاصٍّ نحو الصلاة، وبالتالي فقد حافظوا جيّدًا على هذا الجانب أيضًا فلم يتأثّروا فيه كذلك بوسوسة الشيطان. وبما أنّ الأمر بات هكذا، فهم ينهضون من فراشهم بكلّ سهولة، حتى في ليالي الصيف القصيرة، لكي يقوموا لصلاتهم بكلّ حبّ وعشق.

إنّ الطريق للمحافظة على جانب معرفتنا من وساوس الشيطان هو: الاجتهاد لتحصيل المعرفة الصحيحة، تقوية قدرة التعقّل والتفكير،

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٤٥.



التزاور ومجالسة العقلاء والمفكّرين من ذوي الفكر السليم والعلماء المهذَّبين، وعرض الأفكار والـرؤى والمعتقدات على المتخصّصين الموثوقين وتقييمها على أساس المعايير الصحيحة. لا بدّ من أن نسعى لكي نأخذ علومنا، وبخاصّة في ما يتعلّق بمسائلنا العَقَديّة والدينيّة، من أصحاب الفكر الممتاز والنفوس السليمة، من الذين لا يكونون مفتونين بالدنيا ولا مولعين بجاهها أو متاعها الحقير، ولا كما تعبّر الروايات: «قُطَّاعُ الطَّرِيق»[١]؛ فمثل هؤلاء الأفراد ليسوا محلًّا للثقة: «فَاتَّهِمُوهُ عَلَى دِينِكُم»، فلا تعتمدوا عليهم في معتقداتكم ومسائلكم الدينيّة، فالدين ينبغي أن يؤخَذ من المتّقي وصاحب العلم الكافي.

وأمّـا الطريق للمحافظة على أنفسنا في مقام العمل فهو أن نستأنس بالعبادات، بشكلٍ تدريجي ومن خلال برنامجٍ صحيح. إذا تحمّل الإنسان وتكيّف مع الصعوبات والمشقّات التي يواجهها في أداء بعض العبادات للمرّات الأولى، فالله تعالى سيعينه بعد ذلك أيضًا، ويزرع في قلبه الرغبة والشوق إلى تلك الأمور إلى حدّ أن يرى أنّ تركها سيكون صعبًا عليه؛ أي يجد في نفسه حالةً أشبه بالإدمان على هذه الأمور وكأنّه ينجذب نحوها بشكلٍ غير إراديّ بحيث يصعب عليه تركها. إذا كان الأمر كذلك، فلا بدّ أولًا من أن نعوّد أنفسنا على ذلك من خلال التمرين وتحمّل الصعوبات الأولى. وكذلك ترك المعصية يكون صعبًا، إلى حدٍّ ما، عند الأشخاص الذين تعوّدوا على ارتكاب المعصية، ويصعب على الذين اعتادوا على هذه الأمور أن يتجاهلوا ويهملوا

---

(١) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني، **الكافي**، ج ١، باب «المستأكل بعلمه والمباهي به»، ص ٤٦.





ميولهم وانجذاباتهم النفسيّة ووساوسهم الشيطانيّة، ولكن مع ذلك فالتمرين هنا أيضًا يسهّل على الإنسان ترك هذه الأمور.

الجدير بالذكر أنّ الاعتياد على المعاصي الكبيرة والأفعال القبيحة الخطيرة إنّما يبدأ من القيام ببعض الأمور القبيحة البسيطة والصغيرة بحسب الظاهر. هذه الأعمال القبيحة قد تكون أحيانًا بسيطة وصغيرة بحسب الظاهر بحيث تكاد لا تُرى بالعين أساسًا. لعلّ المرء في البداية يرى بعينه أنّ ارتكاب المعصية أمرٌ كبير وخطير، ولذا يُظهر ردّة الفعل تجاهها ويمتنع عن القيام بها. هنا يأتي الشيطان فيجعله يميل نحو القيام بالمعاصي الصغيرة بحسب الظاهر، ثمّ يجعله يعتاد عليها شيئًا فشيئًا من خلال تزيين العمل، والتخويف من الترك، واستصغار الذنب وإظهاره غير ذي أهمّيّة، وسائر أساليبه.. ثمّ يؤدّي به ارتكاب هذه الأعمال البسيطة بحسب الظاهر، ولكن المزيّنة والجذّابة؛ يؤدّي إلى مرحلةٍ يرتكب فيها المعاصي الكبرى بكلّ سهولة بل بميلٍ شديد؛ نتيجةً للعادة!

بناءً عليه، فحتى لا نتلوّث بهذه الأمور، أو من أجل رفعها وتركها؛ علينا أن نراقب أنفسنا دائمًا، وبدلًا من ارتكاب المعصية وتكرارها، وبالتالي الاعتياد عليها؛ علينا أن نعوّد أنفسنا على الأعمال الصالحة وعبادة الله تعالى، حتى تصدر منّا تلك الأعمال العباديّة بوصفها عادةً وملكةً راسخة في قرارة أنفسنا، إن شاء الله.

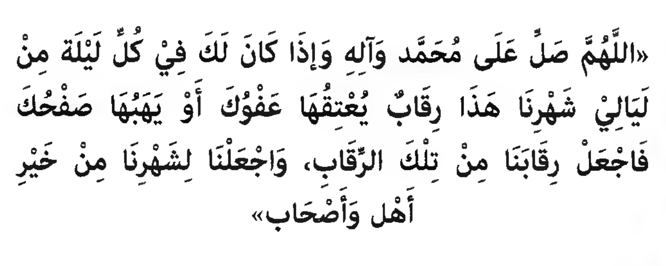


الجلسة الثانية والعشرون:

بركة ليالي شهر رمضان المبارك







«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَإِذَا كَانَ لَكَ فِيْ كُلِّ لَيْلَة مِنْ لَيَالِيْ شَهْرِنَا هَذَا رِقَابٌ يُعْتِقُهَا عَفْوُكَ أَوْ يَهَبُهَا صَفْحُكَ فَاجْعَلْ رِقَابَنَا مِنْ تِلْكَ الرِّقَابِ، وَاجْعَلْنَا لِشَهْرِنَا مِنْ خَيْرِ أَهْلٍ وَأَصْحَاب»

بركة ليالي شهر رمضان المبارك

في هذه الفقرة من الدعاء يشير الإمام السجّاد عليه السلام إلى مسألة العفو عن عباد الله في الليالي المباركة لشهر رمضان الفضيل، ويسأل الله تعالى أن يجعلنا كذلك من المُعتَقين والمعفوّ عنهم في هذه الليالي.

العفو عن العباد المذنبين وشمول الرحمة الإلهيّة لهم في ليالي شهر رمضان المبارك أمرٌ شائعٌ بين المسلمين، ومنشأ هذا الشيوع هو الروايات الكثيرة المنقولة عن رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام بعباراتٍ مختلفة وطرقٍ متعدّدة. هذه الروايات التي ينقلها الفريقان عن رسول الله صلى الله عليه وآله جاء فيها أنّ الله تعالى في ليالي هذا الشهر المبارك، وعند إفطار الصائمين يعتق كثيرًا من عباده من نار جهنّم،



وكذلك في كلّ ليلة يتولّى مَلَكٌ موكّلٌ من الله تعالى أن يأتي إلى الناس فيناديهم: «هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفًا وَأَعْطِ كُلَّ مُمْسِكٍ تَلَفًا»[١].

الذين يستجيبون لنداء هذا الملك ويطلبون من الله العفو والمغفرة يستجيب لهم الله تعالى، ومن هنا فهو يخلّص في كلّ ليلةٍ الآلاف من نار جهنّم. أمّا الليلة الأخيرة من الشهر المبارك فهي ليلة إعطاء الجوائز، وفيها يعفو الله عن عباده بمقدار ما عفا عنهم في تمام هذا الشهر. تعبير الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء يشير إلى هذه الحقيقة الشائعة بين المسلمين منذ ذلك الزمان.

عتق وفكّ الرقبة

يستعمل الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء أدبيّات وتعابير خاصّة، إذ يقول: **«وَإِذَا كَانَ لَكَ فِي كُلِّ لَيلَةٍ مِنْ لَيالِي شَهْرِنَا هَذَا رِقَابٌ يعْتِقُهَا عَفْوُكَ، أَوْ يَهَبُهَا صَفْحُكَ فَاجْعَلْ رِقَابَنَا مِنْ تِلْكَ الرِّقَابِ»**.

لماذا استعمل الإمام هذه التعابير؟

---

(١) عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ إِلَى النَّاسِ فَيَقُولُ: يا مَعْشَرَ النَّاسِ! إِذَا طَلَعَ هِلَالُ شَهْرِ رَمَضَانَ غُلَّتْ مَرَدَةُ الشَّيَاطِينِ، وَفُتِحَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَأَبْوَابُ الْجِنَانِ وَأَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَغُلِّقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَاسْتُجِيبَ الدُّعَاءُ، وَكَانَ لِلَّهِ فِيهِ عِنْدَ كُلِّ فِطْرٍ عُتَقَاءُ يعْتِقُهُمُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ، وَينَادِي مُنَادٍ كُلَّ لَيلَةٍ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ؟ اللَّهُمَّ أَعْطِ كُلَّ مُنْفِقٍ خَلَفًا وَأَعْطِ كُلَّ مُمْسِكٍ تَلَفًا، حَتَّى إِذَا طَلَعَ هِلَالُ شَوَّالٍ نُودِيَ الْمُؤْمِنُونَ أَنِ اغْدُوا إِلَى جَوَائِزِكُمْ فَهُوَ يوْمُ الْجَائِزَةِ، ثُمَّ قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيدِهِ مَا هِيَ بِجَائِزَةِ الدَّنَانِيرِ وَلَا الدَّرَاهِمِ» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٤، ص ٦٧).





مصطلح «عتق الرقبة» أو «فكّ الرقبة» يعني تحرير وإطلاق الأسير والعبد. هذان التعبيران؛ أي العتق والعتاق والفكّ والفكاك، من المصطلحات والمفاهيم القرآنيّة والروائيّة، حيث قد وردا في آيات القرآن: ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾[1]، وهو بمعنى تحرير عبدٍ مؤمن، أو كما جاء في آيةٍ أخرى: ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ١٣ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ﴾[2]. كما أنّ استعمال هذه التعابير في الأدعية شائعٌ جدًّا، وبخاصّة في أدعية شهر رمضان المبارك؛ مثل دعاء أبي حمزة، ودعاء الجوشن الكبير، وسائر أدعية هذا الشهر.

وقد ذُكر في كتب اللغة أنّ «رقبة» بمعنى «عُنُق»، وأنّ العبد والرقيق قد سُمّيا بالرقبة من باب «تسمية الشيء باسم أشرف أعضائه». ولعلّ وجه التسمية هو أنّهم كانوا يأسرون العبيد بوضع الحبال في رقابهم.

يعتقد بعضهم أيضًا أنّ «رقبة» هي وحدة تعداد العبيد والأسرى، مثل «نفر» لتعداد الإنسان والإبل، و«رأس» لتعداد الأبقار والأغنام، و«قلادة» لتعداد حيواناتٍ من قبيل الكلب، والذئب، والفهد، كذلك في مقام تعداد العبيد والأسرى يُعبّر عنهم بعدّة «رقاب». وعلى أيّ حال، فـ«رقبة» تعني الشخص الذي أوثقوه بحكم كونه عبدًا وأسيرًا، وكأنّهم قد وضعوا زمامًا حول رقبته.

هذا المصطلح بهذا المعنى الشائع له، لا شكّ في أنّ استعماله في الثقافة الدينية الإسلاميّة، وفي آيات القرآن، وفي الأدعية والمناجيات؛

---

(١) سورة **النساء**، الآية ٩٢.

(٢) سورة **البلد**، الآيتان ١٣ - ١٤.



له نكتة خاصّة. قد تكون الغاية إفادة المعنى التالي؛ وهو أنّ الإنسان المذنب يصير، بالخطايا التي يرتكبها، مقيّدًا بنار جهنّم، وعندما تتسلّط عليه النار يكون عبدًا لهذه النار التي تحيط بالفاسقين، والمذنبين، والكفّار إحاطةً كاملةً[1]، بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يفرّوا من دائرة العذاب الإلهيّ، وكأنّ المذنب بارتكابه للمعصية قد لفّ حول رقبته حلقة العبوديّة. وكم قيّدت هذه الأغلال من المذنبين الذين لا طريق لنجاتهم من ذلك إلا بالعون والمدد الإلهي؟

لماذا يطلب الإمام السجّاد عليه السلام من الله تعالى أن يعتق رقابنا من نار جهنّم؟ لماذا يطلب النجاة والتحرّر من عبوديّة جهنّم تمامًا كما العبد الذي لا يتحرّر إلا بإرادة صاحبه؟

ورود المؤمنين إلى جهنّم

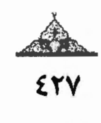
لعلّ الإمام في هذه الفقرة من الدعاء يريد أن ينبّه إلى هذا الحكم والقضاء الإلهيّ الحتمي؛ وهو أنّ جميع الناس، حتى المؤمنين، سيردون إلى جهنّم: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾[2].

إذًا فمن أجل النجاة من تلك المهلكة لا بدّ من الإقدام على خطواتٍ جدّيّة، ولأجل هذا الأمر جاء دعاء الإمام السجّاد عليه السلام وطلبه من الله تعالى.

---

(١) ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (سورة **التوبة**، الآية ٤٩)؛ ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ (سورة **العنكبوت**، الآية ٥٤).

(٢) سورة **مريم**، الآيتان ٧١ - ٧٢.



هل يدخل المؤمنون أيضًا حقيقةً إلى لهيب نار جهنّم؟ وما هو المقصود من ورود المؤمنين إلى جهنّم في هذه الآية الكريمة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾؟

كلمة «ورود» ليست مرادفةً لكلمة «دخول»؛ فـ«الدخول» في مقابل «الخروج»، في حين أنّ «الورود» أعمّ من ذلك، وأحيانًا تأتي بمعنى الإشراف على شيءٍ أو الاقتراب منه. يقول القرآن في قصّة النبيّ موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[1]. الورود هنا ليس بمعنى الدخول، بل المقصود هو أنّ موسى عليه السلام بعد أن فرّ من مصر متّجهًا تلقاء مدين وصل إلى القرب من مدينة مدين، وخارج المدينة كان ثمّة مكان على هيئة بركة أو نبعٍ أو بئرٍ يأتي إليها الناس من مختلف الأطراف لكي يستخرجوا الماء ويسقوا القبائل وأغنامهم. هنا رأى موسى عليه السلام ابنتي النبيّ شعيب عليه السلام واقفتين في زاوية ولا يمكنهما أن تسقيا أغنامهما من الماء بسبب الازدحام، فبادر موسى عليه السلام إلى مساعدتهما وسقى لهما الأغنام؛ إذًا فمقصود القرآن هو أنّ موسى عليه السلام وصل إلى منطقةٍ قريبةٍ من الماء، لا أنّه ورد إلى الماء حقيقةً.

كذلك بعض الروايات التي جاءت في ذيل الآية ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ تبيّن حقيقة أنّ الورود في هذه الآية ليس بمعنى الدخول، حيث يرى الإمام الصادق عليه السلام أنّ الورود إلى جهنّم ليس بمعنى الدخول إليها[2]. وكذلك بعض المفسّرين فسّروا «الورود» في هذه الآية

---

(١) سورة **القصص**، الآية ٢٣.

(٢) عَنِ الْحُسَيْنِ بن أَبِي الْعَلَاءِ عَن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِهِ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ قَالَ: أَمَا تَسْمَعُ الرَّجُلَ يَقُولُ: وَرَدْنَا مَاءَ بَنِي فُلَانٍ فَهُوَ الْوُرُودُ وَلَمْ يَدْخُلْهُ؟ (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج ٨، ص ٢٩١).



بغير معنى الدخول إلى جهنّم[١]، كما نجد أنّ العلّامة الطباطبائي رحمه الله يقول في ذيل هذه الآية الكريمة: «والحقّ أنّ الورود لا يدلّ على أزيد من الحضور والإشـراف عن قصد ـ على ما يستفاد من كتب اللغة ـ فقوله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ إنّما يدلّ على القصد والحضور والإشراف»[٢]. قد يكون المقصود هو أنّ الصراط على هيئة جسر، مثل الجسور التي تُمدّ فوق الأنهار الكبيرة أو بعض البحار، فيكون هذا الصراط واقعًا فوق جهنّم وسيعبر الجميع من فوقه؛ أمّا المؤمنون فيعبرون بفضل الله تعالى بكلّ سهولة ويدخلون منه إلى الجنّة ولا تطالهم نار جهنّم، وأمّا الكفّار الظالمون فيسقطون إلى داخل جهنّم بإرادة الله تعالى.

إذًا فالمقصود ممّا ذُكر في هذه الآية الشريفة من ورود جميع الناس، ومن جملتهم المؤمنون، إلى جهنّم؛ هو إشرافهم على جهنّم؛ أي إنّهم يقتربون من جهنّم إلى حدّ أن يصبحوا مشرفين على نارها وضمن معرض خطرها، اللهمّ إلّا أنّ المؤمنين في مثل هذه الأوضاع المهولة تشملهم الألطاف والمرحمات الإلهيّة، فينجون من الدخول إلى جهنّم، فيما يدخل الكفّار الظالمون إلى العذاب بكلّ ذلّة وهوان.

هذا، وقد طرح بعض مفسّري القرآن من ذوي المسلك العرفاني رأيًا ثالثًا حول ورود المؤمنين إلى جهنّم؛ حيث قاموا بتأويل هذه

---

(١) علي بن إبراهيم القمي، **تفسير القمي**، ج ٢، ص ٥٢؛ ابن أبي الحديد، **شرح نهج البلاغة**، ج ٦، ص ٢٦٤.

(٢) السيّد محمّد حسين الطباطبائي، **الميزان في تفسير القرآن**، ج ١٤، ذيل الآية ٧١ من سورة **مريم**.



الآية[١] فقالوا إنّ جهنّم هي باطن الدنيا. يعتقد هؤلاء العظام بأنّ لعالم الدنيا ظاهرًا هو هذه الملذّات والزخارف والزينة وما يجذب فيها. وقد أشير في القرآن الكريم بشكلٍ كبير إلى هذا البُعد الدنيوي المتمثّل بالزينة والزخارف والمباهج[٢]. وبطبيعة الحال فقد حذّر في بعض الموارد أيضًا من أنّ هذه الجذّابيّة والزينة قد تكون حيلةً شيطانيّة

---

(١) طبعًا لا بدَ من التنبّه إلى أنّه ليس كلَ تأويلٍ يدّعيه أحد الأشخاص يكون صحيحًا ومقبولًا، ولا يكون التأويل صحيحًا إلّا إذا كان لا يتنافى مع سيرة أهل البيت ﷺ في تفسير آيات القرآن ولا يتنافى كذلك مع المعنى الظاهر من آيات القرآن. وأمّا أن يؤوّل كلّ شخصٍ آيات القرآن حسب ما يستنسبه فهذا أشبه بالتفسير بالرأي؛ وهو مردود. لقد كانت سيرة أهل البيت ﷺ قائمةً على أن يفسّروا آيات القرآن بحسب الظاهر، وأحيانًا يستدلّون على تفسيرهم للقرآن. أحيانًا أخرى أيضًا يفسّرون آيات القرآن الكريم بآيات قرآنيّة أخرى، كما في الحديث: «القرآن يفسّر بعضه بعضًا»؛ ولكنّ هؤلاء العظام كانوا أحيانًا أخرى أيضًا يذكرون تأويلاتٍ لبعض آيات القرآن... بناءً عليه، فإذا وصلنا في مجال تفسير آيات القرآن الكريم أو تأويلها نقلٌ عن أهل البيت ﷺ عبر الطرق الصحيحة والمعتبرة، فهو محلّ قبولٍ دون أدنى شكّ أو شبهة في ذلك. وأمّا التفاسير والتأويلات الادّعائيّة والذوقيّة التي لا أصل لها ولا أساس وليس لها مرتكزاتٌ صحيحةٌ أيضًا؛ فهي مردودةٌ وخطيرة. مع الأسف، فأحد أخطر المناهج التي يستغلّها أعداء الإسلام في أيّامنا هذه هو تلك المعاني التأويليّة لآيات القرآن، أو ما يُصطلح عليه بالهرمنيوطيقا، فهذا النحو من التعاطي الخاطئ مع القرآن يقلّل من اعتبار هذا الكتاب السماويّ العظيم وقيمته.

(٢) زينة الحياة الدنيا أشير إليها في آيات القرآن مرّات ومرّات، كما في الآيات التالية: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ (سورة **هود**، الآية ١٥)؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (سورة **الأحزاب**، الآية ٢٨)؛ ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (سورة **القصص**، الآية ٦٠)؛ ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ (سورة **الكهف**، الآية ٢٨)؛ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ (سورة **الملك**، الآية ٥).



لخداع الإنسان: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾[1]. هذا التحذير القرآني يشير إلى هذه الحقيقة؛ وهي أنّ ظاهر الدنيا الجميل له باطنٌ يغايره، وقد صرّحت بعض الآيات القرآنيّة أيضًا بأنّ هذا الظاهر الجميل والجذّاب له باطنٌ ناريٌّ محرق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[2].

الأشخاص الذين يأكلون أموال الآخرين يرونها في الظاهر ويتذوّقونها طعامًا لذيذًا وشهيًّا، ويأكلون حلاوةً حلوة الطعم وجميلة ومزيّنة، ولكن كما قال تعالى، فباطن جميع هذه الأطعمة ليس إلا النار المحرقة، تمامًا مثلما ذكروا أنّ الذين لديهم أعين باطنيّة يرون أنّهم في طعامهم لا يأكلون إلا النار في الواقع.

في هذا السياق نُقلت قصصٌ مليئةٌ بالعبر عن عظماء كان لهم مثل تلك القدرة المعنويّة وكانوا يرون باطن الأمور، هؤلاء العظام عندما كانوا يشاهدون بعض الأفراد أثناء تناول الطعام كانوا لا يرون أمامهم سوى القيح والدم. وأحيانًا كانوا يطلبون من الآكلين أن يضغطوا على أصابعهم حتى يروا الدم يتقطّر من بين أصابعهم. هذه القصص لا يمكن ردّها مع الاهتمام بالحقائق المنقولة في آيات القرآن الكريم وفي روايات المعصومين عليهم السلام، وبخاصّة إذا كانت قد نُقلت عن أشخاصٍ موثوقين أو شوهدت بالعين؛ أي لا ينبغي لنا أن نردّها، وإن كان إسنادها إلى الإسلام وإلى القرآن وأهل البيت عليهم السلام يحتاج إلى دليلٍ وسندٍ معتبر.

---

(١) سورة **لقمان**، الآية ٣٣.

(٢) سورة **النساء**، الآية ١٠.



ومن هنا، فلا يمكننا بهذه البساطة أن نكذّب التأويل الذي نقله بعض المفسّرين لهذه الآية، والذي لا يتنافى مع ظاهرها؛ بل من خلال الشواهد القرآنيّة والروائيّة والقصص المنقولة عن بعض العظماء، يمكن أن يُدّعى بقوّة أنّ هذا العالَم، وخلافًا لظواهره الخادعة، له باطنٌ جهنّمي، وبما أنّ جميع البشر، حتى المؤمنين، يدخلون إلى هذا العالم ويعيشون فيه، فهم جميعًا واردون إلى جهنّم تلك بشكلٍ أو بآخر: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾.

نجد القرآن كريم في سورة الأنبياء المباركة قد وصّف بدقّة سوء حال أهل جهنّم حيث قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾[1].

أمّا المؤمنون فقد استفادوا من الطاقات الطبيعيّة الكامنة، فحرّروا أنفسهم من قوّة جاذبيّة الأرض وحلّقوا إلى عنان السماء، فلم يعودوا بعدها يتأثّرون بجاذبيّة الأرض؛ بل باتوا يعتمدون على القوّة الفائقة للإيمان والعمل الصالح، ومن خلال التوسّل والتمسّك بحبل الله؛ تشملهم الألطاف الإلهيّة، ويخلّصون أنفسهم من الجاذبيّة الجهنّمية في هذه الدنيا ملتجئين إلى مأوى لطف الله، وعندما يستقرّون هناك يصبحون أحرارًا لا يتأثّرون بالجاذبيّات الدنيويّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِى

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآيات ٩٨ - ١٠٠.

مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾[١].

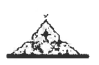
عندما يحدث ذلك، يبقون في أمان من خوف وفزع القيامة، وتأتي الملائكة لاستقبالهم وتبشيرهم بالجنّة الموعودة والنعم الإلهيّة.

على أيّ حال، وأيًّا يكن الخيار الذي نتبنّاه من بين الاحتمالات والتفاسير والتأويلات المذكورة، فجميع البشر في معرض الامتحان الإلهي؛ مبتلون بنار جهنّم وأسرى ومقيّدون بالعذاب. بعضهم يُقيَّدون في النار ويحترقون، فلا بدّ من تخليصهم، مجموعةٌ أخرى على مشارف النار ولكنّهم لم يحترقوا بعد وهم محتاجون إلى من يأخذ بأيديهم ويخلّصهم من الوقوع في النار. وفي مثل هذه الحالة فلا طريق للنجاة وفكّ الرقاب إلا اللجوء إلى الله. ثمّ إنّ أهمّيّة هذه المسألة تبرز أكثر عندما نعلم أنّ الإحساس الداخلي بالذنب والخطيئة تجاه ساحة الربوبيّة المقدّسة يحمله جميع البشر، بما فيهم أكملهم، أي المعصومونعليهم السلام، طبعًا بحسب حالهم وبما يتناسب مع مقامهم الشامخ. وطالما أنّ الأمر كذلك، إذًا فعلى الجميع، حتى الوجود المقدّس لمولانا الإمام زين العابدينعليه السلام مثلًا؛ أن يلتجئ إلى ساحة الحقّ تعالى ليطلب منه ويقول: «أعْتِقْ رَقَبَتي مِن النّار».

هل يقعُ الأولياء الإلهيّون أيضًا في العصيان؟

هل يقع الأولياء الإلهيّون والمعصومونعليهم السلام هم أيضًا بالحقيقة في المعصية والخطيئة ويتورّطون بهذه الأمور؟ قد يكون هذا المطلب

(١) سورة **الأنبياء**، الآيات ١٠١-١٠٣.



المفيد والمعبّر المنقول عن الإمام الخمينيّ مناسبًا للإجابة عن هذا السؤال. بعض الأحداث والوقائع من لوازم الحياة في هذا العالم، فإذا كان المرء مريضًا أو في رجله كسرٌ مثلًا، وأتى شخصٌ محترمٌ لعيادته والمريض لا يمكنه أن يطوي رجله، هنا يشعر المريض بالحياء بسبب ذلك، فيكرّر اعتذاره من ذلك الشخص المحترم. المريض معذور والجميع يعذرونه في مراعاة بعض العادات والتقاليد، ولكنّه مع ذلك يشعر في داخل وجوده بنوعٍ من الحياء والذنب، فيقول في نفسه: لا ينبغي أن أمدّ رجلي أمامه.

هكذا حال عالَم عبوديّة العباد الحقيقيّين أمام الله تعالى؛ فكثيرٌ من عباد الله قاموا بعصيان الله حقيقةً وهم يعيشون حالة الحياء والخجل، حتى الأشخاص الذين ليسوا من أهل الذنوب والمعاصي لا يمكنهم أن يؤدّوا حقّ عبوديه الله بشكلٍ كامل؛ بل إنّ الإتيان بحقّ العبوديّة بشكلٍ كامل ليس بمقدور أيّ شخصٍ إطلاقًا. ثمّ إنّه لا بدّ للعبد من أن يقوم ببعض الأمور من أجل بقاء الحياة والنسل؛ كالمأكل والمشرب وقضاء الحاجة وتوليد النسل والترفيه السليم، والله تعالى من جهته يرضى عن ذلك ولا يؤاخذ أحدًا على القيام بشيءٍ من تلك الأمور، ولكن مع ذلك فالإنسان صاحب المعرفة، الذي لديه شيءٌ من المعرفة حول مقام الربوبيّة وعلاقته بربّه؛ يشعر بكثيرٍ من الخجل من ذلك، ويفهم أنّه وإنْ لم يرتكب المعصية بحسب المتعارف، ولكنّ اشتغاله بهذه الأمور البسيطة والساذجة تصرف قلبه عن الله تعالى وتمنعه عن القيام بتكليفه الأساس. ولهذا السبب نجد أنّ الأناس العارفين مثل حضرة سيّدنا النبيّ الأكرم؛ كان يراقب نفسه على الدوام حتى يظلّ قلبه طاهرًا من الأمور غير الإلهيّة ولا يشوب ولا

يتكدّر بشيءٍ منها: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي كُلِّ يوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً»[١].

وكذلك يُنقل من سيرته صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان عندما يتكدّر من كثرة المراودة مع الناس ومن أمور الحياة اليوميّة والدنيويّة، وبخاصّة إذا كان قد اقترب وقت إقامة الصلاة حيث يكون قد اشتاق إلى هذا الأمر المهمّ ـ أي الصلاة ـ وإلى أن يتواصل مع الله بشكلٍ أكبر؛ كان شوق وصال الحقّ يدفعه أحيانًا إلى أن ينادي بلالًا بكلّ حماس ويقول له: «أَرِحْنَا يا بِـلَالُ!»؛ أي قم يا بلال وأذّن وادعُ إلى الصلاة لكي تريحنا من شَوْبِ الاشتغال بغير الله، كما كان صلى الله عليه وآله وسلم يقول أحيانًا: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي فِي الصلاة»[٢].

كأنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يشعر أيضًا بأنّ الأحاديث العاديّة واليوميّة مع الأهل والأقارب وسائر الناس قد تكدّر قلبه المبارك إلى حدٍّ ما، فكان استغفاره اليومي لرفع هذه الكدورات المحتملة. إذا حافظنا على قلبنا بهذا النحو بعيدًا عن الكدورات والحجب، أو إذا طرأت عليه كدورة أحيانًا فنبادر إلى رفعها فورًا؛ فسنعلم حينها معنى مناجيات

---

(١) الميرزا حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي. **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**. ج ٥، ص ٣٢٠.

(٢) ينقل الشيخ البهائي رحمه الله رواية يذكر فيها «أنّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وآله وسلم كانَ يَنْتَظِرُ دُخُولَ وَقتِ الصلاةِ وَيقُولُ: أرِحْنا يا بِلَالُ!» (الشيخ البهائي. **مفتاح الفلاح**. ص ١٨٢)؛ أي إنّ سيرته صلى الله عليه وآله وسلم كانت كذلك وكان يداوم على هذا الأمر باستمرار. هذا المضمون نقله أيضًا العلامة المجلسي رحمه الله حيث يذكر: قال النَّبِيّ صلى الله عليه وآله وسلم: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي فِي الصلاة، وَكَانَ يَقُولُ: أرِحْنَا يا بِلَال» (محمّد باقر المجلسي. **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٧٩، ص ١٩٣).





العشق الصادرة عن النبيّ الأكرمﷺ وعن مولى الموحّدين أمير المؤمنينعليه السلام، فهنيئًا لأهل ذلك!

بناءً عليه، فإنّ التواصل مع الناس والاحتكاك بهم من لوازم حياة الأشخاص العظماء مثل النبيّ الأكرمﷺ وأمير المؤمنينعليه السلام في هذا العالم. هؤلاء كانوا عبادًا صالحين، وكانوا مكلّفين من الله تعالى بأن يحملوا على عاتقهم تربية الناس، ولذا فلا بدّ من معاشرة الناس. ومن لوازم هذه المعاشرة: الابتلاء بأعمالٍ، هي بنظرهم المبارك، لا تتناسب مع شأن العبوديّة في محضر الله تعالى. هذا المقام كان بحدّ ذاته بلاءً بالنسبة إليهم؛ فأحيانًا كانوا يسمعون في المخاصمات والمشاجرات التي تحدث بين الناس بعض الكلمات الركيكة والبذيئة التي يرميها بعض الناس على بعض، وأحيانًا أخرى كان بعض الناس يحملون هؤلاء العظماء على الغضب، فلا يجدون في مثل تلك الحالات بدًّا من أن يصرخوا في وجوههم وأن يوبّخوهم من أجل تربيتهم وتأديبهم. ونتيجة جميع هذه الأمور، ومئات المسائل المشابهة لها، هي كما قالﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي».

نعم، كان لهؤلاء العظماء درجة من المعرفة يرون من خلالها أنّ الاشتغال بهذه الأمور هو دون شأن العبوديّة. وأمّا الأشخاص الذين يرتكبون في حياتهم اليوميّة، وبكلّ سهولة، أنواعًا من الذنوب والمعاصي، ويستسهلون ارتكاب أيّ فعلٍ خاطئ، حتى معرفتهم لا ترقى إلى درجة أن يستشعروا في أنفسهم الحدّ الأدنى من الحياء والإحساس بالذنب. مثل هؤلاء العباد كيف يمكنهم أن يؤدّوا واجبهم بالعبوديّة في محضر الله مع هذا الحِمل الكبير من المعاصي؟ كيف

يُظهرون محبّتهم لله تعالى؟ وكيف يجمعون بين محبّته وبين سوء أدبهم وقلّة احترامهم له ﷻ؟

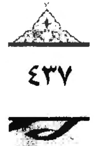
لو علم الإنسان أنّ باطن المعصية هو النار، لو كان بصيرًا بأنّ المعصية نار يلقي نفسه فيها، لو كان يعي أنّه يبادر بإرادته إلى إلقاء نفسه في النار وأنّه بمعصيته في قلب النار؛ لكان أوّل ما يطلبه هذا الإنسان في حالةٍ كهذه: النجاة من النار؛ أي إنّ النجاة من النار هي أهمّ ما يطلبه الإنسان من الله؛ لا المأكل والمشرب، ولا لحم الطير، ولا الحور العين، ولا العسل المصفّى؛ فلو كان يعلم أنّه في لحظته يحترق لما أراد أيًّا من هذه الأمور؛ فهذه الأمور إنّما هي طلباتٌ من الدرجة الثانية، وأمّا ما يهمّه في البداية فهو أن يطفئ تلك النار.

ولأهمّيّة هذا الأمر نُقل في كلمات الأئمّة المعصومين عليهم السلام مرّات ومرّات أنّ أوّل ما كانوا يطلبونه من الله تعالى حال الدعاء: النجاة من النار: «فَكاكَ رَقَبَتي مِن النّار... اللَّهُمَّ فُكَّ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ»[1]. كما كانت هذه المسألة أوّل ما يطلبونه من الله تعالى أو أحد أهمّ الأمور التي يطلبونها في المواقع الحسّاسة وفي مظانّ استجابة الدعاء[2].

---

(١) يذكر مولانا الإمام جعفر الصادق عليه السلام ضمن بيانه لآداب الدخول إلى المسجد الحرام الدعاء التالي: «يا كَريم ! أَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ تُحْفَتَكَ إِيايَ بِزِيارَتي إِياكَ أَوَّلَ شَيءٍ تُعْطِينِي فَكاكَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ، اللَّهُمَّ فُكَّ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ؛ تَقُولُهَا ثَلَاثًا» (أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٤٠٢).

(٢) يوصي الإمام الصادق عليه السلام في باب زيارة جدّه المعظّم أمير المؤمنين عليه السلام بأن نطلب من الله تعالى المسألة التالية: «وَأَنْ تَجْعَلَ تُحْفَتَكَ إِيَايَ مِنْ زِيارَتي فِي مَوْقِفِي هَذَا فَكَاكَ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ...» (أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٢، ص ٥٧٨). وكذلك يقول عليه السلام في دعاء الورود إلى شهر رمضان المبارك مخاطبًا الله ﷻ: «اللَّهُمَّ حَاجَتِي حَاجَتِي حَاجَتِي الَّتِي إِنْ أَعْطَيْتَنِيهَا لَمْ يَضُرَّنِي مَا مَنَعْتَنِي وَإِنْ مَنَعْتَنِيهَا لَمْ يَنْفَعْنِي مَا أَعْطَيْتَنِي



هذا التوجّه من الأنبياء العظام والأئمّة المعصومين عليهم السلام إلى الله بأن ينجّيهم من نار جهنّم، قد سُجّل في موارد عديدة؛ ومن جملة تلك الموارد: مناجاة النبيّ آدم عليه السلام بين يدي الله تعالى[١]، ومناجاة صحراء عرفة[٢]، وإذن الدخول إلى المسجد الحرام[٣]، وزيارة المولى أمير المؤمنين عليه السلام[٤]، ودعاء الورود إلى شهر رمضان المبارك[٥]، والأدعية بعد صلاة جعفر الطيار عليه السلام[٦]، والأدعية بعد صلاة الصبح[٧]، وأدعية قضاء الحاجات[٨]. ولعلّ أعجب التعابير التي نُقلت عنهم عليهم السلام وجاءت مع تأكيدٍ كبير: هذا التعبير الذي يطرحه الإمام الصادق عليه السلام بين يدي الله تعالى في دعاء الورود إلى شهر رمضان المبارك:

وَهِيَ فَكَاكُ رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج ٩٤، ص ٣٣٣).

(١) ابن طاووس، **مهج الدعوات**، ص ٣٠٣؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٢، ص ١٦٧.

(٢) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٥، ص ٢٨٥.

(٣) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٤٠٢.

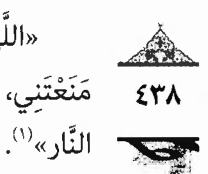
(٤) أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٢، ص ٥٧٨.

(٥) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٤، ص ٣٣٣.

(٦) المصدر السابق، ج ٨٨، ص ١٩٧.

(٧) محمّد بن جعفر الطوسي، **مصباح المتهجّد**، ص ١٨١؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٨٤، ص ٣١٦.

(٨) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٢، ص ١٦٧.



«اللَّهُمَّ حَاجَتِي حَاجَتِي حَاجَتِي الَّتِي إِنْ أَعْطَيتَنِيهَا لَمْ يضُرَّنِي مَا مَنَعْتَنِي، وَإِنْ مَنَعْتَنِيهَا لَمْ ينْفَعْنِي مَا أَعْطَيتَنِي، وَهِي فَكَاكُ رَقَبَتِي مِنَ النَّار»[1].

بناءً عليه، فلا بدّ من أن نلتفت إلى هذه الحقيقة ونؤمن بأنّ النار تكون مسلّطةً علينا حين ارتكاب المعصية، بحيث إنّ النجاة من قبضة النار غير ممكنة لأكثر العباد، وهي أمرٌ صعب حتى للبقيّة أيضًا؛ وإنّ لطف الله وحده ورحمته يمكنه أن يمنحانا الأمل في ذلك.

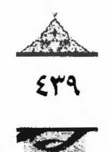
أفضل طريقةٍ للمناجاة

الكلام من خصوصيّات الإنسان، والإنسان يحتاج في إنشاء تواصله مع الآخرين إلى مجموعةٍ من الإمكانات، والفنون، والصناعات، والأدوات التي جعلها الله تعالى في وجوده، وإحدى هذه الإمكانات: فنّ التكلّم.

ثمّ إنّ هذا التكلّم يختلف كثيرًا ويتنوّع بتنوّع الأفراد والجماعات الإنسانيّة المختلفة، وفي الوقت نفسه، فقد زاد من تنوّعه وجودُ صناعات وأنواعٍ متعدّدة من البيان وفنّ الكلام، من قبيل «البرهان»، و«الجدل»، و«الشعر»، و«الخطابة»، وغيرها... ولكلّ واحدة من هذه الطرق والصناعات والأنـواع شروطٌ ومقتضيات خاصّة كلّما روعيت بشكلٍ أكبر كان لها آثارٌ وبركاتٌ أكثر وأعانت الإنسان بشكلٍ أفضل للوصول إلى هدفه.

---

(١) المصدر السابق، ج ٩٤، ص ٣٣٣.



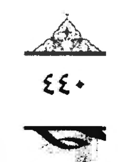
على سبيل المثال، «البرهان» من أنواع طرق الكلام وصناعاته، حيث يُستعمل هذا الفنّ في العلوم العقليّة في مقام البحث، الاستدلال، وإثبات الحجّة، فالبحث في العلوم العقليّة لا يُقبَل إلّا من خلال البرهان والمناهج المشابهة. وكذلك في القرآن الكريم ورد استعمال هذه الطريقة في مواضع متعدّدة حيث أقيم البرهان على إثبات بعض الحقائق، ومن ذلك مثلًا إثبات وجود الله، وإثبات الخالقيّة، والقدرة المطلقة، والعلم وسائر الأسماء والصفات الإلهيّة؛ حيث إنّ إقامة البرهان أمرٌ ضروريٌّ ولازمٌ في هذه المواضيع. كما نجد أنّ جميع مؤلّفي كتب العلوم العقليّة، ومن جملتها الكتب الفلسفيّة والكلاميّة، قد استفادوا من هذه الطريقة وهذه الصناعة في الكلام.

«الجدل» نوعٌ آخر من طرقٌ الكلام وصناعاته، والهدف من استعمال هذه الصناعة هو الغلبة لطرفٍ في البحث. في الجدل يعمل كلّ طرف على محاربة أسس الطرف المقابل لكي يقنعه، ففي القرآن الكريم مثلًا، يدين الله تعالى ويذمّ بشدّة فعل المشركين الشنيع بوأد البنات واصفًا حالاتهم القبيحة والذميمة بقوله: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1].

لقد ذمّ الله تعالى وأدان أخلاقهم السيّئة وسلوكهم الذميم، كما هو الحال في سورة الصافّات المباركة، وفي سياق إدانته لاعتقادهم الخاطئ بنسبة الولد إلى الله، نجده يستفيد من هذا الاعتقاد الخاطئ

---

(١) سورة **النحل**، الآيتان ٥٨ - ٥٩.



عندهم ليردّ عليهم بهذا الشكل: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ﴾[١]. وكذلك في سورة النجم المباركة يشير إلى هذه الحقيقة حيث يقول: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾[٢].

أي إذا كنتم تعتقدون بسوء الأنثى، وترجّحون الذكر على الأنثى؛ فلماذا إذًا تنسبون إلى الله البنات؟ هذه الطريقة في الكلام هي طريقة الجدل ومواجهة الطرف المقابل على أساس منطقه هو، والهدف من استعمال هذا الفنّ هو أن يطّلع الطرف المقابل على غلطه وعلى خطأ مبناه.

«المناجاة» كذلك واحدةٌ من جملة فنون الكلام، والمناجاة مع الله هي نوعٌ من الكلام معه، وهي بطبيعة الحال تشبه سائر الفنون والصناعات في أنّ لها شروطًا ومقتضيات خاصّة بها كلّما تمّت مراعاتها كان للشخص المناجي بركاتٌ أكثر منها. ولهذا السبب، فعلى الإنسان أن يلتفت إلى أن يكون الطرف الذي يناجيه ويدعوه ويطلب منه موجودًا قادرًا مطلقًا يعطي دون حدود.

إذًا فهو شرط العقل أن ينظر الإنسان بهمّة رفيعة إلى الرحمة الإلهيّة الواسعة. معرفة الإنسان بالله تعالى ينبغي أن تكون بحيث يؤمن بأنّ طلباته الكثيرة وإجابة الله لها لا تؤدّي إلى أي نقصٍ في الخزائن الإلهيّة، فإذا طلبنا من الله مثلًا أن ينجّينا من النار على كلّ

(١) ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ (سورة **الصافات**، الآيات ١٤٩ - ١٥٤).

(٢) سورة **النجم**، الآيتان ٢١ - ٢٢.



الأحوال، وأن يجعلنا في أعلى درجات الجنّة ويمنحنا أفضل نعمه؛ فهذه الأدعية والمسائل إذا أنشئت وطُلبت بقصدٍ جدّي إنّما تكشف عن همّة رفيعة ومعرفة صحيحة بالرحمة الإلهيّة الواسعة[١]، وهنا لا بدّ من التوجّه بالتبريك إلى الأشخاص الذين وصلوا إلى هذه الدرجة من المعرفة واليقين، وأن نغبطهم على ما وصلوا إليه.

لهذا السبب، فالنظر إلى محدوديّتنا ونقصنا وقياس الله تعالى على حالنا؛ هو خطأٌ فاضح، وإنْ كان ممكنًا لنا ولكثيرٍ من أمثالنا أن نقع في مثل هذه المعرفة الناقصة بالله تعالى، وبالتالي لا نستطيع أن نتوجّه إلى الله تعالى بمثل هذا الدعاء بشكلٍ جادّ. في هذه الحالة، فمجرّد القراءات العاديّة مفيدةٌ بحدّ ذاتها وينبغي ألّا تُترَك، ومنها مثلًا ما لا يستطيع كثيرٌ من عباد الله أن يقوله، كما كان مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب به الله عزّ وجلّ في قوله: «فَهَبْنِي يا إِلَهِي وَسَيِدِي صَبَرْتُ عَلَي عَذَابِك، فَكَيفَ أَصْبِرُ عَلَي فِرَاقِكَ، وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلَي حَرِّ نَارِكَ، فَكَيفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلَي كَرَامَتِك؟»[٢]. هم أساسًا لا يفهمون معنى «فراق الله» ولا يدركونه بشكلٍ صحيح، كما أنّ صعوبته ومشقّته غير واردةٍ عندهم. وبناءً عليه، فنحن وأمثالنا عندما نقرأ

---

(١) في هذا السياق، نجد أنّ بعض الأفراد لديهم هممٌ رفيعة جدًّا فيذكرون أدعية جميلةً جدًّا وجذّابة. ومنهم مثلًا الشيخ قراءتي حيث كان في آخر محاضراته يدعو أحيانًا فيقول: إلهي أعطنا كلّ ما أعطيته لعبادك الصالحين وسوف تعطيه من أوّل خلق نبيّنا آدم عليه السلام إلى آخر الخلق؛ أو يقول مثلًا: إلهي أعطنا كلّ ما ذكرناه وكلّ ما فيه صلاحنا ممّا لا يصل إليه تفكيرنا. هذا النوع من الأدعية يكشف عن معرفةٍ صحيحة بالله تعالى وبلطفه وكرمه اللامحدود الذي يشمل به عباده.

(٢) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٨، ص ١٦٩؛ **مفاتيح الجنان**، دعاء الخضر عليه السلام المعروف بدعاء كميل.





هذه الفقرة من دعاء كميل لا يمكن أن يكون لدينا قصد إنشاء مثل الإمام عليه السلام.

إنّ ما تقتضيه جميع المناجيات والمسائل التي نتوجّه بها إلى الله تعالى هو أنّها لمّا كانت مسبوقةً بدرجةٍ من المعرفة بالله وبكيفيّة ارتباط الإنسان به، فكلّما كانت هذه المعرفة أرقى وكان الإيمان أكثر يقينًا؛ كان مستوى هذه المناجيات والمسائل أرقى وأدقّ كذلك.

ثمّ إنّ للمناجيات أنواعًا مختلفة؛ وأحد أنواعها هو المناجاة في مقام «الاسترحام». في هذا المقام يتكلّم المرء مع الله تعالى بطريقةٍ خاصّة، يتصوّر مفهومًا معيّنًا ويستخدم له مفرداتٍ خاصّة، يقرن كلامه بالبكاء والتأوّه حتى يستجلب لطف الله تعالى، قياسًا على حاله وبحسب تصوّره، ويستثير رحمة الله ليحظى بهذه الرحمة الإلهيّة الخاصّة.

عندما يقف عبدٌ في محضر العظمة الإلهيّة قائلًا: «إلهي، أنا لا طاقة لي حتى على تحمّل وجعٍ محدودٍ في جسمي أو بلاءٍ بسيطٍ في هذه الدنيا؛ لا يمكنني أن أتحمّل ذلك، فكيف أتحمّل نار جهنّم التي أشعلها غضبك؟» في حالةٍ كهذه يكون العبد في مقام «مناجاة الاسترحام»، لا الاستدلال المنطقي والعقلي. لو كان في مقام البحث الاستدلالي لكان لسؤاله إجابةٌ واضحة؛ بأن يُجاب مثلًا: هذه العذابات الناشئة من الغضب الإلهي ليست إلا نتيجة أعمالك أنت، بل هي عين أعمالك! أمّا عندما يكون العبد في مقام المناجاة، وتكون تلك المناجاة من نوع الاسترحام، فمن المتيقّن أنّ الله تعالى أيضًا لن يقابله بمثل هذا الاستدلال المنطقي. عندما نستعمل هذا النحو من المناجاة



لا نكون بصدد البحث عن الجواب المنطقي؛ وإنّما يكون مرادنا أن نستثير العواطف، بحسب تصوّرنا، ونستثير رحمة الله تعالى. والله تعالى بدوره يقبل من عبده مثل هذه الطريقة؛ إذ إنّ هذه الطريقة من الكلام والاسترحام إنّما تقترن بحالة الانكسار، الذلّ، والتضرّع أمام الله تعالى، وهذه الحالات وهذا النحو من الكلام مع الله يكشف عن وعي العبد بفقره وعجزه، وهذا الانكسار يستتبع الفيض الإلهي على العبد.

نوعٌ آخر من المناجيات هو «مناجاة الدلال». في هذا النحو من المناجيات، يكون المرء في مقام الكلام مع الله تعالى بلحنٍ مقرونٍ بـ«الغنج والـدلال». نجد مولى الموحّدين أمير المؤمنين عليه السلام في فقراتٍ من المناجاة الشعبانيّة يقف في محضر العظمة الربوبيّة فيقول مخاطبًا:

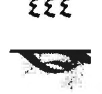
«إِلَهِي إِنْ أَخَذْتَنِي بِجُرْمِي أَخَذْتُكَ بِعَفْوِكَ، وَإِنْ أَخَذْتَنِي بِذُنُوبِي أَخَذْتُكَ بِمَغْفِرَتِكَ، وَإِنْ أَدْخَلْتَنِي النَّارَ أَعْلَمْتُ أَهْلَهَا أَنِّي أُحِبُّكَ»[1].

هذه التعابير تكشف عن شعورٍ فائقٍ بقرب المُناجي من الله تعالى، وكأنّ العبد في هذا المقام ينتظر من الله أن يجيبه بمثل هذا الجواب: «لا يا عبدي، لا تفعل ذلك، إذا فعلت ذلك فسأخلّصك، ولن أحرقك بالنار...». هذه الطريقة في الكلام هي المناجاة بلحن الدلال. في هذا المقام، من العبث أن ننتظر تطابق الكلام مع البرهان ومع المباحث الكلاميّة والفلسفيّة وأمثال ذلك.

---

(١) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩١، ص ٩٨؛ **مفاتيح الجنان**، المناجاة الشعبانيّة.





كثيرٌ من الأدعية والمسائل التي تُوجَّه إلى الله من هذا السنخ.

جميعنا يعلم أنّ الله تعالى لن يشفي جميع المرضى، لن يُغني جميع الفقراء، ولن يُشبِع جميع الجوعى؛ بل إنّ حكمة الله تعالى تقتضي أساسًا ابتلاء بعض العباد المؤمنين وغير المؤمنين بأنواع البلايا التي من جملتها الفقر، والمرض، والجوع، وغير ذلك... ومع ذلك نقف في مقام المناجاة والدعاء لنطلب من الله قائلين: «اللّهُمَّ أَغْنِ كُلَّ فَقير؛ اللّهُمَّ أَشْبِعْ كُلَّ جائِع، اللّهُمَّ اشْفِ كُلَّ مَريض».

إنّ الرسالة التي يحملها هذا الطلب العامّ والجامع هي أن يقول الواحد منّا: إلهي، ليس لديّ سوء ظنّ تجاه أيّ شخص، وأنت يا إلهي أعطيتني عاطفةً أتمنّى بها الخير لجميع عبادك، وها أنا أطلب منك أن تمنّ بالشفاء على جميع المرضى، اللهمّ وذلك كلّه ضمن دائرة مصلحتك. وهنا في هذه الفقرة من الدعاء يطلب الإمام السجّاد عليه السلام فيقول: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَإِذَا كَانَ لَكَ فِي كُلِّ لَيلَةٍ مِنْ لَيالِي شَهْرِنَا هَذَا رِقَابٌ يعْتِقُهَا عَفْوُكَ، أَوْ يهَبُهَا صَفْحُكَ فَاجْعَلْ رِقَابَنَا مِنْ تِلْكَ الرِّقَابِ، وَاجْعَلْنَا لِشَهْرِنَا مِنْ خَيرِ أَهْلٍ وَأَصْحَابٍ**».

من الواضح أنّ عتق جميع العباد في كلّ زمان وبأيّ سببٍ إنّما يكون على أساس الحكمة الإلهيّة. وعلى أيّ حال، ففي ليالي شهر رمضان المبارك يتفضّل الله تعالى على عددٍ من عباده بالتوفيق للتوبة والإنابة، ونحن بدورنا نطلب منه جلّ أن يشملنا أيضًا بهذا التفضّل، حتى نوفّق للتوبة والإنابة والتوجّه وفعل الخير، وبالتالي نحظى بالاستفادة القصوى من هذا الفيض الإلهي الواسع، فنكون ممّن يُعتَق في هذه الليالي المباركة من نار جهنّم، ونصير من أفضل عباد الله، إن شاء الله...



الجلسة الثالثة والعشرون:

المُحسِّنات الأدبيّة في الدعاء





«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ وَامْحَقْ ذُنُوبَنَا مَعَ إمِّحاقِ هِلاَلِهِ وَاسْلَخْ عَنَّا تَبِعَاتِنَا مَعَ انْسِلاَخِ أَيَّامِهِ حَتَّى يَنْقَضِي عَنَّا وَقَدْ صَفَّيْتَنَا فِيهِ مِنَ الْخَطِيئاتِ، وَأَخْلَصْتَنَا فِيهِ مِنَ السَّيِّئاتِ»

المُحسِّنات الأدبيّة في الدعاء

هذه الفقرة من الدعاء تتعلّق بنهاية شهر رمضان المبارك، حيث بيّن فيها الإمام السجّاد عليه السلام طلبه من الله تعالى معتمدًا على بعض الصياغات الأدبيّة والأساليب الجماليّة في التعبير. من الأمور التي تُغني الأدبيّات العربيّة أنّ الأشياء المختلفة قد خُصّص لها أسماء متنوّعة، وعلى سبيل المثال، مضافًا إلى أسماء الأشهر القمريّة، فحتّى بعض الأيّام والليالي في الشهر القمري، وكذلك شكل قرص القمر، لكلٍّ من ذلك أسماء خاصّة؛ فالقمر في الليالي الثلاثة الأولى مثلًا وكذلك في الليالي الأخيرة منه يُسمّى «هلالًا»، فيما يُسمّى في بقيّة الشهر «قمرًا». وهذا القمر يُسمّى في الليالي الوسطى، وبخاصّة في الليلة الرابعة عشرة التي يكون فيها القمر ظاهرًا بتمامه وتكون الليلة منيرة



بسببه؛ يُسمّى حينها «بدرًا». وفي الليالي الأخيرة، وتحديدًا في الليلتين الأخيرتين اللتين لا يُرى فيهما القمر بعد يُسمَّى «محاقًا»، أو يسمّون تلك الأيّام والليالي أيّام وليالي «المُحاق» أو «المِحاق» أو «المَحاق»[1]. أيّام المحاق ولياليه تكون عندما يزول نور القمر من صفحة السماء بشكلٍ تام فلا يُرى هذا القمر بعدها.

وأمّا الليلة الأخيرة من الشهر القمري فيسمّونها «السلخ»، وكأنّ القمر مثل إنسان يخلع (يسلخ) عن بدنه اللباس القديم ويلبس ثوبًا جديدًا وأنيقًا، أو مثل تبديل الحيوانات جلدها، حيث يسلخ القمر جلده القديم مبشّرًا بهلالٍ جديدٍ وجميل. هذه الحقيقة أشار إليها الله تعالى في سورة «يس» المباركة حيث يقول: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾.

هذا، وقد اعتمد الإمام السجّادعليه السلام على هذه الحقائق والآيات الإلهيّة واستفاد من الصناعات الأدبيّة ليخاطب الحقّ تعالى ويقول له: كما يُمحَق القمر وينطفئ نوره في ظلمة الليل، أنت كذلك مُنّ علينا

---

(١) «الإمحاق» من الموارد التي يكون الثلاثيّ المجرّد منها متعدّيًا، ولكن عندما يأتي إلى باب الإفعال يكون لازمًا؛ إذ ليس ثمّة قاعدة بأنّ جميع الأفعال الثلاثيّة عندما تأتي إلى باب الإفعال تصير متعدّيةً، فأحيانًا لا يكون الأمر كذلك، بل أحيانًا أخرى يكون الأمر بالعكس أيضًا؛ أي يكون الثلاثيّ المجرّد من الفعل متعدّيًا فيما باب الإفعال منه لازم؛ من قبيل «حصد الزرع» الذي هو بمعنى «حصد الزارعُ الزرعَ»، وهو متعدٍّ، ولكنّه في باب الإفعال لازم: «أحصد» تعني «حان وقت حصاده»، أو «أثمرت الشجرة» بمعنى «صارت ذا ثمر» فهو ليس متعدّيًا. «الإمحاق» كذلك أيضًا، فهو متعدٍّ في الثلاثيّ المجرّد، كما في: «مَحَقَهُ» أو «مَحَقَ الذَّنب» حيث إنّه متعدٍّ ويعني «محا الذنب». وعندما يأتي إلى باب الإفعال يصير لازمًا: «الإمْحاق» يعني «دَخَلَ فِي الْمُحاقِ» و«أَمْحَقَ هِلالُهُ» أو «أَمْحَقَ الْقَمَرُ» بمعنى «إِمْحاق الْهِلال» أو «إِمْحاق الْقَمَر»، حيث إنّه فعلٌ لازمٌ في جميع هذه الموارد.



في كلّ ليلةٍ ويومٍ من هذا الشهر المبارك بالستر على ذنوبنا وخطايانا، بحيث نصل إلى نهاية هذا الشهر وانسلاخه من القديم وارتدائه اللباس الجديد وقد انسلخنا نحن أيضًا ـ بقدرتك وفي ظلّ عفوك ورحمتك غير المتناهية ـ من كلّ شائبة، وارتدينا ـ كالهلال الجديد ـ لباسَ العبوديّة الأنيق.

تأثير الإيمان في الدعاء

المسألة الجديرة بالاهتمام والسؤال المهمّ أثناء قراءة نصوص هذه الأدعية التي أنشأها الأئمّة المعصومون عليهم السلام وردّدوها بألسنتهم المباركة هو أنّ هذه الفقرات والعبارات كيف ينبغي أن تُقرأ؟ أي عندما نقرأ هذه العبارة من الدعاء التي نطلب فيها من الله أن يسلخنا ويطهّرنا من جميع الذنوب هل نؤمن حقًّا بأنّنا مذنبون؟ هل نعتقد بأنّنا حقيقةً ملوّثون، ومتّسخون، وقذرون؛ حتى نطلب من الله تعالى أن يبعّد ذلك عنّا ويسلخه منّا؟ أم إنّه ليس لدينا قصدٌ جادٌّ وحقيقيّ في أداء هذه العبارة، وإنّما قراءتنا لهذا الدعاء بأكمله قراءة سطحيّة ولقلقة لسان؟ تمامًا مثل قراءة الأشعار والغزليّات التي يعلم المرء أنّ جميعها مجرّد تخيّلات وأن جميع النسب الشعريّة فيها مجازيّة، ومع ذلك تراه يلتذّ بقراءتها، فلا يكوننّ حالنا في قراءة الدعاء كذلك، بحيث نقرؤها لمجرّد الالتذاذ دون أن يكون لدينا قصدٌ جادٌّ وحقيقيّ منها!

صحيحٌ أنّ قراءة هذه العبارات الجميلة بمعانيها الراقية والممتعة هي بذاتها من أعمال الخير ولها الحدّ الأدنى من الثواب، ونحن وأمثالنا بدورنا نقرؤها بقصد الحصول على ذلك الحدّ الأدنى من الثواب؛ ولكن مع ذلك فهذا العمل الصالح أين هو من الإيمان بصحّة هذه المضامين

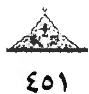




وصوابيّتها؟ والقيام بهذا العمل، مع ما له من الحدّ الأدنى من الثواب، أين هو من أن تُقرأ عبارات هذه الأدعية المأثورة عن المعصومين عليهم السلام مع القصد الجادّ لمضامينها، ومع الطلب من الله طلبًا يقترن بالاعتقاد الجازم بالاستجابة؟

قد يشبه ذلك حال الإنسان الذي يتناول الطعام في عمره على مراحل، حيث إنّ تناول البشر للطعام على عدّة أنواع: فأحيانًا يكون ذلك لمجرّد رفع الجوع. لاحقًا عندما يزداد المرء رشدًا عقلانيًّا ومعرفيًّا يصبح تناوله للطعام بقصد المحافظة على صحّة بدنه ولكي يبقى مستعدًّا لأداء واجباته من عبادة الله والالتزام بالتكاليف الشرعيّة. أمّا عندما يصبح المرء ذا معرفة فائقة ويصل إلى مقامات عالية وراقية؛ فلا يكون تناوله للطعام إلّا لما يحبّه الله تعالى، فكلّما شعر بأنّ الله تعالى يحبّ له أن يتناول الطعام؛ تناولَ ذلك الطعام الذي يرضى عنه الله ويحبّه، وبالمقدار الذي يرتضيه، ومن هنا فإنّ تناول الطعام يصير مستحبًّا أحيانًا أو واجبًا.

بناءً عليه، فدافع الإنسان من القيام بالأفعال يختلف اختلافًا كبيرًا. وكما أنّ تناول الطعام من أجل تقوية عضلات الفكّ هو عملٌ مفيدٌ وجيّدٌ، فكذلك تناول الطعام بهدف رضا الله تعالى ولأجل محبوبيّته عند الله؛ عملٌ مفيدٌ وجيّدٌ أيضًا؛ ولكن هل هناك نسبة للمقارنة بين هذين العملين؟! كثيرون حالهم في قراءة الأدعية المأثورة والمنقولة عن الأئمّة المعصومين عليهم السلام كحال تناول الطعام لأجل تقوية عضلات الفكّ؛ أي إنّ عملهم جيّدٌ ومفيدٌ في الظاهر، ولكن هل يستحقّ أن يفعله الإنسان لمجرّد تحقّق تلك النتيجة البسيطة جدًّا والساذجة؟ هذا





في حين أنّ الدعاء إذا قُرئ مع قصدٍ جادٍّ وحضور للقلب ومع استعداد قلبي، فإنّ له في الدنيا والآخرة آثارًا وبركاتٍ لا تُحصى.

على أساس هذا المعيار والمقياس يمكننا أن نقارن أيضًا بين وضعنا المعرفي ومقامنا وبين أولئك العظام الذين يُنشئون هذه الأدعية ويقرؤونها مع ذلك القصد الجدّي؛ ألا يمكن أن نقول إنّ وضعنا بالنسبة إليهم أشبه بالطفل الصغير في أوّل العمر عندما يلعب بالنقود هل يُقارَن بالتاجر الخبير والحاذق الذي يُشغّل تلك النقود في تجارة رابحة؟ صحيحٌ أنّ لعب ذاك الطفل بالنقود له فائدة في تسليته، ولكن هل تقف فائدة النقود عند هذا الحد؟!

إذًا فعلينا أن نلتفت أكثر إلى مضامين الأدعية وأن نقارنها مع حالنا، ثمّ نسعى لكي نجعل أنفسنا وأحوالنا قريبةً ـ قدر الإمكان ـ من مضامين هذه الأدعية. ولكي نقوم بهذا الأمر لا بدّ من أن ندرك بشكلٍ أكبر أهمّيّة أصل الدين والارتباط بالله تعالى وبعبادته، ولا بدّ من أن يكون لدينا رؤية واضحة للدين والمعتقدات الدينيّة، ونظرةٌ صحيحة إلى مسألة الارتباط بالله بحيث نوليها اهتمامًا فائقًا. صحيحٌ أنّ الدين مفيدٌ من أجل إصلاح أمور الحياة الدنيويّة، وهذه الفائدة مثل فائدة تناول الطعام في تقوية الفكّ، غير أنّ اعتقادنا بالدين وأهمّيّته لا ينبغي أن يُختصَر عند هذا الحدّ.

إنّ للدين أبعادًا متعدّدة، وفي السياق نفسه فإنّ له آثارًا وبركاتٍ كثيرة على الإنسان. أغلب الناس لا يملكون نظرة جامعة إلى الدين، ولا يلتفتون إلّا إلى بعدٍ من أبعاد الدين بما يتناسب مع معلوماتهم ومعارفهم ومستوى إدراكهم وفهمهم، فيما يغفلون عن سائر الأبعاد.



طيفٌ واسع من المتديّنين لا يستفيدون من الدين إلا بحدود مستوى تديّنهم وضمن إطار ذاك البعد الذي أصبحوا متديّنين به لمختلف الدوافع؛ تمامًا مثل الطعام الذي يتناوله طيفٌ واسعٌ من الناس بدوافع مختلفة تتراوح بين تحريك الفكّ ورياضته وتحصيل الرّضا والمحبّة الإلهيّة. التديّن حاله كذلك؛ فدوافعه تتراوح لتشمل المساحة الممتدّة بين الاستفادة من المنافع الماديّة والدنيوية، والنظر إلى الدين بصفته أكبر نعمة إلهيّة منّ الله بها على البشر. كثيرٌ من الناس ينظرون إلى الدين من ذاك البُعد الذي يحفظ منافعهم، حيث يعتقدون بأنّ الالتزام بأحكام الدين هو لأجل منافع لهم، فقد نهى مثلًا عن «السرقة» من حيث إنّ الالتزام بهذا الأمر الديني غايته أن لا تؤدّي السرقة إلى انعدام الثقة بين الناس وإلى فقدان الأمن وحلول الفساد في الاقتصاد، وبالتالي فلا تسرقوا «حتى لا تُبتلوا، أنتم والمجتمع الذي تعيشون فيه، بانعدام الثقة وشيوع الفساد». هذه النظرة موجودةٌ أيضًا حتى في العبادات، فيقولون مثلًا إنّ الصلاة رياضةٌ مناسبة لتحريك الجسم والعضلات، وبالتالي: «توجّهوا نحو الصلاة حتى تكون أجسامكم سليمة»، أو «صوموا حتى تعالجوا كثيرًا من أمراضكم ومشاكلكم في الجهاز الهضمي». من هنا، فالتديّن مفيدٌ من أجل سلامة الجسم، والحياة المريحة والهنيّة، والمجتمع السليم، والعدالة والأمن الاجتماعي، وبالتالي: «كونوا متديّنين حتى تحظوا بهذه الآثار بالتبع».

جميع تفاصيل الدين وأحكامه يمكن توجيهها وفق هذه النظرة، هذا في حين أنّ الدين له أهداف سامية ومنافع أصيلة وأساس تفوق هذه المنافع بمئات المرّات، بل إنّ هذه المنافع تعتبر أمامها في غاية السطحيّة، وأهمّيّتها الماديّة والدنيويّة تكاد لا تساوي شيئًا يُذكر أمامها؛





تمامًا مثل الفرق بين فائدة الطعام في رياضة الفكّ وفائدته لتحصيل المحبوبيّة الإلهيّة.

إنّ أهداف الدين السامية والقيّمة هي الارتباط بالله تعالى، وجميع الأحكام الدينيّة هي لأجل تقوية الارتباط بالله. هذه النعمة الثمينة، أي الارتباط المقرون بالعشق والمحبّة، يمنحها الله لموجودٍ أصله وأساسه نطفة نتنة كانت في البداية في غاية الحقارة والدناءة؛ بحيث إنّ قطرة منيّ واحدة فيها آلاف الحيوانات المنويّة التي لا يُختار منها إلا حيوان منويّ واحد ليتبدّل إلى نطفة ثمّ تنعدم بقيّة الحيوانات المنويّة وتُغسَل قذارتها. هذا الإنسان، الذي هكذا كانت حالته في السابق، ينمو ويترقّى ليصبح موجودًا يخاطبه الله ويحبّه ويمنحه وجودًا لا نهاية له، وجمالًا لا نهاية له، وكمالًا لا نهاية له، وقدرة لا نهاية لها. هذا الإنسان يصل من خلال هذه القدرة والاستعداد الفائق من قطرة نتنة إلى أعلى المراتب الإنسانيّة والإلهيّة. ولكن على الرغم من ذلك، فالمعصية لا تحول دون تفتّح هذه القدرة والاستعداد وتبدّلها إلى الفعليّة فحسب؛ بل تتسبّب باختلال حركة الإنسان للوصول من الصفر إلى غير نهاية، وبالتالي يخسر الإنسان تلك النعمة شيئًا فشيئًا ليصبح في الرتبة نفسها مع أحقر موجودات عالم الوجود.

إذا نظرنا إلى أنفسنا بإيمانٍ واعتقادٍ صحيحين فسنرى أنفسنا على هذا النحو، وسنرى أنّ تكرارنا للذنوب يومًا بعد يوم يزيد من سماكة هذه الشرنقة التي لففناها حول أنفسنا، وأنّنا قد كبّلنا أيدينا وأرجلنا أكثر فأكثر إلى حدّ أن تصبح هذه الخيوط التي أحطنا أنفسنا بها قويّة ومحكمة ولا يمكن اختراقها، ونرى أنّ النجاة منها أمرٌ غير ممكنٍ





بالنسبة إلينا. ثمّ يصل الأمر إلى أن نكتشف بعد سنوات أنّ حجابًا كثيفًا غليظًا ونتنًا قد أحاط بكلّ روحنا.

الشخص الذي يصل إلى هذا الاعتقاد حقيقةً، فلا شكّ في أنّه سيفكّر في نجاته قبل أيّ شيءٍ آخر، على أنّ حبل نجاته ليس بيده، بل هو الذي أقدم بكلّ طاقته على ما فيه ضررٌ له، وبالتالي فسيشعر بالضعف والحاجة إلى الغير في مقام نجاته. وفي هذه الحالة سيمدّ يديه، شاء أم أبى، نحو الله تعالى، متسوّلًا منه طريق النجاة. هذه هي الرسالة الحقيقيّة في هذا الدعاء، فالرسالة الأساس في الدعاء هي توعية الإنسان إلى أنّ طريق نجاته ليس إلا بيد الله تعالى ليس غير، قدرته التي لا تزول هي ـ فقط ـ التي بدّلت نار النمرود المشتعلة من أكوام الحطب المتراكمة، بدّلتها بنداء ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا﴾[1] إلى روضةٍ غنّاء، وكذلك هو ـ وحده ـ القادر على إطفاء نار ذنوبنا أيًّا يكن مقدارها.

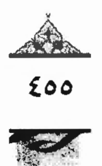
إنّ أوّل زلّة وحماقة وتفكير محدود يقع فيه المرء هي أن ينظر إلى هذا الأمر بعين التشكيك، فيشكّك ويتردّد في قدرة الله القادر المتعال، في حين أنّه ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2].

إذًا فلا بدّ من أن نصل في مقام البحث والاستدلال إلى هذا اليقين. صحيحٌ أنّ قدرة الله ورحمته غير متناهية ولا حدّ لها ولا قيد، ولكن مع ذلك، فبما أنّه حكيم فهو لا يفعل أيّ شيءٍ عبثًا، وبالتالي

---

(١) سورة **الأنبياء**، الآية ٦٩.

(٢) سورة **يس**، الآية ٨٢.



فلا بدّ من أن يضع تلك الرحمة في المكان الذي فيه الجدارة والقدرة الاستيعابية اللازمة. وعلى الإنسان أن يصرف كلّ جهده باتّجاه اكتساب هذه الجدارة والقدرة حتى يستحقّ الرحمة الإلهيّة الواسعة، ووصول الإنسان إلى هذا اليقين هو تلك الجدارة؛ فإذا أدرك حقيقةً، ومن طرفٍ، أنّ قدرة الله ورحمته لا نهاية لها، وأدرك من طرفٍ آخر أنّ ذاته ضعيفة وعاجزة حقيقةً؛ فقد اكتسب تلك الجدارة المطلوبة.

على الإنسان أن يصبّ كل جهده في إحياء هذا اليقين في وجوده، وأفضل طريقٍ لتحقيق هذا الهدف هو التفكّر والتأمّل في هذه الأمور، مع الاستفادة من كلمات الوحي وأهل البيت عليهم السلام. إنّ إحياء هذا اليقين عند الإنسان سيردع صاحبه عن التفاخر والتكبّر في مقابل سائر الناس، فالتكبّر، الذي هو نقطة بداية سقوط الإنسان، وهو السبب الأساس في شقاوة إبليس: ﴿وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]، لا يمكن أن يجتمع مع هذا اليقين.

المهم هو أن يرى المرء نفسه ذليلًا وحقيرًا أمام الله وعباد الله الصالحين، وأن يبتعد عن التكبّر والتفاخر. التواضع أشبه بحفرةٍ أو منخفضٍ في الأرض عندما يجري الماء يتحرّك تلقائيًّا باتّجاهه فيرويه، أمّا التكبّر والأنانيّة فهما مثل صخرة ومرتفعٍ مهما كان الماء متدفّقًا حوله فلا يصل الماء إلى أعلاه ولا يتسبّب بارتوائه.

وقد وصف القرآن الكريم حال هاتين الفئتين حيث قال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾[2].

---

(١) سورة **البقرة**، الآية ٣٤.

(٢) سورة **المائدة**، الآية ٨٢.

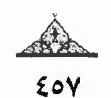


لعلّ منشأ العداوة الشديدة والأحقاد الدفينة التي يحملها اليهود والمشركون تجاه المؤمنين هو تفاخرهم واستكبارهم؛ إذ إنّ الله تعالى قد ذكر في آخر الآية التي تليها أنّ علّة إيمان المؤمنين من النصارى وشدّة محبّتهم ومودّتهم للمؤمنين هي زهدهم وعزوفهم عن الدنيا وعبادتهم لله وعدم استكبارهم ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

أي إنّ النصارى، بسبب عدم استكبارهم، ولأجل خضوعهم وخشوعهم أمام الحق؛ هم أشبه بالأرض المنخفضة التي تجري عليها الرحمة الإلهيّة فترويها ولا تحرمها من نصيبها من تلك النعمة، ولأجل هذا كان لديهم ذلك القلب الرقيق الذي يجعل أعينهم بعد الاستماع إلى آيات القرآن تغرورق بالدموع، فيعبّرون مباشرةً عن إيمانهم[1]. وبحسب تعبير القرآن، فهذه الفئة من النصارى يمكن إصلاحها وهي من أهل النجاة؛ لما لديهم من صفات حسنة وراجحة أهمّها وعلى رأسها: عدم استكبارهم. ولهذا السبب فعندما ينتهي إلى مسامعهم كلام الحقّ تجري دموعهم في مآقيها، وكأنّهم قد وصلوا إلى ضالّتهم التي كانوا يبحثون عنها طوال عمرهم، أو كالعطشان الذي وصل لتوّه

---

(١) ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة **المائدة**، الآيات ٨٣ - ٨٥).





إلى الماء العذب الزلال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾[1].

هذه جميعها علامات رقّة القلب ونقاوته وطلب الحق. وهذا درسٌ كبيرٌ يعلّمنا إيّاه القرآن؛ وهو أنّ التواضع وعدم الاستكبار شرط نورانيّة القلب والميل إلى الحقيقة والانجذاب نحو الحقّ، وبالتالي فوجود ذرّة من الكبر والغرور والتفاخر كفيلٌ بأن يمنع المرء من الوصول إلى أيّ مكان، وأن يوقفه عند منزلته الأولى.

بناءً عليه، فعندما يؤمن المرء بأنّ المعصية تلوّثه وتسوّد وجهه وتشكّل حجابًا بينه وبين الله، فسينفر من هذا الأمر وسينشغل بالتفكير في الحلّ. وبما أنّه ليس لديه القدرة على تخليص نفسه من هذه المهلكة، فلا مناص له من أن يمدّ يد الحاجة إلى الذي لا يحتاج وأن يطلب منه العون والمدد. إذا تحقّق لدينا هذا الإيمان الحقيقي، فحينئذٍ فقط ستظهر المعاني الرفيعة في تلك الأدعية لنردّد بلسان القلب: «**اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، وَامْحَقْ ذُنُوبَنَا مَعَ امِّحَاقِ هِلالِهِ، وَاسْلَخْ عَنَّا تَبِعَاتِنَا مَعَ انْسِلاخِ أَيامِهِ حَتَّى يَنْقَضِي عَنَّا وَقَدْ صَفَّيتَنَا فِيهِ مِنَ الْخَطِيئَاتِ، وَأَخْلَصْتَنَا فِيهِ مِنَ السَّيئَاتِ**»؛ نردّدها ونحن معتقدون بقبح الذنوب وقبح التلوّث بها، ولدينا يقينٌ بعجزنا عن الخلاص وبقدرة الله تعالى على تخليصنا من هذه المهلكة. ثمّ نقتفي أثر أهل البيت عليهم السلام وما تعلّمناه من هؤلاء العظام لنقول في محضر العظمة الربوبيّة: ربّاه! مع دخول شهر رمضان المبارك إلى المحاق ومع انمحاء ظهوره، امحُ جميع ذنوبنا وجميع آثار أفعالنا وعواقبها التي تكبّلنا

---

(١) سورة **المائدة**، الآية ٨٣.





وتقيّد أعناقنا، وأزلها عنّا بحيث ينقضي هذا الشهر المبارك ويطلع شهرٌ جديد وقد صفّيتنا نحن أيضًا من الخطايا وأعتقتنا من الذنوب وآثارها، وأبعدتنا عن جميع قذاراتنا، وجعلت أنفسنا وأرواحنا خالصةً لك وطيّبة وطاهرة.



الجلسة الرابعة والعشرون:

الالتفات إلى احتياجنا إلى الله في جميع الأحوال



«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، وَإنْ مِلْنَا فِيهِ فَعَدِّلْنا، وَإنْ زِغْنَا فِيهِ فَقَوِّمْنَا، وَإنِ اشْتَمَلَ عَلَيْنَا عَـدُوُّكَ الشَّيْطَانُ فَاسْتَنْقِذْنَا مِنْهُ»

الالتفات إلى احتياجنا إلى الله في جميع الأحوال

أغلب أدعيتنا إمّا أن نتطلّع فيها إلى الماضي وإمّا إلى المستقبل؛ ذلك أنّ قسمًا من حياتنا عبارة عن أمور حصلت معنا في الماضي؛ فإنْ كان ذاك الماضي جيّدًا وكان استمراره لصالحنا نطلب من الله استمراره وتعزيزه، وإنْ كان الماضي مظلمًا وأسود وزلّت فيه أقدامنا أحيانًا، فنطلب من الله العفو والمغفرة ورفع تبعاته وآثاره.

وكذلك فكثيرةٌ هي أدعيتنا التي نتطلّع فيها إلى المستقبل الذي ينتظرنا، حيث ننظر إلى الماضي ونتذكّر فيه النواقص التي عانينا منها والفرص التي أضعناها، ومن ثمّ نطلب من الله التوفيق لأداء بعض أعمال الخير التي لم نوفّق في ما مضى لأدائها أو إتمامها وتكميلها.

وبين هذا وذاك، نادرًا ما نلتفت إلى الزمان الحالي الذي ننشغل فيه بأداء بعض الأمور، مع أنّ الإنسان يحتاج في كلّ حين إلى عون الحقّ تعالى ومساعدته له، بما في ذلك الوقت الذي نكون مشغولين



فيه بالقيام ببعض الأمور، حيث نظلّ محتاجين إلى المدد والعون من الله تعالى. وإذا تأمّلنا جيدًا فسنفهم أنّنا مع رفعنا لقدمنا في كلّ خطوةٍ نخطوها نكون أمام احتمال ألّا تعود تلك القدم إلى الأرض أو ألّا تعود بالشكل الصحيح. ولعلّ أحد أسرار هذا الدعاء الشريف ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الذي نقرؤه في سورة الحمد المباركة مرّات ومرّات على امتداد الليل والنهار: أن نلتفت إلى هذه المسألة المهمّة؛ وهي أنّ المرء مُعرّضٌ في كلّ آن لخطر الانحراف عن الطريق الأساس والصحيح.

في هذه الفقرة من الدعاء، ينبّهنا الإمام السجّادعليه السلام إلى هذه المسألة المهمّة؛ وهي أن نطلب من الله دائمًا أن يهدينا نحو المقصد الصحيح: «**وَإِنْ مِلْنَا فِيهِ فَعَدِّلْنَا، وَإِنْ زُغْنَا فِيهِ فَقَوِّمْنَا**».

«الميل» و«الزيغ»، اللذان يُقصد منهما الاعوجاج والانحراف عن الحقّ وعن الطريق المستقيم؛ مرتبطان بمفهوم «الصراط المستقيم» القرآنيّ الذي ورد استعماله في القرآن مرّات عـدّة[1]. طبقًا لتعاليم القرآن، فمسيرة حياة الإنسان لا بدّ من أن تكون مستقيمةً وبعيدةً عن جميع أنواع الانحراف. طبعًا فالانحرافات التي يواجهها الإنسان

---

(١) مفهوم الصراط، والصراط المستقيم، والصراط السوي... ورد في كثيرٍ من آيات القرآن الكريم؛ منها: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة **الحمد**، الآية ٦)؛ ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِي ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (سورة **يس**، الآية ٦١)؛ ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ (سورة **الزخرف**، الآية ٤٣)؛ ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة **الأعراف**، الآية ١٦)؛ ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ (سورة الصافّات، الآية ١١٨)؛ ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ (سورة **طه**، الآية ١٣٥)؛ ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ (سورة **ص**، الآية ٢٢).





ويقع فيها متنوّعة، كما أنّ هذه الانحرافات تشبه الانحراف عن الخطّ المستقيم: في البداية لا يكون بذاك الوضوح والبروز، ولكن كلّما مضى الزمان وصارت مساحة زاوية الانحراف أكبر يزداد وضوح هذا الانحراف وبروزه. وهذه الحالة هي أيضًا من جملة الحالات التي ينبغي للإنسان أن يلتجأ فيها إلى الله ويتوكّل عليه ليخلّصه منها، فيأخذ منه علامات الطريق الصحيح والمستقيم، والأهمّ أن يطلب منه التوفيق للحركة في ذلك الطريق المستقيم والصحيح.

النكتة المهمّة الجديرة بالاهتمام هي أنّ استجابة الدعاء لها بحدّ ذاتها مجموعة من الشروط والأقسام؛ فليس معنى الدعاء أن نكتفي بقراءة جملةٍ أو عبارة قصيرة أو طويلة ومن ثمّ نترك أمورنا على عواهنها بكلّ راحة بال ونحن ننتظر الإجابة، وبخاصّة إذا كان طلبنا من الله من الأمور التي تستمرّ وتبقى إلى آخر العمر؛ كأن نطلب من الله تعالى أن يوفّقنا للسير في الطريق الصحيح والصراط المستقيم حتى آخر عمرنا.

في مثل هذه الحالات إذا فكّرنا بهذا الشكل نكون قد وقعنا في ذروة خداع الذات؛ ذلك أنّ جميع أفعال الله المتعال، ومن جملتها استجابة الدعاء، إنّما تتحقّق ضمن إطار السنن الخاصّة، فلو كان ما نطلبه من الله في الدعاء أمرًا جادًّا وكنّا حقيقةً نريد من الله تعالى أن يوفّقنا للسير في الطريق المستقيم، فلا بدّ من أن يكون تمام وجودنا كذلك منصبًّا على هذا الهدف، تمامًا مثل الشخص الذي يحترق ويطلب من الآخرين المساعدة، فهذا الشخص مع أنّه متيقّن من مساعدة الآخرين له، ولكنّه لا يبقى منتظرًا دون أن يحرّك ساكنًا، بل يبادر إلى تخليص نفسه من النار قدر استطاعته إلى أن تصل



المساعدة. هذا السعي الجادّ المتزامن مع طلب المساعدة إنّما يكشف عن أنّه حقيقةً في حال احتراق. وكذلك فعلامة جدّية دعائنا وطلبنا من الله هي أن نسعى بكلّ جدّ في هذا الإطار ونهتمّ بالأمور والأسباب التي وضعها الله بين أيدينا.

للطريق والصراط الإلهيّ المستقيم علامات ومؤشّرات، ولأجل السير في هذه الطريق والوصول إلى المقصد لا بدّ من الالتفات بدقّة إلى هذه العلامات ومن ثمّ الاستمرار في الطريق على أساس ما فيها من إرشادات وتوجيهات حتى نبقى مصونين من أيّ انحراف.

أمّا أن ندعو الله تعالى ونطلب منه دون أن نكون ملتفتين إلى هذه المؤشّرات والعلامات ودون التدقيق الكافي في عبور الطريق بشكلٍ صحيح، فهذا ما لا يمكن قبوله؛ إذ إنّ هذه الخطوة، التي تكشف بذاتها عن عدم جدّيتنا في الدعاء والطلب من الله، مخالفةٌ للسنّة الإلهيّة، وهي أقرب إلى المزاح مع الله والاستهزاء به والعياذ بالله.

الشخص الذي يقف على سطح مبنًى من سبعة طوابق ثمّ يُلقي بنفسه إلى الأسفل وهو يقول: «إلهي، توكّل بحفظي»؛ هذا الشخص لا يلتفت إلى واقع أنّه لمّا كان واقفًا فوق السطح وكانت روحه محفوظةً هناك فهذا لم يكن إلّا بيد الله تعالى وعلى أساس السنن الإلهيّة. هذا الشخص يتصوّر بخياله الساذج أنّه هو من كان يحفظ روحه قبل أن يلقي بنفسه وأنّ الله لم يكن له علاقة بذلك حينها، أمّا وقد ألقى بنفسه ولم يعد بإمكان هذا الشخص فعل شيء وقد خرج الأمر من يده فتراه يتوجّه إلى الله ويطلب منه العون والمدد. هذا الأمر يكشف



عن جهلٍ بالسنن الإلهيّة، والله تعالى في مقابل هذا الطلب والدعاء سيقول: جاذبيّة الأرض لأجل هذا الأمر جعلتها. الوقوف فوق السطح وكذلك الوقوع من السطح والسقوط؛ كلاهما نتيجة للجاذبيّة التي جعلها الله للأرض، وعندما تكون عالِمًا بهذه الأمور فعليك أن تستفيد من القوة الإلهيّة بالشكل الصحيح وفي الموضع المناسب. وحتّى يستجيب الله لطلب هذا الشخص بالنجاة هناك مجموعةٌ متعدّدةٌ من القوانين والمقرّرات؛ منها ألّا يكون ذاك الشخص مسؤولًا عن وقوعه عن السطح، ومنها التوكّل على الله والثقة به، ومنها جدّية الطلب والمسألة وموافقتها للمصلحة الإلهيّة. وبناءً عليه، فاستجابة الدعاء إنّما تتحقّق ضمن إطار السنن الإلهيّة.

نُقل في التاريخ: «أنّ موسى بن عمران عليه السلام اعتلّ بعلّة، فدخل عليه بنو إسرائيل، فعرفوا علّته، فقالوا له: لو تداويت بكذا لبرئت، فقال: لا أتداوى حتى يعافيني اللّه من غير دواء. فطالت علّته، فأوحى اللّه إليه: وعزّتي وجلالي! لا أبرئك حتّى تتداوى بما ذكروه لك، فقال لهم: داووني بما ذكرتم. فداوَوه، فبرئ، فأوجس في نفسه من ذلك، فأوحى اللّه ـ تعالى ـ إليه: أردت أن تبطل حكمتي بتوكّلك عليّ، فمن أودع العقاقير منافع الأشياء غيري؟»[1].

إنّ للدعاء آثارًا وبركات، منها تنبيه الإنسان إلى الأمور التالية:

أولًا: أنّ هذا الإنسان لا يحتاج إلى عون الله ومدده من أجل ماضيه ومستقبله فحسب؛ بل كذلك من أجل زمانه الحالي واشتغالاته في الزمان الحاضر أيضًا.

---

(١) المولى محمّد مهدي النراقي، **جامع السعادات**، ج ٣، ص ٢٢٩.

ثانيًا: على الإنسان أن يلتفت إلى الأسباب والعلل التي وضعها الله لتحقّق الأمور في هذا العالم.

ثالثًا: عندما يستفيد من الأسباب، عليه أن يعتقد بأنّ جميع هذه الأسباب مجرّد أدوات ليس أكثر، فكلّ شيءٍ إنّما هو بيد الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[1]؛ فالتأثير الحقيقي لا يكون إلا منه.

هذه العلل والأسباب ليست مستقلّةً في التأثير؛ بل هو الذي جعل هذه الأسباب، باعتبار مصالح معيّنة، وسيلةً لإنجاز بعض الأمور، وبناءً عليه، فالاستفادة من الأسباب والوسائط ليس إلّا واجبًا أُلقي على عاتقنا طبقًا للسنن التي جعلها الله في هذا العالم، ولأجل مصالح لا حصر لها موجودة في هذه الأعمال.

على أنّ روح جميع هذه الأمـور تكمن في الامتحان والابتلاء الذي عجنه الله تعالى مع هذه الحياة الدنيا وهيّأ له الأرضيّة في أعمال حياتنا اليوميّة. وعلى سبيل المثال، ففي بعض الحالات يكون المريض، والطبيب، والصيدلي، وسائر الأفراد؛ جميعهم يكونون في معرض الامتحان الإلهي. وكذلك في الحالات التي لا يتهيّأ فيها شيءٌ من الأسباب ويرى الإنسان نفسه عاجزًا عن فعل أيّ شيء تجاهها، فحينها يتّضح من هم الذين لديهم توكّل وأملٌ بالله تعالى وتوجّه دائمٌ إلى أنّ أمرهم بيد موجودٍ قادرٍ خبيرٍ يمكنه أن يحلّ مشاكل الإنسان حتى من الطرق غير المعتادة. كما يظهر حينها الذين ييأسون من رحمة الله عند فقدان الأسباب الظاهريّة ويخسرون أنفسهم. جميع هذه الامتحانات والابتلاءات على أساس مصالح علينا أن نغتنمها بصفتها

---

(١) سورة **الشعراء**، الآية ٨٠.





أفضل فرصة نتكامل من خلال اجتيازنا للامتحان فيها وأدائنا لواجباتنا ضمنها.

وفي جميع الحالات، علينا أن نلتفت إلى هذا الأمر المهمّ؛ وهو أنّنا في كلّ آن معرّضون للتورّط بالغفلة والخطأ والوقوع في حبائل الشيطان. قد نُبتلى بالنسيان فننحرف عن الصراط المستقيم، أو نتوقّف عن المسير والحركة إلى المراحل اللاحقة. هنا علينا أن ندرك أنّنا ضعفاء وعاجزون إلى حدّ أنّنا إذا لم تشملنا العناية الإلهيّة فلا يمكننا أن نتلفّظ حتّى ببعض الكلمات التي نجريها على لساننا؛ فإذا شرعنا في كلمةٍ ما لا نعلم إن كنّا سنستطيع التلفّظ بالحروف والكلمات اللاحقة. لا نعلم إنّ كانت سلامتنا الجسميّة والروحيّة والنفسيّة ستستمرّ حتى نستمرّ في كلامنا أم لا؟

وهل العمل الذي بدأنا به بنيّة خالصة ومن أجل رضوان الله تعالى، هل يمكننا أن نستمرّ به خالصًا لوجه الله، أم أنّ الشيطان سيحول دون إخلاصنا ويتصرّف في نيّاتنا؟ هل سنسلم من توريط الشيطان لنا بالرياء والسمعة؟ وهل سنسلم من أن تورّطنا النفس والشيطان بالشرك والكفر؟ فلو حدث ذلك وجعلنا لله شريكًا فلن يقبل الله منّا أيّ عملٍ حينها وسيحيل عملنا كلّه إلى شريكه، كما قال: «أَنَا خَيرُ شَرِيك»[1].

في كلّ عملٍ قد ينطلق المرء ببداية موفّقة؛ أي يبدأ عمله بحماس واندفاع معنويّ خاصّ ومع إخلاص النيّة، ولكنّه لاحقًا يخسر في مواجهة الشيطان، حيث تؤثّر فيه وساوس الشيطان وإلقاءاته فتقلّل

---

(١) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٢٩٥.

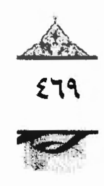


من إخلاصه، وشيئًا فشيئًا لا يبقى في عمله شيءٌ من ذلك الإخلاص. في البداية يدخل الشيطان من خلال التشويش في القصد والنيّة، وعندما يتمّ له ذلك يُسلَب الإخلاص والطهارة من العمل، فلا يبقى أيّ إقبالٍ وحماسٍ معنويّ، وشيئًا فشيئًا يصل المرء إلى القيام بجميع أعماله بمقاصد دنيئة ليسقط من ذروة المعنويّة إلى حضيض مجالسة الشيطان والشيطانيّين.

بناءً عليه، فلا يمكننا أن نقول في بداية كلّ عمل: «إلهي، احفظنا على الصراط المستقيم حتى النهاية» ثمّ نجلس مرتاحي البالي ولا نستشعر الخطر. إذا كان دعاؤنا وطلبنا من الله جادًّا وكنا نأخذ بعين الاعتبار السنّة الإلهيّة في تدخّل الأسباب الإلهيّة، فعلينا أن نلتفت إلى أنّنا في كلّ آنٍ محتاجون إلى العون والمساعدة من الله، وفي كلّ لحظة نحتاج إلى المدد الإلهي للحفاظ على أنفسنا سالمين.

سلوك الإنسان الاختياري له قاعدتان رئيستان تشكّلان مبادئ أيّ فعلٍ اختياريّ عنده: قاعدة المعرفة، وقاعدة الرغبة والتوجّه والشوق وما شابه ذلك من أمور. أي من أجل القيام بعملٍ صحيح، علينا أن نعلم ما الذي ينبغي فعله، وعلينا في الوقت نفسه أن نريد ذلك الفعل.

العلم الصحيح مطلوب، وكذلك الإرادة الصحيحة والجادّة مطلوبةٌ أيضًا. مع الأسف، فالشيطان قد ينفذ إلى كلٍّ من هذين النوعين من المبادئ فيوسوس فيهما: إمّا أن يشوّش معرفتنا ويجعلها مشوبةً بالشكّ والتردّد، وإمّا أن يتسبّب في تزلزل توجّهاتنا ورغباتنا وانحرافها، وجميع هذه الموارد تترك تأثيرها في سلوكنا في نهاية المطاف.



لهذا السبب، فحاجة الإنسان إلى الله لا تقتصر على تعويض الماضي ولا على تأمين المستقبل؛ بل هو في كلّ لحظة محتاجٌ إلى العون والمدد من الله؛ ذلك أنّه معرّضٌ في كلّ لحظة للانحراف في المعارف أو في التوجّهات.

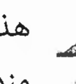
كلمة «زيغ» التي استُعملت في القرآن الكريم بشكلٍ متكرّر[1]، تشير إلى هذه المسألة، وهي تشمل كلا الحالتين: أي الانحراف الفكري والانحراف في التوجّه. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾[2]؛ فالله تعالى قد هدى جماعاتٍ من الناس وبطرقٍ مختلفة، ولكنّ هؤلاء واجهوا هذه الهدايات الإلهيّة بالرفض وانحرفوا عن طريق الحقّ واستمرّوا في هذا الانحراف، وبالنتيجة، فقد أزاغ الله قلوبهم عن الصراط المستقيم وساقهم إلى الانحراف. طبعًا فهذا النوع من الانحرافات في غاية الشدّة والخطر، إذا ابتُلي به الأفراد والجماعات فقلّما يبقى لهم أملٌ بالنجاة. أمّا سرّ خطورة مثل هذه الانحرافات فهو أنّها تصدر منهم عن علمٍ ووعيٍ وتعمّد؛ فهؤلاء الأفراد والجماعات يختارون طريق الانحراف بكامل وعيهم ويصرّون على أخطائهم، ومع

---

(١) ورد استعمال هذه الكلمة ومشتقّاتها في كثيرٍ من الآيات القرآنية، حيث اعتمد عليها للإشارة إلى انحراف بعض الأفراد أو الجماعات انحرافًا فكريًّا أو توجّهيًّا: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ (سورة **التوبة**، الآية ١١٧)؛ ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (سورة **النجم**، الآية ١٧)؛ ﴿إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ (سورة **الأحزاب**، الآية ١٠)؛ ﴿أَتَّخَذۡنَٰهُمۡ سِخۡرِيًّا أَمۡ زَاغَتۡ عَنۡهُمُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾ (سورة **ص**، الآية ٦٣)؛ ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ يَٰقَوۡمِ لِمَ تُؤۡذُونَنِي وَقَد تَّعۡلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡۖ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ (سورة **الصف**، الآية ٥).

(٢) سورة **الصف**، الآية ٥.





هذا العناد والتعنّت والإصرار على المعتقدات والأفكار الخاطئة تُسلَب منهم، شيئًا فشيئًا، القدرة على التشخيص. هؤلاء يتسبّبون بأن يصل بهم الأمر في مثل هذه الحالات إلى حدّ أنّ الله تعالى، مع كلّ ما لديه تجاه عباده من رحمة ورأفة لا حدّ ولا حصر لها؛ يغضب عليهم ويختم على قلوبهم وأرواحهم فيُطفئ بذلك نور الهداية في قلوبهم بحيث لا يكون بمقدور أحد أن يفعل شيئًا لخلاصهم[1] ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[2].

هذا، وقد أشار القرآن الكريم إلى العاقبة السيّئة والخطيرة التي حلّت ببعض الأفراد والجماعات الذين شملهم الغضب الإلهي، نتيجةً لعصيانهم وانحرافاتهم العمديّة الصادرة عن علم ومعرفة، حيث ختم الله على قلوبهم وأرواحهم بختم الانحراف والضلال[3].

---

(١) بعض آيات القرآن الكريم نقلت عن اللسان المبارك للأنبياء الإلهيين ﷺ الإشارة إلى حقيقة أنّ الإنسان عندما يُعرِض عن الله تعالى، فسيبقى وحيدًا ولن يجد له ناصرًا ولا معينًا: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ١٦٠)؛ ﴿وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة **هود**، الآية ٣٠)؛ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ (سورة **هود**، الآية ٦٣)؛ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (سورة **الجاثية**، الآية ٢٣).

(٢) سورة **البقرة**، الآية ٧.

(٣) في هذه الآيات عُبّر أحيانًا بكلمة «ختم»، وعُبّر أحيانًا أخرى بكلمة «طبع»، وجاء التعبير أحيانًا ثالثة بعبارة «جعل غشاوة»، وجميعها تحمل المعنى المقصود نفسه تقريبًا: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٧)؛ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ٤٦)؛ ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾(سورة



على أنّ هذا الأمر من السنن الإلهيّة؛ فعلى أساس السنّة الإلهيّة، عندما يسقط المرء نتيجةً لخطأ أو زلّة منه، في منحدرٍ ما، فإنّه يبادر إلى ضبط حركته وجعلها متوازنة من خلال الاستماع إلى إرشادات المربّين من ذوي الفهم والخبرة والتجربة، ومن ثمّ يكمل حركته مع سيطرة أكبر وسرعة أقل بحيث إذا طرأ عليه أيّ خطر إمّا يلتفت إليه مبكرًا فيخلّص نفسه منه، وإمّا يكون أمام الآخرين الذين يرون ذاك الخطر فرصة كافية لكي يخلّصوه؛ إذًا فعلى أيّ حال يبقى لهؤلاء الأفراد والجماعات أملٌ بالنجاة من الأخطار المحتملة.

أمّا الأفراد والجماعات الذين يقعون في مثل تلك الأماكن الخطيرة نتيجة لأخطائهم المتعمّدة، ولا يلتفتون إلى تحذيرات الآخرين وتنبيهاتهم، فإنّهم يبادرون، نتيجةً لعدم خبرتهم ونضجهم، إلى زيادة سرعتهم لحظةً فلحظة، إلى أن يصل الأمر إلى حدٍّ يخرج عن سيطرتهم، بحيث لا يكون بمقدورهم، لا هم ولا حتى الأشخاص الذين يشاهدون سقوطهم، أن يبادروا إلى فعل أيّ شيء. وبالنتيجة يتدحرجون رأسًا على عقب هابطين إلى أسفل الوادي.

الجاثية، الآية ٢٣)؛ ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (سورة **النساء**، الآية ١٥٥)؛ ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (سورة **التوبة**، الآية ٩٣)؛ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾ (سورة **النحل**، الآية ١٠٨)؛ ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ (سورة **محمّد**، الآية ١٦).



هذا القانون وهذه السنّة الإلهيّة تصدق في الحركات والأفعال الفيزيائية والظاهريّة كما تصدق أيضًا في السير الفكري والمعنوي، وهي شاملة لا تتخلّف في أيٍّ منهما، وبخاصّة عند الذين يقومون، عن علمٍ ومعرفة ووعي، لا لشيءٍ إلا بسبب اتّباعهم لهوى النفس؛ يقومون بمحاربة دين الله والمقدّسات الإلهيّة، حاملين إيّاها على الاستهزاء والسخرية؛ فهنا تنطبق هذه السنّة الإلهيّة على هؤلاء أكثر من غيرهم. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الفئة من الناس حيث قال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[1].

في حالاتٍ كهذه، تخرج الأمور من أيدي الجميع باستثناء الله تعالى؛ وحده الرجاء والأمل بالعناية الإلهيّة يمكنه في حالاتٍ كهذه أن يلبّي استغاثة الإنسان ويخلّصه.

بناءً عليه، فلا بدّ من الالتفات إلى هذه المسألة المهمّة؛ وهي أنّنا عندما ندعو ونسأل الله تعالى أن يحفظنا من الزلّات والانحرافات، فلا بدّ من أن يكون قصدنا جادًّا ويكون طلبنا واقعيًّا. وجدّية قصدنا في هذا الدعاء تكمن في أن نكون ملتفتين إلى السنن الإلهيّة التي جُعلت من أجل عبور الصراط المستقيم بطريقة صحيحة لا انحراف فيها. وقد تضمّن القرآن الكريم بشكلٍ وافٍ بيان هذه السنن والسبل الصحيحة للسير في الطريق المستقيم، ويبقى واجبًا علينا أن نجتهد للوصول إلى هذه الحقائق والاستفادة منها. أمّا الدعاء للهداية في هذا الطريق المستقيم دون الالتفات إلى هذه الحقائق ودون بذل الجهد

---

(١) سورة **الجاثية**، الآية ٢٣.





للوصول إلى هذا الطريق، فهو دعاء دون فائدة ويُعدّ تهكّمًا على السنن والقوانين الإلهيّة.

فعلى سبيل المثال، ذكر القرآن الكريم بشكلٍ صريح أنّ الصراط المستقيم هو إطاعة الله وحده: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾[1]، وبعد أن بيّن الصراط المستقيم وعيّن مصداقه الحصري، أشار أيضًا إلى تفاصيل هذا التوجيه، موضحًا سبيل البقاء والثبات في هذا المسير، حيث قال: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2].

كما أنّه لم يكتفِ بما سبق، وبيّن أيضًا أنّه إذا وقع بينكم اختلافٌ في هذا الطريق، ولم تصلوا إلى الحلّ حتى مع الاستعانة بعقلكم الذي هو حجّة الله الباطنة عليكم؛ فتوجّهوا إلى الله لرفع هذا الاختلاف من بينكم: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾، تبيّن هذه الآية الكريمة أنّ العقل، هذا الرسول والحجّة الإلهيّة الباطنة، لا يكفي من أجل إسعاد الإنسان، بل يبقى هذا الإنسان محتاجًا دائمًا إلى عون الله تعالى.

التسليم في مقابل الحق طريق النجاة الوحيد

بناءً على ما سبق، فإذا لم يتّجه المرء نحو الله من أجل اكتشاف طريق حركته ونجاته، أو إذا استعان بأعداء الله من أجل نجاته؛ فلا شكّ حينها

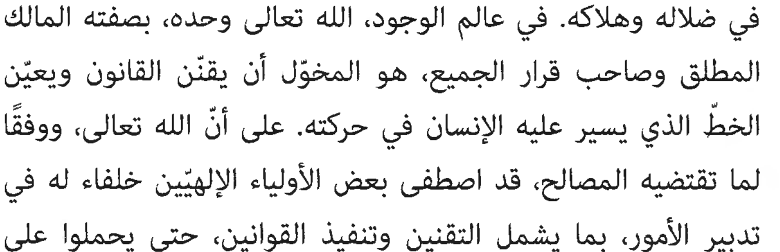
---

(١) سورة **يس**، الآيتان ٦٠ - ٦١.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٠١.







في ضلاله وهلاكه. في عالم الوجود، الله تعالى وحده، بصفته المالك المطلق وصاحب قرار الجميع، هو المخوّل أن يقنّن القانون ويعيّن الخطّ الذي يسير عليه الإنسان في حركته. على أنّ الله تعالى، ووفقًا لما تقتضيه المصالح، قد اصطفى بعض الأولياء الإلهيّين خلفاء له في تدبير الأمور، بما يشمل التقنين وتنفيذ القوانين، حتى يحملوا على عاتقهم مسؤوليّة وضع القوانين وتدبير أمور الناس بما يتطابق مع أحكام الله ويقع ضمن الإطار الذي حدّده هو.

ولهذا السبب، فما يُطرح اليوم باسم «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» أو القوانين التي تنتشر على المستوى الدولي في عالمنا اليوم؛ فهذه ليس لها أيّ اعتبار؛ وذلك لما يلي:

أولًا: هي نتاج فكر وقرارات مجموعة من محدودي الاطّلاع الذين ليس لهم حظٌّ من المعارف الإلهيّة والأديان السماويّة.

ثانيًا: هؤلاء الأفراد متورّطون عمليًّا بأنواعٍ من المعاصي وبالتفلّت الأخلاقي والسلوكي.

ثالثًا: هم تابعون لمجموعة من الدول المستكبرة الشيطانيّة التي ليس لها هدف سوى الاستبداد والاستغلال الجائر لجميع دول العالم.

إنّ أوضح مؤشّر على أنّ هذه القوانين لا اعتبار لها: ما نراه فيها بكلّ وضوح من تعارض مع القوانين الإلهيّة، وهو ما ينتج عنه تعطيل الأحكام والأديان الإلهيّة. ومع ذلك، فهم يعتبرون أنّ هذه القوانين الناقصة والبتراء أعلى من القوانين الإلهيّة والكتب الإلهيّة المقدّسة!



جميع ما تقدّم هو نتيجة الجهالة في بُعد المعرفة، والعناد والتعنّت في بُعد العمل والسلوك. كثيرٌ من الأفـراد والمجموعات جهلاء، وكثيرون أيضًا يعلمون، ولكنّهم في مقام العمل، ونتيجة للمعصية والتلوّث بأنواع المفاسد الأخلاقيّة والسلوكيّة، لا يتقبّلون الحقائق، بل حتى يقومون بالتجييش في مقابلها، وبالتالي، فالله تعالى ينزع منهم نور الهداية ويتركهم وحيدين في مستنقع الجهل والضلالة. أولئك الأفـراد والجماعات هم أشخاصٌ بـرزوا لحرب الله، متّبعين الشيطان وأهواءهم النفسانيّة، وسيخسرون بشدّة بحيث لا يُتصوّر لهم أيّ طريقٍ للنجاة إطلاقًا: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍۖ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾[١].

يوجّه الله تعالى خطابه إلى المؤمنين حول المنافقين حيث يسألهم: كيف يمكنكم أن تهدوا وتخلّصوا المنافقين الذين قد أضلّهم الله تعالى؟ لا تتردّدوا في حالهم؛ هؤلاء كفار بباطنهم وقد أضلّهم الله وأخرجهم من الطريق المستقيم: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾[٢].

هذه الأحكام الإلهيّة والعبارات المؤثّرة التي ينقلها لنا القرآن حول بعض الكفّار والمنافقين؛ لا تختصّ بفردٍ أو بجماعةٍ خاصّة. جميع هذه الحالات من السنن التي لا تتخلّف، بل تصدق على كلّ شخصٍ وجماعةٍ تكون على هذا النحو؛ فلو قام كلّ فردٍ أو جماعةٍ بادّعاء العلم في

---

(١) سورة **الروم**، الآية ٢٩.

(٢) سورة **النساء**، الآية ٨٨.



مقابل الله وادّعوا أنّ مصيرهم لن يكون سوى ذلك، ففي هذه الحالة، حتى لو قرأوا أفضل مضامين الأدعية وفي أقدس الأماكن وأهمّ الأزمنة، وسألوا الله الهداية والحركة في الصراط المستقيم؛ فذلك كلّه لن يكون له أيّ ثمرة؛ لأنّه خلاف السنّة الإلهيّة. السنّة الإلهيّة التي لا تتخلّف تقتضي في مقام المعرفة: الانحناء أمام حكم العقل الذي منحه الله، وأمام الوحي الإلهي وكلمات المعصومين وأهل البيت عليهم السلام التي هي نتاج العقل الكامل والسليم والوحي الإلهي؛ وتقتضي في مقام العمل: التسليم بكلّ تعبّد أمام هذه الأحكام.

وإذ يمدح الله تعالى في القرآن الكريم دين الإسلام المقدّس، يشير إلى هذه النكتة المهمّة؛ وهي أنّ الأشخاص الذين يسلّمون تمام أمرهم إلى الله ورسوله صلى الله عليه وآله هم وحدهم الذين يفتخرون بنور الهداية. أمّا إذا تمرّدوا على التسليم في مقابل الله تعالى ودينه، فسرعان ما يضلّون ليقعوا في أعمال قبيحة وذميمة، من قبيل الكفر بالله وقتل الأنبياء والمؤمنين، وهو ما ليس له إلا أخطر العواقب:

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ... ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1].

ثمّ في آيةٍ أخرى، يذكر أنّه لا يخالف النبيَّ إبراهيم عليه السلام إلّا السفهاء الذين لا شخصيّة لهم ولا حكمة، الذين أعرضوا عن حكم

---

(١) سورة **آل عمران**، الآيتان ١٩ - ٢٠.



عقلهم واستسلموا لأنفسهم وأهوائها، بينما كان إبراهيم عليه السلام في المقابل عبدًا مسلّمًا أمره لله كلّ التسليم:

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

بناءً عليه، فوحدها الجماعة التي تسلّم للأمر الإلهي ولرسل الله في الباطن والظاهر، مع التمسّك بحبل الله؛ هي وحدها التي يمكن هدايتها لتتحرّك وتسير في الصراط المستقيم: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]. وحدها هذه الجماعة التي يمكنها أن تقرأ مضامين الدعاء المأثور عن أهل البيت عليهم السلام وأن يكون لها قصدٌ جادّ في قراءته، فإذا وقفت في مثل تلك الحال وقالت: «وَإِنْ مِلْنَا فِيهِ فَعَدِّلْنَا وَإِنْ زُغْنَا فِيهِ فَقَوِّمْنَا»، أو إذا قرأت: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾[3]؛ فهنا يكون الدعاء دعاءً واقعيًّا يستحقّ الاستجابة؛ لأنّ جميع شروط استجابة الدعاء مهيّأة فيه، وليس فيه أدنى مخالفة للسنن والقوانين الإلهيّة أيضًا.

فلنلتفت إلى أنّنا في هذه الأدعية نتبع الإمام السجّاد عليه السلام في طلبنا من الله أن يحفظنا من الانحرافات. والمقصود من هذا الحفظ هو ألّا يُبتلى خيالنا وفكرنا ـ في مقام المعرفة ـ بالتشكيك والانحراف، ولا تُصاب إرادتنا وعزمنا ـ في مقام العمل ـ بالضعف والوهن.

---

(١) سورة **البقرة**، الآيتان ١٣٠ - ١٣١.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٠١.

(٣) سورة **آل عمران**، الآية ٨.



نطلب من الله أن يجبر ضعفنا في كلّ موضعٍ أُصبنا فيه بالوهن، وفي كلّ موضعٍ أصابنا فيه الضعف في قدرة التفكير، أو في القدرة على اتّخاذ القرار والعمل. وإذا ما طرأ على ذهننا، نتيجة أخطاءٍ ما، خيالُ الاستقلال في مقابل الله، أو توهَّمْنا خطأً، أنّ لأنفسنا قدرةً ما؛ أن يُفهمنا حقيقة عجزنا ومنتهى ضعفنا. أن يُفهمنا حقيقة أنّه لو لم يكن لكان إعصار هوى النفس والشيطان قد أخرجنا من عالم الوجود وأرسلنا إلى ديار العدم. وأن يُفهمنا أنّ عدوّه الذي لا يعرف الكلل ولا الملل؛ أي الشيطان؛ يترصّد الفرصة دائمًا لكي يهيمن علينا ويسيطر على تفكيرنا وأفكارنا وإرادتنا ويحيط بنا: «**وَإِنِ اشْتَمَلَ عَلَينا عَدُوُّكَ الشَّيطَانُ فَاسْتَنْقِذْنا مِنْه**».

على أنّ مصاحبة الشيطان للبشر ليست جميعها على حدّ سواء: بعض الناس يكون دائمًا قرينًا ومرافقًا للشيطان، وهؤلاء أشخاصٌ محرومون من ذكر الله: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾[1]. وعندما يُعرِض المرء عن ذكر الله ويحرم نفسه من عظيم بركاته، فالله تعالى يجعل له رفاقًا من الشياطين حتى يظلّ دائمًا مستأنسًا بهم ومخالطًا لهم، وهؤلاء الرفاق يزيّنون له كلّ ما يحيط به من مظاهر الدنيا التي يشغلون قلبه بها. مثل هؤلاء البشر والجنّ ليس لهم عاقبة سوى الخيبة والخسران: ﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَٰسِرِينَ﴾[2].

---

(١) سورة **الزخرف**، الآية ٣٦.

(٢) سورة **فصّلت**، الآية ٢٥.



وعندما يحدث ذلك، فمن الطبيعي أنّ هذا الإنسان لن يكون له نصيبٌ وجزاء سوى المعيشة المرّة والمنغّصة في الدنيا والعذاب الأليم والدائم في الآخرة: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[١].

وفي المقابل مجموعة من الأناس المؤمنين والمتّقين، الذين واظبوا على مراقبة أنفسهم فحفظوها نقيّةً وطاهرةً من جميع أنواع التلوّث بالشياطين، ولم يجعلوا للشياطين سبيلًا إلى داخل قلبهم. ومع ذلك فالشياطين لا يقرّ لها قرار، فتمرّ عليهم وتجول حولهم بين الحين والآخر، والقرآن يذكر ذلك في سياق تقديره لهذه المجموعة من المتّقين، فيذكر أنّه كلّما مرّت الشياطين من حولهم وعبرت بالقرب منهم ومسّتهم مسًّا بسيطًا؛ تذكّروا الله تعالى واستعانوا به لتبقى طهارتهم ونقاؤهم في حفظٍ من التلوّث بالوساوس الشيطانيّة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[٢].

عندما يرى الله تعالى ما لدى هؤلاء المتّقين من مراقبة شديدة واعتمادٍ على ذكر الله لتخليص أنفسهم، فهو يتفضّل عليهم من تلك اللحظة، وببركة ذكر الله، ببصيرةٍ وبصرٍ فائقين ينيران طريقهم ويحفظانهم من كلّ زلّة.

كم هو جميل وراجح أن يحيى الإنسان في داخله روحيّة التذكّر بذكر الله واللجوء إليه حين الإحساس بالخطر. فإذا فعل ذلك، فحينها

---

(١) سورة **طه**، الآية ١٢٤.

(٢) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠١.

سيعمل بسهولة بالأمر القرآني الذي يقول: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

عندما يهجم الشيطان ويُلقي ويوسوس، لا يكون ثمّة سبيلٌ للخلاص سوى اللجوء إلى الله، فكيد الشيطان ووسوسته إنّما يكون حقيرًا وضعيفًا أمام الله فقط. ولولا عون الله فحتى أشدّ الناس وأصلبهم إرادة يستسلمون أحيانًا أمام كيد الشيطان ومكره. إذا وُجدت هذه الروحيّة عند الإنسان، فحينها سيبادر بكلّ سهولة ليطلب من الله تعالى العون في لحظات الإحساس بالخطر قائلًا: «**وَإِنِ اشْتَمَلَ عَلَينَا عَدُوُّكَ الشَّيطَانُ فَاسْتَنْقِذْنَا مِنْه**».

---

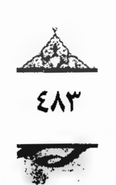
(١) سورة **الأعراف**، الآية ٢٠٠.



الجلسة الخامسة والعشرون:

الطاعة والعبادة







«اللَهُمَّ اشْحَنْهُ بِعِبَادَتِنَا إِيَّاكَ، وَزَيِّنْ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَتِنَا لَكَ، وَأَعِنَّا فِي نَهَارِهِ عَلَى صِيَامِهِ، وَفِي لَيْلِهِ عَلَى الصَّلاَةِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْكَ وَالخُشُوعِ لَكَ، وَالذِّلَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ حَتَّى لا يَشْهَدَ نَهَارُهُ عَلَيْنَا بِغَفْلَة، وَلا لَيْلُهُ بِتَفْرِيط»

الطاعة والعبادة

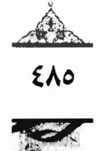
في هذه الفقرة من الدعاء يبدأ الإمام السجّاد عليه السلام فيقول: «**اللَهُمَّ اشْحَنْهُ بِعِبَادَتِنَا إِيَّاكَ**»، ثمّ يقول: «**وَزَيِّنْ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَتِنَا لَكَ**». في العبارة الأولى يسأل الله «العبادة»، وفي العبارة الثانية يسأله «الطاعة». فهل قال عليه السلام ذلك من باب التفنّن في الكلام فذكر العبادة ثمّ الطاعة، أم لذلك نكتة أخرى؟

الذي يبدو أنّ لهاتين المفردتين معنيين مختلفين؛ «العبادة» تعني التقديس والعبوديّة، ولها إطلاقان واستعمالان: في أحد الاستعمالين يُقصد من العبادة القيام بأعمالٍ مُفادها ومضمونها إظهار العبوديّة في محضر الله. في هذا الاستعمال، أوّل سلوكٍ ظاهري يفعله



العابد هو إظهار العبوديّة في مقابل موجودٍ فائقٍ ومقدّس. المناسك والأفعال من قبيل الصلاة، والركوع، والسجود، وتقريبًا جميع العبادات بالمعنى الأخصّ؛ تشكّل بحدّ ذاتها علامة العبوديّة. نعم؛ في موارد قليلة تحتاج أيضًا إلى نوعٍ من الجعل والاعتبار؛ ذلك أنّ هذا النوع من الأفعال والمناسك يتضمّن شيئًا من التوجّه الفطري الذي يُشاهَد عند جميع البشر من كلّ قومٍ وملّة في مقام احترامهم للآخرين. الخضوع، والانحناء، والتعظيم، اتّخاذ وضعيّة مثل الركوع، والسجود، والهوي إلى الأرض؛ جميعها من جملة تلك الأفعال، التي بطبيعتها لا تتضمّن إلا إظهار العبوديّة والتقدير، على أنّ النموذج البارز للتقدير والعبوديّة في الإسلام هو الصلاة.

ثمّة قسمٌ آخر من العبادات أيضًا ليست العبوديّة والتقدير معناها ومفادها الأوّلــي، ومع ذلك، يمكن للمرء أن يـؤدّي هذا النوع من الأعمال بقصد إظهار العبوديّة؛ أي إنّ عنوانها الأوّلي شيءٌ آخر، ولكنّها تأخذ لنفسها العبادة عنوانًا ثانويًّا من خلال نيّة الفاعل وقصده. جميع التوصّليّات يمكن الإتيان بها مع قصد عبوديّة الله وبنيّة التقرّب إليه. على سبيل المثال، المعنى والمفهوم الأوّلي لـ«برّ الوالدين والإحسان إليهما» ليس عبوديّة الله وعبادته؛ ذلك أنّ الكفّار هم أيضًا يمكنهم أن يُحسنوا إلى والديهم ولو من دون أن يكون لديهم مثل هذا القصد (العبادة). في مثل هذه الحالات يصدر الإحسان إلى الوالدين من شخصٍ ليس لديه أدنى إيمانٍ بوجود الله، غاية الأمر أنّه يحترم أباه وأمّه ويخدمهما، وبالتالي فهذا العمل ليس عباديًّا. أمّا عندما يؤدَّى هذا العمل بقصد إطاعة الأمر الإلهي فيكون له حكم العبادة.



بناءً عليه، فـ«الصلاة» و«الإحسان إلى الوالدين» سنخان من العمل العبادي، وهما، في الوقت نفسه، من مصاديق الطاعة. ثمّ إنّ «للطاعة» مفهومًا أوسع من هذا، فعلى سبيل المثال، كلّ عملٍ يتطابق، بشكلٍ من الأشكال، مع أمر الله ورضاه، أو بالحدّ الأدنى لا يخالف الأمر والنهي الإلهيّين؛ يُعدّ من مصاديق الطاعة. ومن هنا فأداء جميع الواجبات التوصّليّة وترك جميع المحرّمات، وإنْ تمّ بدون قصد التقرّب، وكذلك المباحات التي لا يشملها الأمر والنهي الإلهيّان، وباختصار: كلّ فعلٍ وتركٍ يوافق الأوامر والنواهي الإلهيّة ولا يخالفها؛ ذلك كلّه طاعة. على أنّ مطلق الطاعة يُسمّى أحيانًا عبادة أيضًا، كما هو اعتقاد بعضهم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾[1]؛ حيث يرون أنّ المقصود من عبادة الشيطان إطاعته؛ إذ إنّ قصد التقرّب إلى الشيطان في الأعمال وعبادته بالنحو الذي يُعبَد به الله تعالى؛ فرضٌ نادرٌ جدًّا[2].

وبناءً عليه، فليس المراد من ﴿لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ عبادةً خاصّة يُلحَظ فيها قصد الألوهيّة والربوبيّة أيضًا؛ بل المقصود من عبادة الشيطان كلّ فعلٍ وخطوةٍ تخالف أوامر الله تعالى ونواهيه، فعندما تخالف أمر الله تعالى تكون مصداقًا لطاعة الشيطان وعبادته. وكذلك

---

(١) سورة **يس**، الآية ٦٠.

(٢) ما يقع في مقام العمل تحت عنوان عبادة الشيطان، فذاك أكثره يكون بقصد إطاعة الشيطان لا عبادته، وحتى ما يقوم به بعض المنحرفين في عالمنا اليوم تحت عنوان «عبادة الشيطان» فهو ليس إلّا نوعًا من التفلّت والمجون، وأمّا الاعتقاد بألوهيّة الشيطان فهو أمرٌ نادرٌ وبعيدٌ جدًّا. على أيّ حال، فلو تحقّق مثل هذا الفرض في الخارج، ولو بشكلٍ نادر، ونسب أحدهم إلى الشيطان مقام الألوهيّة وكان مطيعًا له؛ فحينها تكون هذه الأعمال التي يؤدّيها بهذا القصد عبادةً.



في قوله ﴿أَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ﴾[١] ليس المراد العبادة بمعناها الخاصّ التي تكون مقرونةً بقصد التقرّب فقط أو التي تُلحَظ العبوديّة فيها في نفس العمل؛ بل المقصود هو الطاعة العامّة؛ أي كلّ خطوةٍ يرضى عنها الله وتتطابق مع أوامره ونواهيه، فتكون مصداقًا للعبادة بهذا المعنى الأعمّ.

في هذه الفقرة من الدعاء، يطلب الإمام السجّادعليه السلام من الله تعالى فيقول: «**اللَّهُمَّ اشْحَنْهُ بِعِبَادَتِنَا إِيّاك**»؛ أي وفّقنا لأن يكون هذا الشهر المبارك بتمامه ظرفًا لعبادتنا، بحيث نكون في جميع أوقاتك مشغولين بعبادتك. ثمّ يقول: «**وَزَيِنْ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَتِنَا لَك**». لعلّهعليه السلام استعمل كلمة «عبادة» بمعنى الإتيان بالفعل بقصد إظهار العبوديّة والتقرّب، فيما استعمل كلمة «الطاعة» بمعنى العمل الموافق للأوامر الإلهيّة.

النكتة الجديرة بالتأمّل في هذه الفقرة من الدعاء هي أنّ الله تعالى قد جعل خلقة الإنسان بنحوٍ يختلف كثيرًا عن سائر الموجودات. صحيحٌ أنّ جميع الموجودات مسبّحةٌ لله تعالى بمقتضى الخلق: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[٢]، ولكنّ تسبيح الإنسان وتقديسه له نحوٌ آخر.

لقد خُلق الإنسان بنحوٍ خاصّ كأنّ الله تعالى قد جعل فيه خلاصة الخَلق وثمرته. هذه الثمرة، ثمرة آلة أو شجرة الخَلق، عبارةٌ عن موجودٍ مـدركٍ وذي شعور واختيار، ولهذا السبب، فتسبيح

---

(١) سورة **يس**، الآية ٦٠.

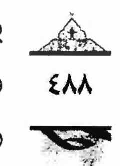
(٢) سورة **الجمعة**، الآية ١.



الإنسان، وبخاصّة أولياء الله، له نحوٌ خاصّ يختلف عن تسبيح سائر الموجودات، كالحصى. الإنسان موجودٌ ينبع سلوكه من الوعي، وإنْ كانت مستويات الوعي ومراتبه عند البشر تتفاوت تفاوتًا كبيرًا أيضًا، كما أنّ سلوك الإنسان يتمّ على أساس الاختيار والانتخاب مع دافع إطاعة الله تعالى، في حين أنّه يواجه خياراتٍ واحتمالاتٍ كثيرة لما يحمله في داخله من دوافع متفاوتة للغاية يصل بعضها إلى حدّ التضادّ أحيانًا.

هذه الخصائص تجعل خضوع الإنسان وتواضعه أمام الله تعالى ذا قيمة فائقة جدّا، كما أنّ ثمرة وجود الإنسان في هذا العالم تتلخّص في فهمه وإدراكه ومعرفته بالله تعالى، وبالتالي ارتباطه بهﷻ؛ هذا الارتباط الذي يشكّل كمال الإنسان وسعادته أيضًا. عندما يرتقي الإنسان إلى هذا المستوى من المعرفة والكمال، يمكنه حينها أن يدّعي وبكلّ بصدق حقيقة العبوديّة وطاعة الله. في الحقيقة، فعبوديّة الإنسان أمام الله هي أهمّ ثمرة وأجمل زهرة في حديقة خلق الإنسان. إذا كنّا نملك بصرًا يقظًا فسنرى أنّ الأزهار المتنوّعة والعطرة في حديقة عالم الوجود وجنّته إنّما تتفتّح وتظهر عندما يُطاع الله تعالى، وكلّما أُضيف إلى كمّية هذه العبوديّة والطاعة وكيفيّتها، صار عالم الوجود أكثر تفتّحًا وأجمل عطرًا؛ إذ إنّ طاعة الله وعبادته تعطّر هذا العالم في الواقع، وبخاصّة إذا كان منشأ هذه العبادات والطاعات هو المعرفة والاختيار والانتخاب الصحيح.

في هاتين الفقرتين من الدعاء كأنّ الإمام السجّادعليه السلام يأمل في أن يصبح شهر رمضان، نتيجة لكثرة العبادة والطاعة، معطّرًا بأزهار عبوديّة الله ومزيّنًا بمثل ذلك الجمال الرائع. ولهذا السبب، فهو



يسأل الله تعالى أن يجعل جميع أوقات هذا الشهر مليئةً بعبادة الله وطاعته. من وجهة نظره، لو كان شهر رمضان يتضمّن مناسك جافّة ولا روح لها، أو لو كان خاليًا من العبادات، لكان أشبه ببستان لا يحوي إلا أشجارًا دون ثمار ونباتات دون أزهار.

الأهمّيّة الفائقة لعبادات الليل

في تتمّة الدعاء يقولعليه السلام: «**وَأَعِنَّا فِي نَهَارِهِ عَلَى صِيامِهِ، وَفِي لَيلِهِ عَلَى الصلاة وَالتَّضَرُّعِ إِلَيكَ، وَالْخُشُوعِ لَكَ، وَالذِّلَّة بَينَ يدَيكَ حَتَّى لا يشْهَدَ نَهَارُهُ عَلَينَا بِغَفْلَةٍ، وَلا لَيلُهُ بِتَفْرِيط**».

في هذه الفقرة من الدعاء، يطلب الإمام السجّادعليه السلام من الله تعالى أن يتفضّل عليه بالتوفيق لأداء بعض الأعمال والعبادات في أيام الشهر المبارك ولياليه. ويظهر أنّ تعبيرهعليه السلام حول النهار والليل في هذا الشهر ليس على حدٍّ سواء، ومن ذلك مثلًا أنّه اكتفى بطلب التوفيق للصيام في النهار، في حين أنّ طلباته للّيل كانت الصلاة، والتضرّع، والخشوع، والذلّة والمسكنة بين يدي الله. فلماذا هذا الاختلاف في التعبير؟

لعلّ منبع هذا الاختلاف موجودٌ في القرآن الكريم، ففي سورة «المزّمّل» فرّق الله تعالى بصراحة تامّة بين الواجبات والأعمال التي ينبغي أن تؤدّى في الليل والنهار: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ





تَرْتِيلًا ۝٤ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْءًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ۝٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾[١].

هذه التعابير تكشف عن حقيقة أنّ الله تعالى قد خلق الإنسان بحيث إنّه يكدّ من أجل أمور معاشه ولبقائه، ويسعى إلى تهيئة رزقه وما يحتاجه. ومن جهةٍ أخرى، فقد جعل طبيعة النهار بنحوٍ يكون مهيّأً لمثل تلك الأعمال والنشاطات. وبحسب تعبير القرآن، فالإنسان على امتداد النهار مثل سبّاح يسبح في بحر الكدّ والعمل. هذه الأعمال والنشاطات المذكورة لا تتيسّر للإنسان خلال الليل، أو إنّ الليل ليس مهيّأً لمثل هذه الأعمال. وبالطبع فهذا الوضع قد جُعل على أساس التدبير والتقدير الإلهي لحياة الإنسان في عالم الدنيا. نعم؛ قد يتيسّر للإنسان أحيانًا أن يقوم خلال النهار، وأثناء أعماله ونشاطاته، بمقدارٍ بسيط من العبادات المتنوّعة، كما قد يكون الليل أحيانًا مناسبًا للقيام ببعض النشاطات والخطوات المحدودة في مجال تدبير أمور المعاش وتهيئة أسباب الرزق، ولكن يبقى أنّ تكليف الإنسان الأساس في كلّ من هذين الزمانين يختلف عن الآخر. صحيحٌ أنّه يتوجّب علينا خلال النهار بعض العبادات، وأن نحافظ على ذكر الله دائمًا في قلوبنا[٢]، ولكن على أيّ حال، ثمّة عوامل منتوّعة، من قبيل الانشغالات، والإدراكات الحسّية، والمشاعر والانفعالات، والعوامل الاجتماعيّة،

---

(١) سورة **المزمّل**، الآيات ١ - ٧.

(٢) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (سورة **الجمعة**، الآية ١٠)؛ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ (سورة **الأعراف**، الآية ٢٠٥)؛ ﴿سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ (سورة **مريم**، الآية ١١).





الأفراح والأتـراح؛ جميع هذه العوامل تؤثّر في الإنسان خلال النهار فتستجلب إليها تركيزه وانتباهه، وتحول دون تركيزه وحضور قلبه في العبادات. وحتى في الحالات التي يوفّق فيها هذا العبد أحيانًا لأن يؤدّي خلال النهار عبادةً معيّنة مع التركيز، فإنّ العوامل المذكورة تحول دون تعمّقه في تلك العبادة. وبالتالي، فهذه العبادات لا تترك تأثيرًا في عمق روح الإنسان، أو يكون لها تأثيرٌ ولكن لا يدوم طويلًا، كان بعض هذه العوامل أحيانًا يشجّع الإنسان على العبادة خلال النهار؛ فعلى سبيل المثال، الجميع يذهب إلى المسجد، والجميع يصوم، والجميع يشارك في صلاة الجماعة؛ هذه العوامل الخارجيّة كلّها تؤدّي إلى حركة الإنسان وتجعل الإنسان مشتاقًا إلى العبادة حقيقةً فيُقدم عليها، ولكنّ هذه الحالات التي يعيشها المرء تكون في أغلب الأحيان سطحيّة وعابرة، اللهمّ إلا عند بعض الأفـراد النادرين من أصحاب الملكات الذين يستفيدون من هذه الفرص حتى خلال النهار.

وفي المقابل، فالليل فضاءٌ مناسب وفرصة تُغتنم، حيث يمكن للإنسان أن يستفيد منه ليتزوّد معنويًّا ويتجهّز لسفره. غياب الموانع النهاريّة الكثيرة والمتنوّعة وانعدامها في الليل، أو انخفاض نسبة تأثيرها في الإنسان، وبالتالي انعدام حالة الانفعال عنده وضعف دوافعه الماديّة والدنيويّة؛ جميع ذلك يؤدّي إلى أن يصبح فضاء الإنسان الجسمي والروحي أكثر تهيّؤًا للعبادة. وفي فضاءٍ كهذا، تشتدّ الدوافع المعنويّة في الإنسان فتهيّئه للتهجّد والعبادات الليليّة. في مثل هذه الظروف يصل المرء في تهيّؤه واستعداده للعبادة إلى حدّ أن يترك لذّة النوم فينهض من فراشه، ويبقى لدقائق، وأحيانًا لساعات، مشغولًا بالمناجاة بين يدي الحقّ تعالى. هؤلاء العباد الصالحون



يذكرهم القرآن الكريم في سياق التقدير ويعبّر عنهم ببعض التعابير إذ يقول: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١].

الحالات النهاريّة العابرة تعرض على الإنسان بشكلٍ أقلّ في الليل، فالسكوت وانعدام الضجيج وسائر العوامل الدخيلة، تحوّل الليل إلى فضاءٍ هادئٍ للإنسان، كما أنّ وجود الدوافع المعنويّة القويّة تهيّئ الإنسان للعبادات في الليل. كلّما قلّت العوامل الدخيلة وأصبح الدافع نحو العبادة أكبر وأقوى؛ كان تأثير العبادة في روح الإنسان ونفسه أعمق وأكثر بقاءً.

ثمّ إنّ مقامات الأفـراد في الاستفادة من هذه النعمة الإلهيّة الكبرى ليست على حدٍّ سواء. وقد ذكر الله تعالى في سورة المزّمّل المباركة بيانًا مفصّلًا عن تهجّدات رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقيامه الطويل في جوف الليل، هو وبعض أصحابه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾.

هذه العبادات الليليّة الطويلة تكشف عن دوافع قويّة وكبيرة، وتكشف كذلك عن استعداد روحيّ ونفسيّ عالٍ جدًّا. كلّما كانت الدوافع أكبر وكان الاستعداد عاليًا أكثر، كان تأثير العبادة في روح الإنسان ونفسه أعمق وأكثر بقاءً، تمامًا كأمواج البحر؛ كلّما كان عامل نشوء الموج أقوى وكان أصله من عمق البحر، كان هذا الموج أعلى وأقوى وله تأثير أكبر أيضًا. أمّا الأمواج التي تنشأ نتيجة رياحٍ بسيطة أو حركة بعض الأشياء، كالسفن، على سطح الماء، فهذه الأمواج تكون

---

(١) سورة **السجدة**، الآية ١٦.



خفيفةً جدًّا وعابرة؛ سرعان ما يزول أثرها. روح الإنسان تتأثّر أحيانًا ببعض العوامل السطحيّة، من قبيل الانفعالات والمشاعر الناشئة من الخجل والحياء، والهمّ والغم، أو في حالات تكون أعمق بقليل؛ من قبيل مشاعر الحبّ أو الكره. أمّا المعارف والصفات التي باتت في داخل الإنسان وترسّخت في روحه على هيئة ملكات، فلها أكثر العمق في الوجود البشري. ولهذا السبب، يكون تأثيرها أكبر بكثير، كما أنّ الأفعال التي تنشأ من هذه الملكات تكون أكثر تأثيرًا في روح الإنسان وأكثر بقاءً.

لعلّه لهذا السبب نجد أنّ الله تعالى في تشجيعه للنبيّ الأكرمﷺ وحثّه على العبادة والتهجّد في الليل؛ يعتبر أنّ تأثير القيام في الليل والتهجّد وصلاة الليل أكبر بكثير، وهو علامة الإيمان القويّ والعميق عند الإنسان: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾[1]. هذه العبادة نفسها إذا أُدّيت في النهار فلن يكون لها ذاك التأثير العميق، بسبب وجود الشواغل والعوامل المؤثّرة: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا﴾[2].

شهر رمضان المبارك، مع ما له من أهمّية، هو وقتٌ للعمل، حاله كحال سائر أوقات السنة، فالإنسان النشيط والمجدّ ينشغل بالعمل والنشاط حتى في أيّام هذا الشهر أيضًا. الجهاد، والزراعة، والتجارة، والدرس، والتبليغ؛ جميعها من جملة الأعمال اليوميّة التي تُمارس في جميع أيّام السنة. وطبعًا فإلى جانب تلك الأعمال اليوميّة الدائمة على

---

(١) سورة **المزّمّل**، الآية ٦.

(٢) سورة **المزّمّل**، الآية ٧.



امتداد السنة، هناك عملٌ أساسٌ وخاصٌّ بشهر رمضان المبارك؛ وهو الصيام. الصوم قوام العبادة اليوميّة في شهر رمضان، وفي هذا السياق، فالعبادات الليليّة التي تؤدَّى على امتداد السنة، لا بدّ من أن تودَّى في هذا الشهر المبارك بنحوٍ أفضل وأعمق.

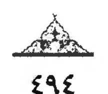
في هذه الفقرة من الدعاء يلفت الإمام السجّادعليه السلام إلى هاتين المسألتين ويطلب من الله تعالى أن يوفّقنا لهذين الأمرين المهمّين خلال أيّام الشهر المبارك ولياليه.

إظهار الذلّة بين يدي الله

يقولعليه السلام في تتمّة الدعاء: «**وَالْخُشُوعِ لَكَ، وَالذِّلَّةِ بَينَ يدَيك**».

تعبير «الذلّة بين يدي الله» من التعابير التي قلّما ورد ذكرها في المصادر الروائيّة والأدعية المأثورة عن الأئمّة المعصومينعليهم السلام، ولكن على أيّ حال، فجميع الشرائع والأديان الإلهيّة قد ورد فيها التأكيد على أن يُظهر الإنسان الذلّة أمام الله تعالى. حقيقةً، لماذا ورد التأكيد على هذا الأمر؟ ما هو النفع الذي يعود على الإنسان؟

الإجابة الإجمالية عن هذا السؤال هي أنّ الشعور بالذلّة، ومن ثمّ إظهارها، بين يدي الله؛ هو أفضل تعبيرٍ عن العبوديّة أمام الله تعالى، ولذا نجد أنّ هذا الشعور وهذا الإظهار للخشوع والخضوع والذلّة بين يدي الله موجودٌ بكثرة في كلمات الأنبياء السابقين وفي سيرتهم. الدرجات العالية التي نالها هؤلاء العظماء هي لهذا السبب، فكلّما كانوا في محضر العظمة الإلهيّة يعبّرون عن شعورهم بالعجز والذلّة





بشكلٍ أكبر؛ كان الله تعالى يُظهر لهم رضاه عنهم مادحًا إيّاهم على ذلك، ومانحًا إيّاهم أفضل الأجر والثواب.

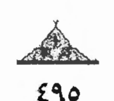
يُحدّثنا الإمام محمّد الباقرعَلَيْهِ السَّلَامُ حول المقامات المعنويّة للنبيّ موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ حيث ورد في الحديث: قَالَ أَبُو جَعْفَرعَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَوْحَى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى مُوسَى بن عِمْرَانعَلَيْهِ السَّلَامُ: «أَتَدْرِي لِمَ اصْطَفَيْتُكَ بِكَلَامِي دُونَ خَلْقِي؟ قَالَ مُوسَى: لَا يَا رَبِّ! قَالَ: يَا مُوسَى! إِنِّي قَلَّبْتُ عِبَادِي ظَهْرًا وَبَطْنًا فَلَمْ أَجِدْ فِيهِمْ أَحَدًا أَذَلَّ نَفْسًا لِي مِنْكَ يَا مُوسَى؛ إِنَّكَ إِذَا صَلَّيْتَ وَضَعْتَ خَدَّيْكَ عَلَى التُّرَابِ»[١].

من المعروف أنّ النبيّ موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ كان بعد إقامته الصلاة يسجد سجدة الشكر ويعفّر خديه بالتراب[٢]. صحيحٌ أنّ وضع الجبين على التراب في السجود هو غاية التذلّل بين يدي الله، ولكن على أيّ حال، فهو عملٌ رائج بين جميع المؤمنين، وأمّا الذي كان يميّز موسى بن عمرانعَلَيْهِ السَّلَامُ فهو سجوده بعد الصلاة شكرًا لله على توفيقه لأداء الصلاة. حينها ولكي يؤدّي موسىعَلَيْهِ السَّلَامُ هذا الشكر على أحسن وجه ويعبّر فيه عن منتهى التذلّل والخضوع بين يدي الحق تعالى؛ فقد كان يضيف إلى وضع الجبين تعفير خدّيه بالتراب أيضًا. ولأجل هذا ظلّ هذا العمل المستحبّ المأثور عنهعَلَيْهِ السَّلَامُ. هذا العمل المهمّ والقيّم الذي يُرضي الله تعالى، يكشف عن كمال معرفته بأنّه ليس بشيء أمام عظمة الله تعالى، حيث كان يبرز هذه المعرفة من خلال هذا الفعل.

---

(١) أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ١، ص ٣٣٢.

(٢) راجع: محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٨٦، الباب ٤٤، «سجدة الشكر وفضلها»، ص ١٩٩.





وكذلك ورد في روايةٍ أخرى عن الإمام جعفر الصادقعليه السلام بيانٌ حول المناجاة والحوار الذي دار بين الله تعالى وهذا النبيّ الإلهيّ العظيم:

عَنِ الْمُفَضَّلِ بن عُمَرَ عَنِ الصَّادِقِ قَالَ: «كَانَ فِيمَا نَاجَى اللَّهُ بِهِ مُوسَى بن عِمْرَانَ أَنْ قَالَ له: يا ابْنَ عِمْرَانَ كَذَبَ مَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يحِبُّنِي فَإِذَا جَنَّهُ اللَّيلُ نَامَ عَنِّي، أَلَيسَ كلُّ مُحِبٍّ يحِبُّ خَلْوَةَ حَبِيبِهِ؟ هَا أَنَا ذَا يا ابْنَ عِمْرَانَ، مُطَّلِعٌ عَلَى أَحِبَّائِي، إِذَا جَنَّهُمُ اللَّيلُ حَوَّلْتُ أَبْصَارَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَثَّلْتُ عُقُوبَتِي بَينَ أَعْينِهِمْ يخَاطِبُونِّي عَنِ الْمُشَاهَدَةِ وَيكلِّمُونِّي عَنِ الْحُضُورِ. يا ابْنَ عِمْرَانَ، هَبْ لِي مِنْ قَلْبِك الْخُشُوعَ، وَمِنْ بَدَنِك الْخُضُوعَ، وَمِنْ عَينَيك الدُّمُوعَ، وَادْعُنِي فِي ظُلَمِ اللَّيلِ، فَإِنَّك تَجِدُنِي قَرِيبًا مُجِيبًا»[١].

وكذلك نُقل عن النبيّ عيسىعليه السلام أنّ الله تعالى ذكر له في حواره معه أنّ رضاه وسروره في أن يظهر ذلّته وهوانه بين يديه:

عَنِ ابن فَضَّالٍ رَفَعَهُ قَالعليه السلام: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِعِيسَىعليه السلام: يَا عِيسَى! اذْكُرْنِي فِي نَفْسِك أَذْكُرْك فِي نَفْسِي، وَاذْكُرْنِي فِي مَلَئِك أَذْكُرْك فِي مَلَإٍ خير مِنْ مَلَإِ الْآدَمِيِّينَ. يَا عِيسَى! أَلِنْ لِي قَلْبَكَ وَأَكْثِرْ ذِكْرِي فِي الْخَلَوَاتِ، وَاعْلَمْ أَنَّ سُرُورِي أَنْ تُبَصْبِصَ إِلَيّ وَكُنْ فِي ذَلِكَ حَيًّا وَلَا تَكُنْ مَيِّتا»[٢].

---

(١) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ١٣، ص ٣٢٩.

(٢) أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٥٠٢.





المقصود من «البصبصة» هو إظهار وإبـراز سلوكٍ ناتجٍ عن الخوف من الله، مقرونٍ في الوقت نفسه بالرجاء والأمل به؛ فهي حالة شبيهةٌ بالتملّق والمداهنة، كما يفعل الكلب حين يطلب الطعام أو يريد استلامه، فتراه ينبطح أرضًا أمام صاحبه، ويحرّك رأسه، ويهزّ ذنبه، ويوجّه رأسه إلى الأرض؛ فجميع هذه الحركات تعبّر عن خضوعه أمام صاحبه. وهنا يخاطب الله تعالى نبيّه العظيم فيذكر له أنّ رضاه وسروره إنّما يكونان بأن يُظهر أمام الله تعالى سلوكًا مشابهًا لذلك، ليعبّر من خلاله عن عجزه وضعفه وذلّته، وفي الوقت نفسه عن وفائه له واعترافه بحقّه.

هذا النحو من الأفعال يظهر ويبرز الذلّة والمسكنة أمام الله تعالى، ويعتبر أفضل معبّر عن العبوديّة. إذا رأى المرء أنّه لا يساوي شيئًا أمام الله تعالى، ولم يرَ لنفسه أيّ استقلالٍ عنه، وآمن بأنّه لا يملك جميع ممتلكاته وإنّما جميعها منه وله؛ فهذه المعرفة ستمنح هذا المرء مقام الخشوع والإحساس بالذلّة في مقابل الله تعالى. في هذه الحالة، سيشعر أنّه في أحقر مراتب الذلّة في مقابل أعزّ موجودٍ في العالم.

في هذه الفقرة من الدعاء، طلب الإمام السجّاد من الله تعالى ذاك المقام القيّم؛ المقام الذي يشغلنا بالعبادة والطاعة على امتداد شهر رمضان المبارك: «**اللَّهُمَّ اشْحَنْهُ بِعِبَادَتِنَا إِيـاكَ، وَزَيِنْ أَوْقَاتَهُ بِطَاعَتِنَا لَك**»، ويملأ ليلنا ونهارنا بالتضرّع والخشوع والخضوع وإظهار الذلّة والمسكنة بين يدي الله تعالى: «**وَأَعِنَّا فِي نَهَـارِهِ عَلَى صِيَـامِـه، وَفِي لَيْلِهِ عَلَى الصَّـلاَةِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْكَ وَالخُشُوعِ لَكَ، وَالذِّلَّةِ بَيْنَ يَدَيْكَ**»؛ بحيث لا يستطيع أيّ آنٍ من أيّام هذا الشهر ولياليه أن





يشهد علينا بالغفلة والإعراض عن الله المتعال، أو بالوهن في العبادة والطاعة: «**حَتَّى لا يشْهَدَ نَهَارُهُ عَلَينا بِغَفْلَةٍ، وَلا لَيلُهُ بِتَفْرِيط**».

هـذا، ومن الـضـروريّ أن نلتفت إلى هذه المسألة الظريفة والدقيقة؛ وهي أنّ فهم هذه الحقيقة وإدراك هذا المعنى الراقي واللطيف الذي ينبع من المعرفة التوحيديّة الأصيلة؛ هو بذاته من الألطاف الإلهيّة التي لا يوفّق لها كُلُّ شخص. ولهذا السبب، نجد بعض المتنوّرين المتغرّبين الذين ارتووا من مشرب المدرسة الإنسانويّة المنحرفة، يتّخذون موقفًا معارضًا لهذه الرؤية التوحيدية الأصيلة التي يرون أنّها تُنافي عزّةَ الإنسان؛ فبحسب اعتقادهم الخاطئ، ينبغي للإنسان ألّا يشعر بالذلّة حتى في مقابل الله تعالى! هذا الفكر الإنسانويّ الخاطئ عندما يتقدّم بالمرء أكثر في هذا الطريق المنحرف قد ينتهي به الأمر إلى الاعتقاد بأنّ للإنسان حقوقًا، وأنّه لا بدّ من أن يطالب بحقوقه، ومنها حقوقه التي يطالب بها الله تعالى ليأخذها منه!

المقارنة بين هاتين الرؤيتين تحمل كثيرًا من العبر للإنسان الفهيم والعاقل، وفي الوقت نفسه تعتبر معيارًا مهمًّا لاختبار مستوى معرفة الإنسان بالله وعبوديّته له ﷻ.





الجلسة السادسة والعشرون:

موقع الصالحين الحالي والمستقبلي في القرآن





«اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنَا فِي سَائِرِ الشُّهُورِ وَالْأَيام كَذَلِكَ مَا عَمَّرْتَنَا، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِين، ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۞ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾»

موقع الصالحين الحالي والمستقبلي في القرآن

ما سأله الإمام السجّاد عليه السلام إلى الآن كان مسائل طلبها من الله تعالى بخصوص شهر رمضان المبارك. أمّا في التتمّة، وفي العبارات الأخيرة من الدعاء، فيطلب عليه السلام من الله تعالى أن يكتب لنا جميع ما طلبناه منه في هذا الشهر المبارك؛ يكتبه لبقيّة السنة وما دمنا أحياء، حتى ندخل بذلك في زمرة عباده الصالحين الذين مدحهم في آيات قرآنه الكريم.

في الآيـات الأولـى من سورة المؤمنين المباركة، نجد أنّ الله تعالى قد مدح عباده المؤمنين والصالحين من خلال تعابير مختلفة، وبذكر صفاتهم الحسنة والبارزة؛ صفاتٍ من قبيل: الخشوع في الصلاة، والإعراض عن اللغو والعبث، وإيتاء الزكاة، والعفّة والنقاء، والأمانة،





والوفاء بالعهد، ومراعاة أوقات الصلاة وحفظها وشرائطها[١]. ثمّ بعد أن ذكر هذه الخصال الحسنة ذكر أنّ هذه الفئة من العباد المؤمنين هم الذين سيرثون جنّة الفردوس ويبقون خالدين فيها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾[٢].

والإمــام السجّادعليه السلام في هـذه الفقرة من الدعاء يشير إلى هاتين الآيتين الأخيرتين، ويسأل الله تعالى أن يجعلنا نحن أيضًا في زمرة أولئك العباد المؤمنين والصالحين الذين يرثون جنّة الفردوس ويسكنون فيها أبدًا.

ثمّ يشيرعليه السلام إلى آياتٍ أخرى من هذه السورة تبيّن صفاتٍ أخرى للعباد المؤمنين:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[٣].

---

(١) ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝٤ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (سورة **المؤمنون**، الآيات ١ - ١١): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ (سورة **المؤمنون**، الآيات ٥٧ - ٦١).

(٢) سورة **المؤمنون**، الآيتان ١٠ - ١١.

(٣) سورة **المؤمنون**، الآيات ٥٧ - ٦١.



وهنا أيضًا يكتفي عليه السلام بذكر جزءٍ من هذه الآيات، وهو الآيتين الأخيرتين منها: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ۝٦٠ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾.

يطلب عليه السلام من الله أن يجعلنا من عباده المؤمنين الذين يؤدّون واجب العبوديّة تجاه الله على أحسن وجه، والذين يخافون من الله ومن يوم القيامة، ولا يقصّرون في فعل الخير بل يسبقون الآخرين إليه.

يستفيد الإمام السجّاد عليه السلام هنا من مجموعة آيات تبيّن صفات المؤمنين، ومع ذكره آيتين من الآيات المذكورة يشير إلى هذه النكتة الدقيقة؛ وهي أنّ الله تعالى قد ذكر في البداية العاقبة الحسنة والخاتمة السعيدة لعباده المؤمنين، حيث اعتبر أنّهم أصحاب أفضل مراتب الجنّة وهم ورثتها الدائمون: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾، ثمّ ذكر حالات وأوصاف هؤلاء العباد المؤمنين والصالحين في هذا العالم، مبيّنًا أنّهم، على الرغم من تأديتهم واجب العبوديّة على أحسن وجه، فمع ذلك يعيشون في قلوبهم الخوف من الرجوع إلى الله والوقوف أمامه؛ إذ لا يعلمون ماذا سيحلّ بهم يوم القيامة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾.

وكأنّهم لا يثقون بما قاموا به، ويحتملون أن يكون ثمّة شائبة أو عدم إخلاصٍ فيه، ولذا فهم قلقون من ألّا تُقبل أعمالهم عند الله تعالى أو أن تُحبط تلك الأعمال.

بعد ذلك يشير عليه السلام إلى هذه الصفة الحسنة عند المؤمنين؛ وهي أنّهم يسارعون في أعمال الخير وفي سعادتهم، ويسابقون الآخرين في ذلك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾[١].

أي إنّ من الخصال الحسنة عند العباد المؤمنين والصالحين هي أنّهم يغتنمون الفرص ويبادرون مباشرةً إلى الأعمال الصالحة وفعل الخير بمجرّد أن تتهيّأ الأسباب والظروف المناسبة، بحيث إنّهم، أولًا، يقومون من تلقاء أنفسهم، ودون الالتفات إلى فعل الآخرين؛ بتقديم فعل الخير على سائر الأمور فيبادرون بسرعة إلى الإتيان به. وثانيًا إنّه وإنْ كان الآخرون في طريقهم إلى فعل الخير، فإنّهم يسبقونهم إليها أيضًا.

المسألة الجديرة بالاهتمام هي أنّ أيًّا من الآيات الثلاث التي وردت في كلام الإمام عليه السلام لم يتضمّن كلامًا تحت عنوان أوصاف «الصالحين»، بل جميع الأوصاف الواردة في هذه السورة إنّما جاء تحت عنوان أوصاف «المؤمنين»: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ...﴾. ولكنّ الإمام السجّاد عليه السلام في إشارته إلى هذه الأوصاف، يطلب من الله أن يجعلنا من عباده الصالحين: «**اللَّهُمَّ... وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**».

مع التدقيق في آياتٍ أخرى من القرآن الكريم يتّضح سرّ هذه المسألة؛ إذ إنّ لعباد الله «الصالحين» أوصافٌ أُشير إليها في كثيرٍ من

---

(١) هذه الآية مسبوقة بآياتٍ من السورة نفسها تبيّن بعض حالات الكفّار ومحبّي الدنيا، حيث يقول جلّ وعلا فيها: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤ أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ (سورة **المؤمنون**، الآيات ٥٤ - ٥٦).



آيات القرآن، ومن جملتها الآية ١١٤ من سورة آل عمران المباركة. طبعًا فسياق الكلام في هذه الآية يدور حول أهل الكتاب، ولكن من خلال دراسة تاريخ أهل الكتاب، وبخاصّة ما ورد في القرآن، نرى أنّهم لم يكونوا جميعًا على حدٍّ سواء: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾[1]؛ مجموعةٌ منهم مؤمنون بالله واليوم الآخر حقيقةً، وهم في حال عبادة دائمة على أساس أحكام دينهم وكتابهم. وبالتالي، فعندما يطّلعون على حقائق

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١١٣. طبعًا فسياق الكلام في هذه الآية يدور حول أهل الكتاب، ولكنّ عادة القرآن الكريم في مقام بيانه لأيّ قاعدة كلّيّة أو ذكره لمسألةٍ ما حول جماعةٍ معيّنة؛ أنّه لا يتجاهل الاستثناءات. على سبيل المثال، عندما يذكر مجموعةً ختم الله على قلوبهم، نتيجةً لذنوبهم وعنادهم ولجاجهم، بحيث لم يعد بالإمكان هدايتهم: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ...﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٧)؛ فهو يذكر أيضًا الاستثناء من هذه المجموعة: ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (سورة **النساء**، الآية ١٥٥). آياتٌ كثيرة في القرآن وردت في ذمّ أهل الكتاب، وبخاصّة في ذمّ وتوبيخ وتأنيب بني إسرائيل؛ حيث تكشف عن كثيرٍ من أفعالهم القبيحة: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ٩١)؛ أو تذكر مسخهم إلى قردة نتيجةً لمعاصيهم، ونقضهم للعهود، و... وفي الوقت نفسه، كان من بين اليهود والنصارى عدّةٌ من أهل الصلاح أيضًا؛ تلك العدّة، على قلّتها، آمنت بمجرّد سماعها لكلام النبيّ الأكرمﷺ ومعرفتها بالإسلام. هذه العدّة يستثنيها القرآن الكريم ويمدحها في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ (سورة **القصص**، الآية ٥٤)؛ مضاعفة أجرهم لأجل أنّهم آمنوا أولًا، وثانيًا لأنّهم شهدوا على حقّانيّة نبيّ الإسلامﷺ فكانوا بذلك سببًا في أن يهتدي آخرون أيضًا. والقرآن يشير إلى هذه المسألة وأهمّيتها: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ (سورة **الشعراء**، الآية ١٩٧). في موضعٍ آخر، يبيّن القرآن الكريم فئتين من أهل الكتاب ذاكرًا بعض أوصافهما: فئةٌ يمكن الاعتماد عليهم والثقة بهم بشكلٍ كامل: ﴿مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ٧٥)؛ وفئةٌ أخرى لا يمكن الوثوق بهم حتى بأن تستأمنهم على دينارٍ واحد، ولو استأمنتهم عليه لما أرجعوه لك: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ٧٥). بناءً عليه، فأهل الكتاب ليسوا جميعًا على حدٍّ سواء: ﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ١١٣).



الأمور ويرون أنّها تتطابق مع الأمر الإلهي فسرعان ما يسلّمون. ولهذا السبب، يقدّم القرآن الكريم هذه الفئة بعنوان «الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر» حيث يقول: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾[١].

من جملة ميزات هذه المجموعة هي أنّهم مثل المؤمنين المذكورين في سورة المؤمنون: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾. والقرآن الكريم يعتبر هذه الفئة من أهل الكتاب التي تتحلّى بهذه الصفات والخصال الحسنة والراجحة؛ يعتبرهم من «الصالحين»: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

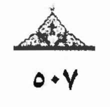
استعمال كلمة «الصالحين» في القرآن كثير؛ أحيانًا يقدّم بعض الأنبياء عليهم السلام بعنوان «الصالحين»[٢]. في مواضع أخرى يعتبر مجموعةً معيّنة «مع الصالحين»، أي كأنّهم ليسوا صالحين بحدّ ذاتهم، ولكنّهم مع الصالحين بسبب الأعمال الصالحة التي يؤدّونها: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٣].

---

(١) سورة **آل عمران**، الآية ١١٤.

(٢) مثل إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة **البقرة**، الآية ١٣٠)، ويحيى عليه السلام ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ٣٩) وعيسى عليه السلام ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ٣٩)، ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (سورة **الأنعام**، الآية ٨٥) وغيرهم...

(٣) سورة **النساء**، الآية ٦٩.



في هذه الآية الكريمة يذكر الله تعالى أربع فئات هي بالأصل محلّ عناية إلهيّة خاصّة؛ وهم: «النَّبِيِّينَ»، «وَالصِّدِّيقِينَ»، «وَالشُّهَدَاءِ»، «وَالصَّالِحِينَ». وأمّا البقيّة فهم تابعون لهذه الفئات، وفي حال كان لديهم في ذواتهم الاستعداد اللازم فإنّهم يُلحَقون بهم. هذا المعنى تفيده تعابير من قبيل: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾[1] أو ﴿وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾[2].

بناءً عليه، فأهل الجنّة وأهل النجاة ليسوا جميعًا على حدّ سواء؛ بعضهم تكون له الجنّة بمنزلة بيته، فمع رحلتهم من عالم الدنيا والبرزخ يدخلون إلى بيتهم؛ لأنّ الجنّة إرثهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ﴾، وعندما يدخلون إلى ذلك البيت يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾[3].

أمّا سائر الناس، فمع تحقيقهم لشرط الإيمان بالله والأنبياء والقيامة، وأدائهم لواجباتهم الدينية؛ فإنّهم يُلحَقون بأصحاب الجنّة الأساسيّين؛ أي الفئات الأربع المذكورة، ويُسمَح لهم بأن يعيشوا معهم: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾[4].

بنظر كثيرٍ من العلماء ـ ولعلّ المرحوم الشيخ البهائي في كتاب **مفتاح الفلاح** كان أوّل من التفت إلى هذه المسألة[5] ـ فالمقصود

---

(١) سورة **الطور**، الآية ٢١.

(٢) سورة **الرعد**، الآية ٢٣.

(٣) سورة **الزمر**، الآية ٧٤.

(٤) سورة **النساء**، الآية ٦٩.

(٥) قد وردت هذه المسألة في عددٍ من الروايات المنقولة عن أمير المؤمنين، فراجع: **بحار الأنوار**



من ﴿ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[1] في سورة الحمد المباركة هم المؤمنون الذين يُلحَقون بسبب إطاعتهم لله والرسول ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾؛ يُلحَقون بأصحاب الجنّة الأساسيّين؛ أي ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾.

في هذه الفقرة من الدعاء، يصل طلب الإمام السجّادعليه السلام من الله حتى إلى أبعد من هذه المرتبة أيضًا، ففي الفقرات الأخيرة من الدعاء يصلعليه السلام إلى نقطة الذروة، حيث يسأل الله تعالى هذا الأمر البالغ الأهمّيّة: «**اللَّهُمَّ وَاجْعَلْنَا فِي سَائِرِ الشُّهُورِ وَالْأَيـامِ كَذَلِكَ مَا عَمَّرْتَنَا، وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِين**».

لم يقلعليه السلام: «واجعلنا مع الصالحين»، بل قال: «**وَاجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الصَّالِحِين**». بحسب تعبيره، فإذا عشنا وتعبّدنا بنحوٍ يتلطّف الله علينا فيه بجميع التوفيقات التي طلبناها منه في شهر رمضان المبارك، فيوفّقنا لها لا في هذا الشهر فقط؛ بل حتى في سائر أيّام السنة، وإذا جعلنا عبادتنا وطاعتنا لله تعالى شعارًا لنا وعلى رأس قائمة أعمالنا؛ فحينها سنصل إلى مرتبةٍ من العبوديّة لله تجعلنا في يوم القيامة لا نجالس أصحاب الجنّة الأساسيّين (مع الصالحين) فحسب، بل نكون من «الصالحين» أيضًا. **بعبارةٍ أخرى:** لا نكون ضمن الذين يُتبعونهم ويلحقونهم ويجعلونهم محلًّا لشفاعة الصالحين، بل نكون من الصالحين أنفسهم ومن أصحاب الجنّة الأساسيّين. هذا هو

الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار، ج ٢٤، ص ١٠، ج ٦٥، ص ٧٨، ج ٧١، ص ٢٧٧، ج ٨٩، ص ٢٥٥.

(١) سورة **الحمد**، الآية ٧.



مقام الأنبياء؛ فقد ذكر القرآن الكريم أنّ هذا المقام خاصٌّ بالأنبياء الكبار مثل إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وبالشهداء والصدّيقين وعباد الله الصالحين.

العباد الصالحون هم الذين يعيشون عبوديّة الله حقيقةً، فيضعون جميع أمورهم في اختيار الله متمحّضين في إطاعته جلّ وعلا. مثل هؤلاء العباد يقعون في رتبةٍ واحدة مع مثل تلك الفئات المذكورة التي يجتبيها الله تعالى. وبحسب تعبير القرآن، فمن جملة ميزات الصالحين أنّ الله تعالى هو الذي يتولّى أمورهم: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1].

هـذه الآيـات القرآنية وكـلام الإمـام السجّاد عليه السلام يشيران في الحقيقة إلى مرتبة «التوحيد»؛ فإذا وصل المرء إلى مقام الوحيد؛ أي جعل جميع أموره بيد الله تعالى، ووجّه جميع مسائله إليه وصرف كلّ طاقته في طاعته؛ فالله تعالى يُدخل هذا الشخص وأمثاله تحت ولايته، وبالتالي يكون من مصاديق حديث قرب النوافل[2]؛ أي إنّ الله تعالى في مثل هذا المقام، وبحسب تعبير القرآن، يصبح وكيل هذا الشخص ووليّه الذي يتولّى جميع أموره. ولذا يخاطب الله تعالى نبيّه الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيوصيه بأن يتّخذ الله الواحد الأحد وكيلًا ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[3].

---

(١) سورة **الأعراف**، الآية ١٩٦.

(٢) «إِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّافِلَةِ حَتَّى... كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ...»، وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الحديث من قبل.

(٣) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ (سورة **المزمّل**، الآيتان ٨ - ٩).





إنّ اللطافة والدقّة الموجودة في هذه الآية جديرة بالاهتمام؛ فقيمة واعتبار عباد الله المؤمنين الذين يصلون إلى مقام التوحيد ويفوّضون تمام أمورهم إلى الله تعالى، رفيعةٌ عند الله تعالى إلى حدّ أنّه بنفسه يتنزّل ليتولّى، كالوكيل، إدارة أمورهم. هذا التنزّل لأجل أنّ مقام الوكيل غالبًا ما يكون في مستوى مقام الموكِّل أو أدنى منه. وهنا يقول الله تعالى لعبده: اجعلني وكيلًا لك. في القرآن الكريم والأحاديث القدسيّة تعابير متنوّعة، بعضها تعابير شديدة لحثّ العباد وتشجيعهم على التوكّل على الله واتّخاذه وكيلًا لهم؛ منها: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾[1]؛ فهل تتصوّر أنّي لا أستطيع تدبير أمورك؟ وكذلك في بعض الموارد، وفي سياق بيان صفات المؤمنين وخصالهم الحسنة والجميلة، يذكر أنّهم «يتوكّلون على الله»: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾[2]. كما يقول إذا كان لا بدّ من الاعتماد والتوكّل على شخصٍ ما، فذاك المتوكَّل عليه هو الله فقط: ﴿وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾. وفي بعض الموارد، يعلّق الإيمان الحقيقي للأفراد بتوكّلهم عليه: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾[3].

هذا التكرار وهذه التأكيدات لأجل أن يكون الإنسان موحّدًا حقيقيًّا في العمل فيتوكّل على الله تعالى. وبحسب تعبير الإمام الصادق عليه السلام في حديثه الشريف عن «حقيقة التوكّل»، فعلى الإنسان

---

(١) سورة **الزمر**، الآية ٣٦.

(٢) سورة **آل عمران**، الآية ١٢٢.

(٣) سورة **يوسف**، الآية ٦٧.





أن يعتبر نفسه في مقابل إرادة الله مثل ميتٍ قد كبّروا عليه التكبيرات الخمس لصلاة الميّت، وقد ودّع أمانيه كلّها توديع الموت للحياة[١].

إنّ لجوء المرء إلى هذا وذاك، مع تعليق الآمال عليهم في قضاء الحاجات، يكشف عن عدم اعتقاده أو عن تشكيكه وضعف اعتقاده بهذه الحقيقة التي تمّ التأكيد عليها في الآيات والروايات. نعم؛ أحيانًا في بعض الحالات، وكما يعبّر القرآن، عندما ييأس المرء من الجميع ولا يبقَ له أيّ حيلة أو وسيلة، فسوف يقول: أملي بالله تعالى وقد فوّضته كلّ أمري. وحتى في هذه اللحظة أيضًا تراه يكتفي بالكلام دون أن يكون له قصدٌ جادٌّ وراء ذلك.

أن يكون المرء موحّدًا ومتوكّلًا حقيقيًّا فهذا يقتضي منه أن يلجأ إلى الله تعالى، قبل أيّ شخصٍ آخر، ليفوّض أموره إليه. أمّا إذا لم يكن كذلك، فهذا المرء جديرٌ بالعقوبة، والله تعالى قد أعدّ عقابًا أليمًا في هذه الدنيا لكلّ من يتعلّق بغير الله معلّقًا آماله عليه. هذه المضامين الراقية ينقلها الإمام الصادق عليه السلام ضمن حديثٍ قدسيّ هذا نصّه:

«وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَمَجْدِي وَارْتِفَاعِي عَلَى عَرْشِي لَأَقْطَعَنَّ أَمَلَ كُلِّ مُؤَمِّلٍ [مِنَ النَّاسِ] غَيرِي بِالْيأْسِ، وَلَأَكْسُوَنَّهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَأُنَحِّيَنَّهُ مِنْ قُرْبِي، وَلَأُبَعِّدَنَّهُ مِنْ فَضْلِي...»[٢].

---

(١) قَالَ الصَّادِقُ عليه السلام: «...فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَكُونَ مُتَوَكِّلًا لا مُتَعَلِّلًا فَكَبِّرْ عَلَى رُوحِكَ خَمْسَ تَكْبِيرَاتٍ وَوَدِّعْ أَمَانِيَّكَ كُلَّهَا تَوْدِيعَ الْمَوْتِ لِلْحَيَاةِ» (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار**، ج ٦٨، ص ١٤٧).

(٢) عَنِ الْحُسَينِ بن عُلْوَانَ قَالَ... عَن أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَمَجْدِي وَارْتِفَاعِي عَلَى عَرْشِي، لَأَقْطَعَنَّ أَمَلَ كُلِّ مُؤَمِّلٍ [مِنَ النَّاسِ] غَيرِي بِالْيأْسِ، وَلَأَكْسُوَنَّهُ ثَوْبَ الْمَذَلَّةِ عِنْدَ النَّاسِ، وَلَأُنَحِّيَنَّهُ مِنْ قُرْبِي، وَلَأُبَعِّدَنَّهُ مِنْ فَضْلِي، أَيُؤَمِّلُ غَيرِي فِي

في هذا الحديث القدسيّ الشريف يذكر الله تعالى أكثر من قَسم شديد وعظيم، وهذه الأقسام تكشف عن عظيم أهمّيّة هذا الموضوع، ثمّ يشتكي الله تعالى من عباده فيقول: يتصوّر عبدي أنّ الآخرين يدبّرون أموره والحال أنّ مفاتيح السماوات والأرض بيدي، خزائن السماوات والأرض تحت اختياري، وجنود السماوات والأرض طوع إشارتي؛ فلماذا لا يتوجّهون إليّ؟

العبد المؤمن والصالح هو الذي لا يتوجّه في موضع الحاجة إلّا إلى الله. على أنّ صلاح المرء أمرٌ يختلف عن قيامه بالعمل الصالح؛ فما أكثر الأفراد الذين يوفّقون للقيام بالعمل الصالح، ولكن لا يصحّ وصفهم بالأناس الصالحين، بل حتى الإنسان الفاسق قد يوفّق أحيانًا للقيام بالعمل الصالح أيضًا! «العبد الصالح» هو الشخص الذي ترسّخت في وجوده صفة الصلاح والسداد، وتحلّى بملكة الصلاح بحيث تكون شخصيّته شخصيّة صالحة. شخصٌ كهذا يكون بعيدًا كلّ البعد عن الفسق والفجور، ويكون كلّ توكّله وأمله معلّقًا بالله تعالى، فهو يرى نفسه عبدًا لله بكلّ معنى الكلمة. عبدٌ كهذا قد وعد الله بأن يعينه ويتولّى تدبير أموره.

الشَّدَائِدِ وَالشَّدَائِدُ بِيدِي؟ وَيرْجُو غَيرِي وَيقْرَعُ بِالْفِكْرِ بَابَ غَيرِي وَبِيدِي مَفَاتِيحُ الْأَبْوَابِ وَهِي مُغْلَقَةٌ؟ وَبَابِي مَفْتُوحٌ لِمَنْ دَعَانِي، فَمَنْ ذَا الَّذِي أَمَّلَنِي لِنَوَائِبِهِ فَقَطَعْتُهُ دُونَهَا؟ وَمَنْ ذَا الَّذِي رَجَانِي لِعَظِيمَةٍ فَقَطَعْتُ رَجَاءَهُ مِنِّي؟ جَعَلْتُ آمَالَ عِبَادِي عِنْدِي مَحْفُوظَةً، فَلَمْ يرْضَوْا بِحِفْظِي، وَمَلَأْتُ سَمَاوَاتِي مِمَّنْ لا يَمَلُّ مِنْ تَسْبِيحِي، وَأَمَرْتُهُمْ أَنْ لا يُغْلِقُوا الْأَبْوَابَ بَينِي وَبَينَ عِبَادِي، فَلَمْ يثِقُوا بِقَوْلِي...»
(أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ٢، ص ٦٦) .



الجلسة السابعة والعشرون:

أهمّيّة الصلاة على النبيّ وأهل البيت (ع) وحقيقتها

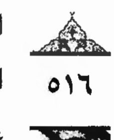


«اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّد وَآلِهِ، فِي كُلِّ وَقْت وَكُلِّ أَوَان وَعَلَى كُلِّ حَال عَـدَدَ مَا صَلَّيْتَ عَلَى مَنْ صَلَّيْتَ عَلَيْهِ، وَأَضْعَافَ ذَلِكَ كُلِّهِ بِالاضْعافِ الَّتِي لا يُحْصِيهَا غَيْرُكَ، إنَّكَ فَعَّالٌ لِمَا تُرِيدُ»

أهمّيّة الصلاة على النبيّ وأهل البيت عليهم السلام

مضمون الصلوات على النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وعلى أهل بيته الكرام عليهم السلام موجودٌ بكثرة في الأدعية، وبخاصّة أدعية **الصحيفة السجّاديّة**، ولكنّ هذا التعبير البليغ والمليء بالمعاني الذي يذكره الإمام السجّاد عليه السلام في هذه الفقرة من الدعاء، يُعدّ نادرًا في الحقيقة. هذا التعبير مثل أن يقال: صلواتٌ وسلامٌ بمقدار العدد الذي لا نهاية له؛ العدد الذي لا يمكن عدّه.

«الصلوات» نوعٌ من الدعاء والرحمة الإلهيّة التي نطلبها من الله تعالى للوجود المقدّس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الكرام عليهم السلام. ويقال إنّ الصلوات من الله تعالى «رحمة»، ومن الملائكة «تزكية»، ومن المؤمنين «دعاء». وليس واضحًا بالنسبة إلينا ما هي حقيقة هذه



الرحمة ومن أيّ سنخٍ هي. ومع هذا، فمن الواضح أنّنا عندما نردّد الصلوات نطلب من الله تعالى أن يُنزل رحمةً خاصّةً اسمها «الصلوات» على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام.

للرحمة الإلهيّة أنـواعٌ متعدّدة وواسعة وكثيرة لا تنحصر في الإنـسـان، بل تشمل الموجودات غير الإنسانيّة أيضًا. «الصلاة» و«السلام» نوعٌ من التحيّة المقرونة باحترامٍ وتقديرٍ خاصّ. **بعبارةٍ أخرى**: فهو سلامٌ خاصٌّ ومرتبة أعلى من سائر أنواع التحيّات. ولكن حقيقةً! ما هو معنى «السلام والتحيّة»؟ وطلبنا الذي نتوجّه به إلى الله حين ترديد الصلوات بأيّ معنى هو؟ وما الذي نطلبه من الله لأجل النبيّ وأهل البيت عليهم السلام بالحقيقة؟

إلقاء التحيّة أمرٌ جعليّ واعتباري يتمّ في العرف من أجل التعبير عن احترام الناس بعضهم لبعض. وبطبيعة الحال، فالشعوب والأمم المختلفة ليست على نحوٍ واحد في طريقة تعبير الناس عندها عن احترام بعضهم لبعض؛ فبعض الشعوب، على سبيل المثال، ترفع قبّعاتها لأجل هذا الأمر، شعوبٌ أخرى تضع أيديها على صدورها تعبيرًا عن التعظيم. بعض الناس يعبّرون عن احترامهم للآخرين من خلال ألفاظٍ خاصّة. أمّا نحن المسلمين فنلقي «السلام» في ما بيننا بناءً على الإرشـادات الأخلاقيّة في القرآن والروايات وفي سيرة النبيّ وأهل البيت عليهم السلام.

كلمة «السلام» تعني السلامة والأمـن. وبناءً عليه، فلعلّ أحد معاني إلقاء السلام هو أنّ المسلِّم يريد للطرف المقابل السلامة والأمن، وبتسليمه عليه يُطمئِنه بأنّ أمنه غير مهدّد من جهته. هذا





الوجه يصدق بشكلٍ خاصّ عند غير المؤمنين الذين يسلّم بعضهم على بعض.

أمّا سلام المؤمن فهو نوعٍ من الدعاء منه بالسلامة، فعندما يسلّم المؤمن يطلب من الله السلامة والأمن والرحمة للطرف المقابل. وأمّا الاختلاف بين هذا الدعاء وسائر الأدعية فهو أنّ السلام دعاءٌ مقرونٌ بأداء الاحترام، فهو يُعدّ نوعًا من «التحيّة».

التحيّة من الجذر «حـيّ»، وهو يعني الحياة والبقاء على قيد الحياة. عندما يسلّم مؤمنٍ على مؤمنٍ آخر، فهو بالحقيقة يتمنّى له طول العمر ويطلب من الله له بقاء الحياة. ومتى ما صار هذا السلام عميقًا ومفعمًا، فإنّه يُسمّى «صلاةً». في اللغة الفارسيّة، نترجم كلًّا من «السلام» و«التحيّة» و«الصلاة» بمعنى واحد هو كلمة «درود»، ولكنّ «الصلاة» لها معنى أعلى وأرقى من ذلك بمرّات.

في موضعٍ آخر يقول الله تعالى إنّه يصلّي على المؤمنين، أي أولئك المؤمنين الجديرين باحترام الله، فينزل الله عليهم رحمةً مقرونةً بالاحترام.

يقول الله تعالى في القرآن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ﴾. أي إنّ الله وملائكته كلاهما يصلّيان على النبيّ الأكرم (صلّى الله عليه وآله). ثمّ يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾. المعنى الأوّلي لهذه الآية الكريمة هو لزوم أداء الاحترام للنبيّ الأكرمﷺ بشكلٍ دائم، وأنّ على المؤمنين أن يؤدّوا الاحترام دائمًا لساحته المقدّسةﷺ. وبما أنّ احترام المؤمنين يكون مقرونًا



دائمًا بطلب الرحمة من الله تعالى، فهنا يريد الله من المؤمنين أن يطلبوا رحمة كبرى خاصّة بالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم.

وهنا يُطرَح سؤالان اثنان: السؤال الأوّل هو أنّ طلب الرحمة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بأيّ معنًى هو وما هو مقامه؟ والسؤال الثاني هو أنّ طلب الرحمة له صلى الله عليه وآله وسلم ما هي المنفعة التي سيعود بها علينا؟

أمّا توضيح السؤال الأوّل فهو أنّ مقتضى الدعاء وطلب الرحمة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هو نزول الرحمة الإلهيّة عليه، وهذا يعني أنّه فاقد للرحمة وبدعائنا يصير واجدًا لها؛ فهل هذا الأمر ممكنٌ حقيقةً؟! هل نحن من يطلب الرحمة لموجودٍ معظّمٍ هو نبيّ الله المكرّم؟ أليس في طلبٍ كهذا نوعٌ من مخالفة الأدب؟

طبعًا فالجواب البسيط عن هذه الشبهة هو أنّ هذا الطلب ليس فيه إشكالٌ عقلي؛ ذلك أنّ خزانة الرحمة الإلهيّة لا حدّ ولا نهاية لها، وعندما يدعو المؤمنون له صلى الله عليه وآله وسلم، فالله تعالى بدوره يستجيب ويزيد من ألطافه على نبيّه.

ولكنّ السؤال الأهـمّ والأدقّ هو أنّنا، نحن المسلمين عامّة، والشيعة بشكلٍ خـاصّ؛ نعتقد ـ كما في مضامين بعض الروايات والزيارات والأدعية ـ بأنّ الوجود المقدّس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة الأطهار عليهم السلام والسيّدة فاطمة الزهراء عليها السلام، هم واسطة الفيوضات الإلهيّة على جميع المخلوقات. هذه المضامين نجدها ظاهرةً بشكلٍ خاصّ في الزيارة الجامعة الكبيرة وفي زيارة آل يس أكثر من سائر الأدعية والزيارات. وعلى سبيل المثال، فقد جاء في بعض المصادر الروائيّة والأدعية والزيارات أن نقول في خطابنا لأهل البيت عليهم السلام: «فَمَا



شَيءٌ مِنَّا إلاَّ وَأَنْتُمْ لَهُ السَّبَبُ وَإلَيهِ السَّبِيل»، كما نجد كثيرًا من هذه المضامين في الزيارة الجامعة الكبيرة؛ هذه الزيارة الراقية التي نقول فيها:

«وَبِكُمْ فَتَحَ اللهُ وَبِكُمْ يخْتِمُ اللهُ وَبِكُمْ ينَزِّلُ الْغَيثَ وَبِكُمْ يمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إلا بِإِذْنِهِ وَبِكُمْ يُنَفِّسُ الْهَمَّ وَيكْشِفُ الضُّر».

هذه العبارات في الحقيقة قد قام الرسول الأكرمﷺ وأهل البيتعليهم السلام فيها بالكشف عن زاويةٍ بسيطة جدًّا من مقامهم المقدّس أمام الآخرين، حتى يستطيع هؤلاء، من خلال الاستعانة بهمعليهم السلام، أن يميّزوا طريق الهدى من الضلال وأن يتوسّلوا بهم من أجل نجاتهم[١].

---

(١) في هذا المجال رواياتٌ كثيرةٌ وردت عن الوجود المقدّس للرسول الأكرمﷺ وأهل البيتعليهم السلام، كما نُقل عنهم في بعض الزيارات والأدعية مضامين دقيقةٌ جدًّا كذلك. ومن ذلك مثلًا ما ينقله مولانا الإمام جعفر الصادقعليه السلام عن والده المعظّم الإمام الباقرعليه السلام الذي ينقل بدوره عن أبيه المكرّم الإمام عليّ بن الحسينعليه السلام ما جاء في الرواية التالية: عَنِ الأَعْمَشِ عَنِ الصَّادِقِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَلِيِّ بن الْحُسَيْنِعليه السلام قَالَ: «نَحْنُ أئمة الْمُسْلِمِينَ وَحُجَجُ اللَّهِ عَلَى الْعَالَمِينَ وَسَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ وَقَادَةُ الْغُرِّ الْمُحَجَّلِينَ وَمَوَالِي الْمُؤْمِنِينَ، وَنَحْنُ أَمَانُ أَهْلِ الأَرْضِ كما أنّ النُّجُومَ أَمَانٌ لِأَهْلِ السَّمَاءِ، وَنَحْنُ الَّذِينَ بِنَا يُمْسِكُ اللَّهُ السَّماءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَبِنَا يُمْسِكُ الأَرْضَ أَنْ تَمِيدَ بِأَهْلِهَا، وَبِنَا يُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَبِنَا يَنْشُرُ الرَّحْمَةَ وَيُخْرِجُ بَرَكَاتِ الأَرْضِ، وَلَوْلَا مَا فِى الأَرْضِ مِنَّا لَسَاخَتْ بِأَهْلِهَا، ثُمَّ قَالَعليه السلام: وَلَمْ تَخْلُ الأَرْضُ مُنْذُ خَلَقَ اللَّهُ آدم مِنْ حُجَّةٍ لِلَّهِ فِيهَا ظَاهِرٍ مَشْهُورٍ أَوْ غَائِبٍ مَسْتُورٍ، وَلَا تَخْلُو إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ مِنْ حُجَّةِ اللَّهِ فِيهَا وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يُعْبَدِ اللَّهُ. قَالَ سُلَيْمَانُ: فَقُلْتُ لِلصَّادِقِعليه السلام: فَكَيْفَ يَنْتَفِعُ النَّاسُ بِالْحُجَّةِ الْغَائِبِ الْمَسْتُورِ؟، قَالَعليه السلام: كَمَا يَنْتَفِعُونَ بِالشَّمْسِ إِذَا سَتَرَهَا السَّحاب». (أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمي الصدوق، **الأمالي**، ص ١٦٨؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٢٣، ص ٥).

وكذلك في الزيارة الجامعة الكبيرة يذكر الإمام علي بن محمّد الهاديعليه السلام حول كونهم واسطة في الفيض حتى قبل الخلقة، حيث يقول: «خَلَقَكُمُ اللَّهُ أَنْوَارًا فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقِينَ حَتَّى مَنَّ عَلَيْنَا بِكُمْ فَجَعَلَكُمْ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ، وَجَعَلَ صَلَوَاتِنَا عَلَيْكُمْ وَمَا خَصَّنَا بِهِ مِنْ وَلَايَتِكُمْ طِيبًا لِخَلْقِنَا وَطَهَارَةً لِأَنْفُسِنَا وَتَزْكِيَةً لَنَا وَكَفَّارَةً لِذُنُوبِنَا» (أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين



إنّ نتيجة الالتفات إلى هذه العبارات هو أن ندرك حقيقة أنّ هؤلاء العظماء عليهم السلام هم واسطة الفيوضات الربّانيّة على غيرهم. إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك؛ بل إنّ أساس خلق الآخرين ورزقهم متوقّفٌ ومتفرّعٌ عن وجودهم المقدّس، أفلا يكون دعاؤنا لهم عبثًا وبلا معنى؟ وإذا كان دعاؤنا وطلبنا سببًا لالتفات الله إليهم فيشمل حالهم برحمته، ألا نكون بذلك قد صرنا واسطة فيضٍ عليهم[1]؟

الإنسان الذي يغضّ النظر عن تعاليم الأنبياء عليهم السلام قد يعتبر نفسه ظاهرة مادّيّة تتكوّن بانعقاد النطفة وتنمو على هيئة جنين في رحم الأم، ثمّ يولد بعد ذلك. يَحيا لعدّة أيّام في عالم الدنيا ويعيش فيه، وبعد انقضاء السنوات واجتياز مرحلة الضعف والعجز يموت ويفنى. كما أنّ الإنسان يعتبر أنّ رؤيته هذه للإنسانيّة، أي الشروع من نطفة والختم بالموت؛ تشمل جميع أبناء نوعه، بما فيهم الأنبياء

بن بابويه القمي الصدوق، **من لا يحضره الفقيه**، ج ٢، ص ٦٠٩؛ محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٩٩، ص ١٢٢).

(١) وفقًا لتعريف أهل البيت عليهم السلام لشيعتهم، فقد ذكروا عليهم السلام أنّ شيعتهم هم أهل التسليم في مقابل الله تعالى ونبيّه صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. على هذا الأساس، فنحن أيضًا مسلّمون أمام حكم القرآن الذي أمر بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وآله. وكذلك فقد أمرنا القرآن بأن نرجع في كلّ ما لا نفهمه ولا نقدر على تمييزه؛ نرجع فيه إلى أهله الراسخين في العلوم الإلهيّة: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (سورة **آل عمران**، الآية ٧). وقد ذكر الله تعالى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام هم واسطة في فيضه، وكذلك أمرنا بالصلوات عليهم. من كان مسلّمًا للأمر الإلهي فهو يسلّم لهذا الحكم أيضًا، ومن الواضح أنّ جميع الشيعة أو الذين يطلقون على أنفسهم اسم «الشيعة» ليسوا كذلك، إذا ليس جميعهم مسلّمًا في كلّ شيء، وما أكثر العلماء والمفكّرين والمتنوّرين أو الشبّان محدودي الاطّلاع الذين يبحثون عن جوابٍ مقنعٍ لمثل هذه الأسئلة وليس لديهم القدرة على إدراك تلك الأجوبة.



والأولياء، ويعتقد بأنّ الإنسان لا وجود له بعد الموت إطلاقًا. لاحقًا اكتشف البشر أنّ ثمّة حقيقةً أخرى في وجودهم هي غير البدن المادّي والفاني؛ حقيقة أخرى باسم «الروح»، ولعلّ المرّة الأولى لهذا الاكتشاف كانت عبر الأنبياء عليهم السلام الذين أفهموا البشر هذه الحقيقة، أو لعلّهم وصلوا إلى ذلك بأنفسهم نتيجةً للتجربة أو بالفراسة. وبعد آلاف السنوات من الأبحاث العلميّة الدقيقة والدراسات المعمّقة، لم يكتشف أيّ أحدٍ حتى الآن حقيقة الروح، ولكن على أيّ حال، فقد ثبت أصل وجود الروح بصفتها موجودًا غير البدن المادّي وله خصائص غير ماديّة[1]. هذه الحقيقة تصبح مسلّمةً أكثر ومقبولةً بشكلٍ أكبر

---

(١) حول وجود أو عدم وجود «الروح» ما يزال ثمّة علامة استفهامٍ كبيرة وأسئلة عميقة وجدّية تشغل أذهان كثيرٍ من المفكّرين في العالم، حيث يسأل هؤلاء أنفسهم: هل حقيقةً يوجد في الخارج شيءٌ باسم «الروح» هو غير بدننا المادّي؟ لعلّ منكري وجود الروح أقلّ من الذين يثبتونه. من جهتنا، أي نحن الذين نقول بوجود الروح على أيّ حال، فلا يزال لدينا أسئلة كثيرة حول الروح أيضًا، ولا تزال مجهولاتنا كثيرة حول زمان وكيفية نشأة الروح، كيفيّة اتّصال الروح بالبدن. حتّى الآن لم يتّضح بشكل قطعي إن كانت الروح قد خُلقت قبل البدن أم لا؟ وإذا كان نعم، فمتى كان ذلك؟ هل خلقة الروح مع خلقة البدن، أم بعد أربعة أشهر من تكوّن النطفة يخلق الله الروح فيها؟ إذا كان كذلك، فهذه الخلقة بأيّ كيفيّة هي؟ جميع الحكماء الإلهيّون متّفقون على أنّ الروح لا تفنى مع موت البدن، ولكنّ السؤال هو: أين تأوي هذه الروح بعد موت البدن؟ إذا كانت الروح تُلحق بالبدن يوم القيامة، فكيف يكون هذا الإلحاق؟ كيف يكون البدن في البرزخ والبدن في يوم القيامة؟ على أيّ حال، فنحن نقبل، بمعونة الوحي ومعارف الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام والبراهين العقليّة؛ أنّ لوجود الإنسان مرحلتين اثنتين، كما نؤمن بأنّ للإنسان عالمين اثنين، ولكن ليس واضحًا بالدقّة ما معنى العالَم، وما حقيقته؟ يقال إنّ أحد تلك العوالم هو البرزخ، ولكنّ حقيقة البرزخ ليست واضحةً بالنسبة إلينا، فكيف يكون اتّصال الروح بالبدن في عالم البرزخ؟ نعلم أنّ الإنسان في عالم البرزخ حيّ ويبقى على قيد الحياة، ولكنّ كيفية هذه الحياة البرزخيّة، وهل يحتوي البرزخ أم لا يحتوي على الحزن والفرح، واللذّة والألم، والثواب والعذاب؛ فذلك كلّه ليس واضحًا بالنسبة إلينا. نعم؛ أصول معتقداتنا حول هذه الأمور واضحة، ولكنّ فروعها ما تزال مبهمة. وعلى الرغم من أنّ كثيرًا من حقائق العوالم الأخرى قد أشير إليها في آيات القرآن وفي الروايات؛ ولكنّ إدراكها يبقى



عندما نعلم أنّ الأنبياء الإلهيّين عليهم السلام قد اعتمدوا على هذه المسألة بشكلٍ كبير، وأنّ طرح مسألة «المعاد» التي تعتبر إلى جانب مسألة «التوحيد» شعارًا لدعوتهم؛ تتفرّع بالأساس من وجود الروح.

إنّ ثنائيّة نشأة البشر، أي امتلاكهم للجسم والروح؛ لا يختصّ بعدّة خاصّةٍ منهم؛ بل إنّ هذا الأمر يشمل جميع بني آدم، بما فيهم الأنبياء والأولياء الإلهيّون أيضًا؛ أي إنّ هؤلاء العظماء هم أيضًا مثلنا يولدون ويموتون. ولكن مع ذلك، ثمّة مسائل أخرى قد ذُكرت في روايات المعصومين عليهم السلام حول تلك الفئة الخاصّة والمختارة، وبخاصّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت عليهم السلام. في هذه الروايات، نُسب إلى هؤلاء أمورٌ أخرى فضلًا عن البدن والروح اللذين يتعلّقان بسائر البشر أيضًا، وفضلًا عن بعض المميّزات التي يشتركون فيها معهم؛ فأبدانهم مثل أبدان سائر البشر لها نموّ وتحوّل، من الطفولة إلى سنيّ الرشد ثمّ الشيخوخة، وتبعًا لتحوّلات البدن، فأرواحهم التي تتعلّق بالبدن كان لها أيضًا عين تلك التحوّلات إجمالًا؛ فالروح من حيث إنّها متعلّقة بالبدن، لها تحوّلٌ وتكاملٌ في ظلّ هذا التعلّق. وعلى سبيل المثال، فالروح المقدّسة والمطهّرة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن لها مرتبة واحدة ثابتة من حين

ثقيلًا علينا بسبب أُنسنا بالدنيا وبالحياة الطبيعيّة. ومن ذلك مثلًا وجود المسائل المرتبطة بالقبر، وبخاصّة المسائل المرتبطة بالليلة الأولى في القبر، بعذاب الليلة الأولى في القبر، وبسؤال الملائكة للإنسان، وبعذاب البرزخ... أو ما يقابل ذلك من الرَوح والريحان، النعم الإلهيّة لأولياء الله في عالم البرزخ...؛ ذلك كلّه واضحٌ بالنسبة إلينا، ولكنّ تفاصيله وكمّه وكيفه تُعدّ من المجهولات عندنا. نحن نؤمن، وعلى أساس تعاليم القرآن نعتقد؛ بأنّ الروح المدبّرة للبدن يفصلها الله تعالى عن البدن في الموعد المقرّر ويتوفّاها: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ (سورة **الزمر**، الآية ٤٢). ولكن ما معنى هذا التوفّي؟ كيف يكون؟ وإلى أين تذهب الروح بعده؟ كيف تكون حياتها؟ هذه جميعها معارف أبعد من حدود العقل البشري العادي...





الولادة إلى الزمان الذي بُعث فيه بمقام النبوّة الفاخر، ثمّ إلى الزمان الذي التحق فيه إلى جوار رحمة الله.

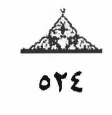
ولكن مع ذلك كلّه، فبعض الروايات قد نسب إلى هؤلاء العظماء أمورًا أخرى أيضًا، علاوةً على ما قد ذُكر، كالتي تقول: «خَلَقَكُمُ اللَّهُ أَنْـوَارًا»، أو ما ورد في تعبيرٍ آخر حيث قال صلى الله عليه وآله: «أَوَّلُ شَيءٍ خَلَقَ اللَّهُ... نُورُ نَبِيّك»[1]. وكذلك عندما خُلق النبيّ آدم عليه السلام، شاهد على العرش أو في ساق العرش أنوار أهل البيت عليهم السلام وأسماءهم. هذه الوجودات المقدّسة والنورانيّة حينها لم تكن بعد قد جُعلت في العالم الترابي في هذه الدنيا، ولم يكن لهم أبدانٌ حتى تتعلّق بها الأرواح.

نعم؛ بعضهم يعتقد أنّ تلك الأنوار هي عينها أرواحهم المقدّسة، ولكنّ الخصوصيّات والمقامات التي ذُكرت لبُعدهم «النورانيّ» تختلف عن خصوصيّات الروح التي تتعلّق بالبدن. فمثلًا الروايات التي تذكر خلقة الأنوار المقدّسة للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمّة المعصومين عليهم السلام، تذكر أنّ الله تعالى قد خلق نور النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله والإمام عليّ عليه السلام من نور عظمته. هذا النوران المقدّسان كانا متّحدين في بداية الخلقة، ولاحقًا حصل بينهما الانشقاق، وظلّت هذه الانشعابات والانشقاقات مستمرّة حتى زمان ظهور البدن والروح المتعلّقة بالبدن[2]. بناءً عليه،

---

(١) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ١٥، ص ٢٤.

(٢) عَنِ الْحَسَنِ بن حَمَّادٍ الْبَصْرِيِّ عَنْ أَبِيهِ عَنْ آبَائِهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله: «كُنتُ أَنَا وَعَلِيٌّ نُورًا بَينَ يَدي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ قَبلَ أَن يَخلُقَ آدَمَ بِأَربَعَةِ آلافِ عَام، فَلَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ سَلَكَ ذَلكَ النُّور في صُلبِه، فَلَمْ يَزَل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَنقُلُهُ مِن صُلبٍ إلى صُلبٍ حَتى أَقرَّهُ فِي صُلْبِ عَبدِ المُطَّلب، ثُمَّ أَخرَجَهُ مِنْ صُلبِ عَبدِ المُطَّلبِ فَقَسَمَهُ قِسمَين: فَصَيَّرَ قِسمِي فِي صُلبِ عَبدِ الله، وَقِسمَ عَلِيٍّ فِي صُلبِ أَبِي طالب، فَعَلِيٌّ مِنّي وَأَنَا مِن عَلِيّ: لَحْمُهُ مِنْ لَحْمِي وَدَمُهُ مِنْ دَمِي فَمَنْ أَحَبَّنِي فَبِحُبِّي أَحَبَّهُ وَمَنْ



فكون أنوار هؤلاء العظماء وأرواحهم أمرًا واحدًا؛ هو أمرٌ لا يتطابق مع ظواهر روايات المعصومين عليهم السلام وكلامهم أيضًا. ومع ملاحظة جميع الخصائص والامتيازات التي يمكن تعدادها للروح بالنسبة إلى البدن، فإنّ للروح حقيقةً غير نورانيّتهم عليهم السلام.

مع الالتفات إلى الشواهد والقرائن الموجودة، فلا مجال للشكّ والترديد إجمالًا في وجودٍ بُعدٍ خاصّ وحصريّ لهؤلاء العظماء. إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فمن المتيقّن أنّ العوارض المذكورة لبدن الإنسان وروحه؛ من قبيل الولادة، والنموّ والتحوّل، والنوم واليقظة، والموت والحياة؛ لن تكون شاملة لهذا البُعد عندهم عليهم السلام. ويبقى أنّ حقيقة هذه النورانيّة ليست واضحةً بالنسبة إلينا، كما أنّ فهم هذه الحقائق أثقل حتى من فهم الروح، وهو بعيدٌ جدًّا عن مستوى إدراكنا، ففهم هذه المرتبة من نشأة الوجود خاصٌّ بالكُمّل وأولياء الله؛ فهنيئًا لهم!

بناءً عليه، فإنّ كون الأنبياء والأئمّة عليهم السلام واسطةً في الفيض لا يرتبط بأبدانهم المباركة؛ فأبدانهم المباركة مؤقّتة، ووجودها محدود ببرهة قصيرة من الزمن. وكذلك إذا اعتبرنا أنّ الروح موجودٌ قد وُجد مع نشأة البدن وهو يتعلّق بالبدن وعمله تدبير أمور البدن، وأنّه لم يكن موجودًا قبل خلقة البدن؛ فلا يمكن بالتالي أن يُنسب إلى الروح كونها «واسطةً في الفيض»؛ ذلك أنّ هؤلاء الأنوار المقدّسة عليهم السلام كانوا واسطة فيض لوجود موجودات مثل الملائكة، والجنّة والنار، واللوح

أَبْغَضَهُ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَه ». (محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٣٥، ص ٣٣).



والقلم[١]، كما أنّ ملائكة الله المقرّبين كانوا تلامذةً لهم ـ نوعًا ما ـ في بعض المقامات[٢]، ووجود هذه الموجودات الشريفة كان قبل وجود الإنسان بكثير، وبالتالي فلا بدّ من أن يكون لمقام «وساطة الفيض الإلهي» وجودٌ سابقٌ على هذه الموجودات.

وبناءً عليه، فمقام الوساطة في الفيوضات الربانيّة، إمّا يرتبط بمقام روحانيّة هؤلاء العظماء، طبعًا بناءً على القول الذي يعتبر أنّ للروح وجودًا غير البدن وأنّ خلقتها أيضًا كانت قبل البدن، وأنّ الروح كذلك لها وحدة أو اتّحادٌ مع مقام نورانيّتهم. وإمّا أن يكون مقام الوساطة في الفيض مرتبطًا بمقام نورانيّتهمعليهم السلام.

على أيّ حال، فسواء أخذنا الروح بهذا المعنى الاتّحادي أو الوحدوي أم لم نأخذه، فما هو مسلّمٌ في هذا المجال هو ارتباط مقام وساطة أهل البيتعليهم السلام التكوينيّة بمقام نورانيّتهم؛ إذ إنّ ذلك المقام في مرتبة هي بذاتها منشأ وجود ونزول كثيرٍ من موجودات العوالم الأخرى، وكلّ شيءٍ ليس إلّا شعاعًا من ذلك النور، وبالتالي فلا شيء من هذا العالم الدنيوي الحقير ودون المادي يرجع إلى ذلك العالم العُلوي.

إذا كان الأمر كذلك، وهو كذلك، فنحن الذين لا نشكّل إلّا شعاعًا خافتًا من تلك الأنوار المقدّسة؛ كيف يمكننا أن ندّعي أنّنا نزيد على نور الوجود المقدّس للنبيّ الأكرمصلى الله عليه وآله وسلم من خلال دعائنا له وصلواتنا عليه؟ هذا يعني أنّنا صرنا واسطة لإضافة النور إليهصلى الله عليه وآله وسلم، ونتيجة هذه

---

(١) محمّد باقر المجلسي، **بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، ج ٣٦، ص ٧٣.

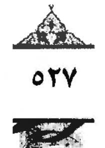
(٢) «رُوحُ الْقُدُسِ فِي جِنَانِ الصَّاقُورَةِ ذَاقَ مِنْ حَدَائِقِنَا الْبَاكُورَة...» المصدر السابق، ج ٢٦، ص ٢٦٤.



المسألة ستكون «الدور الباطل»؛ إذ إنّ هؤلاء الأنوار المقدّسة هم واسطة الفيوضات الربّانيّة علينا، وفي الوقت نفسه فنحن نزيد على نورانيّتهم من خلال صلواتنا عليهم. إذًا فلا بدّ من اكتشاف حلّ لهذه المشكلة العلميّة.

ما ذُكر حول كونهم «واسطة الفيض» إنّما يرتبط بمعناه التكويني. على هذا الأساس، فالله تعالى قد جعل الأنوار المقدّسة للمعصومين عليهم السلام منشأ الفيوضات الإلهيّة على سائر الموجودات تكوينًا؛ أي بحسب الاصطلاح الفلسفي: هؤلاء العظماء هم «فاعل ما به الوجود»؛ بحيث لولاهم لبقيت سائر الموجودات من الأساس محرومةً من الرحمة الإلهيّة غير المتناهية.

كما أنّ لكونهم «واسطة الفيض» معنًى آخر متصورًا أيضًا. في هذا المعنى لا محلّ لذلك التأثير والتدخّل التكوينيّ، فهذه التأثيرات والتدخّلات ليست إلّا بمقدار علّة ناقصةٍ ومعدّة، وهي اعتباريّة نوعًا ما، ومنها مثلًا تأثير دعاء إنسانٍ مؤمن في ارتفاع العذاب والبلاء، أو تأثير حضور عبدٍ متّقٍ يخشى الله في وصول الرحمة الإلهيّة إلى سائر العباد، أو تأثير دعاء مذنبٍ تائبٍ في نزول المطر، وحالات أخرى من هذا القبيل، وهي كثيرةٌ نشاهدها في حياتنا أيضًا بشكلٍ أو بآخر؛ هذه الحالات جميعها تشكّل نوعًا من الوساطة في جريان الرحمة الإلهيّة أو في إطفاء الغضب الإلهي، ولكنّها ليست بمعنى واسطة «ما به الوجود» الحقيقيّة والتكوينيّة، بل هي مجرّد عوامل مؤثّرة مثل العلّة الإعداديّة والعلّة الناقصة.



إذا تصوّرنا لمقام «الواسطة في الفيض» مثل هذا المعنى وهذه المرتبة، فيمكن أن يقال إنّ الروح الإنسانيّة أيضًا بمقدورها، من خلال اكتساب بعض الاستعدادات والألطاف الإلهيّة، أن تكون واسطة في بعض الأمـور وببركتها ينزل الله تعالى عناياته على الآخرين. ومن ذلك مثلًا أنّ اله تعالى، على هامش الرحمة التي ينزلها على أهل البيت عليهم السلام، فإنّه يشمل الآخرين أيضًا برحمته بسبب ارتباطهم واتّصالهم معهم ولأنّ في قلوبهم شعاعًا من محبّتهم ونورهم عليهم السلام. وعلى أساس المضامين الروائيّة، فإنّ شعاعًا وانعكاسًا من النور الذي يضيئه الله تعالى في القلب المقدّس لحضرة وليّ العصر عجّل الله تعالى فرجه الشريف، يضيء في قلوب المؤمنين المخلصين أيضًا[1]. طبعًا فذلك النور إنّما يُضاء بالأصل في قلب الإمام المقدّس فقط، ولكنّ انعكاسًا من ذلك النور، كانعكاس النور من المرآة، ينزل في قلب الذين لديهم ارتباط وسنخيّةٌ معه عليه السلام. ولهذا السبب يقول السيّد ابن طاووس رحمه الله: «لقد أدركت ليلة القدر، وحظيت بنصيبٍ من العنايات التي ينالها وليّ الله الأعظم عجّل الله تعالى فرجه الشريف في هذه الليلة». وكذلك كلّ شخصٍ آخر أمكنه أن يوصل نفسه إلى مقام هذا السيّد الجليل فسوف يتلقّى مثل هذه الموهبة.

وبناءً عليه، فوساطة الفيض الإلهي ليست منحصرة بأهل البيت عليهم السلام؛ بل كلّ عبدٍ يمكنه أن يوجد هذه القدرة الاستيعابيّة وهذا الاستعداد في نفسه؛ فالله تعالى سيمنحه هو أيضًا مثل هذا المقام الرفيع. ليسوا قلّةً الأولياء العظام الذين دفع الله، بواسطة وجودهم

---

(١) راجع: أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، **الكافي**، ج ١، ص ١٩٤، باب «أنّ الأئمّة عليهم السلام نور الله عزّ وجلّ: لَنُورُ الْإِمَامِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ أَنْوَرُ مِنَ الشَّمْسِ الْمُضِيئَةِ بِالنَّهَارِ، وَهُمْ وَاللَّهِ يُنَوِّرُونَ قُلُوبَ الْمُؤْمِنِينَ».



العزيز، كثيرًا من البلايا عن الناس وأنزل عليهم رحماته أيضًا. وعلى سبيل المثال، فوجود هذا المرقد الشريف للسيّدة المعصومة عليها السلام كان قد منع عن مدينة قم المقدّسة كثيرًا من البلايا التي من جملتها الزلازل. ولا عجب في هذا الأمر المهمّ والفائق؛ إذ إنّ مقامها الرفيع والعظيم عند الله تعالى له قيمته البالغة بحيث إنّ أمطار العنايات والبركات الإلهيّة قد نزلت على هذه المدينة وهؤلاء الناس قبل الآن، وستبقى تنزل، ببركة وجود هذه السيّدة الجليلة صاحبة الكرامة.

بناءً عليه، فوساطة الفيض بهذا المعنى الاعتباري يصدق أيضًا على الأرواح. وفي المقابل، فوساطة الفيض التي هي بمعنى العلّة الإيجاديّة، والتي بناءً على وجودها خُلقت جميع الأشياء من شعاعها، فهي مخصوصةٌ بالمقام النورانيّ لأهل البيت عليهم السلام. نحن قاصرون عن درك هذا المقام، ولا نعلم سوى أنّ المقام والمرتبة هو مقام النورانيّة، مثلما قد وصف الله تعالى نفسه بالنور: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فالله تعالى بذاته نور عالم الوجود، ولكنّه عندما يقول: ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ...﴾، فمقصوده من مثال النور الإلهي هو القرآن الكريم والوجود المقدّس للنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومين عليهم السلام. ولهذا السبب قال: «خَلَقَكُمُ اللَّهُ أَنْوَارا». نعلم إجمالًا أنّ النور الإلهيّ المقدّس يختلف عن هذه الأنوار المقدّسة مثل اختلاف نور الخالق ونور المخلوق، أمّا أكثر من هذا فلا يمكننا أن نفهم أيّ وجودٍ عند كلٍّ منهما وما هي الاختلافات بينهما؟ طبعًا فإنّنا نشكر الله على أنّ هؤلاء العظماء قد علّمونا هذا المقدار، ولعلّ قدرتنا لا تزيد على هذا الحدّ حتى يتفضّلوا علينا بالمعارف العالية الموجودة وراء ظواهر هذا العالم.



المصادر والمراجع





القرآن كريم.

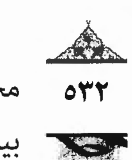
نهج البلاغة، مجموعه خطب، كتب وحكم الإمـام أمير المؤمنين عليه السلام، جمعها أبـو الحسن محمّد بن حسين الموسوى (السيّد الرضيّ)، ترجمه وشرح علي نقي فيض الإسلام، انتشارات فقيه، تهران، ١٣٦٧.

١. عليّ بن الحسين عليه السلام، **الصحيفة السجّاديّة**، ترجمة وشرح العلامة الميرزا أبو الحسن الشعراني، «كتاب فروشى اسلاميه»، طهران، [لا تا].

٢. ________، ترجمة وشرح السيّد علي نقي فيض الإسلام، نشر مؤلّف، طهران، ١٣٧٥ق.

٣. منسوب إلى الإمام الصادق عليه السلام، **مصباح الشريعة**، الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٠ق.

٤. الآلوسي البغدادي، أبو الفضل شهاب الدين محمود، **تفسير الآلوسي**، «جهان»، طهران، [لاتا].



٥. التميمي الآمـدي، عبد الواحد، **غرر الحكم ودرر الكلم؛** مجموعة من كلمات وحكم الإمام عليّ عليه السلام، الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٧ق.

٦. ابن أبي الحديد، عزّ الدين، **شرح نهج البلاغة**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٨٥ق.

٧. ابن بابويه القمي (الصدوق)، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين، **الأمالي**، النجف، ١٣٨٩ق.

٨. ــــــــــــــ، **الخصال**، جماعة المدرّسين بقم المشرّفة، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، ١٣٦٢ق.

٩. ــــــــــــــ، **علل الشرايع**، المطبعة الحيدرية، النجف، ١٩٦٦م.

١٠. ــــــــــــــ، **من لا يحضره الفقيه**، دار الكتب الإسلامية، تهران، ١٣٩٠ق.

١١. ابن طاووس، أبو القاسم عليّ بن موسى بن جعفر، **إقبال الأعمال**، مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤١٤ق.

١٢. ــــــــــــــ، **كشف المحجّة لثمرة المهجة**، دفتر تبليغات اسلامي [مكتب الإعلام الإسلامي]، حوزة علميّة قم، قم، ١٣٧٥ش.

١٣. ــــــــــــــ، **مهج الدعوات**، دار الذخائر، قم، ١٤١١ق.

١٤. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمّد بن مكرم، **لسان العرب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٨ق.





١٥. الحرّ العاملي، محمّد بن الحسن، **وسائل الشيعة إلي تحصيل مسائل آل البيت**عليهم السلام لإحياء التراث، قم، ١٤١٢ق.

١٦. حقّي، إسماعيل بن مصطفى، **تفسير حقّي (روح البيان)**، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٤٠٤ق.

١٧. الديلمي، أبو محمد الحسن بن محمد، **إرشاد القلوب إلى الصواب**، ترجمة عباس طباطبايى، جماعة المدرّسين بقم المشرّفة، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، ١٣٧٢ هـ.ش.

١٨. ________، **أعلام الدين**، آل البيت عليهم السلام، قم، ١٤٠٨ق.

١٩. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمّد، **المفردات في غريب القرآن**، دار القلم، بيروت، ١٤١٦ق.

٢٠. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمان بن أبي بكر، **الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور**، آية الله المرعشي النجفي رحمه الله، قم، ١٤٠٤ق.

٢١. الشيعى السبزوارى، الحسن بن الحسين، **مصابيح القلوب**، تصحيح محمد سپهرى، نشر ميراث مكتوب، تهران، ١٣٧٤ هـ.ش.

٢٢. الطباطبائي، السيّد محمد حسين، **الميزان في تفسير القرآن**، جماعة المدرّسين بقم المشرّفة، مؤسّسة النشر الإسلامي، قم، ١٤٢٣ق.

٢٣. الطريحي، الشيخ فخر الدين، **مجمع البحرين**، الهلال، بيروت، ١٩٨٥م.





٢٤. الطوسي، محمّد بن جعفر، **مصباح المتهجّد**، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت، ١٤١١ق.

٢٥. العاملي، بهاء الدين (الشيخ البهائي)، **مفتاح الفلاح**، دار الأضواء، بيروت، ١٤٠٥ق.

٢٦. القمي، الشيخ عباس، **مفاتيح الجنان**، هجرت، قم، ١٣٧٤.

٢٧. القمي، عليّ بن إبراهيم، **تفسير القمّي**، دار الكتاب، قم، ١٤٠٤ق.

٢٨. الكليني الـرازي، أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق، **الكافي**، دار الكتب الإسلامية، طهران، ١٣٨٨ق.

٢٩. المجلسي، محمّد باقر، **بحار الأنـوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار**، مؤسّسة الوفاء، بيروت، ١٤٠٣ق.

٣٠. مطهّري، مرتضى، مجموعة المؤلّفات، ج ٢٦ (**التعرّف على القرآن**)، دار صدرا للنشر، طهران، ١٣٧٣.

٣١. النوري الطبرسي، الميرزا حسين بن محمّد تقي، **مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل**، مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، بيروت، ١٤٠٨ق.